

جيفري أرشير

JEFFREY ARCHER

من الأفضل كتمان السر

BEST KEPT SECRET

مصير عائلتين مرتبطتين إلى الأبد

الجزء الثالث



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

من الأفضل كتمان السر

BEST KEPT SECRET

مصير عائلتين مرتبطين إلى الأبد

الجزء الثالث

جيفري أرشير

JEFFREY ARCHER

ترجمة ربيع هندي

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

دقت بيغ بين أربع دقائق.

رغم أن اللورد المستشار كان منهكاً ومستنزف القوى مما حدث إلا أن كمية كافية من الأدرينالين كانت لا تزال تدور في جسده بما يضمن عدم قدرته على النوم. لقد أكد لسعادة اللوردات بأنه سيحكم في قضية بارينغتون ضد كليفتون المتصلة بأي من الشابين يجب أن يرث اللقب القديم والأراضي الشاسعة للعائلة.

مرة أخرى فكر في الحقائق لأنه كان يعتقد أن الحقائق، والحقائق فقط، ينبغي أن تقرر حكمه النهائي.

عندما بدأ فترته التمرينية قبل نحو أربعين عاماً، نصحه ممرئيه بإبعاد جميع العواطف أو الآراء أو الميول الشخصية عند إصدار حكم على زبون أو قضية ما، مشدداً على أن مهنة القانون ليست لضعاف القلوب أو الرومانسيين. لكنه، بعد الالتزام بهذه التعويذة لمدة أربعة عقود، كان مضطراً للاعتراف أنه لم يسبق أن صادف قضية بهذا القدر من التوازن. لكم كان يتمنى لو أن أف أي سميث لا يزال على قيد الحياة كي يتمكن من طلب نصيحته.

من جهة... كم كان يكره الكلمات النمطية. من جهة، وُلد هاري كليفتون قبل ثلاثة أسابيع من ولادة صديقه جيلز بارينغتون: حقيقة. ومن الجهة المقابلة، كان جيلز بارينغتون بلا أدنى شك الابن الشرعي

للسير هوغو بارينغتون وزوجته الشرعية، إليزابيث: حقيقة. مع ذلك لم يجعله هذا الأمر الابن البكر للسير هوغو، النقطة الجوهرية في الوصية.

ومن جهة ثانية، أنجبت ميسي تانكوك هاري في اليوم الثامن والعشرين من الشهر التاسع بعد اعترافها بممارسة الجنس مع السيد هوغو بارينغتون أثناء وجودهما في رحلة عمل في منتجع ويستون - سوبر - مير: حقيقة. ومن الجهة المقابلة، كانت ميسي تانكوك متزوجة من آرثر كليفتون عندما وُلد هاري، وشهادة الميلاد تذكر بوضوح أن آرثر هو والد الطفل: حقيقة.

ومن جهة ثالثة... عادت أفكار اللورد المستشار إلى ما حدث في القاعة بعد أن انقسم المجلس أخيراً وأدلى الأعضاء بأصواتهم فيما يتصل بمن ينبغي أن يرث اللقب وكل ما يتبع لهذا اللقب، جيلز بارينغتون أم هاري كليفتون. تذكر كلمات الرئيس ويب بالحرف عندما أعلن النتيجة للمجلس المكتظ.

«الموافقون على الجهة اليمنى، مائتان وثلاثة وسبعون صوتاً.
الرافضون على الجهة اليسرى، مائتان وثلاثة وسبعون صوتاً».

علا الضجيج من جهة المقاعد الحمراء. كان يدرك أن التصويت المتعادل ألقى على عاتقه المهمة التي لا يُحسد عليها والمتمثلة بتقرير من ينبغي أن يرث لقب عائلة بارينغتون، وشركة الشحن الشهيرة، بالإضافة إلى الممتلكات من أراضٍ ومقتنيات ثمينة. تمنى لو لم يكن يترتب على قراره الكثير في ما يتعلق بمستقبل دينك الشابين. هل كان ينبغي عليه التأثير بحقيقة أن جيلز بارينغتون كان يتمنى أن يرث اللقب وأن هاري كليفتون لم يكن يرغب فيه؟ لا، طبعاً، لأن ذلك كان سيمثل -

بحسب تعبير اللورد بريستون في كلمته المقنعة من مقاعد المعارضة -
سابقة سيئة حتى لو كان قراراً ملائماً.

ومن الجهة المقابلة، إذا جاء قراره النهائي لصالح هاري بالفعل...
غفا اللورد المستشار أخيراً ولم يستيقظ إلا على صوت نقر خفيف على
الباب في الساعة المتأخرة على غير العادة، الساعة السابعة. تأوه مغمض
العينين بينما كان يعد دقائق بيغ بين. لقد بقيت له ثلاث ساعات لتقديم
حكمه، ولم يكن قد اتخذ قراره بعد.

تأوه اللورد المستشار مجدداً بينما كان يضع قدميه على الأرض، ثم
لبس خفه ومشى نحو الحمام. حتى أثناء جلوسه في الحمام كان يفكر في
المشكلة.

من بين الحقائق أيضاً حقيقة أن هاري كليفتون وجيلز بارينغتون
كانا يعانيان من عمى الألوان، مثل السيد هوغو. ولكن، بما أن عمى
الألوان لا يمكن أن ينتقل إلا عبر الأم فهذا يعني أن الأمر كان مجرد
صدفة، وبناء عليه ينبغي إغفاله.

خرج من الحمام وجفف جسمه وارتدى رداءه المنزلي. ثم خرج من
غرفة النوم وسار عبر الممر المغطى بسجادة سميكة إلى أن وصل غرفة
مكتبه.

أخذ اللورد المستشار قلم حبر وكتب اسمي «بارينغتون»
و«كليفتون» على السطر العلوي من الصفحة، ثم شرع في كتابة
أفضليات وسلبيات حالة كل منهما. وعند انتهائه من ملء ثلاث صفحات
بخطه الأنيق، دقت ساعة بيغ بين ثماني دقائق. بيد أنه لم يتوصل إلى قرار
بعد.

وضع قلمه جانباً وذهب لبحث عن شيء يأكله.

جلس اللورد المستشار وحيداً يتناول فطوره بصمت. لقد تحاشى حتى مجرد النظر إلى صحف الصباح الموضوعة بعناية بالغة على الطرف الآخر من المائدة، أو تشغيل الراديو لأنه لم يكن يريد أن يتأثر حكمه بمعلق قليل الاطلاع على حيثيات القضية. كانت الصحف الكبرى تتحدث بأسلوب العارف عن مستقبل المبدأ الوراثي في حال جاء قرار اللورد المستشار لصالح هاري، في حين بدت الصحف الشعبية مهتمة فقط بما إذا كانت إيما ستتزوج الرجل الذي تحب أم لا.

مع عودته إلى الحمام من أجل تنظيف أسنانه كان ميزان القاضي على وضعه المتوازن.

بعد أن دقت بيغ بين تسع دقائق عاد اللورد المستشار إلى غرفة مكتبه وراجع ملاحظاته على أمل أن يميل الميزان أخيراً إلى أحد الجانبين، غير أنه ظل متوازناً تماماً. وكان سيراجع مذكراته مرة أخرى عندما ذكرته نقرة على الباب بأنه بالرغم مما يتمتع به من نفوذ، إلا أنه لم يكن قادراً على تأخير الزمن. تنهد بعمق ثم مزق الصفحات الثلاث من الدفتر ونهض واقفاً واستأنف القراءة أثناء خروجه من مكتبه متجهاً نحو الممر. عندما دخل غرفة النوم وجد خادمه إيست واقفاً عند الطرف السفلي من السرير منتظراً أداء الطقس الصباحي.

بدأ إيست بمساعدة سيده على خلع الرداء المنزلي الحريري قبل أن يساعده على ارتداء قميص أبيض كان دافئاً لأنه كوي حديثاً، ومن ثم ياقة منشة ومنديل معقود بعناية. وبينما كان اللورد يرتدي سروالاً قصيراً أسود ذكره إيست أن وزنه زاد بضعة كيلوغرامات منذ توليه هذا

المنصب. وبعد ذلك ساعده على ارتداء رداؤه الأسود والذهبي الطويل قبل أن يحول اهتمامه إلى رأس وقدمي سيده فوضع شعراً مستعاراً طويلاً على رأسه ومن ثم ألبسه حذاءً ذا إبزيمين. ولم يتحول اللورد المستشار من ممثل إيمائي يلعب دور امرأة متقدمة في السن نزقة الطبع في المسرح الإنكليزي إلى أعلى سلطة قضائية في البلد إلا بعد تعليق السلسلة الذهبية - التي علقها قبله تسعة وثلاثون لورداً مستشاراً - على كتفيه. ألقى نظرة واحدة إلى المرأة فأحس أنه مستعد للصعود إلى المسرح ولعب دوره في المسرحية المتكشفة فصولها، لكنه للأسف لم يكن حتى ذلك الحين يعرف سطور دوره.

كان توقيت دخول اللورد المستشار وخروجه من البرج الشمالي لقصر ويستمينستر سيثير إعجاب أي ضابط مسؤول عن الانضباط في الجيش. دُق الباب في الساعة 9: 47 قبل أن يدخل سكرتيره ديفيد بارثولوميو إلى الغرفة.

قال بنبرة وَجِلَّة: «صباح الخير سيدي اللورد».

فأجابه اللورد المستشار: «صباح الخير سيد بارثولوميو».

«أنا آسف لإضطراري لإبلاغك بأن اللورد هارفي توفي في الليلة الماضية في سيارة إسعاف كانت في طريقها إلى المستشفى».

كلاهما كانا يعلمان أن هذا ليس صحيحاً، ذلك أن اللورد هارفي - جد جيلز وإيما بارينغتون - انهار في المجلس قبل لحظات فقط من قرع جرس التقسيم. ولكن، كليهما كانا يقران بالعرف القديم وهو أنه إذا مات عضو من العموم أو اللوردات خلال انعقاد المجلس، فلا بد أن يُجرى تحقيق شامل حول ظروف الوفاة، ولتجنب هذه التمثيلية غير

المستحبة وغير الضرورية، اعتمدت عبارة «توفي في طريقه إلى المستشفى» لتغطية مثل هذا الاحتمال. يعود هذا العرف إلى زمن أوليفر كرومويل، عندما كان يُسَمَح للأعضاء بتقلد السيوف في المجلس وكان احتمال حدوث عنف جرمي احتمالاً واضحاً كلما حدثت حالة وفاة.

كان اللورد المستشار يكنّ مشاعر الحب والإعجاب لزميله اللورد هارفي وقد أحزنته وفاته كثيراً، وتمنى لو أن سكرتيه لم يُذكره بإحدى الحقائق التي كتبها بخط يده الأنيق أسفل اسم جيلز بارينغتون، وهي أن اللورد هارفي لم يستطع الإدلاء بصوته بعد انهياره ولو أنه فعل ذلك لصوت لصالح جيلز بارينغتون، ولسويت المسألة نهائياً، ولنام اللورد المستشار بعمق في تلك الليلة.

تحت اسم هارفي كليفتون كتب اللورد حقيقة أخرى، وهي أنه عندما قُدم الطلب الأصلي أمام اللوردات القانونيين قبل ستة أشهر، كانت نتيجة التصويت 4-3 لصالح أن يرث كليفتون اللقب، وبحسب تعبير الوصية، وكل ما يتبع لهذا اللقب.

دُق الباب مرة ثانية ودخل حامل ذيل رده، مرتدياً زياً آخر شبيهاً بزي جيلبرت وسوليفان (مؤلفا مسرحيات غنائية من أواخر القرن التاسع عشر)، للإشارة إلى أن المراسم القديمة كانت على وشك البدء.

«صباح الخير سيدي اللورد».

«صباح الخير سيد دانكان».

في اللحظة التي التقط فيها دانكان طرف رداء اللورد المستشار الأسود الطويل تقدم ديفيد بارثولوميو ودفع الباب المزدوج للقاعة

الرسمية ففتحه كي يتيح لسيدة الشروع في رحلته التي تستغرق سبع دقائق نحو قاعة مجلس اللوردات.

تنحى أعضاء وموظفون ومسؤولون أمنيون كانوا يقومون بأعمالهم اليومية إلى أحد الجانبين بسرعة عندما رأوا اللورد المستشار يقترب كيلا يعيقوا سيره نحو قاعة المجلس. وفي أثناء مروره بجانبهم كانوا ينحنون احتراماً، ليس له، وإنما للملك الذي كان يمثل. واصل المشي في الممر المفروش بالسجاد الأحمر بالسرعة نفسها التي اعتاد السير بها يومياً طوال السنوات الست السابقة، وذلك ليدخل إلى المجلس مع الدقة الأولى لبيع بين عند إعلانها الساعة العاشرة صباحاً.

لو كان يوماً عادياً، ولم يكن ذاك يوماً عادياً، لنهض بضعة أعضاء من المقاعد الحمراء وانحنوا بتهذيب للورد المستشار مع دخوله إلى قاعة المجلس وظلوا واقفين إلى أن ينتهي الأسقف من أداء صلاة الصباح قبل أن يصبح بالإمكان الشروع بعمل اليوم.

ولكن ليس في ذلك اليوم لأنه كان قادراً على سماع همهمات أصوات تحدث قبل مسافة طويلة من وصوله إلى القاعة. حتى اللورد المستشار دُهِش بالمنظر الذي رآه عند دخوله مجلس اللوردات. كانت المقاعد الحمراء مكتظة لدرجة أن بعض الأعضاء كانوا قد انتقلوا إلى الدرجات أمام العرش، في حين كان آخرون يقفون عند الحاجز، الذي لا يُسَمَح لغير الأعضاء بتجاوزه، لأنهم لم يتمكنوا من إيجاد مقاعد لهم. تذكر اللورد المستشار المناسبة الوحيدة الأخرى التي كان فيها البرلمان مكتظاً إلى هذه الدرجة، عندما أدلى جلالته بخطاب الملك الذي أبلغ فيه أعضاء كلا المجلسين بالتشريع الذي اقترحت حكومته إقراره خلال الجلسة التالية للبرلمان.

عند دخول اللورد المستشار إلى القاعة توقف اللوردات عن الكلام فوراً ونهضوا معاً وانحنوا أثناء جلوسه على مقعده.

جال المسؤول القانوني الأعلى في البلاد بناظره على مهل في أرجاء القاعة فقبل بأكثر من ألف عين نافذة الصبر إلى أن استقرت عيناه أخيراً على ثلاثة شبان كانوا يجلسون عند الطرف البعيد من القاعة، فوقه مباشرة، في شرفة الضيوف المميزين. كان جيلز بارينغتون وشقيقته إهما وهاري كليفتون متشحين بالسواد حداداً على جد محبوب، وفي حالة هاري، على معلمٍ مرشدٍ وصديقٍ عزيز. أحس بالشفقة عليهم لإدراكه بأن حكمه كان على وشك تغيير حيواتهم كلها، وأمل أن يكون ذلك التغيير للأفضل.

حين فتح الموقر أسقف بريستول - قال اللورد المستشار في نفسه، كم هذا مناسب - بيتر واتس كتاب صلواته، طأطأ اللوردات رؤوسهم ولم يرفعوها ثانيةً إلا عندما نطق الأسقف كلمات «باسم الأب والابن والروح القدس».

جلس المجتمعون على مقاعدهم وبقي اللورد المستشار الشخص الوحيد الواقف، وعندما استقروا في أماكنهم سندوا ظهورهم في انتظار سماع حكمه.

قال اللورد المستشار: «السادة اللوردات، لا يمكنني الادعاء أن الحكم الذي عهدتم به إليّ كان يسيراً. بل على العكس من ذلك، أعتز أنه كان من أصعب القرارات التي وَجَبَ عليّ اتخاذها في حياتي المهنية الطويلة في القضاء. لكن توماس مور هو الذي ذكرنا بأنكم حين تلبسون هذه الأردية فعليكم أن تكونوا مستعدين لاتخاذ قرارات نادراً ما تسر جميع

الناس. بالفعل أيها السادة اللوردات، ففي ثلاث مناسبات كهذه في الماضي، بعد أن قدم اللورد المستشار حكمه، قُطع رأسه في وقت لاحق من ذلك اليوم».

كسر الضحك الذي تلا كلماته التوتر السائد في القاعة، ولكن لفترة وجيزة فقط.

بعد توقف الضحك، واصل اللورد المستشار كلامه قائلاً: «ولكن، يبقى من واجبي أن أتذكر أنني مسؤول فقط أمام الله القدير. وبوضع هذا الأمر نصب العينين، أيها السادة اللوردات، في قضية بارينغتون ضد كليفتون، في ما يتصل بمن ينبغي أن يخلف السيد هوغو بارينغتون كوريثه الشرعي ويرث لقب العائلة والأراضي وكل ما يتبع هذا اللقب...».

نظر اللورد المستشار مرة أخرى إلى الشرفة وصمت لوهلة. استقرت عيناه على الشبان الأبرياء الثلاثة الذين كانوا ينظرون إليه بدورهم، وتمنى لو أنه كان يمتلك حكمة سليمان قبل أن يضيف قائلاً: «بعد دراسة كل الحقائق، أحكم لصالح جيلز بارينغتون».

على الفور ضجت القاعة بالهمهمة وغادر الصحفيون شرفة الصحافة لإبلاغ رؤساء تحريرهم المنتظرين بقرار اللورد المستشار الذي ضَمَنَ عدم المساس بالمبدأ الوراثي وأتاح لهاري كليفتون أن يطلب من إيما بارينغتون أن تكون زوجته الشرعية، في حين مال الزائرون فوق أسوار شرفتهم ليروا رد فعل اللوردات على الحكم. لكنها لم تكن مباراة كرة قدم، وهو لم يكن حَكَمًا، لأن كل عضو في مجلس اللوردات كان سيقبل ويلتزم بحكم اللورد المستشار دون خلاف أو انشقاق. وبينما كان اللورد المستشار ينتظر

تلاشي الضوضاء، نظر مجدداً إلى الشبان الثلاثة الأشد تأثراً بقراره ليرى كيف كانت ردود فعلهم. كان هاري وإيما وجيلز لا يزالون يحدقون فيه بأوجه خالية من التعابير، كما لو أنهم لم يستوعبوا أهمية حكمه بعد.

بعد أشهر من عدم اليقين، أحس جيلز بشعور فوري بالارتياح لكن موت جده الحبيب أزال من نفسه أي شعور بالنصر.

بينما فكر هاري بشيء واحد فقط وهو يمسك بقوة بيد إيما، وهو أنه بات بوسعه حينئذ الزواج من المرأة التي يحب.

أما إيما فكانت لا تزال متشككة، ففي النهاية لقد خلق اللورد المستشار لثلاثتهم مجموعة جديدة من المشاكل ليفكروا فيها، وهو لن يدعى لحلها.

فتح اللورد المستشار ملفه المذيل بشلة من الخيوط ذهبية اللون وتفحص أوامر ذلك اليوم. كانت مناقشة اقتراح خدمة الصحة الوطنية البند الثاني على الأجندة. انسل عدد من السادة اللوردات من القاعة مع عودة الوضع إلى طبيعته المعتادة.

لن يعترف اللورد المستشار أمام أحد، حتى لأقرب موثوقيه، أنه غير رأيه في اللحظة الأخيرة.

هاري كليفتون
و اِما بارينغتون
1951-1945

«إذا كان هناك شخص ما يملك أي سبب يمنع ارتباط هذين الشخصين بالزواج المقدس فليحدث الآن أو فليصمت إلى الأبد».

لن ينسى هاري كليفتون المرة الأولى التي سمع فيها هذه الكلمات، وكيف اضطربت حياته كلها بعد لحظات من سماعه إياها. كان جاك العجوز، الذي لم يكن يكذب مطلقاً، مثل جورج واشنطن، قد كشف في اجتماع دُعي لعقده على عجل في قاعة الاجتماعات في الكنيسة أن هناك احتمالاً بأن تكون إيما بارينغتون - المرأة التي كان هاري يعشقها والتي كانت على وشك أن تصبح زوجته - أخته غير الشقيقة.

بدأت المشكلة عندما اعترفت والدة هاري أنها مارست الجنس في مناسبة واحدة، ولمرة واحدة، مع والد إيما، هوغو بارينغتون، وبذلك كان هناك احتمال بأن يكون هاري وإيما من ذرية أب واحد.

في الفترة التي أقامت خلالها والدة هاري علاقتها الجنسية مع هوغو بارينغتون كانت تخرج مع آرثر كليفتون، وكان عامل شحن سفن يعمل في حوض إصلاح سفن بارينغتون. ورغم أن ميسي تزوجت من آرثر بعد فترة وجيزة من تلك العلاقة العابرة، إلا أن القس رفض إتمام زواج هاري وإيما بوجود إمكانية أن يشكل زواجهما انتهاكاً لقوانين الكنيسة المتصلة بقرابة الدم.

بعد لحظات، انسل والد إيما، هوغو، إلى خارج الكنيسة مثل جبان يفر من ميدان المعركة. سافرت إيما ووالدتها إلى اسكوتلندا، في حين بقي

هاري في جامعته في أوكسفورد وحيداً غير عالم ما سيفعله تالياً. بيد أن أدولف هتلر اتخذ هذا القرار نيابةً عنه.

ترك هاري الجامعة بعد بضعة أيام وبدل زيه الأكاديمي بزِي بحار عادي. ولكن، بعد أقل من أسبوعين على خدمته في أعالي البحار أغرق توربيد ألماني باخرته وظهر اسم هاري كليفتون على لائحة من أبلغ عن فقدانهم في البحر.

«هل تقبل هذه المرأة زوجة لك، وهل ستخلص لها وحدها ما دمتما على قيد الحياة؟».

«أجل».

لم يكتشف هاري أن إيما أنجبت ابنهما، سياستيان آرثر كليفتون، إلا بعد انتهاء الأعمال العدائية وعودته من ميدان المعارك مسربلاً بندوب المجد. وبعد تعافيه تماماً علم أن هوغو بارينغتون قُتل في ظروف فظيعة، مورثاً عائلة بارينغتون مشكلة أخرى لا تقل إيذاءً لهاري عن كونه لا يحق له الزواج من المرأة التي يحب.

لم يكثر هاري يوماً لحقيقة أنه كان أكبر ببضعة أسابيع من جيلز بارينغتون، شقيق إيما وصديقه الأقرب، إلى أن علم أنه يمكن بذلك أن يكون الأول بين الورثة لورثة لقب العائلة وأراضيها الشاسعة وممتلكاتها العديدة، وبحسب ما جاء في الوصية، وكل ما يتبع هذا اللقب. أوضح على الفور بأنه ليس مهتماً على الإطلاق بإرث بارينغتون وأنه مستعد للتنازل عن أي حق يُمكن أن يُعتبر له لصالح جيلز. وبدا المسؤول عن سجل الأنساب راغباً بقبول هذا الترتيب وكان يمكن أن يسير كل شيء على ما يرام لو لم يأخذ اللورد بريستون - عضو عمالي معارض في المجلس

الأعلى - على عاتقه الدفاع عن حق هاري باللقب، حتى دون أن يستشيرَه.

وعندما كان يسأله أحد المراسلين الصحفيين من البرلمان عن السبب كان يقول لهم: «إنها مسألة مبدأ».

«هل تقبلين هذا الرجل زوجاً لك، وأن تعيشا معاً كما أمر الرب في رابط الزواج المقدس؟».

«أجل».

ظل هاري وجيلز معاً طوال تلك الأزمة، رغم أنهما وُضعا وجهاً لوجه رسمياً في أعلى محكمة في البلد، إضافة إلى الصفحات الأولى للصحف الوطنية.

وكلاهما كانا سيفرحان بقرار اللورد المستشار لو كان جد إيما وجيلز، اللورد هارفي، جالساً في مقعده في الصف الأمامي لسماع الحكم، غير أنه لم يعلم بفوزه أبداً. وبقيت الأمة منقسمة حيال النتيجة في حين تُركت العائلتان لوصل ما انقطع.

كانت النتيجة الثانية لحكم اللورد المستشار، التي سارعت الصحف لإبلاغ قرائها النهمين بها، هي أن المحكمة العليا في البلد قضت أن هاري وإيما لم يكونا من نفس النسل، وعليه فهو حر في دعوتها لتكون زوجته بشكل قانوني.

«بهذا الخاتم أتزوجك، وبجسدي أقدمك، وكل ممتلكاتي الأرضية أهبك».

بيد أن هاري وإيما كانا يعرفان أن قراراً اتخذه إنسان لا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هوغو بارينغتون لم يكن والد هاري، ولأنهما مسيحيان مؤمنان أقلقتهما إمكانية أن يكونا يخالفان شريعة الله.

لم يتضاءل حب كل منهما للآخر رغم كل ما مر به، بل ازداد قوة، وبتشجيع والدتها، إليزابيث، وبمباركة والدة هاري، ميسي، قبلت إيما عرض هاري للزواج. والأمر الوحيد الذي أحزنها هو أن جدتيهما لم تعيشا لتحضرا حفل زفافها.

لم يُجرَ حفل الزفاف في أوكسفورد، كما كان مخططاً سابقاً، مع كل أبهة وبهجة حفل زواج جامعي، وما يصاحبه من وهج دعائي حتمي، وإنما في مكتب بسيط لتسجيل الزواج في بريستول، بحضور العائلة وبضع أصدقاء مقربين فقط.

ولعل القرار الأشد مدعاةً للحزن الذي اتفق عليه هاري وإيما مُكرهين هو أن سيباستيان آرثر كليفتون سيكون ابنهما الوحيد.

غادر هاري وإيما إلى اسكوتلندا لقضاء شهر عسلهما في قلعة مولجلري، المنزل العائلي التاريخي للورد والسيدة هارفي، جدي إيما الراحلين، ولكن ليس قبل أن يتركا سياستيان في حماية ورعاية إليزابيث. استحضرت القلعة ذكريات سعيدة كثيرة عن العطلة التي أمضيها هناك قبل ذهاب هاري إلى أوكسفورد بفترة قصيرة. تجولا في الهضاب معاً خلال النهار ونادراً ما كانا يعودان قبل اختفاء الشمس خلف الجبل الأعلى ارتفاعاً. وبعد العشاء، الذي تذكر فيه الطباخ أن السيد كليفتون كان يحب ثلاث حصص من المرق، كانا يجلسان بجانب نار حطب متوقدة ويقرآن إيفلين واف وغراهام جرين وكاتب هاري المفضل، بلهام ج وودهاوس.

وبعد أسبوعين صادفا خلالهما عدداً أكبر من المواشي مما صادفاه من البشر، انطلقا مُكرهين في رحلة العودة الطويلة إلى بريستول. ووصلا إلى منزل اللورد متطلعين لحياة أُسرية هادئة، غير أن هذا لم يكن ما سيحصل.

اعترفت إليزابيث أنها كانت متلهفة لخلاصها من مهمة الاهتمام بسيباستيان وبينما كانت قطتها السيامية تقفز لتجلس على حزن مالكتها وتنام على الفور، أضافت قائلةً إنها غالباً ما كانت تبكي قبل النوم. «بصراحة، لقد وصلتما في الوقت المناسب. لم أتمكن من إكمال

الكلمات المتقاطعة في صحيفة تايمز مرة واحدة خلال الأسبوعين
الماضيين».

شكر هاري حماته لتفهمها، ثم أخذ وإيها ابنهما مفرط النشاط
وعادوا معاً إلى منزل عائلة بارينغتون.

* * *

قبل زواج هاري وإيها، أصر جيلز على أن يعتبرا منزل عائلة
بارينغتون منزلها بما أنه كان يمضي معظم أيامه في لندن للقيام بواجباته
كعضو عمالي في البرلمان. وبمكتبته التي تضم عشرة آلاف كتاب وحديقته
الشاسعة واسطبلاته الكبيرة، كان المنزل مثالياً لهما إذ أتاح لهاري كتابة
رواياته حول المحقق ويليام وورويك بهدوء، ولإيها ركوب الخيل كل يوم،
ولسيباستيان اللعب في أراضيه الواسعة وجلب حيوانات غريبة إلى المنزل
لمشاركته في شرب الشاي.

غالباً ما كان جيلز يقود سيارته عائداً إلى بريستول في مساءات يوم
الجمعة للانضمام إليهم على العشاء. وفي صباح السبت كان يذهب إلى
مكتبه للاستماع لشكاوى واهتمامات دائرته الانتخابية قبل أن يزور عمال
رصيف الشحن من أجل احتساء بضع كؤوس من الشراب مع وكيله،
غريف هاسكنز. وفي العصر كان وجريف ينضمان إلى 10000 شخص من
ناخبيه في ستاد إيستفيل لمشاهدة فريق بريستول روفيرز يخسر أكثر مما
كان يربح. لم يعترف جيلز يوماً، حتى لوكيله، بأنه كان يفضل قضاء فترة
العصر من أيام السبت في مشاهد فريق بريستول يلعب الروغبي، لكنه

لو فعل ذلك لذكره غريف بأن الجمهور في ملعب ميموريال نادراً ما كان يزيد عن ألفي شخص ومعظمهم كانوا يصوتون للمحافظين.

وفي صباحات أيام الأحد كان يُرى جيلز راكعاً في كنيسة القديسة ماري ريديكيف إلى جانب هاري وإيما. كان هاري يفترض أن ذلك كان مجرد واجب آخر من واجباته الانتخابية، لأنه كان دائماً يبحث عن أي عذر لتجنب الذهاب إلى مصلى المدرسة. ولكن، لم يكن باستطاعة أحد إنكار أن جيلز سرعان ما اكتسب سمعة حسنة كعضو مجتهد ذي ضمير حي في البرلمان.

وفجأةً، وبدون أي تفسير، بدأت زيارات جيلز في عطل نهايات الأسبوع تقل تدريجياً. وكلما كانت إيما تثير الموضوع مع شقيقها كان يتمتم بشيء ما حول الواجبات البرلمانية. أما بالنسبة إلى هاري فلم يكن مقتنعاً بذلك لكنه كان يأمل بأن غيابات ابن حميه الطويلة عن الدائرة الانتخابية لن تقضم من أغلبيته الضئيلة في الانتخاب التالي.

وذاات أمسية من أمسيات يوم الجمعة اكتشفا السبب الحقيقي لانشغال جيلز خلال الأشهر القليلة السابقة.

كان قد اتصل بإيما في وقت سابق من ذلك الأسبوع لإبلاغها بأنه سيأتي إلى بريستول في وقت العشاء من يوم الجمعة من أجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع. بيد أن ما لم يخبرها به هو أنه كان سيصطحب معه ضيفاً.

في العادة كانت إيما تحب صديقات جيلز اللواتي كن دائماً جميلات، وفي الغالب طائشات، وبدون استثناء تعشقنه وإن لم تستغرق علاقات

معظمهن مع شقيقتها الوقت الكافي كي تعرفهن جيداً. غير أن الأمر كان مختلفاً هذه المرة.

وعندما قدم جيلز فيرجينيا إليها في مساء يوم الجمعة احتارت إيما بما كان شقيقتها يراه في هذه المرأة. لقد قبلت أن فيرجينيا جميلة وذات علاقات نافذة فهي ذكرتهم أكثر من مرة بأنها كانت فتاة العام للمجتمع الراقى (في 1934)، وثلاث مرات أنها ابنة كونت فينويك حتى قبل جلوسهم حول مائدة العشاء.

لربما كانت إيما ستعتبر ذلك ناتجاً ببساطة عن التوتر لو لم تنقر فيرجينيا نقراً من طعامها وتهمس لجيلز خلال العشاء، بنبرة لا بد أنها كانت تعرف أنهما قادران على سماعها، حول مدى صعوبة إيجاد طاقم خدم لائق في جلوسيسترشير. وكان جيلز يكتفي بالابتسام لهذه التعليقات دون أن يعارضها ولو لمرة واحدة. أوشكت إيما أن تقول شيئاً كانت تعرف بأنها يمكن أن تندم عليه عندما قالت فيرجينيا إنها منهكة بعد ذلك اليوم الطويل وترغب بالخلود للنوم.

وما أن نهضت وغادرت ومن ورائها جيلز، توجهت إيما نحو غرفة الضيوف وصبت لنفسها كأساً كبيرة من الويسكي وهوت على أقرب كرسي.

«يعلم الله ماذا سيكون رأي أُمي بالليدي فيرجينيا».

ابتسم هاري وقال: «لن يهم كثيراً ما ستظنه إليزابيث لأنني أشعر أن فيرجينيا لن تبقى مدة أطول من معظم صديقات جيلز الأخريات».

«لست متأكدة تماماً لكن ما يحيرني هو سبب اهتمامها بجيلز لأن من الواضح أنها لا تحبه».

عندما عاد جيلز وفيرجينيا إلى لندن بعد تناولهما طعام الغداء في عصر يوم الأحد، نسيت إيما بسرعة ابنة كونت فينويك لأنها كانت مضطرة للتعامل مع مشكلة أشد إلحاحاً. كانت مربية أخرى قد قدمت استقالتها عندما وجدت قنفذاً في سريرها فكانت تلك القشة التي قسمت ظهر البعير. شعر هاري بالشفقة على المرأة المسكينة.

بعد أن أخذت إيما ابنها إلى السرير ونام أخيراً في تلك الليلة، قالت لهاري: «ما يزيد الأمر سوءاً هو أنه ولد وحيد. من المؤكد أن عدم وجود من يلعب معه ليس ممتعاً».

قال هاري دون أن يرفع رأسه عن الكتاب: «لم يثر هذا الأمر قلقي أبداً».

«أخبرتني أمك أنك كنت مشاكساً تماماً قبل ذهابك إلى مدرسة سانت بيد، وعلى أي حال، عندما كنت في سنه كنت تمضي وقتاً أطول في حوض إصلاح السفن من الوقت الذي كنت تمضيه في المنزل».

«حسنٌ، لن يطول الوقت قبل دخوله إلى مدرسة سانت بيد».

«وماذا تتوقع مني فعله في الوقت الحالي؟ أقله إلى الحوض كل صباح؟».

«لا أظنها فكرة سيئة».

«كُن جدياً حبيبي. لولا جاك العجوز لكنت هناك اليوم».

قال هاري وهو يرفع كأسه للرجل العظيم: «صحيح، ولكن ماذا يسعنا فعله في هذا الشأن؟».

استغرقت إهما وقتاً طويلاً لترد بحيث أن هاري تساءل إن كانت قد غفت: «لعل الوقت حان لنفكر في إنجاب طفل آخر».

فوجئ هاري بشدة لدرجة أنه أغلق كتابه، ونظر بإمعان إلى زوجته غير واثق إن كان سمعها بشكل صحيح أم لا، ثم قال: «ولكن، أعتقد أننا اتفقنا...».

«أجل. وأنا لم أغير رأيي، ولكن ليس هناك سبب يمنعنا من التفكير في التبنى».

«ما الذي جعلك تفكرين في ذلك يا عزيزتي؟».

«لا أستطيع منع نفسي من التفكير في الفتاة الصغيرة التي وُجِدت في مكتب أبي ليلة وفاته» - لم تستطع إهما حمل نفسها على قول كلمة قتله - «وفي احتمال أن تكون طفله».

«ولكن ليس هناك إثبات على ذلك. وأياً يكن الأمر، لا أعرف كيف ستجدينها بعد كل هذا الوقت».

«كنت أفكر في استشارة شخصية بوليسية شهيرة وطلب نصيحتها».

فكر هاري ملياً قبل أن يجيبها أخيراً: «لعل ويليام وورويك كان سينصحك بمحاولة إيجاد ديريك ميتشيل».

«ولكن من المؤكد أنك لم تنسَ أن ميتشيل كان يعمل لصالح أبي وأنه لم يكن مهتماً تماماً بمصالحنا».

«صحيح، ولهذا السبب بالضبط أريد طلب نصيحته. في نهاية المطاف إنه الشخص الوحيد الذي يعلم أين دُفنت كل الجثث».

اتفقا على الالتقاء في فندق جراند هوتيل. وصلت إيما قبل بضع دقائق من الموعد، وانتقت مقعداً في زاوية قاعة الانتظار بحيث لا يمكن سماع حديثهما. وبينما كانت تنتظره راجعت الأسئلة التي خطت لطحها عليه.

دخل السيد ميتشيل إلى القاعة في الساعة الرابعة تماماً. كان وزنه قد ازداد قليلاً منذ آخر مرة رآته فيها واكتسب الشيب مساحات إضافية من شعره، إلا أن عَرَجَه الواضح كان سمته المميّزة. أول فكرة خطرت في ذهنها هي أنه كان يبدو أشبه بمدير بنك منه بمحقق خاص. كان واضحاً أنه عرف إيما لأنه توجه إليها مباشرة.

«إنه لأمر لطيف أن أراك مجدداً سيدة كليفتون».

«اجلس من فضلك». تساءلت إيما إن كان ميتشيل متوتراً مثلها، لكنها قررت الدخول مباشرة في صلب الموضوع. «أردتُ رؤيتك سيد ميتشيل لأنني بحاجة إلى مساعدة محقق خاص».

تململ ميتشيل بقلق في كرسيه.

«عندما التقينا آخر مرة، وعدتُ بدفع بقية دين والدي لك». كان هذا اقتراح هاري إذ قال إن هذا سيجعل ميتشيل يدرك أنها كانت جدية في استخدامه. فتحت إيما حقيبتها اليدوية، وأخرجت مغلفاً ثم سلمته إلى ميتشيل.

فقال ميتشيل باستغراب واضح: «شكراً لك».

تابعت إيما كلامها: «لا بد أنك تتذكر أننا ناقشنا في لقائنا الأخير مسألة الطفلة التي وُجِدَت في سلة في مكتب أبي. قال رئيس التحقيق، بليكمور، الذي كان مسؤولاً عن القضية، كما تتذكر حتماً، لزوجي إن الطفلة عُهد بها لرعاية السلطة المحلية.»

«هذا هو الإجراء الطبيعي المتبع في حال لم يتقدم أحد للمطالبة بها.»

«أجل، هذا ما اكتشفته، ولقد تحدثتُ البارحة فقط مع الشخص المسؤول عن ذلك القسم في مجلس المدينة، لكنه رفض تزويدي بأية تفاصيل تتعلق بإمكان وجود الطفلة الآن.»

«كان هذا بتوجيه من محقق الوفيات بعد التحقيق من أجل حماية الطفلة من الصحفيين الفضوليين. ولا يعني ذلك عدم وجود طرق للعثور على مكانها.»

«يسعدني سماع ذلك»، ترددت إيما قليلاً قبل مواصلة كلامها، «ولكن قبل أن نمضي في هذا المسار، أنا بحاجة للتأكد إن كانت الطفلة الصغيرة ابنة أبي.»

«يمكنني التأكيد لك سيدة كليفتون أنه ليس هناك أي شك في هذا الخصوص.»

«كيف يمكنك أن تكون واثقاً إلى هذه الدرجة؟»

«بوسعي تزويدك بكل التفاصيل لكنها قد تسبب لك شيئاً من الإزعاج.»

«سيد ميتشيل، لا أعتقد أن أي شيء يمكن أن تخبرني به حول أبي سيثير استغرابي».

سكت ميتشيل للحظة قبل أن يقول: «خلال الفترة التي عملت فيها لصالح السيد هوغو تعرفين أنه انتقل إلى لندن».

«هرب في يوم زفافي، سيكون أكثر دقة».

استأنف ميتشيل كلامه دون التعليق على ملاحظتها: «وبعد سنة تقريباً بدأ العيش مع الأنسة أولغا بيوتروفسكا في لاونديس سكوير».

«كيف تمكن من الإنفاق عليها بعد أن تركه جدي بدون أي بنس؟».

«لم يكن ينفق عليها. بصراحة، كان يعيش على حساب الأنسة بيوتروفسكا».

«هل يمكنك إخباري أي شيء حول هذه السيدة؟».

«الكثير. كانت بولندية بالولادة وهربت من وارسو في العام 1841 بعد فترة قصيرة من اعتقال والديها».

«بأي تهمة؟».

أجابها ميتشيل برود: «كونهما يهوديين. نجحت في عبور الحدود مع بعض ممتلكات العائلة ووصلت إلى لندن حيث استأجرت شقة في لاونديس سكوير. وبعد ذلك بمدة ليست بطويلة قابلت والدك في حفل كوكتيل أقامه صديق مشترك. تودد إليها لبضعة أسابيع ثم انتقل إلى شقتها متعهداً لها بالزواج بعد طلاقه».

«قلتُ إنني لن أستغرب أي شيء. كنتُ مخطئة».

قال ميتشيل: «ساء الأمر أكثر. فعندما توفي جدك ترك السيد هوغو الأنسة بيوتروفسكا مباشرةً وعاد إلى بريستول للمطالبة بميراثه وتولى رئاسة مجلس إدارة شركة شحن بارينغتون. ولكن ليس قبل أن يسرق كل مجوهرات الأنسة بيوتروفسكا إضافة إلى عدة لوحات ثمينة».

«إذا كان ذلك صحيحاً فلماذا لم يُعتقل؟».

«لقد اعتُقل وكان على وشك أن يُتهم عندما أقدم شريكه، توبي دانستبل - الذي كان الشاهد الملك - على الانتحار في زنزانته في الليلة التي سبقت المحاكمة».

طأطأت إهما رأسها.

«هل تفضلين ألا أكمل سيدة كليفتون؟».

نظرت إلى عينيه وقالت: «لا. أنا بحاجة إلى معرفة كل شيء».

«رغم أن والدك لم يكن يعلم ذلك عندما عاد إلى بريستول، إلا أن الأنسة بيوتروفسكا كانت حاملاً. وأنجبت طفلة سُميت في شهادة الميلاد جيسिका بيوتروفسكا».

«كيف علمت ذلك؟».

«لأن الأنسة بيوتروفسكا استخدمتني عندما لم يعد بإمكان والدك دفع فواتيري. ومن سخرية القدر أنها أفلست في الوقت نفسه الذي ورث فيه والدك ثروة. ولهذا السبب سافرت إلى بريستول مع جيسिका. كانت تريد أن يعرف السيد هوغو أن لديه ابنة أخرى لأنها كانت تشعر بأن من مسؤوليته تربية الطفلة».

قالت إيما بهدوء: «والآن إنها مسؤوليتي»، صمتت لوهلة، «لا أعلم كيف سأجدها وكنت آمل أن تستطيع مساعدتي».

قال ميتشيل: «سأفعل كل ما بوسعي سيدة كليفتون. ولكن بعد كل هذا الوقت لن يكون الأمر سهلاً»، ثم أضاف وهو ينهض عن كرسيه، «إذا اكتشفتُ أي شيء ستكونين أول من يسمع به».

بينما كان المحقق يعرج مبتعداً عنها، أحست إيما بتأنيب الضمير لأنها لم تعرض عليه حتى كأساً من الشاي.

* * *

كانت إيما متلهفةً للوصول إلى المنزل وإبلاغ هاري بلقائها ميتشيل. عند اندفاعها إلى المكتبة في منزل عائلة بارينغتون وجدت هاري يعيد سماعه الهاتف إلى مكانها ورأت ابتسامةً عريضةً على وجهه جعلتها تقول «أنت أولاً».

«يريد ناشري الأميركيون أن أقوم بجولة في الولايات المتحدة عند إطلاقهم كتابي الجديد في الشهر المقبل».

«هذا خبر رائع حبيبي. أخيراً ستلتقي بعممة والدي فيليس، بدون ذكر ابن عمتي أليستر».

«أنا متلهف لذلك».

«لا تسخر يا ولدا!».

«أنا لا أسخر لأن الناشرين اقترحوا مرافقتك لي في الرحلة، لذا ستمكنين من رؤيتهما أيضاً».

«كنت أود الذهاب معك حبيبي، لكن التوقيت سيئ جداً. لقد حزمت المربية رايان أمتعتها وأنا محرجة من قول إن الوكالة أخرجتنا من سجلاتها».

«قد أتمكن من حمل الناشرين على الموافقة على مجيء سيب معنا أيضاً». مكتبة الرمحي أحمد

«الأمر الذي قد يؤدي إلى ترحيلنا جميعاً. لا، سأبقى في المنزل مع سيب أثناء ذهابك وغزوك للمستعمرات».

أخذ هاري زوجته بين ذراعيه وقال لها: «يا للأسف، كنت أتطلع إلى شهر عسل ثان. بالمناسبة، كيف سار لقاءك مع ميتشيل؟».

* * *

كان هاري في إدينبرغ للتحدث في حفل غداء أدبي عندما اتصل ديريك ميتشيل بإيما.

قال لها دون أن يذكر اسمه: «لعلي أملك خيطاً. متى يمكننا أن نلتقي؟».

«العاشرة صباح غد، في المكان نفسه؟».

ما أن أغلقت الهاتف حتى رن ثانية فرفعت السماعة لتسمع صوت أختها على الطرف الآخر من الخط.

«يا لها من مفاجأة سارة يا جريس، ولكن بما أنني أعرفك فلا بد أنك تمتلكين سبباً جيداً للاتصال».

قالت جريس مذكرةً إياها: «بعضنا لديهم وظائف بدوام كامل، لكنك محقة. لقد اتصلتُ لأنني حضرت ليلة أمس محاضرة للبروفيسور سايروس فيلدمان».

فقالت إيما آملةً إثارة إعجاب أختها: «الحائز على جائزة بوليتزر مرتين؟ جامعة ستانفورد إذا كانت ذاكرتي صحيحة».

«أنا مندهشة. والأهم من ذلك هو أنك كنت ستُفتنّين بالمحاضرة التي أدلى بها».

قالت إيما محاولةً إبقاء رأسها فوق الماء: «إنه عالم اقتصاد حسب ذاكرتي. ليس مجالي مطلقاً».

«وليس مجالي، لكنه حين تحدث عن النقل...».

«تبدو مثيرة للاهتمام».

تابعت جريس كلامها متجاهلةً سخريتها: «كانت كذلك بالفعل، وخصوصاً عندما تحدث عن مستقبل الشحن، بما أن الشركة البريطانية للخطوط الجوية الخارجية تخطط لبناء خدمة جوية منتظمة من لندن إلى نيويورك».

أدركت إيما فجأة سبب اتصال أختها فقالت: «هل ثمة أمل بالحصول على نسخة عن المحاضرة؟».

«يمكنك القيام بما هو أفضل. ستكون محطته التالية في بريستول لذا يمكنك الذهاب وسماعه يتحدث شخصياً».

«لربما سأتمكن من التحدث معه قليلاً بعد المحاضرة. لدي الكثير لأسأله عنه».

«فكرة سديدة، ولكن إذا فعلتِ ذلك كوني حذرة. رغم أنه واحد من أولئك الرجال النادرين الذين يملكون عقولاً أكبر من خصيتيهم، إلا أنه يعيش مع زوجته الرابعة، ولم تكن هناك إشارة إلى ليلتها الأخيرة». ضحكت إيما وقالت: «أنت بذيئة جداً يا أختي، ولكن شكراً على النصيحة».

* * *

في صباح اليوم التالي، ركب هاري القطار من إدينبرغ إلى مانشستر وبعد التحدث أمام رهط من الناس في مكتبة بلدية المدينة، وافق على تلقي بعض الأسئلة.

كان السؤال الأول حتماً لأحد الصحفيين الذين كانوا نادراً ما يُعلنون عن أنفسهم ويبدون اهتماماً ضئيلاً، إن كان هناك أي اهتمام، بكتابه الأخير. وكان الدور في ذلك اليوم لصحيفة مانشستر جارديان.

«كيف حال السيدة كليفتون؟»

أجاب هاري بحذر: «في أفضل حال، شكراً لك».

«هل صحيح أنكما تعيشان في المنزل نفسه مع السيد جيلز بارينغتون؟»

«إنه منزل كبير جداً».

«هل تشعر بأي استياء بخصوص حقيقة أن السيد جيلز حصل على كل شيء في وصية والده وأنت لم تحصل على أي شيء؟».

«بالتأكيد لا. لقد حصلتُ على إيما وهي كل ما أردته أساساً».

بدا جوابه بأنه أسكت الصحفي لوهلة ما أتاح الفرصة لشخص من العامة لطرح سؤاله.

«متى سيحصل ويليام وورويك على وظيفة المحقق الأول دافينبورت؟».

قال هاري مبتسماً: «ليس في الكتاب التالي. بوسعي أن أؤكد لك ذلك».

«هل صحيح سيد كليفتون أنكم خسرتم سبع مربيات في أقل من ثلاث سنوات؟».

كان واضحاً أن مانشستر تملك أكثر من صحيفة.

في طريق عودته إلى محطة القطار أبدى هاري تدمره بشأن الصحافة، مع أن ممثل مانشستر أوضح بأن الدعاية لم تكن فيما يبدو تؤذي مبيعاته. لكن هاري كان يعلم بأن إيها بدأت تقلق بخصوص اهتمام الصحافة المتواصل واحتمال تأثير ذلك على سياستيان عند دخوله إلى المدرسة.

إذ قالت له حينئذ: «يمكن أن يكون الصبية الصغار شديدي القسوة».

فقال لها هاري: «حسن، على الأقل إنه لن يُضرب من أجل لعق طبق الشوفان بالحليب».

* * *

وصلت إيها قبل بضع دقائق من الموعد لكنها وجدت ميتشيل جالساً في الركن المنعزل، مع دخولها إلى قاعة انتظار الفندق. وقف

ميتشيل حال وصولها إلى مكان جلوسه لكن أول شيء قالتها حتى قبل أن تجلس هو «هل تود كأساً من الشاي سيد ميتشيل؟».

«لا، شكراً لك سيدة كليفتون». جلس ميتشيل، الذي لا يحب المجاملات، وفتح دفتر ملاحظاته. «يبدو أن السلطة المحلية وضعت جيسিকা سميث...».

قاطعتها إيما قائلة: «لماذا ليس بيوتروفسكا، أو حتى بارينغتون؟».

«سهلة التعقب، هذا هو ترجيحي الأكبر، وأظن أن المحقق أصر على السرية بعد التحقيق. أرسلت السلطة المحلية الأنسة ج سميث إلى ملجأ الدكتور بارناردو في بريدجووتر».

«لماذا بريدجووتر؟».

«ربما لأنه الملجأ الأقرب الذي كان يملك مكاناً شاغراً في ذلك الحين».

«هل لا تزال هناك؟».

«بحسب علمي، أجل. لكنني اكتشفت أن بارناردو يخطط لإرسال عدة فتيات إلى ملاجئ في أستراليا».

«لماذا يفعلون ذلك؟».

«جزء من سياسة الهجرة لأستراليا دفع عشرة باوندات للمساعدة على عبور الشبان إلى بلدهم، وهم متحمسون بشكل خاص للفتيات».

«كنت أظن أنهم سيكونون أكثر اهتماماً بالفتيان».

قال ميتشيل مُظهراً ابتسامة نادرة: «يبدو أنهم يملكون مسبقاً ما يكفي منهم».

«إذن من الأفضل أن نزور بريدجووتر بأسرع وقت ممكن».

«مهلي سيدة كليفتون. إذا بدوت متحمسة جداً فإنهم قد يفكرون في سبب اهتمامك الشديد بالآنسة ج سميث، ويخلصون إلى أنك والسيد كليفتون لستما والدين مناسبين لتبنيها».

«ولكن، ما هو السبب الذي يمكن أن يدفعهم لرفضنا؟».

«اسمكما أولاً. بدون ذكر أنك والسيد كليفتون لم تكونا متزوجين حين وُلد ابنكما».

قالت إيما بهدوء: «بماذا تنصح إذن؟».

«قدمي طلباً عبر القنوات الاعتيادية. لا تُظهري أنك على عجلة، واجعلي الأمر يبدو كما لو أنهم هم الذين يتخذون القرارات».

«ولكن كيف نعرف أنهم لن يرفضونا على أي حال؟».

«سيتوجب عليك دفعهم في الاتجاه الصحيح، أليس كذلك سيدة كليفتون؟».

«إلى ماذا تلمح؟».

«عندما تملئين استمارة الطلب، يُطلب منك كتابة أية تفضيلات يمكن أن تملكينها. هذا يوفر على الجميع الكثير من الوقت والعناء. لذا إذا أوضحت أنك تبحثين عن فتاة في الخامسة أو السادسة من العمر لأن لديك ابناً أكبر منها بقليل، فهذا سيساعد على تضيق المجال».

«أية اقتراحات أخرى؟».

«أجل. تحت بند الدين، أشيري على المربع المعلم ليس هناك تفضيل».

«ولماذا سيساعد هذا الأمر؟».

لأن استمارة تسجيل الأنسة جيسيكا سميت تذكر أن الأم يهودية والأب غير معلوم».

قال مسؤول الهجرة في مطار آيدلوايلد بينما كان يتفحص فيزا دخول هاري: «كيف حصل بريطاني على النجمة الفضية [ثالث أرفع وسام تمنحه الولايات المتحدة للبرسالة في الحرب]؟».

أجابه هاري: «إنها قصة طويلة». قرر هاري أن من غير الحكمة إخباره بأنه في المرة الأخيرة التي وطأت فيه قدماه نيويورك اعتُقل بتهمة ارتكاب جريمة قتل.

قال مسؤول الهجرة لهاري وهو يصافحه: «أتمنى لك وقتاً ممتعاً أثناء وجودك في الولايات المتحدة».

«شكراً». حاول هاري عدم الظهور بمظهر المندهبش أثناء عبوره قسم الهجرة واتباعه اللافتات للوصول إلى منطقة استلام الحقائق. وبينما كان ينتظر ظهور حقيبته، تحقق مرة أخرى من إرشادات وصوله. كان من المفترض أن يقابله مسؤول الترويج في فاكينغ من أجل اصطحابه إلى فندقه وإبلاغه ببرنامج عمله. عندما كان يزور مدينة ما في بريطانيا كان يرافقه دائماً ممثل المبيعات المحلي، ولهذا فهو لم يعرف تماماً طبيعة عمل مسؤول الترويج.

بعد استعادة حقيبته الضخمة القديمة، توجه هاري نحو الجمارك. طلب منه ضابطُ فتح الحقيبة، ثم أجرى تفتيشاً سريعاً ورسم بالطبشور صليباً كبيراً على جانبها قبل أن يشير له بمتابعة طريقه. سار هاري تحت

لافتة نصف دائرية ضخمة كُتب عليها أهلاً بكم في نيويورك تعلوها صورة مبتسمة لرئيس البلدية، ويليام أودواير.

حال دخوله قاعة القادمين وجد صفّاً من السائقين المأجورين بزيهم الرسمي يحملون بطاقات تحوي أسماء. بحث عن اسمه وعندما وجده ابتسم للسائق وقال له: «هذا أنا».

قال السائق: «سعيد لمقابلتك سيد كليفتون. أنا تشارلي». أمسك بحقيبة هاري الضخمة كما لو كانت حقيبة أوراق ثم أضاف قائلاً: «هذه مسؤولة ترويجك، نتالي».

التفت هاري فرأى امرأة شابة كان قد أُشير إليها في إرشاداته بـ «ن ريدوود» فقط. كانت بطوله تقريباً وذات شعر أشقر عصري التسريحة، وعينين زرقاوين، وأسنان لم يرَ أكثر منها استقامةً وبياضاً من قبل إلا في لوحات الإعلانات الخاصة بمعاجين الأسنان. وعلاوة على ذلك، كان رأسها يُتوج جسداً يشبه ساعة رملية. لم يصادف هاري أبداً من قبل امرأة تشبه نتالي في بريطانيا التي كانت تعيش على المعونات ما بعد الحرب.

قال وهو يصافحها: «سعيد لمقابلتك أنسة ريدوود».

«وأنا سعيدة لمقابلتك هاري». وبينما كانا يلحقان بتشارلي إلى خارج المطار، أضافت: «يمكنك أن تناديني نتالي. إنني واحدة من كبار معجبك. أنا أحب ويليام وورويك كثيراً، وليس لديّ أي شك في أن كتابك الأخير سيكون فائزاً أيضاً».

عندما وصلوا إلى حافة الرصيف فتح تشارلي الباب الخلفي لأطول سيارة ليموزين رآها هاري في حياته. وقف هاري جانباً للسماح لنتالي بالركوب أولاً.

بينما كان يركب السيارة للجلوس بجانبها، قالت نتالي: «أوه، أنا أحب الإنجليز». سارت الليمو على مهل في طريقها إلى داخل نيويورك. «أولاً، سنذهب إلى فندقك. لقد حجزتُ لك في فندق بيير حيث ستقيم في جناح في الطابق الحادي عشر. تركتُ لك ما يكفي من الوقت في برنامجك لتغتسل وتجهز نفسك قبل انضمامك إلى السيد جوينزبيرغ على الغداء في نادي هارفارد. بالمناسبة، إنه متلهف لمقابلتك».

«وأنا أيضاً. لقد نشر مذكراتي في السجن إلى جانب رواية ويليام وورويك الأولى، لذا فأنا مدين له بالكثير».

«وهو استثمر قدراً كبيراً من الوقت والمال من أجل ضمان وصوله بدون أي مجازفة إلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً، ولقد طلب مني إبلاغك بالتفصيل بشأن خططنا لفعل ذلك».

قال هاري بينما كان ينظر عبر النافذة للاستمتاع بمناظر رآها آخر مرة من مؤخرة حافلة سجن صفراء كانت تقله إلى زنزانة في سجن بدلاً من جناح في فندق بيير: «أخبريني من فضلك».

لمست ساقه بيدها وقالت: «هناك الكثير لنراجعه سويةً قبل مقابلة السيد جوينزبيرغ». سلمته ملفاً أزرق سميكاً. «دعني أبدأ بشرح كيف ننوي إيصال كتابك إلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً، لأن ذلك يختلف كثيراً عن الطريقة التي تتبعونها في إنجلترا».

فتح هاري الملف، وحاول التركيز، فهو لم يسبق له أن جلس من قبل بجانب امرأة تلبس ثياباً ضيقة تُظهر تفاصيل جسدها بهذا الشكل.

تابعت نتالي كلامها: «في أميركا أنت تملك ثلاثة أسابيع فقط للتأكد من بلوغ كتابك قائمة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً. إذا لم تستطع

الوصول إلى أعلى خمسة عشر كتاباً خلال هذه الفترة، ستحزم المكتبات كميتها من بدون أي مجازفة وتعيدها إلى الناشر».

فقال هاري: «هذا جنون. في إنجلترا حاملما تقدم إحدى المكتبات طلباً للشراء يُعتبر الكتاب مُباعاً بالنسبة إلى الناشر».

«ألا تعرضون على المكتبات خيار المبيع أو الإعادة؟».

أجابها هاري مصدوماً من الفكرة: «بالتأكيد لا».

«وهل صحيح أيضاً أنكم لا تزالون تبيعون الكتب من دون حسم؟».

«أجل، بالطبع».

«في الحقيقة، ستجد أن ذلك هو الاختلاف الكبير الآخر هنا، لأنك إذا نجحت في الوصول إلى قائمة الخمسة عشر الأوائل، فإن السعر سينخفض بشكل تلقائي إلى النصف وسينتقل كتابك إلى مؤخرة المكتبة».

«لماذا؟ يجب أن يُعرض أي كتاب من أكثر الكتب مبيعاً بشكل بارز في مقدمة أية مكتبة، بل في الواجهة، وبدون حسم بالتأكيد».

«ليس بعد أن اكتشف مسؤولو الترويج أنه عندما يأتي زبون بحثاً عن كتاب معين من بين الكتب الأكثر مبيعاً ويذهب إلى مؤخرة المكتبة من أجل إيجاده، فإن واحداً من خمسة زبائن يشتري كتابين آخرين قبل توجهه إلى طاولة البيع، في حين سيختار واحد من ثلاثة كتاباً آخر».

«أمر ذكي، لكنني لست واثقاً بأن هذا سيصبح شائعاً يوماً ما في

إنجلترا».

«أظن أنها ستكون مسألة وقت فقط، ولكن على الأقل ستفهم الآن سبب أهمية وصول كتابك إلى القائمة بأسرع وقت ممكن، لأنه حالما ينخفض السعر إلى النصف، فمن المرجح بقاءه في قائمة الخمسة عشر الأوائل لعدة أسابيع. في الواقع، إن الخروج من القائمة أصعب من الدخول إليها. لكنك إذا فشلت، سيختفي بدون أي مجازفة من رفوف المكتبات بعد شهر من الآن، وسنخسر قدراً كبيراً من المال».

«وصلتني الرسالة». كانت الليمو آنذاك تسير على مهل فوق جسر بروكلين.

«وما يزيد الأمر صعوبة هو أننا سنضطر لزيارة سبع عشرة مدينة مختلفة في واحد وعشرين يوماً».

«نحن؟».

قالت بنبرة طبيعة: «أجل. سأكون ممسكة بيدك طوال الجولة. في العادة، أبقى في نيويورك وأسمح لمسؤول الترويج المحلي في كل مدينة الاهتمام بالكتاب الزائرين، ولكن ليس هذه المرة، لأن السيد جوينزبيرغ أصر على ألا أتركك». لمست ساقه مرة ثانية قبل أن تقلب صفحة من الملف المفتوح على حضنها.

نظر هاري إليها فرسمت ابتسامة غنج على محياها. هل كانت تغازله؟ لا، غير ممكن. لقد تقابلا للتو.

«لقد حجزت لك مسبقاً في عدة محطات إذاعية رئيسية، بما فيها برنامج مات جاكوبس الذي يستمع إليه أحد عشر مليون شخص كل صباح. ليس هناك من هو أشد فعالية من مات عندما يتعلق الأمر بإخراج الكتب من المكتبات».

رغب هاري بطرح عدة أسئلة، لكن نتالي كانت تشبه بندقية وينتشستر. تطلق رصاصة كلما رفعت رأسك.

واصلت كلامها دون أن تلتقط نفساً: «كن حذراً، معظم البرامج الهامة لن تمنحك أكثر من خمس دقائق - ليس مثل البي بي سي عندكم - إنهم لا يفهمون فكرة التعمق. خلال هذه الفترة احرص على تكرار عنوان الكتاب قدر الإمكان».

بدأ هاري تقليب صفحات برنامج جولته. فيما يبدو، كل يوم كان سيبدأ في مدينة جديدة حيث سيظهر على برنامج إذاعي صباحي، يلي ذلك مقابلات إذاعية وصحفية لا تُحصى قبل الإسراع إلى المطار.

«هل يلقي جميع كتابكم هذا النوع من المعاملة؟».

«بالتأكيد لا»، وضعت يدها مجدداً على ساقه. «وهذا يحيلني إلى المشكلة الأكبر التي تواجهنا معك».

«لديكم مشكلة معي؟».

«بالتأكيد. معظم من سيُجرون معك مقابلات سيرغبون بسؤالك عن المدة التي أمضيتها في السجن، وكيف حاز بريطاني على وسام النجمة الفضية، ولكن يجب عليك دائماً تحويل الموضوع إلى الكتاب من جديد».

«في إنجلترا سيُعتبر ذلك فظاظة كبيرة».

«في أميركا، الفظاظة هي التي توصلك إلى قائمة أفضل الكتب مبيعاً».

«ولكن، أأرن يريد المستضيفون في التحدث حول الكتاب؟».

«هاري، يجب أن تفترض أن أحداً منهم لم يقرأه. عشر روايات جديدة تُلقى على مكاتبهم كل يوم، لذا ستكون محظوظاً إذا قرؤوا أكثر من العنوان. وسيكون الأمر جيداً إذا تذكروا حتى اسمك. لقد وافقوا على حضورك في برامجهم فقط لأنك محكوم سابق حاز على النجمة الفضية، فلنحول هذا الأمر إلى مصلحتنا، ونروج الكتاب إلى أقصى درجة ممكنة». كانت الليموزين حينئذ تتوقف خارج فندق بيير.

تمنى هاري لو أنه كان في لندن.

ترجل السائق من السيارة، وفتح الصندوق الخلفي، بينما كان حمال الفندق يقترب من السيارة. قادت نتالي هاري إلى داخل الفندق، وعبرا قاعة الانتظار نحو طاولة الاستقبال، وهناك كل ما كان يتوجب عليه فعله هو إظهار جواز سفره وتوقيع استمارة التسجيل.

قالت موظفة الاستقبال وهي تسلمه مفتاحاً كبيراً: «أهلاً بك في بيير سيد كليفتون».

قالت نتالي: «سأراك هنا في قاعة الانتظار» - نظرت إلى ساعتها - «بعد ساعة. ثم ستأخذ الليموزين إلى نادي هارفارد من أجل غدائك مع السيد جوينزبيرغ».

«شكراً لك». راقبها هاري وهي تسير عبر القاعة، ثم تختفي عبر الأبواب الدوارة إلى أن خرجت إلى الشارع. لاحظ أنه لم يكن الرجل الوحيد الذي لم تفارقها عيناه.

رافقه حمال إلى الطابق الحادي عشر، وأراه جناحه ثم شرح له كيفية عمل كل شيء. لم يمكث هاري من قبل في فندق فيه حمام ودُش، ولهذا قرر كتابة ملاحظات كي يتمكن من إخبار إيما بكل شيء حوله عند

عودته إلى بريستول. شكر الحمال الذي غادر مع الدولار الوحيد الذي كان يملكه.

أول شيء فعله هاري، حتى قبل فتح حقيبته وإخراج أمتعته منها، هو التقاط الهاتف بجانب السرير، وطلب اتصالاً مباشراً مع إيماء.

قال عامل الاتصالات الخارجية: «سأتصل بك في غضون خمس عشرة دقيقة».

بقي هاري مدة طويلة في الحمام، وبعد تجفيف جسده بأكبر منشفة رآها في حياته بدأ بإخراج أشياءه من الحقيقة فإذا بالهاتف يرن.

قال عامل المقسم: «اتصالك الخارجي على الخط سيدي». كان صوت إيماء هو الصوت التالي الذي سمعه هاري.

«هل هذا أنت حبيبي؟ هل تسمعني؟».

قال هاري مبتسماً: «طبعاً أسمعك حبيبتى».

«تبدو مثل أميركي منذ الآن. لا أستطيع تخيل كيف سيكون حالك بعد ثلاثة أسابيع».

«على الأرجح، سأكون مستعداً للعودة إلى بريستول، وخصوصاً إذا لم يدخل الكتاب إلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً».

«وإذا لم يدخل؟».

«قد أعود إلى الوطن مبكراً».

«يبدو هذا مناسباً بالنسبة إليّ. من أين تتصل؟».

«فندق بيير، لقد وضعوني في أكبر جناح فندقى رأيتَه في حياتى. يتسع السرير لأربعة».

«أحرص فقط على ألا ينام فيه إلا واحد».

«إنه يحوى تكييفاً هوائياً ومذياعاً في الحمام. لم أعرف بعد كيفية تشغيل كل شيء».

«كان ينبغى عليك اصطحاب سيب معك. لكان أتقن كل شيء الآن».

«أو فكك كل شيء، وتركنى أملم الأجزاء من جديد. ولكن كيف حال الصبى؟».

«إنه بخير. في الواقع يبدو أكثر استقراراً بدون مربية».

«هذا أمر مريح. وكيف يسير بحثك عن الأنسة ج سميث؟».

«ببطء، ولكن طُلب منى الذهاب من أجل إجراء مقابلة في ملجأ الدكتور بارناردو بعد ظهر غد».

«يبدو ذلك واعداً».

«سألتقى بالسيد ميتشيل في الصباح، أي أننى سأعرف ما ينبغى عليّ قوله، والأهم من ذلك ربما، ما لا ينبغى عليّ قوله».

«ستكونين على ما يُرام إيها. تذكرى فقط أن مسؤوليتهم هي وضع الأطفال في منازل جيدة. إن قلقي الوحيد هو من رد فعل سيب عند اكتشافه ما تنوين فعله».

«إنه يعلم مسبقاً. لقد أثرتُ الموضوع معه ليلة أمس قبل خلوده للنوم، وما أثار استغرابي هو أنه أَحَبَ الفكرة على ما يبدو. لكنك عندما تُشركُ سيب في أمر فإنه دوماً يثير مشكلة منفصلة».

«وما هي هذه المرة؟».

«إنه يتوقع أن يكون له رأي فيمن نختار، لكن الخبر الجيد هو أنه يريد أختاً».

«قد يكون هذا شائكاً إذا لم يُعجَب بالآنسة ج سميث وورغب بشخص آخر».

«لا أعرف ماذا سنفعل إن حصل ذلك».

«سوف يتوجب علينا إقناعه بطريقة ما بأن جيسيكا هي خياره».

«وكيف نفعل ذلك برأيك؟».

«سأفكر في الأمر».

«تذكر فقط ألا تُقلل من شأنه. إذا فعلنا ذلك فقد يرتد الأمر علينا».

«لنتحدث في الأمر عندما أعود. عليّ أن أسرع عزيزتي، لديّ موعد

غداء مع هارولد جوينزبيرغ».

«بلغه حبي، وتذكر، إنه رجل آخر لا يمكنك تحمل نتائج التقليل من

شأنه. وبينما تفعل ذلك، لا تنسَ أن تسأله عما حدث...».

«لم أنسَ».

«حظاً موفقاً حبيبي. واحرص على الدخول إلى لائحة أكثر الكتب

مبيعاً تلك!».

«أنتِ أسوأ من نتالي».

«من تكون نتالي؟».

«شقاء فاتنة لا تستطيع إبعاد يديها عني».

«يا لك من مُلق يا هاري كليفتون».

* * *

كانت إيما أول الواصلين إلى مسرح محاضرات الجامعة في تلك
الأمسية للاستماع إلى محاضرة البروفيسور سايروس فيلدمان حول
موضوع، بعد أن كسبت الحرب، هل خسرت بريطانيا السلم؟

اختارت مكاناً لها عند طرف صف من المقاعد المائلة في منتصف
القاعة تقريباً. اكتظت القاعة قبل مدة طويلة من الموعد المحدد لدرجة
أن القادمين المتأخرين اضطروا للجلوس على درجات الممر وواحد أو
اثنان منهم جلسا على حافة النوافذ.

ضجت القاعة بالتصفيق عند دخول الحائز مرتين على جائزة بوليتزر
بصحبة نائب رئيس الجامعة. وبعد جلوس الجميع ثانياً قدم السيد
فيليب موريس ضيفه عبر سرد تاريخ موجز عن الحياة المهنية المتميزة
لفيلدمان، من أيامه في الدراسة في برينستون مروراً بتعيينه أصغر
بروفيسور في ستانفورد ووصولاً إلى منحه جائزة بوليتزر الثانية في السنة
السابقة. تلا هذا السرد تصفيق طويل آخر نهض بعده البروفيسور
فيلدمان من مقعده وتوجه نحو المنصة.

أول شيء أثار انتباه إيما بشأن سايروس فيلدمان، حتى قبل بدئه
بالكلام، هو مدى وسامته، أمرٌ لم تذكره أختها جريس في اتصالها. لا بد أن

طوله كان يزيد عن 183 سم بقليل، مع شعر شائب كثيف، ووجه مسفوع بالشمس ذكّر الجميع بالجامعة التي يُدرس فيها. أما بنية جسده الرياضية فكانت تُكذب عمره وتوحي بأنه كان يمضي في الصالة الرياضية تقريباً نفس العدد من الساعات التي كان يمضيها في المكتبة.

في اللحظة التي بدأ بالتحدث فيها أُسرت إيما بطاقة فيلدمان الجامعة وخلال لحظات جعل الجميع في القاعة يجلسون على أطراف مقاعدهم. بدأ الطلاب يدوّنون بشكل محموم كل كلمة كان يقولها فندمت إيما لعدم جلب قلم ودفتر ملاحظات معها.

مع أنه كان يتحدث بدون أوراق إلا أن البروفيسور انتقل برشاقة من موضوع لآخر: دور وول ستريت بعد الحرب، والدولار بصفته عملة العالم الجديدة، والنفط الذي سيصبح السلعة التي تهيمن على النصف الثاني من القرن وربما ما بعده، ومستقبل دور صندوق النقد الدولي، وما إذا كانت أميركا ستظل ملتزمة بمعيار الذهب.

مع اقتراب محاضرتة من نهايتها، أسفت إيما لأنه لم يتطرق إلا نادراً إلى موضوع النقل، مع ذكر عابر للتغيير الذي ستحدثه الطائرة على النظام العالمي الجديد بالنسبة إلى الأعمال والسياحة معاً. ومثل أي محترف ذكّر جمهوره بأنه كتب كتاباً حول الموضوع لن تنتظر إيما الكريسمس للحصول على نسخة منه. وقد جعلها هذا تفكر في هاري وتأمل بأن تكون جولته في أميركا تسير بشكل حسن أيضاً.

بعد شرائها نسخة من كتاب «النظام العالمي الجديد»، انضمت إيما إلى صف طويل من الأشخاص الذين كانوا ينتظرون توقيع نسخهم. وقبل بلوغها مقدمة الصف أوشكت إيما على إنهاء قراءة الفصل الأول، وكانت

تساءل إن كان سيُبدى استعداداً لمنحها بضع لحظات لشرح آرائه بخصوص مستقبل صناعة الشحن البريطانية.

وضعت الكتاب على الطاولة أمامه وابتسمت له.

«إلى من سأوقعه؟».

قررت اغتنام الفرصة فقالت: «إيما بارينغتون».

نظر بتمعن إليها ثم قال: «هل لديك أي صلة بالسيد الراحل ولتر

بارينغتون؟».

قالت إيما بفخر: «إنه جدي».

«لقد سمعته يحاضر مرات كثيرة حول دور صناعة الشحن في حال

دخلت أميركا الحرب العالمية الأولى. كنتُ طالباً آنذاك، وقد علمني في ساعة واحدة ما لم يستطع أساتذتي تعليمي إياه في فصل دراسي بأكمله».

ردت إيما ابتسامته بابتسامة مقابلة وقالت: «وعلمني الكثير أيضاً».

قال فيلدمان: «كان لديّ الكثير من الأسئلة التي وددت طرحها عليه

لكنه كان مضطراً للحاق بالقطار العائد إلى واشنطن في تلك الليلة، ولم أراه بعد ذلك أبداً».

قالت إيما: «ولدي الكثير من الأسئلة أود طرحها عليك. في الواقع،

بحاجة قد تكون أكثر دقة».

نظر فيلدمان إلى الصف المنتظر وقال: «أعتقد أن هذا لا يجب أن

يستغرق أكثر من نصف ساعة أخرى، وبما أنني مضطر لركوب القطار من

أجل العودة إلى واشنطن في هذه الليلة، فقد نتمكن من التحدث على
انفراد قبل مغادرتي آنسة بارينغتون؟».

بعد الترحيب بهاري في نادي هارفارد سأل هارولد جوينزبيرغ:
«وكيف حال عزيزتي إيما؟».

أجابه هاري: «لقد تحدثتُ معها منذ قليل بالهاتف. إنها ترسل لك حبها وتشعر بخيبة الأمل لأنها لم تتمكن من الانضمام إلينا».

«وأنا أيضاً. أرجو أن تخبرها أنني لن أقبل أية أعذار في المرة التالية».
قاد جوينزبيرغ ضيفه إلى قاعة الطعام، ثم جلسا حول ما كان واضحاً أنها طاولته المعتادة في إحدى الزوايا. وبينما كان النادل يقدم لهما لائحة المأكولات، أضاف: «آمل أن تجد بيير كما تشتهي».

«إنه رائع، فقط لو أنني أعرف كيفية إيقاف الدُش».

ضحك جوينزبيرغ وقال: «لربما يجدر بك أن تطلب من الأنسة ريدوود أن تأتي لنجدتك».

«إذا فعلت، فلست واثقاً إن كان باستطاعتي إيقافها هي».

«آه، إذن لقد أخضعتك مسبقاً لمحاضرتها حول أهمية إدخال بدون أي مجازفة إلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً بأسرع وقت ممكن».

«سيدة رائعة».

«لهذا السبب جعلتها مديرة، رغم اعتراضات عدة مدراء لم يرغبوا بوجود امرأة في مجلس الإدارة».

قال هاري: «إيها ستكون فخورة بك، وأؤكد لك بأن الأنسة ريدود حذرتني من العواقب في حال أخفقتُ».

«هذه هي نتالي. وتذكر، إنها وحدها التي تقرر إن كنت ستعود إلى الوطن بالطائرة أم بزورق تجديف».

كان يمكن أن يضحك هاري لكنه لم يكن واثقاً إن كان ناشره يمزح. قال جوينزبيرغ: «كنت أود أن أدعوها للانضمام إلينا على الغداء، ولكن لعلك لاحظت أن نادي هارفارد لا يسمح بتواجد نساء في بنائه... لا تخبر إيها».

«لدي شعور بأنك ستري نساء يتناولن الطعام في نادي هارفارد قبل وقت طويل من رؤية واحدة منهن في أي ناد للرجال في شارع بول مول أو سانت جيمس».

قال جوينزبيرغ: «قبل أن نتحدث حول الجولة أريد أن أسمع كل شيء فعلتماه أنت وإيها منذ أن غادرت نيويورك. كيف فزت بالنجمة الفضية؟ هل حصلت إيها على عمل؟ كيف كان رد فعل سياستيان على مقابلة والده للمرة الأولى؟ و...».

«ولقد أصرت إيها على ألا أعود إلى لندن دون أن أعرف ما حدث لسيفتون جيلكس».

«هل نطلب أولاً؟ لست مهتماً بالتفكير في سيفتون جيلكس على معدة خاوية».

* * *

بعد توقيعه الكتاب الأخير، قال البروفيسور فيلدمان: «قد لا أستقل القطار إلى واشنطن، لكنني مضطر للأسف للعودة إلى لندن الليلة آنسة بارينغتون. سوف أتحدث في كلية الاقتصاد في لندن في العاشرة من صباح غد، لذا فإنني لا أستطيع أن أخصص لك سوى دقائق قليلة».

حاولت إيما عدم إبداء خيبة أملها.

قال فيلدمان: «إلا إذا...».

«إلا إذا؟».

«إلا إذا أحببت الانضمام إليّ في الرحلة إلى لندن، وفي هذه الحالة ستحصلين على انتباهي الكامل لمدة ساعتين على الأقل».

ترددت إيما قبل أن تقول: «يجب عليّ إجراء اتصال هاتفي».

وبعد عشرين دقيقة، كانت تجلس في عربة في الدرجة الأولى قبالة البروفيسور فيلدمان، الذي سألها السؤال الأول.

«إذن آنسة بارينغتون، هل لا تزال عائلتك تملك شركة الشحن التي تحمل اسمها المميز؟».

«أجل، تملك أمي اثنين وعشرين بالمائة منها؟»

«هذا يجب أن يمنح العائلة سيطرة كافية، وهذا أهم شيء في أية شركة، طالما لا يوجد شخص آخر يضع يده على أكثر من اثنين وعشرين بالمائة».

«أخي جيلز لا يهتم كثيراً بشؤون الشركة. إنه عضو في البرلمان ولا يحضر حتى الاجتماع العام السنوي. لكنني أحضره، بروفيسور، ولهذا السبب كنت بحاجة إلى التحدث معك».

«نادني سايروس من فضلك. لقد بلغت هذا السن لكنني لا أريد أن تذكرني شابة جميلة كم أنا عجوز».

فكرت إيما في داخلها بأن جريس محقة بخصوص أمر واحد، وقررت الاستفادة منه. فردت ابتسامته قبل أن تقول: «ما هي المشاكل التي تتصورها بالنسبة إلى صناعة الشحن خلال العقد التالي؟ رئيسنا الجديد، السيد ويليام ترافيرز...».

قاطعها فيلدمان قائلاً: «رجل من الطراز الأول. كانت شركة كونارد حمقاء لتترك مثل هذا الشخص القدير يرحل».

«يفكر السيد ويليام في إضافة سفينة ركاب جديدة إلى أسطولنا».

قال فيلدمان وهو يضرب بقبضته المقعد بجانبه ما تسبب بتصاعد سحابة من الغبار في الجو: «جنون!» وقبل أن تتمكن إيما من السؤال عن السبب، أضاف قائلاً: «ما لم تكونوا تملكون فائضاً من المال تحتاجون للتخلص منه، أو هناك ميزات ضريبية لصناعة الشحن البريطانية لم يخبرني أحد بشأنها».

«ليس هناك أي منهما، على حد علمي».

«حان الوقت لمواجهة الحقائق إذن. إن الطائرة توشك على تحويل سفن الركاب إلى ديناصورات طافية. لماذا يستغرق شخص عاقل خمسة

أيام لعبور المحيط الأطلسي حين يكون بإمكانه القيام بالرحلة نفسها في غضون ثماني عشرة ساعة بواسطة الطائرة؟».

قالت إيماء، مستذكرةً كلمات السيد ويليام في الاجتماع السنوي العام: «أكثر راحة؟ خوف من الطيران؟ ستصل في حال أفضل؟».

قال فيلدمان: «قديمة وبائدة يا سيدي الشابة. سيتوجب عليك الخروج بشيء أفضل من هذا إذا أردت إقناعي. لا، الحقيقة هي أن رجل الأعمال العصري، وحتى السائح المغامر، يريد اختصار الوقت الذي يستغرقه لبلوغ وجهته المقصودة، الأمر الذي سيُغرق، وأنا أعني يُغرق، عمل سفن الركاب».

«وعلى المدى الطويل؟».

«ليس لديك ذلك المدى؟».

«ماذا تنصحنا أن نفعل إذا؟».

«استثمار أية نقود إضافية تملكونها في بناء مزيد من سفن الشحن. لن تكون الطائرات قادرة أبداً على حمل أشياء ضخمة أو ثقيلة مثل السيارات أو ماكينات المصانع أو حتى الأغذية».

«كيف أقنع السيد ويليام بذلك؟».

ضرب بقبضة يده على المقعد ثانيةً وقال: «أوضحني موقفك في اجتماع مجلس الإدارة التالي».

«لكنني لست عضوة في المجلس».

«لست عضوة في المجلس؟».

«لا، ولا أستطيع تخيل شركة بارينغتون تُعين امرأة مديرة في يوم من الأيام».

قال فيلدمان بصوت أعلى نبرةً: «ليس لديهم أي خيار. تملك أمك اثنين وعشرين بالمائة من أسهم الشركة. باستطاعتك المطالبة بمكان في مجلس الإدارة».

«لكنني لست مؤهلة ولن تحل هذه المشكلة رحلة بالقطار لمدة ساعتين حتى لو كانت مع حائز على جائزة بوليتزر».

«إذاً فقد حان الوقت لتؤهلي نفسك».

«ماذا تقترح؟ لأنه لا توجد جامعة في إنجلترا حسب علمي تملك درجة مخصصة للتجارة في مناهجها».

«سيتوجب عليك إذن أخذ إجازة لمدة ثلاث سنوات والانضمام إليّ في ستانفورد».

قالت إيما، كاشفةً غطاءها: «لا أظن أن زوجي أو ابني الصغير سيفكران كثيراً في هذه الفكرة».

أسكتَ جوابها البروفيسور لبعض الوقت قبل يقول أخيراً: «هل يمكنك دفع ثمن طابع بعشرة سنتات؟».

قالت إيما بتردد، غير واثقة مما كانت تُقحم نفسها فيه: «أجل».

«إذاً سأكون سعيداً لتسجيلك كطالبة في ستانفورد في الخريف».

«لكنني شرحتُ ...».

قاطعها فيلدمان قائلاً: «لقد ذكرتِ، بدون تحفظ، أنك تستطيعين دفع ثمن طابع بقيمة عشرة سنتات».

أومات إيما برأسها دلالةً على الموافقة.

«حسنٌ، لقد أقر الكونغرس منذ مدة وجيزة قانوناً يسمح لأفراد الجيش الأميركي الذين يخدمون في الخارج التسجيل للحصول على شهادة التجارة دون الحاجة لحضور المحاضرات شخصياً».

«لكنني لست أميركية، وبالتأكيد لا أخدم في الخارج».

«صحيح، لكنك ستجدين كلمة حلفاء مكتوبة بشكل خفي بأحرف صغيرة، تحت بند استثناءات خاصة، وأنا متأكد تماماً بأنك تستطيعين الاستفادة منها. هذا على فرض أنك جدية بخصوص مستقبل شركة عائلتك على المدى الطويل».

«أجل، بالتأكيد. ولكن ماذا تتوقع مني؟».

«حالما أسجلك كطالبة في جامعة ستانفورد، سأرسل لك قائمة كتب المنهاج الدراسي لسنتك الأولى، إضافة إلى كاسيتات تحوي تسجيلات لكل محاضرة أعطيها. وفوق ذلك سأحدد لك مقالاً لتكتبه كل أسبوع، وسأعيده لك بعد تقييمه. وإذا كان بوسعك دفع أكثر من عشرة سنتات، يمكننا التحدث على الهاتف من وقت لآخر».

«متى أبدأ؟».

«هذا الخريف، ولكن انتبهي، هناك اختبارات تقييمية في كل ربع فصل تقرر إن كان سيُسمح لك مواصلة المنهاج». كان القطار حينئذ

يوشك على التوقف في محطة بادينغتون. «فإذا لم تنجحي فيها، سوف تُستبعدين».

«هل أنت مستعد لفعل كل ذلك بسبب لقاء واحد مع جدي؟».

«في الواقع، أعتزف أنني كنت آمل أن تنضمي إليّ لتناول العشاء في مطعم سافوي هذا المساء كي نتحدث حول مستقبل صناعة بناء السفن بتفصيل أكبر».

قالت إيما وهي تطبع قبلة على خده: «يا لها من فكرة لطيفة، لكنني للأسف اشتريت تذكرة عودة وسأعود إلى منزلي هذا المساء».

* * *

رغم أن هاري لم يكن قد عرف كيف يشغل المذياع بعد، إلا أنه على الأقل أتقن استعمال صنبوري الماء البارد والساخن في الدش. بعد انتهائه من تجفيف جسمه، انتقى قميصاً مكويّاً للتو، وربطة عنق حريرية أهدته إيما في عيد ميلاده وبذلة كانت أمه ستعتبرها مناسبة لأيام الأحد. من نظرة واحدة إلى المرأة كان مرغماً على الاعتراف لنفسه بأنه لم يكن ليعتبر عصرياً في أي من جانبي المحيط الأطلسي.

خرج هاري من الفندق إلى الشارع الخامس قبل الساعة الثامنة بقليل وراح يمشي باتجاه الشارع 64 والحديقة. وبعد بضع دقائق فقط كان يقف أمام منزل رائع مبني من الحجارة الرملية. تحقق من ساعته متسائلاً حول التوقيت الذي يمكن أن يُعتبر متأخراً في نيويورك. تذكّر إيما حين أخبرته أنها شعرت بتوتر شديد من فكرة لقاء عمه والدها فيليس لدرجة أنها تجولت في أرجاء الحي قبل استجماع ما يكفي من الشجاعة

لصعود الدرجات المؤدية إلى الباب الأمامي، وحتى حينئذ لم تدرك أنها ضغطت على الجرس المكتوب عليه «الباعة».

صعد هاري درجات السلم ثم طرق بقوة على الباب بواسطة المطرقة النحاسية الثقيلة. وبينما كان ينتظر الباب ليُفتح أحس كما لو أنه يسمع إيما تعترض عليه بقولها، لا تسخر يا ولد.

فُتح الباب وظهر كبير خدم يرتدي سترة ذات ذيل وقال: «مساء الخير سيد كليفتون. السيدة ستيوارت تنتظرك في غرفة الضيوف. هلا تتفضل باللحاق بي؟» من الواضح أن كبير الخدم كان ينتظر قدومه.

قال هاري رغم أنه لم يرَ كبير الخدم من قبل: «مساء الخير باركر». اعتقدَ هاري بأنه لاحظ أثر ابتسامة بينما كان باركر يقوده عبر الممر نحو مصعد مفتوح. بعد دخولهما إلى المصعد أغلق باركر الشبك ثم ضغط على زر ولم يتحدث مجدداً إلى أن وصلا الطابق الثالث. فتح الباب ثم سبقَ هاري إلى غرفة الضيوف وقال: «السيد هاري كليفتون مدام».

كانت هناك سيدة طويلة أنيقة الثياب تقف وسط الغرفة وتحدث مع رجل افترض هاري أنه لا بد أن يكون ابنها.

سارت العمة فيليس على الفور باتجاه هاري ودون أن تقول أية كلمة عانقته بقوة كانت ستثير إعجاب أي مدافع خط خلفي في كرة القدم الأميركية. وعندما أفلتته أخيراً قدمت له ابناً أليستر الذي صافحه بحرارة.

قال هاري: «إنه لشرف لي أن أقابل الرجل الذي أنهى حياة سيفتون جيلكس المهنية».

انحنى أليستر قليلاً للإطراء.

قالت فيليس بينما كان باركر يقدم لضييفها كأساً من النبيذ الإسباني: «وأنا لعبتُ دوراً صغيراً في سقوط ذلك الرجل». أرشدت هاري إلى مقعد مريح بجانب الموقد وأضافت: «ولكن، لا تشغلني أبداً بالحديث عن جيلكس لأنني مهتمة أكثر بسماع أخبار إيما وماذا فعلت».

استغرق هاري بعض الوقت لاطلاع العمدة فيليس على كل ما فعلته إيما منذ مغادرتها نيويورك، وخصوصاً لأنها وأليستر ظلا يقاطعانه بالأسئلة. ولم ينتقلا إلى موضوع آخر إلا حين عاد كبير الخدم ليعلن أن العشاء أصبح جاهزاً.

سأله أليستر عندما جلسوا على مقاعدهم حول المائدة: «هل تستمتع بزيارتك؟».

«أعتقد أنني كنت أفضل أن أُعتقلَ بتهمة جريمة قتل. التعامل مع ذلك أسهل بكثير».

«إلى هذه الدرجة من السوء؟».

«أشد سوءاً في بعض الجوانب». وبينما كانت خادمة تضع طبقاً من المرق الأسكتلندي أمامه، أضاف: «كما تعلم، لستُ بارعاً كثيراً في ترويج نفسي. كنت أرجو أكثر أن يتحدث الكتاب عن نفسه».

قالت العمدة فيليس: «فكر ثانيةً. ما عليك إلا أن تتذكر أن نيويورك ليست فرعاً من بلومزبوري. انسَ التهذيب والتحفظ في التعبير والفكاهة المبنية على تناقض المعاني. مهما كان ذلك يعارض طبيعتك، فسيتوجب عليك تعلم كيف تروج لسلعك مثل بائع جوال في إيست إند».

قال أليستر وهو يرفع صوته: «أنا فخور لأنني كاتب إنجلترا الأنجح».

قال هاري: «أما أنا فلا، وبدرجة كبيرة».

انضمت فيليس إلى التمثيلية بقولها: «لقد تأثرتُ برد فعل الشعب الأميركي على بدون أي مجازفة».

قال هاري وفمه مليء بالطعام: «هذا فقط لأن أحداً لم يقرأه».

أضاف أليستر: «مثل ديكينز ودونان دويل ووايلد، أنا واثق بأن الولايات المتحدة ستكون سوقي الأكبر».

قال هاري بينما كان طبق مرقه يُبَعَد من أمامه: «إنني أبيع عدداً أكبر من الكتب في سوق هاربورو مما أبيعُه في نيويورك. من الواضح تماماً أنه يجدر بالعمة فيليس أن تأخذ مكاني في جولة الكتاب، وينبغي عليّ العودة إلى إنجلترا».

فقالت فيليس: «سأكون مسرورة جداً لفعل ذلك. لو أنني فقط أملك موهبتك».

وضع هاري لنفسه شريحة لحم بقر مشوي وكثيراً من البطاطا، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يبدأ بالشعور بالاسترخاء حين راحت فيليس وأليستر يطرانه بحكايات حول مآثر إيهما عندما جاءت إلى نيويورك بحثاً عنه. سُر هاري لسماع نسختها عما حدث، وقد ذكره ذلك فقط كم كان محظوظاً بأن ينتهي به المطاف نائماً في السرير المجاور لسرير جيلز عندما ذهب للمرة الأولى إلى مدرسة سانت بيد. ولو لم يُدعَ لشرب الشاي في

منزل الورد للاحتفال بعيد ميلاد جيلز، لما تمكن ربما من الالتقاء بإيما أبدأً، رغم أنه لم ينظر إليها في ذلك الوقت.

قالت فيليس وهي تُشعل سيجاراً من نوع شيروت: «أنت تدرك أنك لن تكون أبدأً جيداً بما يكفي بالنسبة إليها».

أوما هاري برأسه دلالةً على الإيجاب، مقدراً للمرة الأولى لماذا كانت هذه المرأة الشجاعة مثل جاك العجوز بالنسبة إلى إيما. قال بينه وبين نفسه لو أن العممة فيليس أرسلت إلى الحرب لحازت بالتأكيد على وسام النجمة الفضية.

عندما دقت الساعة معلنةً الحادية عشرة نهض هاري، الذي شرب الكثير من البراندي، مترنحاً عن كرسيه. لم يكن بحاجة لمن يذكره بأن نتالي ستكون واقفة في قاعة انتظار الفندق في السادسة صباحاً منتظرةً إياه لاصطحابه إلى أول مقابلة إذاعية له في اليوم التالي. شكرَ مضيفته على أمسية لن تُنسى فردت شكره بعناق قوي آخر.

ثم قالت: «الآن لا تنس، في كل مقابلة تُجرى معك، فكر كالبريطانيين وتصرف كاليهود. وإذا احتجت في أي وقت إلى كتف لتبكي عليه، أو وجبة مقبولة، نحن مثل مسرح ويندميل لا نُخلق أبدأً».

«شكراً».

قال أليستر: «وعندما تتحدث مع إيما لا تنس أن تبلغها حبنا، واحرص على تأنيبها لعدم مرافقتك في هذه الرحلة».

قرر هاري أن الوقت لم يكن مناسباً لإبلاغهما بشأن سياستيان ومشكلة فرط نشاطه بحسب وصف الأطباء.

انحسرَ الثلاثة في المصعد ثم تلقى هاري عناقاً أخيراً قبل أن يفتح باركر الباب الأمامي ويعود مجدداً إلى شوارع مانهاتن.

وبعد أن سار مسافة قصيرة قال بصوت عال: «أوه، اللعنة» قبل أن يستدير ويرجع أدراجه عدواً إلى منزل فيليس ويصعد الدرجات ويترك على الباب الأمامي. لم يظهر كبير الخدم بسرعة هذه المرة.

قال هاري: «أنا بحاجة لرؤية السيدة ستيفارت بسرعة. آمل أنها لم تخلد إلى النوم بعد».

قال باركر: «ليس على حد علمي. اتبعني من فضلك». قاد هاري مرة أخرى عبر الرواق نحو المصعد وضغط مجدداً على زر الطابق الثالث.

كانت فيليس تقف بجانب الموقد وتنفث دخان سيجارها عند دخول هاري للمرة الثانية. كانت هي المندهشة هذه المرة.

قال هاري: «أنا آسف جداً لكن إيما لن تغفر لي أبداً إن عدتُ إلى إنجلترا دون أن أكتشف ما حل بذلك المحامي الذي قتل بحمقٍ من قيمتها».

قال أليستر من كرسيه بجانب الموقد: «سيفتون جيلكس. استقال الرجل اللعين أخيراً كشريك رئيسي لجيلكس ومايرز وأبيرناثي، وإن مكرهاً نوعاً ما».

أضافت فيليس: «وبعد فترة قصيرة من ذلك ذهب إلى مينيسوتا واختفى».

قال أليستر: «ولن يعود في المستقبل القريب لأنه مات منذ بضعة أشهر».

قالت فيليس وهي تخدم سيجارها الشيروت: «ابني محامٍ نموذجي. إنه لا يخبرك سوى نصف القصة. لقد حظيت نوبةً جيلكس القلبية الأولى بذكر صغير في نيويورك تايمز، وبعد النوبة الثالثة فقط حصل على فقرة قصيرة وغير مادحة كثيراً في أسفل صفحة الوفيات».

قال أليستر: «وهذا أكثر مما كان يستحق».

قالت فيليس: «أنا أؤيد ذلك، رغم أنه منحني سعادة كبيرة لاكتشاف أن أربعة أشخاص فقط حضروا جنازته».

سألها أليستر: «كيف تعلمين بهذا؟».

«لأنني كنت واحدة منهم».

قال هاري باستغراب بالغ: «سافرتِ كل هذه المسافة إلى مينيسوتا فقط لتحضري جنازة سيفتون جيلكس؟».

«لقد فعلت ذلك بالتأكيد».

سألها أليستر: «ولكن لماذا؟».

«لا يمكنك الوثوق مطلقاً بسيفتون جيلكس. لم أكن سأصدق حقاً أنه كان ميتاً إلى أن رأيت تابوته يُنزل في القبر، وحتى حينئذٍ انتظرتُ إلى أن ردم حفارو القبر الحفرة».

* * *

«اجلسي من فضلك سيدة كليفتون».

قالت إيما وهي تجلس على كرسي خشبي قبالة المشرفين الثلاثة الجالسين على كراسٍ مريحة خلف طاولة طويلة فوق منصة مرتفعة: «شكراً».

قال الرجل الجالس في المنتصف: «اسمي ديفيد سلاتر وأنا سأرأس هذا الاجتماع. اسمحي لي بتقديم زميلي، الأنسة بريثويت والسيد نيدهام».

حاولت إيما إجراء تقييم سريع للمشرفين الثلاثة. كان الرئيس يرتدي بذلة من ثلاث قطع وربطة عنق مدرسية قديمة، وعلى ما يبدو لم تكن هذه اللجنة هي الوحيدة التي يرأسها. وكانت الأنسة بريثويت الجالسة على يمينه ترتدي بذلة من فترة ما قبل الحرب وجورباً صوفياً سميكاً. وكان شعرها مرفوعاً ومعقوداً على شكل كعكة، ما أزال أي شك لدى إيما أنها كانت عانس هذه الأبرشية، في حين أوحى شكل شفيتها بأنها لم تكن تبتسم كثيراً. أما الرجل الجالس على يسار الرئيس فكان أصغر عمراً من زميليه وذكر إيما بأن بريطانيا كانت تخوض حرباً منذ فترة ليست بطويلة. وكان شاربه الكث يوحى بأنه من القوة الجوية الملكية.

قال الرئيس: «لقد درس مجلس الإدارة طلبك باهتمام سيده كليفتون وبعد إذنك نود أن نطرح عليك بضع أسئلة».

قالت إيما محاولة الاسترخاء: «أجل بالتأكيد».

«كم مضى من الوقت وأنت تفكرين في التبرني سيده كليفتون؟».

«منذ أن أدركت أنني لم أكن أقدر على إنجاب طفل آخر». ابتسم الرجلان بتعاطف في حين بقيت الأنسة بريثويت متجهمة.

قال الرئيس وهو ينظر إلى أوراقه: «لقد ذكرتِ في طلبك أنك تفضلين تبني فتاة بعمر الخامسة أو السادسة. هل ثمة سبب محدد لذلك؟».

قالت إيما: «أجل. ابني سيباستيان هو ولدي الوحيد وقد شعرنا أنا وزوجي بأنه سيكون من المفيد بالنسبة إليه أن يربي مع شخص لم يحظَ بكل الميزات والفوائد التي حظي بها منذ الولادة دون أن يُقدر قيمتها». أملت ألا يبدو جوابها محفوظاً، وكان بوسعها أن تُقسم بأن الرئيس وضع إشارة موافق في أحد المربعات.

قال الرئيس: «هل يمكننا الافتراض من جوابك أنه ليست هناك أية تقييدات مالية يمكن أن تعيق تربية طفل ثانٍ؟».

«أبدأً، على الإطلاق سيادة الرئيس. أنا وزوجي نعيش حياة ميسورة». لاحظت إيما أن الرئيس وضع إشارة موافق أخرى.

قال الرئيس: «لدي سؤال واحد آخر فقط. لقد ذكرتِ في طلبك أنك تفكرين في طفل من أية خلفية دينية. هل يمكنني أن أسألك إن كنت منتمية إلى كنيسة محددة؟».

قالت إيما: «مثل الدكتور بارناردو أنا مسيحية. وكان زوجي طالب كورال في كنيسة سانت ميري ريدكليف». ثم أضافت وهي تنظر إلى الرئيس مباشرة، «قبل ذهابه إلى مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة حيث أصبح المرتل الأول في جوقتها. أما أنا فقد تعلمتُ في مدرسة ريد ميدس قبل أن أحصل على منحة للدراسة في أوكسفورد».

لمس الرئيس ربطة عنقه فأحست إيما بأن الأمور كانت تسير على خير ما يرام إلى أن نقرت الأنسة بريثويت بقلمها الرصاص على الطاولة، فأشار الرئيس برأسه إلى جهتها.

«لقد ذكرتِ زوجك سيدة كليفتون. هل يمكنني أن أسأل عن سبب عدم وجوده معك اليوم؟».

«إنه في الولايات المتحدة في جولة ترويج كتاب. سوف يعود خلال أسبوعين».

«هل يغيب كثيراً؟».

«لا. نادراً في الحقيقة. زوجي كاتب محترف، لذا فهو يتواجد في المنزل في معظم الوقت».

قالت الأنسة بريثويت مع ما يشبه الابتسامة: «ولكن لا بد أنه يحتاج إلى زيارة إحدى المكتبات بين الحين والآخر».

أجابت إيما بسرعة: «لا، نحن نملك مكتبتنا الخاصة». لكنها ندمت لقولها ذلك لحظة تلفظها به.

«وهل تعملين؟» كانت طريقة السؤال تبدو كما لو أن ذلك جريمة.

«لا، مع أنني أساعد زوجي بأية طريقة ممكنة. لكنني أفكر في أن أكون زوجةً وأماً بدوام كامل». رغم أن هاري هو من نصحتها بقول ذلك إلا أنه كان يعلم تماماً أن إيما لم تكن مؤمنة به، وقد قل إيمانها به أكثر بعد لقائها مع سايروس فيلدمان.

سألت بريثويت: «وكم مضى على زواجكما سيدة كليفتون؟».

«أكثر من ثلاث سنوات بقليل».

«لكنني أرى من استمارة طلبك أن عمر ابنكما سيباستيان ثماني

سنوات».

«أجل، صحيح. لقد عقدنا أنا وهاري خطبتنا في 1939، لكنه شعر بأن من واجبه الانضمام للجيش حتى قبل إعلان الحرب».

كانت الأنسة بريثويت على وشك أن تطرح سؤالاً آخر حين انحنى الرجل الجالس على يسار الرئيس إلى الأمام وقال: «إذن فقد تزوجتما بعد انتهاء الحرب مباشرة سيده كليفتون؟».

فقالت إيما وهي تنظر إلى رجل بذراع واحدة فقط: «للأسف لا. لقد أصيب زوجي بجرح بليغ بواسطة لغم أرضي ألماني قبل أيام من انتهاء الحرب، وتطلب الأمر بعض الوقت ليكون مؤهلاً بما يكفي للخروج من المستشفى».

كانت ملامح الأنسة بريثويت توحى بأنها لا تزال غير متعاطفة. تساءلت إيما إن كان يمكن أن... فقررت أن تجازف رغم أن هاري لم يكن سيوافقها على ذلك.

قالت وهي تنظر بتركيز إلى الرجل ذي الذراع الواحدة: «لكنني أعتبر نفسي بين المحظوظات سيد نيدهام. أشعر بالتعاطف مع أولئك النساء اللواتي لم يعد أزواجهن وخطباؤهن وأحباؤهن إلى عوائلهم بعد تقديمهم التضحية القصوى لبلدهم».

طأطأت الأنسة بريثويت رأسها وقال الرئيس: «شكراً لك سيده كليفتون. سيتصل بك شخص ما في المستقبل القريب».

وقفت نتالي في صالة الانتظار بانتظاره في الساعة السادسة صباحاً. وكانت تبدو نشيطة ومبتهجة كما كانت عندما تركها في اليوم السابق. وما أن جلسا في مؤخرة الليموزين حتى فتحت ملفها المتوقع.

«ستبدأ اليوم بإجراء مقابلة مع مات جاكوبس على NBC، البرنامج الصباحي الأعلى تصنيفاً في البلد. الخبر الجيد هو أنك مُنحت فترة الذروة، الأمر الذي يعني أنك ستكون في وقت ما بين السابعة وأربعين دقيقة والثامنة صباحاً. أما الخبر غير الجيد كثيراً فهو أنك ستشاركه مع كلارك جيبيل، وميل بلانك، صوت الأرنب باغز باني وتويتي باي. يقوم جيبيل بترويج فيلمه الأخير، الرجوع إلى الوطن، الذي يلعب فيه دور البطولة إلى جانب لانا تيرنر».

قال هاري، محاولاً عدم الضحك: «وميل بلانك؟».

«إنه يحتفل بمرور عقد على عمله مع وورنر براذرز. الآن، مع الأخذ بعين الاعتبار دعايات الرعاية، أقدر أنك ستكون على الهواء لمدة أربع إلى خمس دقائق، وهو ما يجب عليك أن تفكر فيه على أنه 240 إلى 300 ثانية. لا يمكنني أن أشدد كفاية على مدى أهمية هذا البرنامج بالنسبة إلى إطلاق حملتنا بأكملها. لن تفعل أي شيء أهم منه في الأسابيع الثلاثة التالية. وهو لن يضعك على قائمة أكثر الكتب مبيعاً فحسب بل إذا سار الأمر على ما يرام فسيرغب كل برنامج كبير في البلد بحجز موعد معك».

كان هاري يشعر أن دقائق قلبه تزداد مع كل ثانية تمر.

وبينما كانت الليموزين تركز خارج استوديوهات NBC في مركز
روكفيلر، قالت نتالي: «كل ما عليك فعله هو إيجاد أي عذر لذكر بدون
أي مجازفة».

لم يستطع هاري تصديق المنظر الذي قابله عند خروجه من السيارة
إلى الرصيف. كان المدخل الضيق الذي يُفضي إلى واجهة المبنى مُسوراً
ومكتظاً على الجانبين بمعجبين يصرخون ويهتفون. وبينما كان يشق
طريقه عبر الحشود المترقبة لم يكن بحاجة لمن يقول له إن 90 بالمائة
منهم جاؤوا لرؤية كلارك جيبيل، و 9 بالمائة لرؤية ميل بلانك، وربما 1
بالمائة...

صاح أحدهم بينما كان هاري يُسرع للدخول: «من يكون هذا؟».
لربما ليس حتى 1 بالمائة.

حالما دخل بأمان إلى المبنى رافقه مشرفٌ إلى الغرفة الخضراء
وأطلعه على التواقيت.

«سيكون السيد جيبيل على الهواء في السابعة وأربعين دقيقة. سيليه
السيد ميل بلانك في السابعة وخمسين، ونأمل أن نضعك على الهواء في
السابعة وخمس وخمسين في الفترة التي تسبق الأخبار».
قال هاري وهو يجلس ويحاول تهدئة نفسه: «شكراً».

دخل ميل إلى الغرفة الخضراء في السابعة وثلاثين دقيقة ونظر إلى
هاري كما لو أنه كان يتوقع أن يُطلب منه توقيعه. وبعد بضع دقائق
دخل السيد جيبيل بصحبة مرافقيه. دُهِش هاري لرؤية نجم السينما
يرتدي بذلة رسمية ويحمل بيده كأساً من الويسكي. قال جيبيل لميل

بلانك إن هذه الكأس لا تُعتبر شراباً صباحياً لأنه لم يخلد للنوم بعد.
ضحك ميل بينما كان جيبيل يُؤخذ على عجل من الغرفة ثم ترك هاري
لوحده مع ميل.

قال ميل وهو يجلس بجانب هاري: «أصغ جيداً لجيبيل. في اللحظة
التي يشتعل فيها الضوء الأحمر لن يدرك أحد، بمن فيهم جمهور
الاستوديو، أنه كان يملك أي شيء للشرب سوى عصير البرتقال، وعند
خروجه سيكون الجميع متلهفين لرؤية فيلمه الجديد».

تبين أن ميل محق بالفعل فقد أبدى جيبيل احترافيةً عالية المستوى
حيث ذكر عنوان فيلمه الجديد مرة واحدة على الأقل كل ثلاثين ثانية.
ورغم أن هاري قرأ في مكان ما أنه لم يكن أي من جيبيل وتيرنر يطبق
الآخر، إلا أن جيبيل تحدث بلطف بالغ عن شريكته في البطولة لدرجة
كانت ستقنع أي مستمع شكوك بأنهما كانا صديقين حميمين. وحدها
نتالي لم تكن سعيدة، لأن جيبيل تجاوز فترته المخصصة باثنتين وأربعين
ثانية.

أخذ ميل إلى الاستوديو خلال الاستراحة الدعائية. تعلم هاري الكثير
من أداء ميل حيث حرص على ذكر كل من سيلفيستر وتويتتي باي وباغز
باني، لكن أكثر ما لفت انتباهه هو عندما طرح عليه مات جاكوبس ما
بدا بوضوح أنه السؤال الأخير حيث واصل ميل الكلام وسرق سبعة
وثلاثين ثانية أخرى من وقته الثمين.

خلال الفترة الدعائية التالية، جاء دور هاري ليُقَاد إلى المقصلة.
جلس قبالة مُضيفه وابتسم بشكل متوتر. كان جاكوبس يتفحص نسخة

من بدون أي مجازفة بدت وكأنها لم تُفَتَّح من قبل. ثم رفع رأسه ونظر إلى هاري وابتسم له بالمقابل.

«عندما يظهر الضوء الأحمر ستكون على الهواء». هذا كل ما قاله جاكوبس قبل أن يعود إلى الصفحة الأولى. نظر هاري إلى مؤشر الثواني في ساعة الاستوديو فوجد أنها كانت تشير إلى الثامنة إلا أربع دقائق. استمع إلى دعاية للنيسكافيه بينما كان جاكوبس يكتب بضع ملاحظات على دفتر أمامه. تمنى لو أنه كان في المنزل يتناول طعام العشاء مع إيماء، بل حتى لو أنه كان يواجه ألف ألماني عند قمة جبل كليمو بدلاً من مواجهة 11 مليون أميركي يستمتعون بإفطارهم.

قال جاكوبس أمام ميكروفونه: «صباح الخير. ويا له من صباح. أولاً جبل ثم ميل، وها نحن نختم هذه الساعة من برنامج الصباح مع ضيف خاص من بريطانيا العظمى، هاري» - نظر بسرعة إلى غلاف الكتاب - «كليفتون. الآن، قبل أن نتحدث حول كتابك الجديد يا هاري، هل يمكنني التأكيد بأن المرة الأخيرة التي وطأت فيها قدمك أميركا اعتُقلتَ بتهمة ارتكاب جريمة قتل؟».

أجابه هاري: «أجل لكن الأمر كله كان سوء فهم».

قال جاكوبس مع ضحكة مثيرة للقلق: «هذا ما يقوله الجميع، ولكن ما يريد مستمعو الأحد عشر مليوناً أن يعرفوه، ما دمت موجوداً هنا، هو، هل ستجتمع مع بعض رفاقك المحكومين؟».

«لا، هذا ليس سبب وجودي في أميركا. لقد كتبتُ...».

قاطعته جاكوبس قائلاً: «إذن يا هاري، أخبرني حول انطباعك الثاني عن أميركا».

«إنه بلد رائع. لقد جعلني النيويوركيون أشعر بأنني شخص مرحب به جداً، و...».

«حتى سائقو سيارات الأجرة؟».

«حتى سائقو سيارات الأجرة، وقد التقيت هذا الصباح مع كلارك جيبيل». مكتبة الرمحي أحمد

«هل جيبيل مشهور في إنجلترا؟».

«أوه طبعاً، إنه مشهور جداً، مثل الأنسة تيرنر. في الواقع إنني متشوق لمشاهدة فيلمهما الجديد».

«نحن ندعوها *seivom* هنا يا هاري، ولكن يا للأسف». سكت جاكوبس لينظر إلى مؤشر الثواني في الساعة قبل أن يضيف: «هاري، إنه لأمر رائع استضافتك في البرنامج وحقاً موفقاً مع كتابك الجديد. بعد بضع دقائق من رعاتنا، سوف نعود عند رأس الساعة مع أخبار الساعة الثامنة. أما بالنسبة لي، أنا مات جاكوبس، فقد حان وقت توديعكم، أتمنى لكم يوماً جميلاً».

وانطفأ الضوء الأحمر.

وقف جاكوبس وصافح هاري ثم قال: «آسف لأننا لم نحظ بمزيد من الوقت للتحدث عن كتابك. أحببتُ الغلاف».

* * *

رشفت إيمًا من قهوتها الصباحية قبل أن تفتح الرسالة.

عزيزتي سيدة كليفتون،

نشكر حضورك الاجتماع في الأسبوع الماضي. يسرني إبلاغك بأننا نود رفع طلبك إلى المرحلة الثانية.

أرادت إيهما الاتصال بهاري على الفور لكنها كانت تعلم أن التوقيت كان منتصف الليل في أميركا، فضلاً عن أنها لم تكن متأكدة من المدينة التي كان متواجداً فيها آنذاك.

لدينا عدة مرشحين لك ولزوجك للتفكير فيهم، عدد منهم يقيمون في ملامينا في تونتون وإكستر وبريدجووتر. سأكون مسرورة لإرسال معلومات حول كل طفل إذا تكلمت بإعلامي بالملجأ الذي تفضلين زيارته أولاً.

المخلص

السيد ديفيد سلاتر

اتصال واحد مع ميتشيل أكد بأن جيسيكاسميث كانت في ملجأ الدكتور بارناردو في بريدجووتر، لكنها كانت تأمل أن تكون بين الأطفال الذاهبين إلى أستراليا. تحققت إيهما من ساعتها. كانت مضطرة للانتظار حتى منتصف الظهر ليصبح بإمكانها توقع اتصال هاري وإبلاغه بالخبر. بعد ذلك حولت اهتمامها إلى رسالة ثانية ملصق عليها طابع بقيمة عشرة سنتات. لم تكن بحاجة إلى التحقق من ختم البريد لتعرف من أرسلها.

* * *

عند وصول هاري إلى شيكاغو كان كتاب بدون أي مجازفة قد احتل الرقم 33 على لائحة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً، ولم تعد نتالي تضع يدها على ساقه.

قالت نتالي مُطمئنةً: «لا حاجة للخوف. الأسبوع الثاني يكون دائماً الأهم. ولكن، لدينا الكثير من العمل لنقوم به إذا أردنا النجاح في الدخول إلى قائمة الخمسة العشر بحلول الأحد القادم».

مع نهاية الأسبوع الثاني تقريباً غطيا دينفر ودالاس وسان فرانسيسكو، وفي ذلك الوقت كان هاري قد بات مقتنعاً بأن نتالي كانت من بين أولئك الذين لم يقرؤوا الكتاب. ألغت بعض البرامج الجماهيرية مواعده في الدقيقة الأخيرة وبدأ بإمضاء وقت متزايد في مكاتب أصغر فأصغر وتوقيع نسخ أقل فأقل. ورفض واحد أو اثنان من مالكي المكاتب حتى السماح له بفعل ذلك لأنه لم يكن بوسعهما، بحسب تفسير نتالي، إعادة النسخ الموقعة إلى الناشر لاعتبارها سلعاً متضررة.

مع وصولهما إلى لوس أنجلوس، كان بدون أي مجازفة قد زحف إلى المرتبة 28 على قائمة أكثر الكتب مبيعاً ومع بقاء أسبوع واحد فقط لم تستطع نتالي إخفاء خيبة أملها. بدأت بالتلميح إلى أن الكتاب لم يكن يُشترى بالسرعة الكافية، ثم أصبح ذلك أكثر وضوحاً في الصباح التالي عندما نزل هاري لتناول طعام الفطور فوجد شخصاً يُدعى جاستن يجلس قبالة.

قال جاستن: «عادت نتالي إلى نيويورك ليلاً. كانت مضطرة لمقابلة كاتب آخر». لم يكن بحاجة لإضافة أن احتمال وصول ذلك الكاتب إلى

قائمة الكتب الخمسة عشر الأكثر مبيعاً كان أكبر. ولم يكن بوسع هاري أن يلومها.

خلال أسبوعه الأخير، تنقل هاري بشكل متعرج عبر البلد، وظهر في برامج في سياتل وسان دييغو وراي وميامي وأخيراً واشنطن. لكنه بدأ يشعر بالاسترخاء بدون وجود نتالي بجانبه وتذكيرها المتواصل له بخصوص قائمة أكثر الكتب مبيعاً، حتى أنه نجح في ذكر كتابه أكثر من مرة خلال بعض المقابلات الطويلة، وإن كانت في برامج محلية فقط.

قبل عودته إلى نيويورك في اليوم الأخير من جولته، حجز له جاستن في أحد موتيلات المطار وسلمه تذكرة اقتصادية إلى لندن وتمنى له حظاً موفقاً.

* * *

بعد ملء استمارة التقدم لجامعة ستانفورد كتبت إياها رسالة طويلة إلى سايروس للتعبير عن شكرها على جعل الأمر ممكناً بالنسبة إليها. وبعد ذلك حولت اهتمامها إلى طرد ضخم يحوي لمحة عن حياة صوفي بارتون وساندرا ديفيس وجيسكا سميث. تطلب الأمر منها قراءة سريعة فقط لتدرك أي المرشحات كانت المشرفة تفضلها، وهي بالتأكيد لم تكن الأنسة جيسكا سميث.

ماذا سيحدث إذا أيد سياستيان المشرفة، أو الأسوأ من ذلك، إذا قرر أنه يفضل فتاة غير موجودة على اللائحة القصيرة؟ استلقت إياها على سريرها صاحبةً على أمل أن يتصل هاري.

* * *

فكر هاري في الاتصال بإيما لكنه افترض أنها ستكون نائمة حينئذ.
فبدأ بتوضيب أمتعته كي يكون جاهزاً لرحلة الصباح الباكر، ثم استلقى
على السرير، وفكر في كيفية إقناع سيباستيان بأن جيسكا سميث لم تكن
مجرد الفتاة المثالية لتكون أخته، بل خياره الأول أيضاً.

أغمض عينيه ولكن لم يكن هناك أي أمل في اقتناص ولو لحظة نوم
مع هدير المكيف الذي كان يُصدر إيقاعاً ثابتاً كما لو كان يقدم تجربة
أداء لنيل مكان في فرقة تعزف موسيقا الكاليبسو. استلقى هاري على
الفراش الرقيق المتكفل وأراح رأسه على وسادة هشة غطت أذنيه. لم
يكن لديه بالتأكيد حرية الاختيار بين الاستحمام في حوض أو بواسطة
دُش، وإنما مجرد وعاء اغتسال مع مياه بنية تقطر بشكل متواصل.
أغمض عينيه وأعاد عرض الأسابيع الثلاثة السابقة، لقطة لقطة، مثل
فيلم سينمائي مترجرج بالأبيض والأسود. لم يكن هناك أي لون. كم كانت
تلك الفترة مضيعةً لوقت ونقود الجميع. اعترف هاري بينه وبين نفسه
بأنه لم يكن يصلح للقيام بجولة ترويج، وبما أنه لم يستطع حتى إيصال
الكتاب إلى قائمة أعلى خمسة عشر كتاباً بعد عدد لا يُحصى من المقابلات
الإذاعية والمكتوبة، فلعل الوقت حان لإقالة ويليام وورويك ومعه
المحقق الأول دافينبورت والبدء بالبحث عن عمل حقيقي.

كان قد ألمح مدير مدرسة سانت بيد مؤخراً إلى أنهم كانوا يبحثون
عن معلم جديد للغة الإنجليزية، رغم أن هاري كان يعلم أنه لا يصلح
لأن يكون معلماً. كما اقترح جيلز بگرم، أكثر من مرة، على هاري
الانضمام إلى مجلس إدارة شركة بارينغتون من أجل تمثيل مصالح
العائلة. لكنه في الحقيقة لم يكن من العائلة، وفي كل الأحوال، لطالما
رغب بأن يكون كاتباً، وليس رجل أعمال.

ولم يكن مرتاحاً للإقامة في منزل عائلة بارينغتون أيضاً، لكن الكتب لم تعد عليه بما يكفي من المال لشراء منزل يليق بإيما. وما زاد من حرجه هو سؤال سيباستيان البريء عن سبب عدم خروجه للعمل كل صباح مثل كل الآباء الآخرين الذين كان يعرفهم. كان يشعر أحياناً مثل زوج يعيش على نفقة زوجته.

غطى هاري نفسه في السرير بعد منتصف الليل بقليل وقد ازداد توقه للاتصال بإيما ومشاركتها أفكاره، لكن الوقت كان لا يزال الخامسة صباحاً في بريستول، لذا قرر البقاء صاحبياً والاتصال بها بعد ساعتين. وكان يوشك أن يطفئ النور حين سمع طرقاً خفيفاً على الباب. كان واثقاً بأنه وضع لافتة «عدم الإزعاج» على قبضة الباب. لبس رداءه الليلي وتوجه إلى الباب ليفتحه.

«ألف مبروك»، هذا كل ما قالته.

حدق إلى نتالي، التي كانت تمسك بزجاجة شمبانيا وترتدي ثوباً ضيقاً ذا سحاب من الأمام لم يكن بحاجة لدعوة لفتحه.

قال هاري: «على ماذا؟».

«لقد رأيتُ منذ قليل الطبعة الأولى ليوم الأحد من نيويورك تايمز، وحل بدون أي مجازفة في المرتبة الرابعة عشرة. لقد نجحت!».

قال هاري رغم أنه لم يدرك بعد أهمية ما كانت تقوله: «شكراً».

«وبما أنني كنت دائماً من أكبر معجبيك، فكرتُ في أنك قد تود

الاحتفال».

كان بوسعه سماع كلمات العمه فيليس ترن في أذنيه: أنت تدرك أنك لن تكون أبداً جيداً بما يكفي بالنسبة إليها.

قال هاري: «يا لها من فكرة لطيفة. امنحيني لحظة واحدة فقط». عاد إلى داخل الغرفة وأخذ كتاباً عن طاولة جانبية وعاد إليها ثم أخذ زجاجة الشمبانيا من يدها وابتسم ثم قال لها وهو يسلمها نسخة من بدون أي مجازفة: «إذا كنتِ دائماً من أكبر معجبي، فلعل الوقت حان لكي تقرأي هذا». ثم أغلق الباب بسرعة.

جلس هاري على السرير، وصب لنفسه كأساً من الشمبانيا وحجز اتصالاً خارجياً. وكان يوشك أن ينهي الزجاجة حين رن الهاتف. قال بكلمات مغممة: «زحف كتابي إلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً ووصل إلى المرتبة الرابعة عشرة».

قالت إيمّا وهي تكبت تتأوياً: «هذا خبر رائع».

«وهناك شقراء فاتنة تقف خارجاً في الممر تمسك بزجاجة شمبانيا، وهي تحاول كسر بابي».

«أجل، بالتأكيد حبيبي. بالمناسبة، لن تصدق من طلب مني قضاء الليلة معه».

فُتِحَ البابُ وظهرت امرأةٌ ترتدي بذلة زرقاء غامقة ذات قبة بيضاء منشأة وقالت: «أنا المشرفة».

صافحها هاري ثم قدم لها زوجته وابنه.

«تفضلوا إلى مكثبي لتحدث قليلاً قبل أن تقابلوا الفتيات».

قادت المشرفة الثلاثة عبر ممر مغطى بلوحات زاهية الألوان.

توقف سيباستيان عند إحدى اللوحات وقال «تعجبني هذه»، لكن المشرفة لم ترد - من الواضح أنها كانت تعتقد أن الأطفال يجب أن يُروا لا أن يُسمَعوا.

تبعها ثلاثتهم إلى مكثبها، وبعد إغلاق الباب بدأ هاري الحديث بالتعبير عن مدى لهفتهم جميعاً لهذا اللقاء.

فقالت المشرفة: «وكذلك الفتيات. ولكن ينبغي عليّ أولاً أن أشرح بعضاً من قواعد الملجأ لأن اهتمامي الوحيد هو راحة الأطفال».

قال هاري: «بالتأكيد. نحن رهن إشارتك».

«إن الفتيات الثلاث اللواتي أبديتما اهتمامكما بهن، ساندراف و صوفي وجيسيكا، موجودات الآن في درس فنون، الأمر الذي سيتمنحكما الفرصة لمشاهدتهن يتفاعلن مع أطفال آخرين. عندما سننضم إليهن، من الأهمية بمكان أن نتيح لهن متابعة عملهن لأنه ينبغي ألا يشعرن بأنهن

يشاركن في مسابقة، فذلك لن ينتهي إلا بالدموع، وقد تكون له ارتدادات طويلة الأمد. بعد أن رُفض مرةً من قبل، لسن بحاجة لتذكيرهن بتلك التجربة. إذا رأى الأطفال عائلات تتجول، بالطبع سيعرفون أنكم تفكرون في التبني، وإلا فما هو سبب تواجدكم هنا؟ ما لا ينبغي عليهم معرفته هو أنكم تفكرون في ثلاثة منهم فقط. وبالطبع، بعد أن تُقابلوا الفتيات الثلاث قد ترغبان أيضاً في زيارة ملجأنا في تونتون وإكستر قبل أن تحسموا أمركم».

رغب هاري أن يخبر المشرفة أنهما قررا مسبقاً ولكن أمل وإيما أن يبدو الأمر كما لو أن سيباستيان هو الذي اتخذ القرار النهائي. «إذاً، هل نحن مستعدون للانضمام إلى صف الفنون؟».

أجابها سيباستيان وهو يقفز عن كرسيه ويركض نحو الباب: «أجل». قالت إيما وهي تنهض ببطء عن كرسيها: «كيف سنعرف من؟». نظرت المشرفة بوجه عابس إلى سيباستيان قبل أن تقول: «سأقدم لكم عدداً من الأطفال كي لا يشعر أي منهم أنه مُستثنى. قبل الانضمام إليهم، هل لديكم أية أسئلة؟».

كان هاري مندهشاً لأن سيباستيان لم يطرح عشرات الأسئلة واكتفى بالوقوف بجانب الباب منتظراً بفارغ الصبر. وأثناء توجههم نحو صف الفنون، ركض سيباستيان أمامهم في الممر.

فتحت المشرفة باب الصف ثم دخلوا ووقفوا بصمت في المؤخرة. أومأت إلى المعلمة فقالت: «يا أطفال، لقد جاءنا بعض الضيوف».

التفت بعض الأطفال في حين واصل الآخرون الرسم وقالوا بشكل موحد: «مساء الخير سيد وسيدة كليفتون».

فقال هاري وإيما: «مساء الخير». أما سيباستيان فقد بقي صامتاً على غير العادة.

لاحظ هاري أن معظم الأطفال ظلوا مطأطئي الرؤوس وبدوا حزينين إلى حد ما. اقترب من صبي كان يرسم لعبة كرة قدم وابتسم عندما وجد أن الصبي يشجع فريق بريستول سيتي.

تظاهرت إيما أنها كانت تنظر إلى صورة بطاقة، أو ربما قطة، بينما كانت تحاول معرفة أي من الأطفال جيسيكا غير أنها لم تفلح في ذلك. تقدمت إليها المشرفة وقالت: «هذه ساندررا».

قالت إيما: «يا له من رسم رائع يا ساندررا». ارتسمت ابتسمت كبيرة على وجه الفتاة بينما كان سيباستيان ينحني لأخذ نظرة أقرب.

توجه هاري نحو ساندررا وراح يتحدث معها بينما كانت المشرفة تقدم صوفي لإيما وسيباستيان.

قالت صوفي بثقة قبل أن يتمكن أي منهم من سؤالها: «هذا جمل». فسألها سيباستيان: «بسنام واحد أم سنامين؟». فأجابته بنفس الثقة: «بسنامين».

قال سيباستيان: «لكنه يملك سناماً واحداً فقط».

ابتسمت صوفي ورسمت على الفور سناماً آخر للجمل، ثم قالت: «إلى أي مدرسة تذهب؟».

«سأذهب إلى مدرسة سانت بيد في أيلول».

كان هاري منتبهاً لسيباستيان الذي كان يتواصل بشكل جيد مع صوفي فخشي أن يكون قد حسم قراره مسبقاً، لكن سيباستيان حول انتباهه فجأةً إلى إحدى رسومات الفتیان في الوقت الذي كانت فيه المشرفة تقدم هاري إلى جيسिका التي كانت منهمكة جداً في عملها لدرجة أنها لم ترفع رأسها. حاول هاري إثارة انتباهها بعدة طرق لكنه لم يُفلح في كسر تركيز الفتاة. هل كانت خجولة، أو ربما مرعوبة؟ لم يكن بوسع هاري معرفة السبب.

عاد هاردي إلى صوفي التي كانت تتحدث مع إيما حول جَمَلها فسألته إن كان يفضل سناماً أم سنامين. وبينما كان يفكر في السؤال، تركت إيما صوفي وذهبت لتقابل جيسिका لكنها، مثل زوجها، لم تتمكن من إخراج كلمة واحدة من الفتاة. بدأت إيما تخشى من انتهاء الأمر بكارثة بذهاب جيسिका إلى أستراليا وحصولهم على صوفي.

تركت إيما جيسिका وبدأت تتحدث مع صبي يُدعى تومي حول بركانه الثائر. معظم ورقته كانت مغطاة بالسنّة لهب حمراء غامقة ما جعل إيما تعتقد بأن فرويد كان سيرغب في تبني هذا الطفل.

ألقت إيما نظرة إلى جيسिका فرأت سيباستيان يتحدث معها وهو يحدق باهتمام شديد إلى لوحها التي كانت تمثل سفينة نوح.

بدت على الأقل مصغية إليه رغم أنها لم ترفع رأسها عن اللوحة. ترك سيباستيان جيسिका وألقى نظرة أخرى إلى لوحتي ساندراف و صوفي ثم ذهب ووقف بجانب الباب.

وبعد بضع دقائق، اقترحت المشرفة عليهم العودة إلى مكتبها لشرب كوب من الشاي.

صبت ثلاثة أكواب وعرضت على كل منهم بسكويتة من نوع باث أوليفر ثم قالت: «سوف نتفهم تماماً إذا أردتم الذهاب والتفكير في الأمر قليلاً وربما العودة لاحقاً، أو زيارة أحد ملاجئنا الأخرى قبل أن تتوصلوا إلى قرار نهائي».

ظل هاري صامتاً عن قصد بانتظار معرفة إن كان سيباستيان سيُبدى رأيه.

قالت إيمّا: «أعتقد أن الفتيات الثلاثة لطيفات جداً ووجدتُ شبه استحالة في الاختيار بينهن».

وقال هاري: «أنا موافق على ذلك. لربما ينبغي علينا القيام بما اقترحت علينا فعله. أن نذهب وناقش الأمر فيما بيننا ومن ثم نُطلعك على رأينا».

فقال سيباستيان بمنطق طفل مبكر النضج: «ولكن، هذا سيكون مضيعة للوقت إذا كنا جميعاً نريد الفتاة نفسها».

فسأله أبوه: «هل هذا يعني أنك اتخذت قرارك؟» كان هاري يدرك أنه عندما يكشف سيباستيان عن اختياره فسيكون بوسعه هو وإيمّا التغلب عليه بالتصويت، رغم أنه كان يعرف أنها ليست الطريقة المثلى لتبدأ جيسيكا حياتها في منزل عائلة بارينغتون.

قالت المشرفة: «قبل أن تقرروا، لربما ينبغي عليّ تزويدكم ببعض المعلومات عن كل واحدة من الفتيات الثلاثة. كانت ساندرّا أسهلن بما

لا يُقاس من حيث إبقائها تحت السيطرة. صوفي أكثر اجتماعية لكنها مشتتة الذهن قليلاً».

فسألها هاري: «وجيسيكا؟».

«إنها بلا شك أكثرهن موهبةً لكنها تعيش في عالم خاص بها ولا تصنع أصدقاء بسهولة. لقد فكرتُ في الثلاثة، وأعتقد أن ساندرا قد تناسبكم تماماً».

راقب هاري سياستيان بينما كان تجهمه يتحول إلى عبوس غاضب. فبدل التكتيك.

قال هاري: «أجل، أعتقد أنني أتفق معك أيتها المشرفة. خيارى هو ساندرا».

فقالت إيما: «إنني محتارة. أحببتُ صوفي، حيوية ومرحة».

تبادل هاري وإيما نظرة خاطفة قبل أن يقول هاري: «إذاً فالقرار يعود إليك يا سيب. هل ستكون ساندرا أم صوفي؟».

«لا هذه ولا تلك. أنا أفضل جيسيكا». ثم قفز عن كرسيه وركض وخرج من الغرفة تاركاً الباب مفتوحاً.

وقفت المشرفة من وراء منضدتها. كان واضحاً أنها كانت ستجري حديثاً مع سياستيان لو كان واحداً من الأطفال الخاضعين لمسؤوليتها.

قال هاري: «إنه لا يفهم تماماً الديمقراطية بعد». توجهت المشرفة، التي بدت غير مقتنعة، نحو الباب وخرجت فتبعها هاري وإيما إلى الممر. وعندما دخلت المشرفة إلى الصف لم تصدق ما رآته عيناها... كانت جيسيكا تنزع لوحها وتسلمها إلى سياستيان.

اقترب سيباستيان منهم وهو يحمل سفينة نوح وعند مروره بجانب هاري سأله والده: «ماذا عرضتَ عليها بالمقابل؟».

«وعدتها بأنها إذا أتت لشرب الشاي عصر يوم غد، فبوسعها الحصول على طعامها المفضل».

سأله إيما: «وما هو طعامها المفضل؟».

«فطيرة كرومبيت مغطاة بالزبدة ومرّبي توت العليق».

سأل هاري المشرفة بلهفة: «هل سيكون هذا مناسباً؟».

«أجل، ولكن ربما سيكون أفضل إذا تأتي ثلاثهن».

فقالت إيما: «لا شكراً. جيسيكا تكفي».

قالت المشرفة باستغراب واضح: «كما ترغبون».

في طريق العودة إلى منزل عائلة بارينغتون، سأل هاري سيباستيان عن سبب اختياره جيسيكا.

فقال سيباستيان: «ساندرا جميلة جداً وصوفي مرحة جداً لكنني كنت سأسأم من كليهما بحلول نهاية الشهر».

فسأله إيما: «وجيسيكا؟».

«لقد ذكرتني بكِ ماما».

* * *

كان سيباستيان واقفاً بجانب الباب الأمامي عندما أتت جيسيكا لشرب الشاي.

صعدت الدرجات وهي تمسك المشرفة بيد وإحدى لوحاتها باليد الأخرى.

قال لها سيباستيان «اتبعيني» لكن جيسिका ظلت واقفة على الدرجة العليا كما لو أنها أُلصقت في مكانها. بدت مذعورة ولم تتحرك قيد أنملة إلى أن عاد سيباستيان.

فقالت وهي تسلمه لوحاتها: «هذه من أجلك».

قال سيباستيان: «شكراً». عرف سيباستيان الصورة التي رآها على جدار الممر في ملجأ الدكتور بارناردو. «حسناً، يجدر بك أن تدخلني لأنني لا أستطيع أن آكل جميع فطائر الكرومبيت لوحدي».

دخلت جيسिका بتردد إلى قاعة الاستقبال وفغرت فمها، ليس بسبب فكرة الفطائر وإنما لرؤية لوحات زيتية حقيقية مؤطرة معلقة على جميع الجدران.

قال سيباستيان: «لاحقاً، وإلا فستبرد فطائر الكرومبيت».

عند دخول جيسिका غرفة الضيوف، وقف هاري وإيما للترحيب بها بيد أنها لم تستطع مرة أخرى إبعاد عينيها عن اللوحات. أخيراً، جلست على الأريكة بجانب سيباستيان وحولت نظرتها المتلهفة إلى كومة فطائر الكرومبيت الساخنة. لكنها لم تقم بأي حركة إلى أن أعطتها إيما صحناً ومن ثم فطيرة وسكيناً وبعد ذلك الزبدة وطبق مربى توت العليق.

عبست المشرفة بينما كانت جيسिका تهم بأكل أول قضة من الفطيرة، فقالت الفتاة بشكل مفاجئ: «شكراً سيدة كليفتون». ثم أكلت اثنتين أخريين مترافقتين مع «شكراً سيدة كليفتون».

وعندما رفضت تناول رابعة بدون «شكرا سيدة كليفتون»، لم تكن إيما متأكدة ما إذا كانت لا تود أكل واحدة أخرى، أم أن المشرفة وجهتها مسبقاً لعدم تناول أكثر من ثلاث فطائر.

قال سيباستيان لجيسيكا بعد أن أنهت كأسها الثانية من مشروب تايزر: «هل سمعتِ يوماً بتيرنر؟» طأطأت جيسكا رأسها دون أن تُجيب فوقف سيباستيان وأمسك بيدها وقادها إلى خارج الغرفة وهو يقول: «تيرنر جيد جداً في الواقع لكنه ليس جيداً مثلك».

قالت المشرفة بعد إغلاق الباب خلفهما: «لا أستطيع أن أصدق ذلك. لم يسبق لي أن رأيتها بهذه الراحة من قبل».

فقال هاري: «لكنها بالكاد نطقت كلمة واحدة».

«صدقني سيد كليفتون، لقد رأيت منذ قليل نسخة جيسيكا عن جوقة هلولويا».

ضحكت إيما وقالت: «إنها رائعة جداً. إذا كانت هناك فرصة لأن تصبح فرداً من عائلتنا، فكيف نحقق ذلك؟».

قالت المشرفة: «إنها عملية طويلة للأسف ولا تنتهي دائماً بشكل مرضٍ؟ يمكنكما البدء باستضافتها هنا بين الحين والآخر، وإذا سار الأمر على ما يرام يمكنكما التفكير في ما نسميه إجازة نهاية الأسبوع. وبعد ذلك ليس هناك عودة، لأنه يتوجب علينا ألا نضع آمالاً زائفة».

قال هاري: «سوف نسترشد بك أيتها المشرفة لأننا نريد المحاولة بالتأكيد».

فقال المشرفة: «وأنا سأبذل قصارى جهدي». وبعد انتهائها من شرب كوبها الثالث من الشاي وفطيرتها الثانية، لم يعد لدى هاري وإيما أي شك في ما كان يُتوقع منهما.

وعندما قالت المشرفة بأنه ينبغي عليهما الذهاب، قالت إيما: «إلى أين يمكن أن يكون سيباستيان وجيسيكا قد ذهبا؟».

فقال هاري: «سأذهب وأبحث عنهما». لم يكن هاري قد أكمل جملته حين دخل الطفلان مندفعين إلى الغرفة.

قالت المشرفة وهي تنهض: «حان وقت عودتنا إلى الملجأ أيتها الصبية. يجب أن نعود في الوقت المناسب من أجل العشاء».

قالت جيسيكا دون أن تفلت يد سيباستيان: «لا أريد مزيداً من الطعام».

عقدت الصدمة لسان المشرفة.

قاد هاري جيسيكا إلى قاعة الاستقبال وساعدها على ارتداء معطفها. وعند خروج المشرفة من الباب الأمامي انفجرت جيسيكا بالبكاء.

قالت إيما للمشرفة: «أوه لا. اعتقدتُ أن الأمر سار على خير ما يُرام».

فأجابت المشرفة هامسةً: «لا يمكن أن يكون أفضل من ذلك. إنهم سيكون فقط عندما لا يريدون المغادرة. اعلمي بنصيحتي، إذا كنتما أنتما الاثنان تملكان نفس الشعور، املاّ الطلبات في أسرع وقت ممكن».

التفتت جيسيكا ولوحت بيدها قبل دخولها إلى سيارة المشرفة الصغيرة، أوستن 7، والدموع تسيل على خديها.

بينما كانوا يراقبون السيارة وهي تبتعد وضع هاري ذراعه على كتف ابنه وقال: «اختيار جيد يا سيب».

* * *

ستنقضي خمسة أشهر أخرى قبل أن تغادر المشرفة منزل عائلة بارينغتون للمرة الأخيرة وتعود إلى ملجأ الدكتور بارناردو لوحدها بعد أن استقر أحد لقطائها بسعادة. في الواقع، لم تكن تلك السعادة هي المطلوبة لأنه لم يمضِ وقت طويل قبل أن يدرك هاري وإيما أن جيسيكا كانت تعاني من مشاكل خاصة بها لا تقل صعوبةً عن مشاكل سيباستيان.

لم يخطر في بال أي منهما أن جيسيكا لم تنم أبداً من قبل في غرفة لوحدها. في ليلتها الأولى في منزل عائلة بارينغتون تركت جيسيكا باب الغرفة مفتوحاً وبكت حتى نامت. واعتاد هاري وإيما على جسم صغير دافئ يتسلق إلى السرير بينهما بعد فترة قصيرة من استيقاظها في الصباح، لكن هذا الأمر بدأ يقل تدريجياً بعد افتراق سيباستيان عن دبه الدمية، وينستون، وإعطائه رئيس الوزراء السابق إلى جيسيكا.

تولعت جيسيكا بوينستون كثيراً، ولم يكن يفوقه أحد في حبها إلا سيباستيان، رغم ما قاله أخوها الجديد بشيء من الغطرسة: «إنني أكبر من أن أمتلك دمية دب فأنا سوف أذهب إلى المدرسة بعد بضعة أسابيع».

أرادت جيسيكا الذهاب إلى المدرسة معه لكن هاري شرح لها أن الفتيان والبنات لا يرتادون المدارس نفسها.

فسألته جيسيكا: «لم لا؟».

فقالت إيما: «لم لا بالفعل».

أخيراً، عندما حل اليوم الأول من المدرسة، نظرت إيما إلى فتاها الصغير متعجبةً من سرعة مرور السنوات. كان يرتدي سترة حمراء وسروالاً قصيراً رمادياً ويعتمر قبعة حمراء. حتى حذاؤه كان لامعاً. على أي حال، كان ذلك هو اليوم الأول من الفصل الدراسي. وقفت جيسيكا على عتبة الباب ولوحت مودعةً سيباستيان بينما كانت السيارة تسير على الطريق الخاص بالمنزل إلى أن اختفت بعد خروجها من البوابة الأمامية. وبعد ذلك جلست على الدرجة العليا من السلم الأمامي منتظرة عودته.

طلب سيباستيان من أمه وأبيه عدم مرافقته إلى المدرسة. وعندما سأله هاري عن السبب قال: «لا أريد أن يرى الفتيان الآخرون أُمي تقبلني».

كان هاري سيحاججه لو أنه لم يتذكر يومه الأول في مدرسة سانت بيد. كان هو وأمّه قد ركبا الترام من شارع ستيلهاوس لين وفي الطريق سألها إذا كان بإمكانهما النزول قبل نحو مائة متر من المدرسة كي لا يعرف الفتيان الآخرون أنهما لا يملكان سيارة. وعندما أصبحت على بعد نحو خمسين متراً من بوابة المدرسة ودعها بسرعة، رغم أنه سمح لها بتقبيله، وتركها واقفة هناك. ومع اقترابه من مدرسة سانت بيد للمرة

الأول شاهد زملاءه المستقبليين ينزلون من عربات وسيارات أنيقة، بل إن أحدهم وصل في سيارة رولز رويس يقودها سائق يرتدي بذلة رسمية.

هاري أيضاً وجد ليلته الأولى بعيداً عن المنزل صعبة، ولكن، بعكس جيسيكا، لأنه لم يسبق له أن نام في غرفة مع أطفال آخرين.

لكن الترتيب الأبجدي كان رحيماً معه لأنه جعله ينام في مهجع يحيط به بارينغتون من جانب وديكنز من الجانب الآخر. غير أنه لم يكن محظوظاً تماماً فيما يتعلق بالتلميذ المشرف على مهجعه، أليكس فيشر، الذي ضربه بخفه عدة مرات خلال أسبوعه الأول لا لسبب آخر سوى أن هاري كان ابن عامل في حوض السفن ولا يستحق أن يتعلم في المدرسة نفسها التي كان يتعلم فيها فيشر، الذي كان أبوه وكيلاً عقارياً. تساءل هاري ما الذي حل بفيشر بعد مغادرته مدرسة سانت بيد. لقد علم أنه وجيلز التقيا بالصدفة خلال الحرب عندما خدما في نفس الفوج في طبرق، وافترض أن فيشر على الأرجح لا يزال يعيش في بريستول لأن هاري تحاشى مؤخراً التحدث معه في حفل لم شمل تلامذة سانت بيد القدامى.

على الأقل كان سيباستيان سيصل إلى المدرسة في سيارة، وباعتباره تلميذاً نهائياً فإنه لن يعاني من مشكلة فيشر لأنه سيعود إلى المنزل كل يوم. ومع ذلك كان هاري يعتقد أن ابنه لن يجد سانت بيد أسهل مما وجدها هو عندما كان صبياً، وإن لأسباب مختلفة كلياً.

عندما اقترب هاري من الرصيف المحاذي لبوابة المدرسة، وقبل أن يتسنى له الضغط على المكبح، قفز سيباستيان من السيارة وركض عابراً

البوابة ثم اختفى بين خليط صاحب مكون من أكثر من مائة صبي كلهم يرتدون سترات حمراء. لم ينظر سياستيان خلفه أبداً.

قاد السيارة على مهل في طريق العودة إلى منزل عائلة بارينغتون وراح يفكر في الفصل الثاني من كتابه الأخير. هل حان الوقت لترقية ويليام وورويك؟

عند اقترابه من المنزل رأى جيسিকা جالسةً على الدرجة العليا من السلم. ابتسم بينما كان يركن السيارة لكن أول شيء قالته أثناء صعوده السلم هو «أين سيب؟».

* * *

في أثناء وجود سياستيان في المدرسة كانت جيسিকা تنسحب إلى عالمها الخاص. وفي انتظار عودته إلى المنزل كانت تضي الوقت بالقراءة لوينستون حول حيوانات أخرى، الدب بو، ومستر تود، والأرنب الأبيض، وقط يُدعى أورلاندو، وتمساح ابتلع ساعة.

وبعد أن يغفو وينستون كانت تضعه في السرير وتعود إلى حامل لوحاتها ورسمها، مرة بعد مرة. في الواقع، ما كانت إيما تعتبرها غرفة الأولاد تحولت بواسطة جيسিকা إلى استوديو فني. وبعد أن غطت كل ورقة تمكنت من وضع يديها عليها، بما في ذلك مخطوطات هاري القديمة (اضطر للإقفال على مخطوطاته الجديدة) إما بقلم الرصاص أو قلم التلوين أو الطلاء، حولت اهتمامها إلى إعادة تزيين غرفتها.

لم يكن هاري يريد كبح حماسها، لكنه ذكر إيما بأن منزل عائلة بارينغتون ليس منزلهم وبأنه يتوجب عليهما استشارة جيلز قبل أن تخرج من غرفتها وتكتشف عدد الجدران النظيفة الأخرى في المنزل.

غير أن جيلز فرح كثيراً بالقادمة الجديدة إلى منزل عائلة بارينغتون لدرجة أنه قال إنه لن يمانع حتى لو رسمت على جدران المنزل بأكمله من الداخل والخارج.

فقالت له إيما: «بربك لا تشجعها. لقد طلب منها سياستيان مسبقاً الرسم على جدران غرفته».

سألها جيلز بينما كانوا يجلسون من أجل تناول طعام الغداء: «ومتى ستخبرانها الحقيقة؟».

فأجابه هاري: «لا نرى أية حاجة لإخبارها الآن. في النهاية، جيسيكا في السادسة فقط، ولم تتأقلم تماماً بعد».

قال هاري: «حسناً، ولكن لا تتركا الأمر لفترة طويلة جداً لأنها تنظر إليك أنت وإيما على أنكما أبواها، وإلى سيب على أنه أخوها، وتدعوني خالي جيلز في حين أنها في الحقيقة أختي نصف الشقيقة، وخالة سيب».

ضحك هاري وقال: «أعتقد أننا سنحتاج لبعض الوقت قبل أن يتوقع منها أن تفهم ذلك».

فقالت إيما: «أتمنى ألا تضطر إلى ذلك. لا تنس أن كل ما تعرفه هو أن والديها ميتان. لماذا ينبغي تغيير ذلك طالما أن أحداً لا يعلم الحقيقة كلها إلا نحن الثلاثة».

قال هاري: «لا تستخفي بسيباستيان. لا بد أنه قطع نصف الطريق إلى الحقيقة الآن».

دُهِش هاري وإيما عندما دعاهما المدير لتناول الشاي معه عند نهاية الفصل الدراسي الأول لسيباستيان، وسرعان ما اكتشفا أن المناسبة لم تكن اجتماعية.

بعد أن صبت خادمة الشاي لهم وغادرت الغرفة، قال الدكتور هيدلي: «ابنكما انعزالي بعض الشيء. في الحقيقة، إنه يميل إلى مصادقة صبي من وراء البحار على صبي عاش في بريستول طوال حياته». فسألته إيما: «لماذا؟».

«إن الفتیان القادمين من شواطئ بعيدة لم يسمعوا بالسيد والسيدة كليفتون، أو بخاله الشهير جيلز. ولكن، كما هو الحال غالباً، تمخض شيء إيجابي عن هذا الأمر لأننا أدركنا أن سيباستيان يمتلك موهبة فطرية في اللغات لربما كانت ستضيع في ظروف طبيعية. في الواقع، إنه الصبي الوحيد في المدرسة الذي يمكنه التحدث مع لو يانغ بلغته الأم».

ضحك هاري لكن إيما لاحظت أن المدير لم يكن يبتسم.

واصل الدكتور هيدلي كلامه فقال: «ولكن، قد تكون هناك مشكلة عندما يقدم سيباستيان امتحان دخوله إلى مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة».

قالت إيما بفخر: «لكنه حاز العلامات التامة في الإنكليزية والفرنسية واللاتينية».

وأضاف هاري: «وحصل على مائة بالمائة في الرياضيات».

«صحيح، وهذا كله جدير بالثناء، لكنه في الوقت نفسه، للأسف، يقبع بالقرب من أسفل صفه في التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية، وكلها مواد إلزامية. إذا أخفق في الوصول إلى علامة النجاح في اثنتين أو أكثر من هذه المواد فسيفرض تلقائياً من قبل مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة، وأعلم أن هذا سيمثل خيبة أمل كبيرة لكليكما، ولخاله أيضاً».

قال هاري: «خبية أمل كبيرة لن تُعبر تماماً عن حقيقة شعورنا».

قال الدكتور هيدلي: «هذا صحيح».

سأله إيما: «هل يقدمون استثناءات للقواعد؟».

«أتذكر حالة واحدة فقط خلال خدمتي، وكانت لصبي سجل مائة ركضة أو أكثر [في لعبة الكريكيت] في كل سبت خلال الفصل الصيفي».

ضحك هاري لأنه جلس على العشب وشاهد جيلز يفعل ذات الشيء عندما كانا صبيين، ثم قال: «إذاً ينبغي علينا التأكد من أنه يدرك عواقب عدم تحقيق علامة النجاح في اثنتين أو أكثر من المواد الإلزامية».

فقال المدير: «هذا لا يعني أنه ليس ذكياً بما يكفي، لكنه يشعر بالضجر بسرعة إذا لم تعجبه المادة. والمفارقة، مع موهبته في اللغات، أتوقع أنه سيذهب بسهولة إلى أوكسفورد. لكننا مع ذلك بحاجة لضمان دخوله ولو بصعوبة إلى مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة».

* * *

بعد قليل من الإقناع من جانب أبيه، ورشوة كبيرة بعض الشيء من جانب جدته، تمكن سيباستيان من تسلق بضع درجات من القعر في

اثنيتين من المواد الإلزامية الثلاث. لقد فهم بأنه كان يُسَمَح له الفشل في واحدة منها، فاختر العلوم الطبيعية.

مع نهاية سنة سيباستيان الثانية، كان المدير واثقاً بأن الصبي، مع القليل من الجهد الإضافي، سيحصل على علامة النجاح الضرورية في خمس من مواد الامتحان الست، بعد أن يئس هو أيضاً من مادة العلوم الطبيعية. ومع أن هاري وإيما كانا قد بدأا يشعران بمزيد من الأمل، إلا أنهما ظلا يحاولان إبقاء سيباستيان عند المستوى المطلوب. ولربما كان تقييم المدير المتفائل سيثبت صحته لولا حادثان وقعاً خلال سنة سيباستيان الختامية.

«هل هذا كتاب أبيك؟».

نظر سيباستيان إلى كدسة روايات مرتبة بأناقة في نافذة المكتبة فوقها لافتة كُتِبَ فيها «بدون أي ربح» تأليف هاري كليفتون. المغامرة الأخيرة لويليام وورويك.

أجاب سيباستيان بفخر: «أجل. هل تريد واحداً؟».

قال لو يانغ: «أجل من فضلك؟».

دخل سيباستيان إلى المكتبة وتبعه صديقه. كانت هناك طاولة قريبة من الواجهة مغطاة بكدسة عالية من كتاب والده الأخير المغلف بغلاف سميك محاطة بنسخ ذات أغلفة ورقية من قضية «الشاهد الأعمى» و«بدون أي مجازفة»، الروايتين الأوليين في سلسلة ويليام وورويك.

أعطى سيباستيان نسخة من الكتب الثلاثة لصديقه لو يانغ. وبعد قليل انضم إليهما عدد من زملائهما في الصف فأعطى كل واحد منهم نسخة من الكتاب الأخير، ولبعضهم الكتابين الآخرين أيضاً. كانت الكدسة تنقص بسرعة حين اندفع رجل متوسط العمر من وراء الطاولة، وأمسك بياقة سيباستيان.

ثم صرخ في وجهه قائلاً: «ماذا تظن أنك تفعل؟».

فأجابه سيباستيان: «كل شيء على ما يرام. إنها كتب والدي!».

قال المدير وهو يجر سياستيان، الذي كان يعترض مع كل خطوة، نحو مؤخرة المكتبة: «لقد سمعتُ كل شيء الآن». ثم التفت إلى مساعده وقال: «اتصل بالشرطة. لقد أمسكت بهذا اللص متلبساً. ثم انظر إذا كان بوسعك استعادة الكتب الذي هرب بها أصدقاؤه».

أدخل المدير سياستيان إلى مكتبه وأجلسه بصرامة على أريكة قديمة ثم قال له وهو يغادر المكتب: «لا تفكر حتى بالتحرك». ثم أغلق الباب خلفه.

سمع سياستيان صوت مفتاح يدور في القفل. نهض وتوجه إلى طاولة المدير وأخذ كتاباً ثم عاد وجلس وبدأ القراءة. وكان قد بلغ الصفحة التاسعة وبدأ يحب فعلاً ريتشارد هاناى عندما فُتح الباب وعاد المدير وعلى وجهه ابتسامة المنتصر.

«ها هو أيها المحقق الأول، لقد أمسكتُ به متلبساً».

حاول المحقق الأول بليكمور منع نفسه من الضحك عندما أضاف المدير قائلاً: «لقد امتلك الجرأة على ادعاء أن الكتب تخص والده».

فقال بليكمور: «لم يكن يكذب. هذا ابن هاري كليفتون». ثم نظر بصرامة إلى سياستيان وأضاف: «لكن هذا ليس عذراً لما فعلته أيها الفتى».

قال المدير: «حتى لو كان والده هاري كليفتون فما زال ينقصني باوند وثمانية عشر شيلينغ» - صوب إصبعه نحو سياستيان - «ماذا تنوي فعله بخصوص ذلك؟».

قال بليكمور: «لقد اتصلت بالسيد كليفتون لذا فأنا لا أعتقد أن الوقت سيطول قبل أن يُجاب عن هذا السؤال. وبينما نحن ننتظر أقترح عليك أن تشرح الجوانب المالية لبيع الكتب لابنه».

جلس المدير على زاوية طاولة مكتبه وقال بنبرة أقل عصبية: «عندما يكتب والدك كتاباً يدفع له ناشروه سلفةً ومن ثم نسبة مئوية لكل نسخة تُباع. في حالة والدك، أضمن أنها تقارب العشرة بالمائة. ويتوجب على الناشر أيضاً أن يدفع للبائع والمحرر وفريق الدعاية والطابع، إضافة إلى أية تكاليف دعائية وتوزيعية».

فسأله سيباستيان: «وكم يتوجب عليك دفعه مقابل كل كتاب؟».

تشوق بليكمور لسماع رد بائع الكتب الذي تردد قبل أن يقول: «حوالي ثلثي السعر».

تضيق علينا سيباستيان حين قال: «إذاً يحصل والدي على عشرة بالمائة فقط على كل كتاب، في حين تحصل أنت على ثلاثة وثلاثين بالمائة؟».

أجابه المدير بطريقة دفاعية: «أجل لكنني مضطر لدفع إيجار وثمان هذه الملكية، إضافة إلى أجور عمالي».

«إذاً سيكون إعادة الكتب الناقصة أرخص بالنسبة إلى أبي من دفع القيمة الكاملة لسعرها لك؟».

تمنى المحقق الأول لو أن السيد وولتر بارينغتون لا يزال حياً لأنه كان سيستمتع بهذا الحوار حتماً.

واصل سيباستيان كلامه قائلاً: «لعلك تستطيع إخباري سيدي كم عدد الكتب التي تحتاج إلى بديل عنها».

فقال المدير أثناء دخول هاري إلى المكتب: «ثمانية كتب سميكة الأغلفة وأحد عشر كتاباً ورقي الغلاف».

شرح المحقق الأول بليكمور لهاري ما حدث قبل أن يضيف: «لن أوجه أي تهمة للصبى بالسرقة هذه المرة سيد كليفتون، وسأكتفي بتحذيره فقط. سأترك لك سيدي مهمة تنبيهه لعدم فعل شيء غير مسؤول كهذا مرة ثانية».

فقال هاري: «بالتأكيد أيها المحقق الأول. أنا شديد الامتنان لك، وسأطلب من ناشري تعويض الكتب الناقصة على الفور». ثم استدار ونظر إلى سيباستيان وقال: «ولن تحصل على مصروف جييك يا بني إلى أن يُعاد دفع كل بنس».

عض سيباستيان على شفته.

قال المدير: «شكراً لك سيد كليفتون». ثم أضاف بشيء من الخجل: «كنت أتساءل سيدي، ما دمت موجوداً هنا، إذا كنت ستتكرم بتوقيع بقية الكتب؟».

* * *

عندما ذهبت والدة إيما إلى المستشفى من أجل إجراء فحوصات حاولت طمأنة ابنتها بأنه لم يكن هناك ما يستدعي القلق، وطلبت منها عدم إخبار هاري أو الولدين لأن ذلك سيجعلهم يقلقون فقط.

غير أن هذا أقلق إِيها بالفعل، ولهذا السبب عندما عادت إلى منزل عائلة بارينغتون، اتصلت على الفور بجيلز في مجلس العموم ومن ثم بشقيقتها في كامبريدج، فترك كلاهما كل شيء وركبا القطار التالي المتوجه إلى بريستول.

قالت إِيها عندما أقلتھما من محطة تيميل ميدس: «لنأمل أنني لا أضيع وقتكما».

فقلت جريس: «لنأمل أنك تضيعين حقاً وقتنا».

حدق جيلز بشرود عبر نافذة القطار طوال رحلتهم الصامتة نحو المستشفى.

حتى قبل أن يخلق السيد لانغبورن باب مكتبه أحست إِيها بأن الخبر لن يكون جيداً.

قال الأخصائي فور جلوسهم: «كنت أتمنى لو كانت هناك طريقة أسهل لقول هذا الأمر ولكن للأسف لا توجد. أجرى الدكتور رايبورن، طبيب أمكم الخاص منذ عدة سنوات، فحصاً روتينياً وعندما حصل على نتائج فحوصاته، أحالها إلي كي أجري فحصاً أشد تفصيلاً».

أطبقت إِيها قبضها بقوة، كما اعتادت أن تفعل عندما كانت تلميذة مدرسة كلما شعرت بالقلق أو واجهتها مشكلة.

تابع الدكتور لانغبورن كلامه فقال: «تلقيت البارحة النتائج من المختبر الطبي. لقد أكدت مخاوف الدكتور رايبورن. أمكم مصابة بسرطان الثدي».

قالت إِيها على الفور: «هل يمكن أن تُشفى؟».

قال لانغبورن: «ليس هناك علاج في الوقت الحالي لامرأة في سنها. يأمل العلماء بحدوث اختراق في وقت ما من المستقبل، لكن ما أخشاه هو أنه لن يكون قريباً بما يكفي بالنسبة إلى أمكم».

سألته جريس: «هل هناك ما يمكننا فعله؟».

مالت إِيها جانباً وأمسكت بيد أختها.

قال الدكتور لانغبورن: «خلال هذه الفترة، سوف تحتاج إلى كل الحب والدعم اللذين يمكنكم أنتم والعائلة تقديمه لها. إليزابيث امرأة مميزة، وبعد كل ما مرت به تستحق أفضل من ذلك. لكنها لم تشتك ولو مرة واحدة. هذا ليس أسلوبها. إنها شبيهة بهارفي».

قالت إِيها: «كم من الوقت ستبقى معنا؟».

«أخشى أنها ستكون مسألة أسابيع، وليس شهوراً».

عندئذ قال جيلز: «إذاً فلن يكون هناك داع لأن أخبرها بأي شيء».

* * *

حولت حادثة سرقة المتجر، كما باتت تُعرَف في مدرسة سانت بيد، سياستيان من تلميذ منعزل بعض الشيء إلى نوع من البطل الشعبي، والفتيان الذين لم يكونوا يعيرونه أي اهتمام في السابق، أخذو يدعونه إلى الانضمام إلى عصاباتهم. اعتقد هاري أن هذا الأمر قد يشكل نقطة تحول، لكنه عندما أخبر سياستيان بأن جدته لن تعيش أكثر من بضعة أسابيع عاد الصبي إلى قوقعته من جديد.

بدأت جيسيكا فصلها الدراسي الأول في مدرسة ريد ميدس وبذلت جهداً أكبر من ذلك الذي بذله سياستيان لكنها لم تحرز درجة كاملة في

أية مادة إلا في الرسم، حيث أبدت معلمة الفنون أسفها لإيما لكونه مادة غير معترف بها لأن الموهبة التي أظهرتها جيسिका في سن الثامنة كانت أكبر مما أظهرته هي نفسها في سنتها الأخيرة في الكلية.

قررت إيما عدم إخبار جيسिका بهذا الحوار والسماح لها باكتشاف موهبتها بنفسها مع الوقت. صحيح أن سياستيان كان يقول لها باستمرار إن جيسिका عبقرية، لكنه كان يعتقد أن ستانلي ماثيوز عبقرى أيضاً.

بعد شهر أخفق سياستيان في ثلاثة من امتحاناته التجريبية قبل بضع أسابيع فقط من امتحانات الدخول إلى مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة. لم يستطع هاري وإيما توبيخه في وقت كان يعاني من حزن شديد على وضع جدته الصحي. كانت إيما تقله من المدرسة كل يوم وتأخذه معها إلى المستشفى وهناك كان يجلس على سرير جدته ويقراً لها من كتابه المفضل إلى أن تغفو.

وكانت جيسिका ترسم للجدة صورة كل يوم، وتأخذها إلى المستشفى في صباح اليوم التالي قبل أن يقلها هاري إلى المدرسة. مع حلول نهاية الفصل الدراسي، لم يبقَ إلا بضع مساحات فارغة على جدران معرضها الفني الخاص.

تخلف جيلز عن تنفيذ عدة إخطارات كتابية حزبية عاجلة للتصويت على بعض المقترحات في البرلمان، وتخلفت جريس عن عدد كبير من الدورات التعليمية، وهاري عن مواعيد نهائية كثيرة، ولم ترد إيما أحياناً على رسائل سايروس فيلدمان الأسبوعية. لكن أكثر ما كانت إليزابيث تترقب رؤيته كل يوم هو سياستيان.

من سوء حظ سيباستيان أنه كان مضطراً لتقديم امتحان الدخول إلى مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة في وقت شارفت فيه حياة جدته على نهايتها.

وكانت النتيجة مطابقة لما توقعه مدير مدرسة سانت بيد، أي مختلطة، فامتحاناته في اللغات اللاتينية والفرنسية والإنكليزية والرياضيات كانت بمستوى يؤهله إلى الحصول على منحة، في حين أنه بالكاد تخطى علامة النجاح في التاريخ، ورسب بفارق ضئيل في الجغرافيا، ونال 9 بالمائة فقط في امتحان العلوم الطبيعية.

اتصل الدكتور هادلي بمنزل عائلة بارينغتون بعد لحظات من تعليق النتائج على لوحة إعلانات المدرسة.

قال الدكتور هادلي: «سأجري حديثاً منفرداً مع جون جاريت، نظيري في مدرسة سانت بيد، وأذكره بأن سيباستيان حقق مائة بالمائة في اللاتينية والرياضيات، وأنه من شبه المؤكد سيكون مؤهلاً للحصول على منحة عندما سيحين وقت دخوله إلى الجامعة».

فقال هاري: «ولربما يمكن أن تذكّره أيضاً بأن عمه وأنا كنا في سانت بيد، وأن جده، السيد والتر بارينغتون، كان رئيساً لمجلس الإدارة».

«لا أظن أنني سأحتاج لمن يذكرني بذلك. لكنني سأوضح بأن جدة سيباستيان كانت في المستشفى خلال تقديمه الامتحانات. كل ما يمكننا أن نرجوه هو أن يساند حكمي».

وعند نهاية الأسبوع، اتصل الدكتور هادلي ليقول إن مدير المدرسة سيوصي مجلس الإدارة بمنح سياستيان مقعداً في مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة في فصل الخريف رغم رسوبه في مادتين من المواد المقررة.

قال هاري: «شكراً لك. هذا أول خبر مفرح أتلقاه منذ أسابيع».

قال هادلي: «لكنه ذكرني بأن القرار في النهاية سيكون قرار مجلس الإدارة».

* * *

كان هاري آخر شخص يزور حماته في تلك الليلة، وكان يوشك على المغادرة عندما قالت له إليزابيث بصوت هامس: «هل يمكنك البقاء لبضع دقائق أخرى يا عزيزي؟ هناك شيء أحتاج إلى مناقشته معك».

فقال هاري وهو يعود للجلوس مجدداً على طرف السرير: «أجل بالتأكيد».

قالت إليزابيث متلعثمةً مع كل كلمة: «لقد أمضيتُ هذا الصباح مع ديزموند سيدونز، محامي عائلتنا، وأردتُ إبلاغك بأني وضعتُ وصية جديدة، لأنني لا أستطيع تحمل فكرة أن تلك المرأة المريضة فيرجينيا فينويك تضع يديها على أي من أملاكي».

«لا أظن أن هذا الأمر يمثل مشكلة الآن فنحن لم نرَ أو نسمع من فرجينيا أي شيء منذ أسابيع، لذا أعتقد أن العلاقة انتهت».

«إن سبب عدم رؤيتكم أو سماعكم أي شيء منها لأسابيع يا هاري هو أنها تريدني أن أعتقد بأن العلاقة انتهت. ليست مصادفة أنها اختفت

من المشهد بعد أيام فقط من معرفة جيلز بأنه لم يعد لدي وقت طويل لأعيشه».

«أنا واثق بأنك تبالغين في رد فعلك يا إليزابيث. ولا أظن حتى أن فيرجينيا يمكن أن تكون بهذه القسوة».

«عزيزي هاري، أنت دائماً تمنح الجميع فائدة الشك لأنك تمتلك طبيعة طيبة. كان يوماً محظوظاً بالنسبة لإيما عندما التقت بك».

«لطف منك أن تقولي ذلك إليزابيث، لكنني متأكد بأنه مع الوقت...».

«هذا هو الشيء الذي لا أملكه».

«إذن لربما ينبغي علينا أن نطلب من فيرجينيا المجيء لزيارتك؟».

«لقد أوضحتُ لجيلز في عدة مناسبات أنني أود مقابلتها، لكنني كنت أقابل في كل مرة بمزيد ومزيد من الأعذار غير المقبولة. لماذا برأيك؟ لا تكبد نفسك عناء الإجابة يا هاري لأنك ستكون آخر شخص يدرك نوايا فيرجينيا الحقيقية. ويمكنك أن تكون واثقاً بأنها لن تُقدم على خطوتها إلا بعد جنازتي»، ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه إليزابيث، «لكنني لا أزال أملك ورقة واحدة تحت كمي، ولا أنوي لعبها إلا بعد إنزالي في قبري، عندما ستعود روحي مثل ملاك منتقم».

لم يقاطع هاري إليزابيث عندما مالت إلى الخلف وأخرجت بصعوبة بالغة مغلفاً من تحت وسادتها. «أصغ إليّ بانتباه الآن يا هاري. يجب أن تنفذ إرشاداتي بالحرف». أمسكت بيده وأضافت قائلاً: «إذا اعترض جيلز على وصيتي الأخيرة...».

هنا قاطعها هاري قائلاً: «ولكن لماذا يفعل ذلك؟».

«لأنه من عائلة بارينغتون، ورجال بارينغتون ضعفاء دائماً أمام النساء. لهذا السبب، إذا اعترض على وصيتي الأخيرة، يجب أن تعطي هذا المغلف إلى القاضي الذي يُختار لاتخاذ القرار بشأن أي فرد من العائلة سيرث أملاكي».

«وإذا لم يفعل؟».

«يجب أن تتلفه»، كان تنفسها يتسارع مع كل ثانية تمر، «ينبغي عليك ألا تفتحه، أو تدع جيلز أو إيما يعلمان بوجوده». شدت قبضتها على يده وهمست بصوت يكاد يكون غير مسموع: «والآن، يجب أن تعدني يا هاري كليفتون لأنني أعلم أن جاك العجوز علمك بأن هذا ينبغي أن يكون دائماً كافياً».

قال هاري: «أعدك». ثم وضع المغلف في جيب سترته الداخلي.

أرخت إليزابيث قبضتها واستلقت مجدداً على وسادتها مع ابتسامة راضية على شفيتها. ولم تعرف أبداً ما إذا نجا سيدني كارتون من المقصلة.

* * *

فتح هاري البريد بينما كان يتناول فطوره.

مدرسة بريستول الابتدائية الخاصة،

شارع يونيفيرسيتي،

بريستول

27 تموز 1951

عزيزي السيد كليفتون

أنا متأسف لإبلاغك بأن ابنك، سيباستيان، لم...

ترك هاري فطوره على الفور واتجه نحو الهاتف واتصل بالرقم المكتوب أسفل الرسالة.

رد عليه شخص بالقول: «مكتب المدير».

فقال هاري: «هل يمكنني التحدث مع السيد جاريت؟».

«من المتصل سيدي؟».

«هاري كليفتون».

«سأوصلك به سيدي».

«صباح الخير سيدي المدير. اسمي هاري كليفتون».

«صباح الخير سيد كليفتون. كنت أترقب اتصالك».

«لا يمكن أن أصدق أن مجلس الإدارة اتخذ مثل هذا القرار غير

المبني على أسس صحيحة».

«بصراحة سيد كليفتون، ولا أنا أيضاً، وخصوصاً بعد أن ساندت حالة

ابنك بقوة».

«ما هو السبب الذي قدموه لرفضه؟».

«أنه يجب ألا يُنظر إليهم على أنهم يقدمون استثناء لابن تلميذ

قديم أخفق في نيل علامة النجاح في مادتين إلزاميتين».

«وهل كان هذا هو سببهم الوحيد؟».

«لا. أثار أحد المدراء مسألة إنذار الشرطة لابنك بسبب سرقة المتجر».

قال هاري محاولاً ضبط أعصابه: «ولكن هناك تفسير بريء تماماً لتلك الحادثة».

قال جاريت: «لا أشك في ذلك ولكن لم يكن بالإمكان إقناع رئيس مجلس إدارتنا الجديد بهذه المسألة».

«إذاً سيكون هو اتصالي التالي. ما هو اسمه؟».

«الرائد أليكس فيشر».

جیلز بارینگتون

1954-1951

سُر جيلز، مع أنه لم يكن متفاجئاً، لأن كنيسة سانت أندروز، حيث زُوجت إليزابيث هارفي وعمد أولادها الثلاثة ثم قُبلوا لاحقاً كأعضاء فيها، غصت بالعائلة والأصدقاء والمعجبين.

ذكرت كلمة القس السيد دونالدسون الجميع بما فعلته إليزابيث بارينغتون للمجتمع المحلي، حيث قال إن ترميم الكنيسة لم يكن ممكناً بدون كرمها. كما ذكّر الرعية بالأشخاص الكثر، خارج جدران الكنيسة، الذين استفادوا من حكمتها وبصيرتها حين كانت راعية المستوصف المحلي، وبالذور الذي لعبته ككبيرة عائلتها بعد موت اللورد هاري. شعر جيلز، وبدون شك معظم الحاضرين، بالارتياح لأن القس لم يذكر والده مطلقاً.

وختم القس دونالدسون بهذه الكلمات: «لقد أنهيت حياة إليزابيث بموتها المبكر في عمر الواحد والخمسين، ولكن ليس نحن من نساءل إرادة ربنا».

بعد عودته إلى مقعده، قرأ جيلز «السامري الصالح» وسيباستيان «العظة فوق الجبل»، في حين تلت إيما وجريس أشعاراً لشعراء أمهما المفضلين. واختارت إيما شيلي:

ملاك مفقود من فردوس فاسد!

كانت تعلم أنه لم يكن لها،

اختفت دون أن تترك أي أثر
مثل غيمة ذرفت مطرها.
وقرأت جريس أبياتاً من كيتس:
توقف وتأمل

ما الحياة إلا يوم واحد
قطرة ندى هشة في طريقها الوعر من قمة شجرة
غفوة هندي مسكين
وقاربه يُسرع نحو المنحدر الجهنمي

بينما كانت الرعية تخرج من الكنيسة واحداً تلو الآخر سأل عدة
أشخاص عمن تكون المرأة الجميلة التي كانت تتأبط ذراع جيلز. لم
يستطع هاري إلا التفكير في أن تنبؤ إليزابيث كان في طريقه إلى التحقق.
وقفت فيرجينيا على يمين جيلز عندما كان حَمَلة النعش يُنزلون تابوت
إليزابيث في القبر، فتذكر هاري كلمات حماته: ما زلت أملك ورقة واحدة
تحت كمي.

بعد انتهاء طقوس الجنازة، دُعيت العائلة وبضع أصدقاء مقربين
للانضمام إلى جيلز وإيما وجريس في منزل عائلة بارينغتون. تنقلت
فيرجينيا بسرعة من معزٍ إلى آخر مقدمةً نفسها كما لو كانت سيدة
المنزل. بدا جيلز بأنه لم يلاحظ، وإن لاحظ فقد كان واضحاً أنه لم يكن
مستاء.

قالت فيرجينيا لوالدة هاري في أول لقاء معها: «مرحباً، أنا الليدي فيرجينيا فينويك. ومن تكونين؟».

«أنا السيدة هولكومب. هاري ابني».

«أوه أجل. ألسِتِ نادلة أو شيئاً ما؟».

فأجابتها ميسي كما لو أنها كانت تتعامل مع زبون مزعج: «أنا مدير فندق غراند هوتيل في بريستول».

«بالتأكيد، لكنني بحاجة إلى قليل من الوقت للاعتياد على فكرة عمل النساء. هل تعرفين أن النساء في عائلتي لم يعملن مطلقاً». ثم انتقلت بسرعة إلى الشخص التالي قبل أن تتمكن ميسي من الرد. سألتها سيباستيان: «من أنتِ؟».

«أنا الليدي فيرجينيا فينويك، ومن أنت أيها الفتى؟».

«سيباستيان كليفتون».

«آه أجل. هل نجح والدك أخيراً في إيجاد مدرسة تقبلك؟».

رد عليها سيباستيان: «سأذهب إلى بيتشكروفت في أيلول».

«ليست مدرسة سيئة لكن ليست أبداً من المستوى الرفيع. لقد تعلم أخوتي الثلاثة في هارو، كحال الأجيال السبعة السابقة من عائلة فينويك».

فسألتها سيباستيان: «وأين درستِ أنتِ؟». في الوقت الذي كانت فيه جيسيكا تركز نحوهم.

وسألت سيب «هل رأيت الكونستبل؟».

فقلت لها فرجينيا: «أيتها الصغيرة لا تقاطعيني مرة أخرى وأنا أتكلم، فهذا ينم عن قلة تهذيب».

فردت جيسिका: «آسفة آنسة».

فردت عليها فرجينيا: «أنا لست آنسة، أنا الليدي فرجينيا، وهذا ما يجب أن تنادينني به دائماً».

فسألتها جيسिका: «هل شاهدت الكونستبل ليدي فرجينيا؟».

أجابتها فرجينيا: «نعم لقد شاهدتها، وهي تشبه ثلاث من مجموعتنا، ولكنها لا تضاهيها بالمستوى، فلوحاتنا من رسم تيرنر هل سبق لك وسمعت به؟».

أجابتها جيسिका: «نعم ليدي إنه أفضل رسامي جيله».

هنا تدخل سيب وقال: «أختي رسامة وأنا أظنها بمهارة تيرنر».

فابتسمت جيسिका وقالت: «أعذريه ليدي، فأمي دائماً تقول إنه يميل إلى المبالغة وتضخيم الأمور».

فقلت فرجينيا: «يبدو ذلك واضحاً». وغادرتهم بحثاً عن جايلز.

رافق جايلز الكاهن إلى الباب الأمامي، وهذا كان إشارة لبقية المعزين أن وقت المغادرة قد حان، وعندما أغلق الباب للمرة الأخيرة، تنهد بارتياح، وعاد إلى غرفة الرسم للانضمام إلى عائلته.

وقال: «بالنظر إلى الظروف التي نمر بها أعتقد أن الأمور كانت

جيدة».

عندها قالت فرجينيا بينما كان جايلز يعبر الغرفة: «لا أظنك تمنع في أن نتناول العشاء». وأردفت سأصعد وأبدل ملابسي، فلا يمكننا تخطي المعايير أياً كانت الظروف».

فقالت جريس: «صحيح فرجينيا فوالدي كان يهتم بشدة بالمعايير». وهذا ما جعل هاري يبتسم. أردفت جريس: «رجاء لن أشارككم العشاء، فأنا مضطرة للعودة إلى كامبريدج، فلدي عمل يجب تحضيره، فضلاً أنني لست مستعدة فقد أتيت للعزاء وليس للعشاء».

كان جايلز واقفاً في غرفة الرسم عندما أتى هاري وإيما، قبل التوجه إلى غرفة الطعام.

أتى مارسدن وسكب الشراب، وتأكد من أن كل شيء على ما يرام قبل أن يغادر الغرفة.

عندها قال هاري: «بهذه المناسبة الحزينة، دعونا نشرب نخب الراحلة العظيمة».

فقال جايلز وإيما: «نخب امرأة عظيمة». ورفعاً كأسيهما. وتصادف ذلك مع دخول فرجينيا الغرفة، التي سألتهم: «هل كنتم تتحدثون عني؟». وبدت جادة في ما تقوله.

بينما كانت إيما تحدد إلى فستان فرجينيا الحريري الجميل، التي لاحظت ذلك فوضعت يدها على عقدها الأمامي للفت نظر إيما إليه.

فقالت إيما: «يا له من عقد جميل».

فردت فرجينيا: «إنه لجدي الكبرى، لقد أوصت به لي».

في تلك الأثناء قدم جايلز كأساً لفرجينيا، فنادت مارسدن كبير الخدم قائلة: «الأزهار في غرفتي بدأت تذبل هل يمكنك استبدالها قبل أن أعود إلى الغرفة؟».

فأجابها مارسدن: «بالتأكيد ليدي، سيد جايلز عندما تريد لقد أصبح العشاء جاهزاً».

عندها قالت فرجينيا: «لا أعلم إن كنتم مثلي، ولكنني أتصور جوعاً، هل يمكننا الذهاب لتناول الطعام؟». ولم تنتظر جوابهم فتأبطت ذراع جايلز، وتقدمتهم إلى غرفة الطعام.

لم تتوقف فرجينيا طوال العشاء عن التحدث عن أجدادها، وأظهرتهم كركيزة من ركائز الإمبراطورية البريطانية فمنهم الضباط ورجال الدين والوزراء، قبل أن تذكر بعض الأشخاص ممن هم من سقط المتاع قائلة ما من عائلة تخلو منهم، وبالكاد توقفت عن التحدث حتى أنها التحلية.

وعندها أمسك جايلز كأسه وضربها بالسكين ليلفت انتباه الجميع: «وقال يسرني أن أخبركم أن الليدي وافقت على زواجنا».

فقال هاري: «ألف مبروك».

أما إيما فبالكاد ابتسمت.

وبينما كان مارسدن يسكب الشمبانيا، فگر هاري أنه لم تمر ساعات على دفن إليزابيث حتى تمكنت فرجينيا من تحقيق غايتها.

بعدها قالت فرجينيا وهي تلمس وجنة جايلز: «ستحصل تغييرات كثيرة، ولكنني لا أظن أنها ستزعجكم». وابتسمت ابتسامة دافئة لإيما.

بدا أن جايلز معجب بكل كلمة تتفوه بها خطيبته، فقد كان يومئ
موافقاً على كل كلامها.

تابعت فرجينيا: «لقد خططنا للانتقال إلى بارينغتون هال بعد
الزواج، ولكن بما أن الانتخابات على الأبواب فسيؤخر الزواج لعدة
أشهر».

عندها وضعت إيما كأس شرابها، ونظرت إلى جايلز الذي لم يكن
ينظر إليها. قال: «لا أعتقد أنك تمانعين يا أختي أن نبدأ حياتنا الزوجية
في بارينغتون هال حيث تكون فرجينيا سيدة القصر».

فقالت إيما: «بالطبع لا أمانع، بل سأكون مسرورة بالعودة إلى مانور
هاوس حيث أمضيت أجمل سنوات طفولتي».

عندها نظرت فرجينيا إلى خطيبها.

فقال جايلز: «إنني أفكر بتقديم مانور هاوس هدية زواج
لفرجينيا».

عندها حدقت هاري وإيما ببعضهما، وقبل أن يقول شيئاً قالت
فرجينيا: «لدي عمتان أرملتان كبيرتان في السن أعتقد أن مانور هاوس
يناسبهما».

هنا قالت إيما لجايلز: «ولكن هل فكرت ما هو المناسب لي يا
أخي؟».

اقترح جايلز: «ربما يمكنكم الإقامة في أحد الأكواخ المنتشرة الملكية».

عندها قالت فرجينيا وهي تحتضن راحة يد جايلز: «لا أعتقد أن هذا مناسب، لا يجب علينا أن ننسى أنني يجب أن يكون لدي منزل كبير يليق بمركزي».

فقالت إيما بنفور: «لا رغبة لديّ أصلاً بالإقامة في كوخ داخل الملكية، فنحن نمتلك ما يكفي من المال لشراء منزل خاص بنا شكراً». فردت عليها فرجينيا بقولها: «أنا متأكدة من ذلك، فقد أخبرني جايلز أن هاري مؤلف ناجح ويجني الكثير من المال».

تجاهلت إيما فرجينيا، والتفتت ناحية أخيها وسألته: «لماذا أنت واثق من أن مانور هاوس من حصتك حتى تقوم بإهدائه لخطيبتك؟». عندها قال جايلز: «حسناً، سأكون مسروراً أن أشاركك وصديقي هاري بمضمون الوصية إن كان ذلك سيساعدك على التخطيط للمستقبل».

«لا أعتقد أن الوقت مناسب لمناقشة وصية إليزابيث في يوم دفنها».

هنا تدخلت فرجينيا وقالت: «لا أريد أن أبدو عديمة المشاعر، لكنني أعتقد أن من الأفضل مناقشة هذه الأمور الآن ونحن مجتمعون خصوصاً وأني سأعود في الصباح إلى لندن للإشراف على تحضيرات الزفاف». وتبادلت وجايلز النظرات قبل أن تبسم له ابتسامة دافئة.

فقال جايلز: «إنني أوافق فرجينيا الرأي، فما من وقت أفضل من الآن، وأنا أوكد لك يا إيما أن والدتنا قامت بأكثر مما يضمن حقك وحق جريس، فقد تركت لكل واحدة منكما عشرة آلاف جنيه، وخصصت سيب بخمسة آلاف جنيه يحصل عليها ما إن يبلغ السن القانونية».

فقلت فرجينيا: «يا له من فتى محظوظ». وتابع جايلز قائلاً: «ولم تنسَ جيسيكَا، ولكنها لن تحصل على حصتها قبل بلوغ الحادية والعشرين».

بقوله هذا بدا جايلز أنه أخبر خطيبته بتفاصيل الوصية قبل أن يناقشها مع أخته.

هنا علقت فرجينيا قائلة: «أن تخصص والدتكم جيسيكَا يظهر مدى كرمها بالرغم من أن الصغيرة ليست من أفراد العائلة».

فرد عليها هاري بقوله: «نحن نعتبر جيسيكَا واحدة من العائلة».

فردت فرجينيا «لربما كانت عبارة نصف أخت أكثر تعبيراً، ولا يجب علينا أن ننسى أنها يهودية من ملاجئ برناردو، ويمكنني القول بسبب خلفيتي اليوركشيرية أنها لقيطة».

هنا دخلت إيما على الحديث وقالت لفرجينيا: «وبالنظر إلى خلفيتي الغلومنشيرية، يمكنني القول للساقطة إنها ساقطة بوجهها». ونهضت مغادرة المكان.

للمرة الأولى في تلك الأمسية بدا جايلز محرجاً، وفكر هاري أن جايلز وفرجينيا لم يكونا على علم بأمر الوصية الجديدة.

طوى جايلز منديل المائدة، وغادر دون أن ينبس ببنت شفة.

عندها نظرت فرجينيا إلى خطيبها وقالت: «لقد كنت مذهلاً، ولكن يبدو أن أفراد عائلتك شديدي التأثير وهذا أمر متوقع بعد كل ما مروا به، ولكن أخشى أن يكون ذلك أمراً غير مطمئن».

«إنه مكتب خدمات البي بي سي. وهذه الأخبار يقرأها ألفار لايدل. في العاشرة صباح هذا اليوم، طلب رئيس الوزراء السيد أتلي مقابلة جلالة الملك، وطلب إذنه لحل البرلمان، وإجراء انتخابات عامة. عاد السيد أتلي إلى مجلس العموم وأعلن عن إجراء الانتخابات يوم الثلاثاء 25 أكتوبر».

في اليوم التالي، حزم 622 عضواً حقائبهم، وأفرغوا خزائهم، وودعوا زملاءهم، وعادوا إلى دوائهم الانتخابية للاستعداد للمعركة. كان من بينهم السيد جيلز بارينغتون، مرشح حزب العمال في بريستول دوكلاند.

* * *

في الأسبوع الثاني من الحملة، وبينما كانوا يتناولون الفطور، أخبر جيلز كلاً من هاري وإيما أن فيرجينيا لن تنضم إليه في الحملة. لم تحاول إيما إخفاء سرورها لهذا.

اعترف جيلز قائلاً: «تشعر فيرجينيا أنه من الممكن حتى أن أخسر الانتخابات. مع هذا، تقول إنه لم يسبق لأحد من عائلتها أن صوت للعمال. يمكن أن يكون هناك واحد أو اثنان قد صوتا لليبراليين لكن ليس للعمال بتاتاً».

ضحك هاري قائلاً: «على الأقل نتشارك هذا».

قالت إيماء: «في حال فاز العمال بالانتخابات، هل تعتقد أن السيد أتلي سيعينك وزيراً؟».

«هذا في علم الغيب. فهذا الرجل يلعب أوراقه على مقربة من صدره حتى هو لا يستطيع رؤيتها. وأياً يكن الأمر، إذا قمت بتصديق الاقتراع وأن الانتخابات قريبة جداً، فلا جدوى من الحلم بالصناديق الحمراء حتى بعد أن نعرف النتائج».

قال هاري: «أراهن أن تشرشل سيذهب إلى منزله هذه المرة. تذكري بأن البريطانيين وحدهم من يمكنهم أن يخرجوا رئيس وزراء من المكتب مباشرة بعد انتصاره في حرب ما».

نظر جيلز إلى ساعته، وقال: «لا أستطيع الجلوس هكذا للثرثرة، يجب أن أذهب لاصطياد أصوات الناخبين في كورنيشن رود». وسأل مع ابتسامة: «هل لديك رغبة بالانضمام إليّ هاري؟».

«لا بد أنك تمزح. هل تستطيع تخيلي، وأنا أطلب من الناس التصويت لصالحك؟ لا بد أنني سأقلبهم ضدك أكثر من فيرجينيا».

قالت إيماء: «ولم لا؟ فقد سلمت مخطوطتك الأخيرة للناشر، وأنت تخبر الجميع دائماً أن التجربة على أرض الواقع لها قيمة أكبر من الجلوس في مكتبة والتحقيق بوقائع لا نهاية لها».

اعترض هاري قائلاً: «لكن أمامي يوماً شاقاً».

قالت إيماء: «بالطبع. دعني أرَ الآن، ستأخذ جيسيكا إلى المدرسة هذا الصباح، آه نعم، وستحضرها إلى المنزل بعد الظهر».

قال هاري: «حسناً. سأنضم إليك. لكن فقط كمراقب، أتعين ذلك».

أوقف جيلز السيارة ليتحدث مع ناخب ما، وقال: «مساء الخير سيدي، أنا جيلز بارينغتون. آمل أن أستطيع الاعتماد على دعمك لي في الانتخابات العامة يوم الثلاثاء 25 أكتوبر؟».

«بالتأكيد سيد بارينغتون. أنا أصوت دائماً لصالح المحافظين».

قال جيلز وهو ينتقل بسرعة للناخب التالي: «شكراً لك».

قال هاري وهو يذكر شقيق زوجته: «لكنك مرشح عن حزب العمال».

قال جيلز: «لن يكون هناك أي ذكر للأحزاب المشاركة على أوراق الاقتراع. يوجد فقط أسماء المرشحين لذا لن تخيب آماله؟ مساء الخير، اسمي جيلز بارينغتون، وآمل أن...».

«بإمكانك الاستمرار بالأمل، لأني لن أصوت لأنني متغطرس».

اعترض جيلز قائلاً: «لكني مرشح العمال».

«لا يمنع هذا من كونك أنيقاً. فأنت بسوء الرفيق فرانك باكينهام، خائن لطبقتك».

حاول هاري ألا يضحك عندما رحل الرجل.

«مساء الخير سيدي، أنا جيلز بارينغتون».

«آه، من الجميل رؤيتك سيد جيلز. لطالما كنت من المعجبات بحدتك منذ أيام طبرق». انحنى جيلز لها. «وعلى الرغم من أنني عادة أصوت لليبراليين لكن في هذه المناسبة تستطيع الاعتماد عليّ».

قال جيلز: «شكراً لكِ سيدتي».

نظرت إلى هاري، الذي ابتسم ورفع قبعته. «لم يكن عليك رفع قبعتك سيد كليفتون، لأنني أعلم أنك ولدت في زقاق ستيل هاوس، وأنه لمن الجحود أن تصوت للمحافظين». وأضافت قبل أن تذهب: «أنت خائن لطبقتك».

هنا حان دور جيلز لكبح ابتسامته.

قال هاري: «لا أعتقد أنني سأخضع للسياسة».

«مساء الخير سيدي، أنا...».

قال الرجل رافضاً مد يده لمصافحته: «جيلز بارينغتون. نعم، أعلم هذا. صافحتني منذ نصف ساعة، وأخبرتني أنني سأصوت لصالحك. لكني الآن لست متأكداً من الأمر».

سأله هاري: «هل تكون الأمور سيئة هكذا على الدوام؟».

«آه. من الممكن أن تكون أسوأ. لكن في حال قمت بوضع رأسك تحت المقصلة لا تتفاجأ من وجود أشخاص يسعدهم رشقك بالطماطم العفنة».

قال هاري: «لذا، لا أصلح للعمل في السياسة، فأنا آخذ الأمور على محملٍ شخصي».

«إذا سوف ينتهي الأمر بك في مجلس اللوردات»، أكمل جيلز وهو يتجه نحو موقف خارج حانة ما: «أعتقد أنه حان وقت شرب كأس من الجعة قبل أن نعود إلى المعركة».

قال هاري: «لا أعتقد أنه سبق لي أن جئت إلى هذه الحانة».

«ولا أنا. لكن تعال يوم الانتخاب، سأقوم بالشرب في كل حانات الدائرة، فمالكو الحانات يسعدهم دخول المرشحين إلى حاناتهم».

سأل هاري وهما يدخلان إلى الحانة: «من يريد أن يكون عضواً في البرلمان؟».

«أنت لن تفهم متعة القتال في الانتخابات، وأخذ مقعدك في مجلس النواب ولعب دورك، وبشكل ثانوي، للمشاركة في إدارة بلدك. الأمر أشبه بحرب دون رصاص».

توجه هاري نحو زاوية هادئة في الحانة، في حين جلس جيلز على كرسي. كان يتحدث مع الساقى عندما عاد هاري وانضم إليه.

قال جيلز: «عذرا يا صديقي القديم، لكني لا أستطيع الاختباء في زاوية. عليّ الظهور في كل الأوقات، حتى عندما آخذ استراحة».

قال هاري: «لكن هناك بعض المواضيع السرية التي كنت أمل مناقشتها وإياك».

فقال جيلز: «إذاً عليك فقط أن تخفض صوتك». وبعدها خاطب الساقى: «كوبان من الجعة من فضلك أيها الساقى». واستند إلى الوراء ليستمع لما سيقوله هاري، ولكنه كان يتلقى دفعة بين الحين والآخر من

الزبائن - الذين كان معظمهم قد أخذ الشراب بلبهم - بينما كان يشرح لهاري عن كيفية حكم البلاد، ويصف هذا وذاك بالحقير والسيد. سأل جيلز بعد أن أفرغ كوبه: «إذاً، كيف حال ابن أختي في مدرسته الجديدة؟».

«لا يبدو مستمتعا بمدرسة بتشكروفت أكثر مما كان في سانت بيد. لقد تحدثت مع مديره، وكل ما قاله هو إن سيب ولد ذكي، وبأنه شبه متأكد من فرصته بالذهاب لأوكسفورد، لكنه لا يزال يجد صعوبة في تكوين صداقات».

قال جيلز: «يؤسفي ما أسمع، من الممكن أنه يشعر بالخجل فقط. لا تقلق فأنت عندما التحقت بسانت بيد لم يحبك أحد». عندها التفت جيلز ناحية الساعي وقال: «كوبان آخران، من فضلك».

«في الحال سيدي».

سأل جيلز: «وكيف هي صديقتي المفضلة؟».

قال هاري: «في حال كنت تسأل عن جيسيك، عليك أن تنضم للوقوف في طابور طويل. فالجميع يحبون هذه الفتاة الصغيرة، من كليوباترا إلى ساعي البريد، لكن هي تحب والدها فقط».

عندها قال جيلز هامساً: «متى ستخبرها بهوية والدها الحقيقي؟».

«دائماً ما أطرح هذا السؤال على نفسي. وليس عليك إخباري بأني أحتفظ بمشاكل للمستقبل، ولكن لا أجد الوقت المناسب».

قال جيلز: «لن يكون هنالك وقت مناسب. لكن لا تدع الأمر يأخذ وقتاً طويلاً، لأن هنالك شيئاً واحداً مؤكداً، فإيها لن تخبرها أبداً، وأنا شبه متأكد من أن سيب اكتشف الأمر بنفسه».

«ما الذي يدفعك إلى قول هذا؟».

وبينما تلقى جيلز دفعة على ظهره من أحد الناخبين قال: «لن أتكلم عن هذا هنا».

قال الساقى: «سيكون ثمن هذا تسعة بنسات سيدي».

افترض هاري أن على جيلز دفع ثمن هذين الكوبين بما أنه قد دفع ثمن الكوبين الأولين.

قال جيلز: «آسف، لكنني لن أدفع».

«لن تدفع؟».

«كلا. فمن غير المسموح للمرشحين بشراء أي مشروب خلال الحملة الانتخابية».

قال هاري: «آه حسناً. على الأقل عرفت الآن سبب رغبتك في أن

تصبح عضو في البرلمان، ولكن لما لا يسمح لك بشراء المشروب؟».

«من الممكن أن يبدو الأمر، وكأنني أحاول أن أشتري صوتك. هذا

يعود لإصلاحات المناطق الإدارية المتعفنة».

قال هاري: «قد أحتاج لكميات جعة كبيرة على مد النظر أكثر من

كوب واحد قبل أن أفكر بالتصويت لك».

قال جيلز: «أبقي صوتك منخفضاً. فإن سمع أحدهم أن زوج شقيقتي نفسه لن يصوت لي، عندها سيشتيع الخبر في الصحف، وسيبدأ كل شخص بالسؤال لمَ عليه أن يصوت لي؟».

«وبما أننا لسنا في الوقت ولا المكان المناسبين لمناقشة الأمور العائلية، هل هناك من فرصة لكما بالانضمام إلينا أنا وإيما، على العشاء مساء يوم الأحد؟».

«ولا حتى أمل صغير لفعل هذا. لدي ثلاث قداديس لحضورها يوم الأحد، ولا تنسى، سيكون ذلك آخر أحد قبل الانتخابات».

قال هاري: «يا إلهي، هل الانتخابات ستكون يوم الخميس المقبل؟».

قال جيلز: «تَباً، إنها قاعدة ذهبية بأن لا تذكر مرشح المحافظين بموعد الانتخابات. فعلي الآن الاعتماد على الله بتقديم الدعم لي، ولا أزال غير متأكد تماماً من الجهة التي يدعمها. يستحسن أن أركع يوم الأحد في كنيسة مارتنز، طالباً هدايته أثناء صلاة المساء، والدعاء عند صلاة العصر، والأمل في النهاية أن يكون التصويت لصالح».

«هل عليك القيام بكل هذا، فقط لتفوز ببعض الأصوات الأخرى؟».

«بالطبع، ولا تنسَ، إن قداس الكنيسة لديه معدل مشاركات انتخابية أكبر بكثير من جميع ما سبق لي تنظيمه في اجتماعاتي السياسية».

«لكني ظننت أن الكنيسة تقف على الحياد؟».

«وهذا ما يجب أن يكون، لكن القساوسة سيخبرونك دائماً أنهم غير مهتمين بالسياسة إطلاقاً، بينما يعانون من القليل من تأنيب الضمير حول إخبارهم لأبناء الأبرشية بالحزب الذي سيصوتون له».

سأله هاري: «هل ترغب بكوب آخر؟».

«كلا. فلا أستطيع إضاعة وقت أكثر بالحديث معك. فلا يحق لك أصلاً التصويت في هذه الانتخابات، ولكن ولو كان لديك الحق، فلن تدعمني».

قفز عن كرسيه، وصافح الساقبي، وانطلق خارج الحانة على الرصيف، بينما ابتسم لأول شخص رآه.

«مساء الخير سيدي. أنا جيلز بارينغتون، وآمل أنني أستطيع الاعتماد على دعمك في الانتخابات العامة يوم الخميس المقبل».

«أنا لا أعيش في هذه الدائرة، يا صديقي، جئت من بيرمنغهام لليلة واحدة فقط».

في يوم الانتخاب، غريف هاسكينز، نائب جيلز، أخبر المرشح أنه يشعر بالثقة من أن ناخبي بريستول دوكلاند لا يزالون أوفياء للعضو المتحدث باسمهم وسينتخبونه مجدداً ليمثلهم في مجلس النواب حتى وإن كان عدد المصوتين له أقل من المرة السابقة. مع ذلك، لم يكن مقتنعاً بأن حزب العمال سينال الأغلبية.

اتضح أن غريف كان محقاً، لأنه في تمام الساعة الثالثة من صباح 27 أكتوبر عام 1951، أعلن رئيس مكتب التصويت أنه وبعد العد لثلاث

مرات، فاز السيد جيلز بارينغتون بعضوية مجلس البرلمان عن بريستول
دوكلاند، بأغلبية 414 صوتاً.

عند صدور النتائج العامة على صعيد الدولة، فاز المحافظون
بالأغلبية بفارق 17 مقعداً، ووجد وينستون تشرشل نفسه مجدداً يعود
للإقامة في تن داوونينغ ستريت. الانتخاب الأول الذي فاز فيه كمثل
للمحافظين.

يوم الاثنين الذي تلاه، سلك جيلز طريقه إلى لندن، وأخذ مقعده في
مجلس النواب. وكانت الأحاديث الطاغية على الممرات، أنه لن يمر وقت
طويل قبل الدعوة مجدداً للانتخابات لأن الأغلبية لم تكن سوى 17
مقعداً.

في تلك الأثناء، كان جيلز يفكر أنه يجب أن يسعى منذ الآن لزيادة
عدد مؤيديه قبل الانتخابات التي يحكى عنها، وإلا سيكون الأمر بمثابة
نهاية لحياته السياسية.

سلم الوصيف السيد جيلز مغلفاً على طبق فضي. ألقى جيلز نظرة سريعة عليه، كما يفعل كل صباح، وهو يفتح المغلف البني الطويل الرقيق، الذي وضعه بعيداً عن المغلفات البيضاء المربعة التي سيفتحها حالاً. من بين هذه المغلفات التي شدت انتباهه ذلك الصباح، كان هناك مغلف أبيض طويل ورقيق يحمل ختم بريد مدينة بريستول.

مزقه وفتحه. أخرج ورقة واحدة بعنوان إلى من يهمه الأمر. وحاملاً قرأها، نظر إلى فيرجينيا التي كانت قد انضمت إليه للتو على فطور متأخر وابتسم لها.

أعلن جيلز قائلاً: «سينتهي الأمر نهار الأربعاء».

لم ترفع فيرجينيا عينيها عن نسختها من صحيفة الديلي إكسبريس. فهي عادة تبدأ صباحها بفنجان من القهوة السوداء وتقرأ لويليام هيكي، لتعرف ما الذي يقوم به أصدقاؤها.

سألت من دون أن ترفع رأسها: «ما الذي سينتهي نهار الأربعاء؟». «وصية أُمي».

صرفت فرجينيا انتباهها عما تقرأ، وطوت الصحيفة وابتسمت برقة لجيلز: «أخبرني بالمزيد يا عزيزي».

«سُتقرأ الوصية في بريستول الأربعاء المقبل. يمكننا الذهاب عصر يوم الثلاثاء، وتمضية الليل في هال، وحضور جلسة القراءة في اليوم التالي».

«في أي ساعة ستُتلى الوصية؟».

نظر جيلز إلى الورقة مرة ثانية وقال: «عند الحادية عشرة في مكاتب مارشال، بيكر وسيدونز».

«لكن صغيري، هل ستمانع إذا ذهبنا صباح الأربعاء؟ فأنا لا أعتقد بأني أستطيع تحمل ليلة أخرى أتعامل فيها بلطف مع أختك العدائية».

كان جيلز يوشك على قول شيء ما إلا أنه غير رأيه وقال: «بالطبع لا أمانع حبيبتي».

«توقف عن مناداتي حبيبتي، يا صغيري، إنها كلمة مبتذلة بشكل بغيض».

«عزيزتي، ما الذي حدث معك اليوم؟».

«أمور عصبية كالعادة. فلا يبدو أنني أتوقف عن العمل هذه الأيام. فستان آخر لأرتديه هذا الصباح، وغداء مع الإشبينات، وبعد الظهر لديّ موعد مع متعهدي الحفلات الذين يضغطون عليّ بشأن عدد المدعوين».

سأل جيلز: «ما آخر الأخبار؟».

«فقط أكثر من مائتي دعوة من طرفي ومئة وثلاثين أخرى من طرفك. وكنت لأفضل إرسال الدعوات الأسبوع المقبل».

قال جيلز: «هذا يناسبني». وأضاف: «لقد أخبرني مدير المراسم مجلس العموم بموافقتة على طلبي باستخدام صالة الاستقبال في المجلس، لذا علينا دعوته أيضاً».

«بالطبع يا صغيري، بغض النظر عن هذا، فهو من المحافظين».

واقترح جيلز بتردد: «والسيد أتلي على الأرجح».

«لست متأكدة من ردة فعل بابا حول حضور زعيم حزب العمال حفل زفاف ابنته الوحيدة. من الممكن أن أطلب منه دعوة السيد تشرشل».

* * *

يوم الأربعاء التالي، قاد جيلز سيارته من نوع جاكوار متجها نحو حدائق كادوغان وركنها أمام شقة فيرجينيا. قرع جرس الباب الأمامي متوقفاً أن ينضم إلى خطيبته لتناول الفطور.

قال كبير الخدم: «لم تنزل الأنسة فيرجينيا بعد يا سيدي. لكن بإمكانك انتظارها في غرفة الاستقبال، وسأحضر لك فنجان القهوة وصحيفة الصباح».

قال جيلز للخادم الذي كان قد اعترف له مرة على انفراد بأنه صوت للعمال: «شكراً لك».

جلس جيلز على كرسي مريح حيث كان له الاختيار بين صحيفة الإكسبريس أو التيلغراف. واختار التيلغراف لأن العنوان الرئيسي على الصفحة الأولى أثار انتباهه: آيزينهاور يعلن أنه سيترشح للانتخابات. هذا

القرار لم يفاجئ جيلز، على الرغم من أنه كان مهتماً بمعرفة إن كان الجنرال سيمثل الحزب الجمهوري، لأنه حتى الآن لا أحد يعلم الحزب الذي سيترشح باسمه الجنرال بعد أن عرض عليه كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري تأييده.

كان جيلز ينظر إلى ساعته كل بضع دقائق، لكن فيرجينيا لم تأتِ. وعندما دقت الساعة على رف الموقد مشيرة إلى مرور نصف ساعة، أثار اهتمامه مقال مكتوب على الصفحة السابعة، والذي أشار إلى أن بريطانيا تفكر ببناء أول طريق سريع. وكانت الأزمة الكورية مهيمنة على صفحات التغطية البرلمانية، وخطاب جيلز حول 48 ساعة عمل في الأسبوع لكل العاملين، أخذ حيزاً كبيراً وخصوصاً عبارة أن كل ساعة عمل تزيد عن عدد الساعات هذه تعتبر ساعة عمل إضافية، التي اقتبست بخط كبير، مع افتتاحية رئيس التحرير التي تنتقد آراء جيلز. ابتسم. فبعد كل هذا، إنها صحيفة التيلغراف. وكان جيلز يقرأ بياناً صادراً عن البلاط الملكي بشأن جولة أفريقيا تقوم بها الأميرة إليزابيث عندما ظهرت أمامه فيرجينيا.

«أسفة لإبقائك منتظراً عزيزي، لكنني لم أستطع أن أقرر ما سأرتدي».

نهض وقبل خطيبته على وجنتيها، ورجع إلى الورا متذكراً كم هو محظوظ أن هذه المرأة الفاتنة ستكون زوجته.

قال وهو يبدي إعجابه بفستانها الأصفر الذي لم يسبق له أن رآه، والذي يظهر قوامها الممشوق الجميل: «تبدين رائعة».

قالت فيرجينيا وهي تقوم بالدوران: «لعلها مخاطرة ارتداء مثله من أجل حضور قراءة وصية؟».

قال جيلز: «بالتأكيد لا. في الحقيقة، حاملما ستدخلين الصالة لن تستطيع أي شخص التفكير بأي شيء آخر».

قالت فيرجينيا وهي تنظر إلى ساعتها: «لا أمل هذا. يا إلهي، أعتقد أننا تأخرنا؟ من الأفضل أن نتخطى الفطور يا صغيري، في حال أردنا الوصول في الموعد المحدد. صحيح أننا نعلم سلفاً بمضمون الوصية، لكن لا بد من أن نبدو وكأننا لا نعلم».

في الطريق إلى بريستول، أطلعت فيرجينيا جيلز على آخر تحديثات تدابير الزفاف. شعر جيلز بخيبة أمل بسيطة لأنها لم تسأله عن خطابه الذي ألقاه الليلة السابقة، لكن ويليام هيكي لم يكن موجوداً في منصة الصحافة لتعلم بشأن خطابه. لم يلفت انتباه جيلز أي شيء كانت تقوله فيرجينيا حتى وصلا إلى شارع غريت ويست.

«أول شيء علينا القيام به حاملما تعلن الوصية هو أن نبحث عن بديل لمارسدن».

قال جيلز: «لكنه بصحبة العائلة منذ أكثر من ثلاثين سنة. في الحقيقة، لا أستطيع تذكر أي وقت لم يكن فيه موجوداً».

«وهذا جزء من المشكلة. لكن لا تزعج نفسك يا عزيزي، أعتقد أنني وجدت البديل الأمثل له».

«لكن...».

«وفي حال شعرت بالأسى حيال هذا يا صغيري، فإن مارسدن يستطيع دائماً الذهاب للعمل في مانور هاوس والاعتناء بعماتي». «لكن—».

تابعت فيرجينيا: «وبينما أدبر وضع البديل، فإنه سيكون الوقت المثالي للنقاش بشأن موضوع جاكي». «سكرتيرتي الخاصة؟».

«أرى أنها خاصة جداً. لا أستطيع الادعاء أنني أقبل بما درج عليه الموظفون ومناداة رؤسائهم بأسمائهم المسيحية. مما لا شك فيه أن ذلك يعود للمفاهيم العمالية الواهية حول المساواة. ومع ذلك، شعرت أن من الضروري تذكيرها بأنني الآنسة فيرجينيا».

قال جيلز: «آسف، إنها في العادة في غاية التهذيب».

«من الممكن أنها كذلك معك، لكنني عندما اتصلت البارحة طلبت مني الانتظار، وأنا لم أعود الانتظار مطلقاً». «سأتحدث معها حول هذا».

قالت فيرجينيا: «رجاء لا تزعج نفسك»، الأمر الذي أراح جيلز «لأنني لن أتصل بالملكتب طالما جاكي تعمل معك».

«ألا تعتقدين أنك تعطين الأمر أهمية أكبر من حجمه؟ إنها تقوم بعملها على أكمل وجه، ولن أستطيع بسهولة إيجاد بديلة لها».

انحنت فيرجينيا وقبلت وجنته قائلة: «يا صغيري، آمل أن أكون الشخص الوحيد الذي لا يستطيع إيجاد بديل له».

دخل السيد سيدونز القاعة ولم يفاجئه وجود كل من أرسلت إليهم رسالة إلى من يهمه الأمر. جلس في مقعده ودقق النظر في وجوههم الآملة.

في الصف الأول جلس السيد جيلز بارينغتون وخطيبته الأنسة فيرجينيا فينويك، والتي كانت مبهرة شخصياً أكثر من الصورة التي رآها فيها خلال حياتها في الريف قبل قليل من إعلان الثنائي خطبتهما. كان السيد سيدونز يتطلع لمعرفتها.

في الصف الثاني، جلس خلفهما تماماً السيد هاري كليفتون وزوجته إيما التي كانت تجلس بجانب أختها جريس. ولفت انتباهه أن الأنسة بارينغتون كانت ترتدي جوربا أزرق.

في الصف الثالث جلس السيد والسيدة هولكومب بجانب القس السيد دونالدسون، وسيدة كانت ترتدي لباس مدبرة. وفي المقعدين الخلفيين جلس كادر الموظفين الذين عملوا لدى عائلة بارينغتون لعدة سنوات، ودلت مقاعدهم الخلفية على عملهم.

وضع السيد سيدونز نظارة على شكل نصف قمر على نهاية أنفه، وتنحنح دلالة على بداية الإجراءات.

نظر من فوق نظارته عندما اجتمع الحشد قبل أن يقوم بتعليقه الافتتاحي. لم يتطلب منه ذلك أية ملاحظات.

وبدأ: «سيداتي سادتي. اسمي ديزموند سيدونز، ولي الشرف بكوني محامي عائلة بارينغتون منذ 23 سنة، وبالرغم من هذه المدة الطويلة

إلا أنني أحتاج إلى بعض الوقت حتى أعادل الفترة الزمنية التي عمل فيها والدي محامياً للعائلة وشملت حياتي السيدين والتر وهوغو بارينغتون. أظن أنني أطلت في الاستطراد». اعتقد السيد سيدونز أن الأنسة فيرجينيا بدت وكأنها توافقه الرأي.

وتابع: «أنا القيم على تلاوة وصية وشهادة إليزابيث ماي بارينغتون، والتي طلبت مني السهر على تنفيذها، وموقعة من شاهدين مستقلين. وتابع وهو يظهر الوثيقة أمام الجميع: «إن هذه الوثيقة تلغي وتبطل كل وصية سابقة». ينبغي ألا أضيع وقتكم بقراءة صفحات قانونية غير مفهومة والمطلوب قراءتها بحكم القانون، لكن من الأفضل التركيز على بعض الهبات المرتبطة بها. في حال وجد من يرغب بدراسة الوصية بتفصيل أكثر لاحقاً، فمرحب به للقيام بهذا».

نظر السيد سيدونز إلى الأسفل، وقلب الصفحة، وعدّل نظارته قبل أن يكمل.

«عدة جمعيات خيرية تعنى بمرضى القلب مذكورة في الوصاية. وأبرشية كنيسة سانت أندروز، وماوي الدكتور بارناردو، والمستشفى الذي اعتنى بالسيدة بارينغتون بغاية العطف خلال أيامها الأخيرة. كل واحدة من هذه ستتلقى هبة بقيمة خمسمئة باوند».

عدّل السيد سيدونز نظارته مجدداً.

«عليّ الآن الانتقال لأولئك الأفراد الذين خدموا عائلة بارينغتون عبر السنين. كل فرد من الكادر الذي تم توظيفه من قبل السيدة بارينغتون لأكثر من خمس سنوات سيتلقى راتب سنة إضافية، بينما سيتلقى كل من المدبرة وكبير الخدم هبة إضافية بقيمة خمسمئة جنيه».

انحنى مارسدن وقال: «شكراً لك سيدتي».

وأكمل السيد سيدونز: «وأهب لحفيدي سيباستيان آرثر كليفتون، 5000 جنيه، سيتلقاها عندما يبلغ السن القانونية في التاسع من مارس عام 1961».

أوما جيلز رأسه، وفكر أن ذلك كان متوقعاً.

«حق انتفاع ملكيائي، من ضمنها نسبة 22 بالمائة من أسطول عائلة بارينغتون بالإضافة إلى مانور هاوس» - لم يستطع السيد سيدونز مقاومة إلقاء نظرة خاطفة إلى الأنسة فيرجينيا فينويك، التي كانت تجلس على حافة الكرسي - «سأتركه لمحبوبتي... بناتي إيما وجريس لتتصرفا به كما تريدان، أما هرتي السيامية، فإني سأتركها للآنسة فيرجينيا فينويك، لأن لديهما قواسم مشتركة كثيرة. فهما جميلتان وأنيقتان ومغرورتان وماكرتان ومفترستان ومتلاعبتان، تفترضان بأن يجب على كل شخص آخر خدمتهما، بمن فيهم ابني المتيم، الذي كل ما باستطاعتي فعله هو الدعاء بفك اللعنة التي أصابته قبل أن يفوت الأوان».

بدا جلياً للسيد سيدونز أن أحداً لم يتوقع وصية كهذه، من خلال نظرات الدهشة والهمسات والثرثرة التي انبثقت من زوايا الغرفة الأربع، ومع أنه لاحظ أن السيد كليفتون بقي هادئاً. بخلاف الأنسة فيرجينيا التي كانت تهمس شيئاً ما لجيلز.

قال السيد سيدونز: «بهذا أكون قد تلوت أهم ما في الوصية. في حال وجود أية استفسارات سيسرني الإجابة عنها».

قال جيلز قبل أن يتسنى لأي أحد آخر التحدث: «سؤال واحد فقط. ما هي الفترة المتاحة للاعتراض على الوصية؟».

أجابه السيد سيدونز: «سيد جيلز، تستطيع الاعتراض عليها أمام المحكمة العليا في أي وقت خلال الثماني وعشرين يوماً القادمة».

في حال وجد أية أسئلة أخرى، فإن السيد جيلز والآنسة فيرجينيا لم يسمعاهما لأنهما اندفعا خارج القاعة من دون أن ينبسا بنت شفة.

قال جيلز: «عزيزتي سأقوم بأي شيء، لكن لا تفسخي خطبتنا». «كيف تتوقع مني مواجهة العالم بعد أن قامت والدتك بإذلالي أمام عائلتك وأصدقائك وحتى الخدم؟».

قال جيلز: «أفهم هذا، بالطبع أفهمه. لكن من الواضح أن أمي لم تكن على صواب. يبدو أنها لم تع ما كانت تفعله».

قالت فيرجينيا وهي تتلاعب بخاتم خطبتها: «قلت إنك ستقوم بأي شيء؟».

«أي شيء يا عزيزتي».

«أول شيء عليك فعله هو إقالة سكرتيرتك، وعلى بديلتها أن تحظى بموافقتي».

قال جيلز بخنوع: «اعتبري الأمر منتهياً».

«ومنذ الغد ستكلف فريقاً من المحامين للاعتراض على الوصية، وأياً تكن النتائج، عليك الكفاح بكل ما أوتيت من قوة حتى تستعيد حقلك».

«لقد تشاورت بالأمر مسبقاً مع السيد كوثيرت ماكينز».

كررت فيرجينيا القول: «الكفاح بكل ما أوتيت من قوة».

قال جيلز: «نعم بكل ما أوتيت من قوة. أي شيء آخر؟».

«نعم. عندما تصدر بطاقات الدعوة للزفاف في الأسبوع المقبل، أنا وحدي من سيوافق على لائحة الضيوف».

«لكن هذا يعني أن...».

«لأنني أريد من جميع من كان في تلك القاعة أن يعرفوا شعور الرفض». أحنى جيلز رأسه.

قالت فيرجينيا وهي تخلع خاتم خطبتها: «إذا لم تعنِ تماماً أنك ستقوم بأي شيء».

«نعم عنيت ذلك يا عزيزتي. أوافق على أنك الشخص الوحيد الذي سيقوم بتحديد ضيوف الزفاف».

قالت فيرجينيا: «وأخيراً، ستطلب من السيد سيدونز أن يستصدر قراراً قضائياً بإخلاء آل كليفتون ملكية آل بارينغتون».

«لكن أين سيعيشون؟».

قالت فيرجينيا: «لا شأن لي في ذلك، فالآن هو الوقت الذي يجب عليك الاختيار بيني وبينهم».

قال جيلز: «إنني أختارك». قالت فيرجينيا وهي ترجع خاتمها، وتقوم بفك أزرار الفستان الأمامية: «حسناً إذا يا صغيري».

* * *

كان هاري يقرأ صحيفة التايمز وإيما تقرأ صحيفة التيلغراف عندما رن الهاتف. فتح الباب ودخلت دينبي إلى غرفة الفطور.

«إنه ناشرك السيد كولينز يتصل بك سيدي. يتساءل إن كان بإمكانه التحدث إليك».

قال هاري وهو يطوي صحيفته: «أشك أنه قال ما قاله بالطريقة التي تقولينها».

كانت إيماء مستغرقة جداً بالمقال الذي كانت تقرأه، لدرجة أنها لم ترفع رأسها عندما خرج زوجها من الغرفة. وكانت قد وصلت إلى نهاية المقال ذاك عند عودته.

قالت: «دعني أظن».

«تلقي بيبي اتصالات من معظم الصحف الوطنية وأيضاً من البي بي سي، يسألونه عما إن كنت أرغب بالإدلاء برأيي».

«وماذا قلت له؟».

«لا تعليق. أخبرته أنه ما من داعٍ لصب الزيت على هذه النار».

قالت إيماء: «لا أظن أن هذا سيرضي بيبي كولينز. كل ما يهمله هو بيع الكتب».

«لم يتوقع أي شيء آخر، ولم يتذمر. أخبرني أنه سيكون مشغولاً بشحن الطبعة الثالثة من النسخة ذات الغلاف الورقي في بداية الأسبوع المقبل للمكتبات».

«هل ترغب بسماع تقرير صحيفة التيلغراف عن هذا؟».

قال هاري وهو يجلس على طاولة الفطور: «هل يفترض بي الاستماع؟».

تجاهلت إِيها تعليقه هذا وبدأت القراءة بصوت مرتفع.

«أقيم حفل زفاف عضو مجلس النواب السيد جيلز بارينغتون والآنسة فيرجينيا فينويك، حيث ارتدت العروس فستاناً من تصميم السيد نورمان...».

قال هاري: «على الأقل لم أذكر في التقرير».

تخطت إِيها عدة فقرات. «حضر مراسم حفل الزفاف الذي أقيم في كنيسة سانت مارغريت في ويستمنستر أربعمئة ضيف. ترأس القداس رئيس أبرشية ريبون القس جورج هاستينغز، بعد ذلك، أقيم حفل الاستقبال في صالة المراسم في مجلس العموم، الذي حضرته الأميرة إليزابيث، وإيرل بورما النبيل ماونتباتن، ورئيس حزب المعارضة كليمنت أتلي، ومدير المراسم في مجلس العموم السيد ويليام موريسون. لائحة الضيوف الذين حضروا الزفاف تلفت النظر حقاً، ولكن ما يلفت النظر أكثر أسماء الذين لم يحضروا، إما لأنهم لم يدعوا أو لم يرغبوا بالحضور. فباستثناء السيد جيلز نفسه، لم يحضر أحد من عائلة بارينغتون. لكن غياب أخته السيدة إِيها كليفتون والآنسة جريس بارينغتون، وأيضا شقيق زوجته هاري كليفتون الكاتب المعروف، أثار بعض التساؤلات، خاصة أنه أعلن منذ أسابيع عدة أنه سيكون وصيف السيد جيلز».

سأل هاري: «إذاً من كان الوصيف؟».

«الدكتور أليغيرنون ديكنز من كلية باليول، أوكسفورد».

قال هاري: «ديكينز العزيز. إنه خيار ممتاز. لا بد وأنه حضر في الموعد المحدد، ونظراً لدقته لا بد أن المراسم سارت بدقة متناهية. هل من شيء آخر؟».

«أخشى هذا». وتابعت القراءة: «الشيء الذي يثير بعض التساؤلات هو أنه منذ ست سنوات، عندما كانت قضية عائلة بارينغتون وكليفتون سابقة في مجلس اللوردات، وجرى التصويت على من سيرث لقب عائلة بارينغتون وأملاكها، كان كل من السيد جيلز والسيد كليفتون على وفاق عندما أصدر اللورد المستشار حكمه لصالح السيد جيلز». وتابعت إيما: «سيقضي العروسان شهر عسلهما في فيلا السيد جيلز في توسكانا».

قالت إيما وهي ترفع رأسها: «إنه تصرف حقير، فالفيلا وفقاً للوصية هي من حقي وحق جريس».

قال هاري: «كوني منطقية يا إيما. لقد اتفقت مع جيلز أن نبادل مانور هاوس بالفيلا ريثما يبت الأمر بالاعتراض على الوصية».

إليك الجزء المثير عريزي هاري: «يبدو أن صدعاً كبيراً أصاب علاقات الإخوة بعد وفاة السيدة إليزابيث والدة السيد جيلز، خصوصاً بعد تلاوة وصيتها التي خست فيها ابنتها إيما وجريس بالحصة الأكبر ولم توص بشي لابنها الذي نقض وطعن بالوصية، التي ستعرض أمام المحكمة الشهر المقبل». ما رأيك كل ما تقدم ورد في صحيفة واحدة وماذا عن صحيفة التايمز؟

«أكثر رزانة. الحقائق فقط بدون تخمين. لكن بيلى كولينز أخبرني بوجود صورة لكليوباترا على الصفحات الأولى لصحيفتي المليل والإكسبريس، أما مانشيت الميرور فكانت بعنوان: حرب القطط».

قالت إيما: «ما لا أفهمه كيف حصل كل هذا؟ كيف سمح جيلز لهذه المرأة أن تمنع عائلته من حضور زفافه».

قال هاري: «وأنا مثلك أيضاً؟ ولكن ما لا أستطيع فهمه على الإطلاق كيف تخلى أمير ويلز عن العرش من أجل مطلقة أميركية. أعتقد أن أمك كانت محقة، فجيلز متيم بفرجينيا».

قالت إيماء: «لو طلبت مني أمي التخلي عنك كنت لأعاديها». ابتسمت له بدفء. «لذا فأنا أتعاطف مع أخي».

* * *

في الأسبوعين التاليين، ظهرت في معظم الصحف الوطنية صور للسيد والسيدة بارينغتون في شهر عسلهما في توسكانا. وكانت رواية هاري الرابعة بعنوان، أعظم من السيف، قد نشرت في اليوم نفسه الذي عاد فيه الثنائي من إيطاليا. وفي الصباح التالي، ظهرت الصورة نفسها على الصفحات الأولى للصحف باستثناء صحيفة التايمز.

عندما ترجل الثنائي من القطار في واترلو، كان عليهما المرور من أمام مكتبة سميث ليصلا إلى السيارة. كان هنالك رواية واحدة معروضة بشكل كبير على الواجهة. وبعد أسبوع، أصبحت الرواية من الأكثر مبيعاً، وبقيت كذلك حتى يوم افتتاح المحاكمة.

كل ما قاله هاري أنه ما من أحد يفهم كيفية الترويج لكتاب مثل بيلى كولينز.

أول ما اتفق عليه جيلز وإيما أنه سيكون من الحكمة عرض القضية لينظر فيها قاضٍ في جلسة مغلقة وليس أمام هيئة المحلفين، وما قد يرافق الأمر من تسليط الصحافة الضوء على الأمر، وتم الاتفاق أن تعرض القضية على السيد كامرون بعد أن أكد وكيلا الطرفين لهما أنه رجل نزيه وحكيم.

وبالرغم من حشد الصحافيين خارج قاعة المحكمة رقم 6، إلا أن طرفي الدعوى ووكيليهما لم يصرحا بأي شيء، عدا صباح الخير ومساء الأخير.

مثل جيلز السيد كوثيرت ماكينز، بينما اختارت كل من إيما وجريس السيد سيمون تود لتمثيلهما، بالرغم من أن جريس أوضحت أنها لن تحضر المحاكمة لأن لديها أشياء أكثر أهمية عليها القيام بها. وعندما سألتها إيما: «مثل ماذا؟».

أجابتها جريس: «بالنسبة إليّ تعليم شبان أذكيا أكثر أهمية من الاستماع إلى جدالات الراشدين الصبانية، لو كان الأمر بيدي لكنت ضربت رأسيكما معاً».

عندما أشارت الساعة خلف كرسي القاضي إلى الساعة العاشر من يوم المحاكمة الأول، دخل القاضي كامرون، وعندها وقف الجميع بغاية الاحترام وانحنوا لحضرته، وما إن دخل حتى جلس على كرسيه الجلدي

الوثير، ووضع قبعة الشعر المستعار، وفتح أمامه المجلد الأحمر السميك، وارتشف رشفة من الماء قبل تقديم الطرفين.

وبداً: «سيداتى سادتي، من واجبي الاستماع إلى آراء المحامين، والشهود، والأخذ بعين الاعتبار القوانين التي تطبق على هذه القضية. قبل أن أبدأ، لا بد من سؤال محامي المدعي والمدعى عليه عما إذا استنفدا كل جهودهما لإيجاد حل قبل سلوك درب المقاضاة».

نهض السيد كوثيرت ببطء، وسحب طية صدر سترته قبل أن يخاطب القاضي وقال: «أتحدث بالنيابة عن الطرفين وأقول إنه مع بالغ الأسف تعذر إيجاد حل».

«إذاً سيد كوثيرت لنبدأ بالاستماع إليك».

«بعد إذن حضرتكم، وبما أنني أمثل جهة الادعاء المتمثلة بالسيد جيلز بارينغتون، فأنا أطعن بصحة الوصية، وأدعو للتثبت من أن الراحلة السيدة إليزابيث بارينغتون كانت بكامل قدراتها العقلية والذهنية عندما وقعت على الوصية الطويلة والمعقدة موضوع الطعن، خصوصاً أنها كانت في فترة المرض ما قبل الموت. وأن أشكك بقدره سيده ضعيفة ومرهقة بإصدار وثيقة تؤثر على حياة آخرين، علماً أنه يجدر بي الإشارة لحضرتك أن السيدة كانت قد كتبت وصية قبل مرضها منذ اثني عشر شهراً، عندما كانت بوضع صحي أفضل ولديها كامل الوقت للتفكير بتبعاتها، وقبل أن أفرغ من الكلام أطلب باستدعاء الشاهد السيد ميشيل بايم».

دخل رجل طويل وأنيق أشيب الشعر، وقبل أن يقف على منصة الشهود أعطى الانطباع عن شخصيته البريئة والتي تبعث الثقة، وهذا ما

سعى إليه السيد كوثيرت عندما اختاره شاهداً، وبعد أن أقسم اليمين، ابتسم له كوثيرت برقة.

«من فضلك سيد بايم صرح عن اسمك ومهنتك لسجلات المحكمة».

«أدعى ميشيل بايم، كبير جراحي مستشفى غاي في مدينة لندن».

«منذ متى وأنت تشغل هذا المنصب؟».

«ست عشرة سنة».

«إذاً لديك الخبرة الكافية في مجال عملك. وبالفعل، فإن من الممكن

أن يقول المرء...».

قال القاضي: «أوافق على أن السيد بايم شاهد ممتاز يا سيد

كوثيرت، تابع من فضلك».

قال السيد كوثيرت يصحح ما قاله بسرعة: «سيد بايم هلا أخبرت

المحكمة بالنظر إلى خبرتك، ما الذي يمر به مرضى السرطان عادة في

الأسبوع الأخير من حياتهم من ألم؟».

«يمكن أن تتنوع الإجابات لكن، معظم المرضى يمرون بفترات طويلة

من شبه اللاوعي أو اللاوعي الكامل. وعندما يكونون واعين، فإنهم

يكونون مدركين أنهم على وشك مغادرة هذه الحياة، ولكن عدا هذا

الإدراك فإنهم يفقدون الإحساس السليم بالواقع».

«هل تعتقد، أن المريض في ظل هذا الوضع الصحي والذهني يكون

قادراً على اتخاذ قرارات مهمة كالتوقيع على وصية؟».

ردّ بايم قائلاً: «كلا، لا أعتقد. وفي أي وقت أطلب فيه توقيع موافقة طبية في ظل هكذا ظروف، فإني أتأكد من القيام بها قبل أن يصل المريض إلى هذه الحالة».

قال السيد كوثررت وهو يعود إلى كرسيه: «لا يوجد المزيد من الأسئلة حضرة القاضي».

عندها سأل القاضي وهو يتكئ إلى الوراء: «هل تقول إنه لا يوجد أية استثناءات لهذه القاعدة يا سيد بايم؟».

«الاستثناء يثبت صحة القاعدة حضرة القاضي».

أجاب القاضي: «تماماً». والتفت نحو السيد تود وسأل: «هل لديك أي أسئلة تود طرحها على الشاهد؟».

أجاب السيد تود وهو يقف: «بالتأكيد لديّ حضرة القاضي. سيد بايم، هل سبق والتقيت بالسيدة بارينغتون إما بشكل اجتماعي أو مهني؟».

«كلا، لكن ...».

«إذاً، لم تتسنّ لك الفرصة للاطلاع على تاريخها الصحي؟».

«بالطبع لا. فهي لم تكن مريضتي، لأن ذلك سيشكل خرقاً لأنظمة رابطة الأطباء المتعلقة بأداب المهنة».

«إذا فأنت لم تقابل السيدة بارينغتون ولا تعرف شيئاً عن حالتها؟».

«كلا سيدي».

«إذا، من الممكن أن تكون هي الاستثناء الذي يثبت صحة القاعدة يا سيد بايم؟».

«ممكن، لكنه احتمال بعيد».

«أكتفي بهذا القدر من الأسئلة حضرة القاضي».

ابتسم السيد كوثيرت بينما كان السيد تود يجلس.

سأل القاضي: «هل لديك أي شهود آخرون من أصحاب الخبرة سيد كوثيرت؟».

«كلا حضرة القاضي، لقد أوضحت فكرتي. لقد أرفقت بالملف الذي بين يديك ثلاث إفادات مكتوبة للنظر فيها من قبل أعضاء بارزين في مهنة الطب. وفي حال ارتأيت حضرتك أو السيد تود استدعاءهم قبل المحكمة، فهم جميعهم جاهزون للمثول أمام عدالتك».

«هذا لطف منك سيد كوثيرت. لقد اطلعت على الإفادات الثلاث وهي تؤيد رأي السيد بايم. هل ترغب سيد تود باستدعاء أي من هؤلاء الشهود أو جميعهم؟».

قال تود: «لا أجد ضرورة لذلك حضرة القاضي. إلا في حال كان أحدهم يعرف السيدة بارينغتون بشكل شخصي أو مطلعاً على وضعها الصحي».

نظر القاضي نحو السيد كوثيرت الذي هز برأسه: «ليس لدي أي شهود آخرون حضرة القاضي».

قال القاضي: «إذا يمكنك استدعاء شاهدك الأول سيد تود».

«شكراً لك حضرة القاضي. أستدعي السيد كينيث لانغبورن».

بدأ السيد لانغبورن على النقيض تماماً من السيد بايم. كان قصير القامة، وكانت بعض أزرار قميصه مفقودة من صدارته وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أنه أعزب وقد اكتسب بضعة كيلوغرامات مؤقتاً. وكان شعره أشعث.

«من فضلك، هلا أدليت باسمك ومهنتك».

«اسمي كينيث لانغبورن، وأنا كبير جراحي المستشفى الملكي لرعاية المسنين في بريستول».

«منذ متى وأنت تشغل هذا المنصب سيد لانغبورن؟».

«منذ تسع سنوات».

«وهل كنت الجراح المسؤول عن حالة السيدة بارينغتون خلال وجودها في المستشفى؟».

«نعم. أحالها إلي طبيب العائلة السيد رايبورن».

«هل صحيح أنك من أجريت الفحوصات للسيدة بارينغتون للتأكد على تشخيص طبيب العائلة بأنه سرطان الثدي، وأكدت أيضاً بأن لديها فقط بضعة أسابيع لتعيشها؟».

«نعم، إن إخبار المريض أنك تتوقع وفاته واحدة من أصعب المهام على الطبيب، ويكون الأمر أكثر صعوبة إن كانت تربطك علاقة صداقة بالمريض».

«هل تستطيع إخبار حضرة القاضي كيف كانت ردة فعل السيدة بارينغتون على هذا؟».

«ربما تكون كلمة متزنة أصدق وصف لردة فعلها. وحالما تقبلت الأمر، أظهرت إرادة، وأشارت أن لديها شيئاً ما مهماً لتقوم به وليس لديها دقيقة لتضيعها».

«ولكن بالتأكيد سيد لانغبورن كانت مرهقة جراء الألم المستمر التي كانت تعانيه نتيجة العلاج؟».

«بالتأكيد قد نومت لفترات طويلة، ولكن عندما تكون مستيقظة، كانت قادرة على قراءة صحيفة التايمز بشكل كامل، وكلما استقبلت الزوار بدت أفضل حالاً منهم».

«وكيف تفسر هذا سيد لانغبورن؟».

«لا تفسير للأمر، ولكن في بعض الأحيان يذهلك بعض الأشخاص بقدرتهم العالية على التعامل مع حقيقة أن وقتهم في هذه الحياة أوشك على النفاد».

«بالاستناد إلى هذه الحالة سيد لانغبورن، هل تعتقد أن السيدة بارينغتون كانت قادرة على فهم واستيعاب وثيقة معقدة كالوصية والتوقيع عليها؟».

«أعتقد ذلك، خلال وجودها في المستشفى كتبت عدة رسائل، وبالفعل طلبت مني أن أشهد على توقيعها لوصيتها بحضور محاميها».

«وهل تقوم بمثل هذا الأمر عادة؟».

«فقط عندما أكون واثقاً أن المريض يوقع وهو بكامل الوعي».

«ولكن في هذه الحالة، هل كنت واثقاً أن السيدة بارينغتون كانت بكامل وعيها؟».

«نعم، بالتأكيد».

«أكتفي بهذا القدر من الأسئلة حضرة القاضي».

«سيد كوثيرت، هل ترغب باستجواب الشاهد؟».

قال السيد كوثيرت: «لديّ سؤال واحد حضرة القاضي. سيد لانغبورن، كم عاشت السيدة بارينغتون بعدما شهدت على توقيعها للوصية؟».

«لقد وافتها المنية في الليلة ذاتها».

كرر السيد كوثيرت: «في الليلة ذاتها، أتقصد أننا نتحدث عن ساعات فقط عاشتها بعد التوقيع؟».

«نعم».

«أكتفي بهذا القدر من الأسئلة حضرة القاضي».

«هل لديك شاهد آخر سيد تود».

«نعم حضرة القاضي، أستدعي السيد ديزموند سيدونز».

دخل سيدونز القاعة بهدوء، وأدى القسم كمحترف باهر.

«من فضلك، صرّح عن اسمك ومهنتك لسجلات المحكمة؟».

«أدعى ديزموند سيدونز. الشريك الأكبر في شركة مارشال، بيكر وسيدونز، وأنا محامي عائلة بارينغتون منذ ثلاثة وعشرين عاماً».

«دعني أبدأ بسؤالك سيد سيدونز عما إذا كنت مسؤولاً عن كتابة الوصية السابقة، التي يعترض عليها السيد جيلز، والتي كانت آخر ما قامت به السيدة بارينغتون».

«نعم سيدي».

«ومنذ متى كان هذا؟».

«حوالي سنة قبل وفاة السيدة بارينغتون».

«وهل اتصلت بك السيدة بارينغتون لاحقاً لتخبرك بأنها ترغب بكتابة وصية جديدة؟».

«نعم، حصل حضرة القاضي، قبل بضعة أيام من وفاتها».

«وما الفرق بين الوصية القديمة والوصية المعدلة؟».

«بقيت كافة حصص الجمعيات الخيرية أو الخدم أو حفيدها أو أصدقائها على حالها. في الواقع، كان هناك تغيير واحد في كامل الوصية».

«وما هو ذلك التغيير سيد سيدونز؟».

«لقد جعلت القسم الأكبر من الملكية من حصة ابنتيها إيما وجريس بدلاً من ابنها جيلز».

قال السيد تود: «دعني استوضح هذا تماماً. باستثناء هذا التغيير الوحيد، وأعترف بأنه تغيير مميز، فإن الوصية بقيت على حالها؟».

«هذا صحيح».

«وكيف كانت حالة السيدة إليزابيث الذهنية والعقلية حين طلبت منك القيام بهذا التغيير في وصيتها؟».

قال السيد كوثيرت وهو ينهض عن كرسيه: «إني أعترض على هذا السؤال حضرة القاضي. كيف للسيد سيدونز أن يطلق حكماً على حالة السيدة بارينغتون العقلية؟ إنه محامٌ وليس طبيباً».

قال القاضي: «اعتراضك مقبول. لكن بما أن السيد سيدونز يعرف السيدة بارينغتون منذ ثلاثة وعشرين عاماً، فإنني أرغب بالاطلاع على رأيه».

قال السيد سيدونز: «كانت مرهقة جداً، وأخذت وقتاً طويلاً على غير العادة للتعبير عن نفسها. ومع ذلك، أوضحت أنها ترغب بكتابة وصية جديدة على عجل».

سأل القاضي: «على عجل... أنت تقول هذا أم هي؟».

«إن ما أقوله نقل حرفي لما صرحت به السيدة بارينغتون حضرة القاضي. إنها عادة تعقب على فقرات أقوم بكتابتها عندما تنتهي من جملة ما».

«إذا فقد قمت بتعديل الوصية الجديدة على عجل؟».

«بالطبع قمت بذلك، لأني كنت أعلم أن الوقت يداهمنا».

«هل كنت موجوداً عند الشهادة على الوصية؟».

«نعم. شهد عليها السيد لانغبورن ورئيسة الممرضات الأنسة

رامبولد».

«وهل تؤكد أن السيدة بارينغتون كانت تعلم ما توقع عليه؟»
قال السيد سيدونز بحزم: «نعم، أؤكد. وإلا لما كنت لأتابع الإجراء».
قال السيد تود: «بالطبع. ليس هناك مزيد من الأسئلة حضرة
القاضي».

«الشاهد لك سيد كوثر».

«شكرا لك حضرة القاضي. سيد سيدونز، لقد أنرت حضرت القاضي
بقولك إنك كنت تحت ضغط كبير لإنهاء الوصية الجديدة وتوقيعها، وأنا
أقتبس عبارتك قمت بكتابتها على عجل».

«نعم. فقد حذرني السيد لانغورن أن أيام السيدة بارينغتون
أصبحت معدودة».

«إذا، وبشكل لا يصدق، قمت بكل ما في وسعك لتسريع العملية».
«لم يكن لديّ خيارات كثيرة».

«لا أشك بهذا سيد سيدونز. هل بإمكانك سؤالك عن المدة التي
أخذتها لكتابة الوصية القديمة، التي يتمسك بها موكلي؟».

تردد سيدونز في الإجابة قليلا ثم قال: «ثلاثة أشهر وربما أربعة».
«وباستشارة منتظمة من السيدة بارينغتون، دون شك؟».

«نعم. فقد كانت شديدة الاهتمام بالتفاصيل».

«أؤكد أنها كانت كذلك. لكن لم يكن الوقت لصالحها للتفكير
بتفاصيل وصيتها الجديدة. خمسة أيام لأكون دقيقاً».

«نعم. لكن لا تنسى...».

«وفي اليوم الأخير قامت فقط بالتخطيط لتوقيع الوصية. هل هذا صحيح؟».

«نعم. أعتقد أنه يمكنك قول هذا».

التفت السيد كوثررت نحو موظف المحكمة وقال: «من فضلك، هلا تسمح بإحضار وصيتي السيدة بارينغتون للسيد سيدونز؟».

انتظر السيد كوثررت إلى أن سلمت الوصيتين للشاهد قبل أن يكمل أسئلته.

«هل توافقني الرأي سيد سيدونز أن التوقيع الموجود على الوصية السابقة أغمق بكثير ومكتوب بثقة أكبر من التوقيع الموجود على الوصية الثانية التي كتبتها على عجل؟ في الحقيقة، إنه لمن الصعب التصديق أن كلتا الوصيتين موقعتين من الشخص نفسه».

سأل القاضي: «هل تطعن سيد كوثررت بصحة توقيع السيدة بارينغتون؟».

«بالطبع لا سيدي القاضي، لكنني أفترض أنها لم تكن على دراية بما تقوم به».

تابع السيد كوثررت ملتفتا نحو المحامي الذي كان يمسك بمنصة الشاهد بيديه الاثنتين: «سيد سيدونز، عندما أنهيت كتابة الوصية على عجل هل راجعتها مع موكلتك؟».

«كلا، فلم يكن هناك سوى تغيير واحد على الوصية السابقة».

«بما أنك لم تراجع الوصية مع موكلتك، وبالاستناد إلى ما تفضل به لا يفترض أن تكون معبرة عما أرادته طالما لم تراجعها».

وقف السيد تود وقال: «إن ما يتفضل به السيد كوثررت تجاوز للحدود، فالسيد سيدونز تشهد سيرته الطويلة في المهنة بمناقبيته ولا يستحق هكذا افتراء على شخصيته». مكتبة الرمحي أحمد

قال القاضي: «أوفقك الرأي سيد تود. هلا قمت يا سيد كوثررت بالتراجع عما وصفت به السيد سيدونز».

قال السيد كوثررت وهو ينحني قليلاً قبل أن يعود إلى الشاهد مجدداً: «أقدم اعتذاري حضرة القاضي. سيد سيدونز، من الذي اقترح أن توقع الست وثلاثين صفحة في الوصية السابقة بالحرفين إ ب؟».

قال سيدونز وبدا مرتبكاً نوعاً ما: «أعتقد أنا من اقترح ذلك».

«لكنك لم تصر على القيام بهذا الإجراء عند كتابة الوصية الثانية، المكتوبة على عجل».

«لم أرَ ضرورة لذلك. وبالتالي، كما قلت سابقاً، لم يكن هناك سوى تغيير واحد مميز».

«وبأي صفحة نستطيع إيجاد ذلك التغيير المميز يا سيد سيدونز؟».

نقر سيدونز بإصبعه على الوصية وابتسم: «في الصفحة التاسعة والعشرين، الجملة السابعة».

قال السيد كوثررت: «آه نعم، إنها أمامي. لكني لا أرى الحرفان إ ب لا في أسفل الصفحة ولا بجانب الجملة نفسها. على ما يبدو أن السيدة بارينغتون كانت متعبة جداً لوضع توقيعين في اليوم نفسه؟».

نظر سيدونز وكأنه يريد أن يعترض على ما قاله كوثررت لكنه لم يفعل.

«دعني أسألك سيد سيدونز، كم مرة خلال مسيرتك المهنية الطويلة والمميزة فشلت بتقديم النصيحة لموكلك بأن يقوم بوضع توقيعه على كل صفحة من وصية ما؟».

لم يجب سيدونز. نظر السيد كوثررت إلى السيد تود أولاً ثم إلى القاضي قبل أن يعود بنظره إلى منصة الشاهد. «لا أزال أنتظر ردك سيدي».

نظر السيد سيدونز بيأس وقال بدون تفكير: «حضرة القاضي، في حال كنت ستقرأ الرسالة، فإن السيدة بارينغتون وجهت إليك بعض الكلام فيها، من الممكن أن يساعدك هذا على تحديد عما إذا كانت حقاً تعرف ما كانت تقوم به».

قال القاضي وبدأت عليه الحيرة: «رسالة؟ لا علم لي بوجود رسالة. إنها بالتأكيد لم تكن بين حزمة الأوراق التي قدمت للمحكمة. هل تعرف بتلك الرسالة سيد كوثررت؟».

«إنها المرة الأولى التي أسمع بها حضرة القاضي. أنا مثلك لا علم لي بها».

قال سيدونز: «هذا لأني استلمتها صباح اليوم فقط، ولم يتسن لي الوقت لإعلام السيد كوثررت بشأنها».

قال القاضي: «ما الذي تتحدث عنه يا رجل؟».

«لقد أبلغني السيد هاري كليفتون، أن السيدة بارينغتون قد أعطته هذه الرسالة قبل ساعات فقط من وفاتها».

«وهل فتحت الرسالة سيد سيدونز؟».

«كلا لم أفعل. فالرسالة لحضرتك، مكتوب عليها إلى السيد القاضي».

قال القاضي: «أفهم هذا. سيد تود وسيد كوثيرت من فضلكما، هلا رافقتماي إلى مكنتي؟».

قال القاضي وهو يضع المغلف على مكتبه أمام المحامين: «هذا عمل صعب يا سادتي. بالنظر إلى الظروف، فإني أعترف أنني لا أعلم ما هو الإجراء الذي يجب عليّ القيام به».

قال السيد تود: «كلانا سنفترض بأن هذا سيثير جدالاً مفترضاً. لذا، يجب أن تعامل كدليل مرفوض».

قال السيد كوثيرت: «أوافق على هذا. لكن بصراحة إذا قمنا بذلك فسيحكم علينا باللعنة، وإذا لم نقم بذلك فسوف نواجه النتيجة نفسها. لأنك في حال لم تفتح المغلف الآن فسيجد طريقه إلى المحكمة، وسيكون دافعاً للفريق الخاسر للطعن».

قال القاضي: «أظن أن من الحكمة ولمصلحة القضية، أن تقبلا أن يُستدعى السيد كليفتون كشاهد تحت القسم، ونرى إن كان يستطيع إعلامنا كيف وصلت إليه هذه الرسالة أصلاً. ما رأيك كوثيرت؟».

قال السيد كوثيرت: «لا أعترض على هذا».

وتابع القاضي قائلاً: «هذا جيد. ومع ذلك، دعوني أخبركما أنني لن أفتح الرسالة حتى أسمع دليل السيد كليفتون، وبعدها سأقوم بذلك

فقط في حال وافقتما. ويجب عليّ القيام بذلك بحضور جميع من ستؤثر عليهم نتيجة هذه الإجراءات».

«السيد هاري كليفتون مدعو للمثول أمام حضرة القاضي».

أمسكت إيما بيد هاري قبل أن ينهض من مكانه ليمشي بهدوء إلى منصة الشاهد. وحالما أدى القسم، استند القاضي إلى الوراء وقال: «سيد كليفتون، سأطرح عليك بضع أسئلة. وعندما أنتهي، فإن المحامين لهما الحرية في حال رغبا باستيضاح أي نقطة. هل بإمكانك التأكيد أنك زوج إيما كليفتون، وصهر الأنسة جريس بارينغتون، المدعى عليهما في هذه القضية؟».

«نعم سيدي، وأنا أيضاً صهر السيد جيلز بارينغتون أقدم أصدقائي وأكثرهم قرباً».

«هلا أخبرت المحكمة عن علاقتك بالسيدة بارينغتون؟».

«كنت في الحادية عشرة من عمري عندما قابلتها للمرة الأولى، في حفل شاي للاحتفال بعيد ميلاد جيلز، لذا فأنا أعرفها منذ حوالي عشرين عاماً».

تابع القاضي قائلاً: «إن هذا لا يجيب عن سؤالي».

«إنني أعتبر إليزابيث صديقة مقربة وعزيزة، فجعت بشدة بوفاتها غير المتوقعة مثل أي شخص في هذه القاعة. كانت حقاً امرأة مميزة، ولو أنها قد ولدت بعد جيل، لما كان لمجلس إدارة شركة شحن عائلة بارينغتون أن يبحث عن مدير خارج العائلة عندما توفي زوجها».

قال القاضي: «شكرا لك». ورفع الرسالة ليشاهدها الجميع وتابع:
«والآن أرغب بسؤالك عن هذه الرسالة وكيف وصلتك؟».

«كنت أزور إليزابيث في المستشفى في معظم الأيام. وكانت زيارتي
الأخيرة في اليوم الذي اتضح لاحقاً أنه آخر يوم في حياتها».
«كنت لوحدك معها؟».

«نعم سيدي. كانت ابنتها جريس قد رحلت لتوها».

«أخبر المحكمة بما حصل من فضلك».

«أخبرتني إليزابيث أنه وفي وقت سابق من ذلك اليوم زارها محاميها
السيد سيدونز وأنها قد وقعت على وصية جديدة».

«نحن نتحدث عن مساء يوم الثلاثاء السادس والعشرين من
يوليو؟».

«نعم سيدي، قبل عدة ساعات من وفاة إليزابيث».

«وهل بإمكانك إخبار المحكمة ببقية الأشياء التي حصلت تلك
الليلة؟».

«فاجأتني بإخراج مغلف مغلق من تحت وسادتها وأعطتني إياه
وطلبت مني الاحتفاظ به».

«هل وضحت سبب إعطائك إياه؟».

«قالت في حال قام جيلز بالاعتراض على وصيتها فما عليّ سوى
تسليم هذه الرسالة إلى القاضي المختار للحكم على القضية».

«هل أبلغتك أي تعليمات أخرى؟».

«قالت إنه لا يجب عليّ فتح المغلف أو أن أدع جيلز أو زوجتي يعرفان بأمر الرسالة».

«وماذا كنت لتفعل لو أن جيلز لم يطعن بالوصية؟».

«كنت سأتلفها، ولن أطلع على محتواها احتراماً لما طلبته إليزابيث».

قال القاضي وهو يرفع المغلف إلى الأعلى: «إذاً سيد كليفتون، أنت لا تملك أية فكرة عما بداخل هذا المغلف؟».

«إطلاقاً».

قالت فيرجينيا بصوت عالٍ بشكل يسمعه الجميع: «وهل تتوقع منا تصديق ذلك».

قال القاضي متجاهلاً هذه المقاطعة: «بدون ضجة، بدون ضجة. ليس لديّ أي أسئلة أخرى لك سيد كليفتون. سيد تود؟».

قال السيد تود وهو ينهض من مكانه: «شكراً لك حضرة القاضي. سيد كليفتون لقد أخبرت حضرتته أن السيدة بارينغتون قالت إنها كتبت وصية جديدة. هل أعطتك أي سبب لفعلها هذا؟».

«ليس لديّ أدنى شك بأن السيدة بارينغتون أحبت ابنها، لكنها أخبرتني أنها تخشى من أن يتزوج السيدة فيرجينيا البغيضة...».

قال كوثربرت وهو يقفز من مكانه: «هذه شائعة وهذا الكلام مرفوض».

«أوافق على هذا. وسنقوم بحذفه من السجل العام».

تدخل السيد تود قائلاً: «لكن يا حضرة القاضي، كون السيدة بارينغتون تركت هرتها كليوباترا للسيدة فيرجينيا، فإن هذا يدل على...»

قال القاضي: «لقد أوضحت فكرتك يا سيد تود. سيد كوثيرت، هل لديك أي أسئلة أخرى لتطرحها على الشاهد؟».

«سؤال واحد فقط يا حضرة القاضي» ونظر مباشرة إلى هاري وسأل: «هل كنت مستفيداً من الوصية السابقة؟».

«كلا سيدي، لم أكن».

«ليس لدي أي أسئلة أخرى للسيد كليفتون حضرة القاضي. لكن هل لي من بعد إذن المحكمة أن أطلب السماح بالاستماع إلى شاهد واحد، قبل أن تقرر ماذا ستفعل بالرسالة».

سأل القاضي: «ما الذي يدور في ذهنك يا سيد كوثيرت؟».

«الشخص الذي على وشك مواجهة الخسارة الأكبر والذي يجب على حكمك أن يكون ضده، أقصد السيد جيلز بارينغتون».

«لا أعترض على هذا، افتراض أن السيد تود موافق أيضاً».

قال تود المدرك عدم جدوى الاعتراض: «أرحب بهذا».

مشى جيلز ببطء نحو منصة الشاهد وأدى القسم وكأنه يخاطب مجلس النواب. رحّب به السيد كوثيرت بابتسامة رقيقة.

«هلا أطلعت سجلات المحكمة عن اسمك ومهنتك؟».

«السيد جيلز بارينغتون، عضو البرلمان عن بريستول دوكلاند».

سأل السيد كوثربرت: «ومتى شاهدت والدتك للمرة الأخيرة؟».

ابتسم القاضي.

«زرتها صباح يوم وفاتها».

«هل ذكرت أنها قد قامت بتغيير وصيتها؟».

«لم تذكر شيئاً من هذا القبيل».

«إذا عندما غادرت، كنت تعرف فقط بوجود وصية واحدة، الوصية التي ناقشتها معها بالتفاصيل الدقيقة قبل سنة؟».

«بصراحة سيد كوثربرت، وصية والدتي كانت آخر ما كنت أفكر فيه في ذلك الوقت».

«بالطبع. لكن عليّ سؤالك كيف وجدت حالتها الصحية في ذلك الصباح».

«كانت واهنة جداً. بالكاد خرجت منها كلمة واحدة طوال الساعة التي قضيتها معها».

«إذاً لا بد أنك تفاجأت عندما علمت أنه وبعد وقت قصير من مغادرتك لها قامت بالتوقيع على وثيقة معقدة مؤلفة من حوالي ستة وثلاثين صفحة».

قال جيلز: «لم يقنعني تصرفها، ولا أزال على رأيي الآن».

«هل أحببت والدتك سيد جيلز؟».

«جداً، فهي أساس العائلة. أتمنى فقط لو أنها لا تزال معنا، ولم نكن في هذا الموقف المهرج الذي نحن فيه الآن».

«شكرا لك سيد جيلز. من فضلك ابق مكانك في حال رغب السيد تود بطرح أي أسئلة».

همس تود في أذن سيدونز قبل أن يقف ليخاطب الشاهد قائلاً:
«أخشى أنه عليّ القيام بهذه المخاطرة الغريبة».

«سيد جيلز، دعني أسألك بداية إذا كنت تعترض على قيام حضرة القاضي بفتح المغلف المرسل إليه؟».

هنا تدخلت فيرجينيا وقالت: «بالطبع، إنه يعترض».

قال جيلز متجاهلاً زوجته: «ليس لدي أي اعتراض على فتح المغلف. وفي حال كانت والدتي من كتبت هذه الرسالة يوم وفاتها، فسيكون من المؤكد أنها كانت قادرة على توقيع وثيقة معقدة مثل الوصية، أما في حال كانت الرسالة كتبت بتاريخ قبل السادس والعشرين من يوليو فأشك أن الرسالة ستكون ذات قيمة في ما خص موضوع القضية».

«هل يعني هذا أنك موافق على تصريح السيد كليفتون بما حصل بعد أن رأيت والدتك لآخر مرة؟».

قالت فيرجينيا: «كلا، كلامه لا يحمل هذا المعنى».

نظر إليها القاضي وقال: «سيكون عليك التوقف عن القيام بهذه التدخلات. إذا كان لديك أية آراء أخرى تدلين بها من خارج مقعد الشاهد، فلن يكون لدي خيار سوى إخراجك من القاعة، هل هذا واضح؟».

أحنت فيرجينيا رأسها، الأمر الذي اعتقد السيد كاميرون أنه أكثر ما يمكن أن يحصل عليه من تلك المرأة بالتحديد.
«يمكنك إعادة طرح سؤالك يا سيد تود».

قال جيلز: «ما من داع لذلك حضرة القاضي. بما أن هاري قال إن والدتي سلمته الرسالة تلك الليلة، فمن المؤكد أن ذلك حصل فعلاً».
«شكراً لك سيد جيلز. ليس لديّ أية أسئلة أخرى».

طلب القاضي من المحامين الوقوف وقال: «بالنظر لما أدلى به السيد جيلز بارينغتون، فسأفتح الرسالة ما لم يكن هناك من اعتراض».
أوماً المحاميان برأسيهما موافقين.

رفع السيد كاميرون المغلف عالياً ليراه الجميع. وفتحه وأخرج منه ورقة ووضعها على الطاولة أمامه. قام بقراءتها ثلاث مرات قبل أن يتكلم.

وقال أخيراً: «سيد سيدونز».

عندها وقف محامي عائلة بارينغتون متوتراً.

«هل يمكنك أن تخبرني بالتاريخ والوقت الدقيقين لوفاة السيدة بارينغتون؟».

بحث السيد سيدونز بعدة أوراق قبل أن يجد الورقة التي يبحث عنها. ونظر إلى القاضي وقال: «أستطيع أن أوكد لك حضرة القاضي أن شهادة الوفاة تفيد أن الوفاة حصلت عند الساعة العاشرة وست

وعشرين دقيقة مساء يوم الثلاثاء الواقع في السادس والعشرين من شهر يوليو في عام 1951».

«أنا ممتن لك سيد سيدونز. عليّ الآن العودة إلى مكتبي للتدقيق في هذا الدليل القيم. تعلق الجلسة لنصف ساعة».

* * *

قالت إيما عندما أحنى الأشخاص المحيطون بها رؤوسهم: «لم تبدُ لي رسالة، بل وثيقة رسمية. هل قامت بتوقيع أي شيء آخر في ذلك اليوم يا سيد سيدونز؟».

هزّ سيدونز رأسه وقال: «لم تقم بأي شيء بوجودي. هل لديك أي فكرة سيد تود؟».

«كانت رقيقة جداً. ربما تكون قصاصة صحيفة، لكن بسبب بعد المسافة لست متأكداً».

همست فيرجينيا من الطرف الآخر لغرفة المحكمة قائلة: «لماذا سمحت للقاضي بفتح الرسالة يا جيلز؟».

قال السيد كوثرث: «في ظل هذه الظروف يا سيدة فيرجينيا، فإنه لم يكن أمام زوجك خيارات كثيرة. بالرغم من أنني أعتقد أننا كنا في طريقنا للربح قبل أن تظهر هذه الرسالة».

سألت إيما ولم تستطع إخفاء توترها: «ما الذي يفعله القاضي؟».

أمسك هاري بيد زوجته وقال: «عزيزتي لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً».

سألت فيرجينيا: «في حال لم يكن قرار القاضي لمصلحتنا، هل نستطيع رفض القبول بمحتوى الرسالة؟».

قال السيد كوثررت: «لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال حتى تتسنى لي الفرصة لدراسته. ومن المحتمل أن محتوى الرسالة هذه يثبت صحة ما اقترحه زوجك أن والدته لم تكن في حالة جيدة لتقوم بتوقيع وثيقة قضائية مهمة خلال الساعات الأخيرة من حياتها، وفي تلك الحالة سيكون على الطرف الثاني أن يقرر القيام بهذه الخطوة».

عندما فتح الباب خلف مقعد القاضي وظهر منه، كان الفريقان لا يزالان متحلقين في مجموعتين يتهامسون وكأنهم ملاكمون ينتظرون رن جرس الجولة الأخيرة.

وقف الجميع وانحنوا قبل أن يجلس السيد كامرون على كرسيه الطويل. نظر إلى دزينة من الوجوه المترقبة لسماعه.
«أخذت فرصتي لدراسة محتوى المغلف».

كانت عيونهم شاخصة إليه: «لقد دهشت عندما اكتشفت أنني والسيدة بارينغتون نتشارك هواية واحدة، على الرغم من أنها أكثر براعة مني، هذا لأنه وفي يوم السادس والعشرين من يوليو، قد أكملت الكلمات المتقاطعة في صحيفة التايمز، تاركة عاموداً فارغاً واحداً فيها والذي لا أشك أنها قامت بذلك لتبرهن فكرتها.

سبب تعليق الجلسة لنصف ساعة هو أنني احتجت زيارة المكتبة لأحضر نسخة من صحيفة التايمز لليوم الذي تلاه، يوم الجمعة السابع والعشرون من يوليو، اليوم التالي لوفاة السيدة بارينغتون. أردت التحقق فيما إذا كانت قد اقترفت أية أخطاء في حل الكلمات المتقاطعة في اليوم

السابق، وهي لم تفعل، ولإثبات جواب ذلك العمود الذي تركته فارغاً. بفعلها هذا، فإنني أؤكد تماماً أن السيدة بارينغتون لم تكن فقط قادرة على توقيع وصية بل كانت مدركة حقاً لأهمية محتواها. ومع هذا فإنني مستعد لسماع رأي آخر في هذه الحالة».

وبسرعة قام السيد كوثيرت بالنهوض من مكانه قائلاً: «حضرة القاضي، إنني أشعر بالفضول لمعرفة ما هو العمود الفارغ الذي ساعدك على الوصول إلى قرارك هذا؟».

نظر السيد كاميرون نحو الكلمات المتقاطعة داخل الصحيفة وقال: «العمود رقم ستة والسطر رقم ستة، شخص مزعج يربكني وأنا على صواب».

انحنى السيد كوثيرت، وارتسمت على وجه هاري ابتسامة خفيفة. «وبالتالي فإنني أرى في قضية بارينغتون ضد كليفتون وبارينغتون، أنها لصالح السيدة هارولد كليفتون والأنسة جريس بارينغتون».

قالت فيرجينيا بينما كان السيدان كوثيرت وتود منحنين: «علينا الطعن بالقرار».

قال جيلز: «ليس عليّ أن أعترض».

قالت فيرجينيا وهي تخرج بسرعة من غرفة المحكمة: «كنت مثيراً للشفقة».

* * *

قال جيلز وهو يلحق بها: «لكن هاري أقدم صديق لي».

«وأنا زوجتك، في حال نسيت ذلك». وانطلقت بسرعة من بين الأبواب المتأرجحة.

سألها لاحقاً عندما قابلها: «لكن ما الذي باستطاعتي فعله في ظل هذه الظروف؟».

«كان عليك أن تكافح بكل ما أوتيت من قوة كما وعدتني» ذكرته بذلك قبل أن توقف سيارة أجرة.

«لكن ألم يكن القاضي على حق عندما قال إن والدتي كانت مدركة تماماً ما كانت تفعله؟».

قال فيرجينيا وهي تلتفت إليه: «إذا صدقت هذا يا جيلز، من الواضح أنك تملك نفس رأيها بشأني».

وقف جيلز عاجزاً عن الكلام بينما وقفت سيارة أجرة وقامت فيرجينيا بفتح الباب والصعود وأنزلت النافذة.

«سأذهب لقضاء بضعة أيام عند والدتي. في حال عدت ولم تكن قد طعنت بالقرار، فأقترح عليك استشارة محامٍ خبير في قضايا الطلاق».

طُرق الباب الأمامي بشدة. نظر جيلز إلى ساعته ليتحقق من الوقت، كانت الساعة السابعة وعشرين دقيقة مساءً. من يكون يا ترى؟ فهو لم يدعُ أحداً على العشاء، ولم يكن يتوقع الذهاب لسماع الخطابات النهائية في المجلس قبل الساعة التاسعة. طرق الباب ثانية وبالشدة نفسها، وتذكر بأنه يوم عطلة الخادمة. وضع نسخة عن تقارير المجلس لليوم السابق على طرف الطاولة واتجه نحو الرواق بينما طرق الباب للمرة الثالثة.

قال جيلز: «على رسلك». وفتح الباب ليرى آخر شخص يتوقع أن يراه واقفاً على درج منزله في ساحة سميث.

قال وهو عاجز عن إخفاء دهشته: «جريس؟».

قالت شقيقته وهي تهم بالدخول: «من الجيد أنك لا تزال تذكر اسمي».

حاول جيلز أن يفكر بجواب بالحدة نفسها، لكن كونه لم يقابل شقيقته منذ جنازة والدتهما فإن تعليقها اللاذع هذا كان مبرراً. في الحقيقة، لم يقابل أحداً منذ أن غادرت فيرجينيا المحكمة وتركته واقفاً على الصيف في الخارج.

سأل بنوع من الضعف وهو يقودها إلى أسفل الرواق نحو غرفة الاستقبال: «ما الذي أتى بك إلى لندن يا جريس؟».

سألها: «هل ترغبين بشرب شيء ما؟» وهو لا يزال يتساءل عما تريده إلا إذا..

«شكراً لك، كأس من الشيري ستكون مناسبة بعد رحلة القطار المروعة».

مشى جيلز نحو المنضدة وسكب لها كأساً من الشيري، وسكب لنفسه نصف كأس من الويسكي، وهو يبحث بيأس عن شيء ما ليقوله. أخيراً قال وهو يقدم لها المشروب: «لديّ تصويت عند العاشرة.» «لطالما أشعرته شقيقته الصغيرة وكأنه ولد شقي في المدرسة أمسك به المدير وهو يدخل».

«لا أحتاج حتى ذلك الوقت لأقول ما أتيت لقلوله».

«هل أتيت لتطالبي بحقك من الإرث وترميني خارج المنزل؟».

«لا أيها الأحمق، جئت في محاولة لإيقاظ بعض من المنطق داخل دماغك البليد».

جلس بانهيأ على كرسيه، وارتشف رشفة من الويسكي وقال: «كلي آذان صاغية».

«سأحتفل الأسبوع القادم بعيد مولدي الثلاثين، لا أظن أنك تذكر ذلك».

قال جيلز محاولاً أن يلطف الأمر: «واجهت كل هذه المسافة لتخبريني بالهدية التي ترغبين فيها؟».

قالت جريس مثيرة لدهشته للمرة الثانية: «تماماً».

«وما الذي يدور في ذهنك؟». شعر جيلز أنه عاجزٌ عن مجاراتها.

«أريدك أن تأتي إلى حفلي».

«لكن المجلس يعقد جلساته، وبما أنني ترفعت إلى المقعد الأمامي،

فإني أتوقع...».

قالت جريس متجاهلة عذره: «هاري وإيما سيكونان هناك. سيكون

ذلك كما في السابق».

شرب جيلز رشفة أخرى من الويسكي وقال: «لن يكون الأمر كما في

السابق أبداً».

«بلى سيكون أيها الأحمق، لأنك الشخص الوحيد الذي يمنع حدوث

ذلك».

«هل يرغبان برؤيتي؟».

قالت جريس: «لمَ لا؟ هذه الضغينة قد اختفت منذ زمن طويل،

وهذا هو سبب نيتي بخطط رؤوسكم بعضها ببعض قبل أن يفوت

الأوان».

«من سيكون هناك أيضاً؟».

«سيباستيان وجيسيكا وبعض الأصدقاء، الجامعيين بشكل رئيسي،

لكنك لست مضطراً للتحدث إليهم باستثناء صديقك القديم ديكينز».

وأضافت: «ومع ذلك، هناك شخص واحد لن أقوم بدعوته، أين هي تلك

الوضيعة؟».

ظن جيلز أنه لن يدهشه شيء ستقوله شقيقته. كم كان مخطئاً.
أخيراً قال: «ليست لدي أي فكرة. فهي لم تتصل بي منذ أكثر من
سنة. لكن إذا كنت تصدقين صحيفة الديلي إكسبريس، فهي الآن
موجودة في سانت تروبيز بين أحضان كونت إيطالي».

«أنا متأكدة أنهما سيشكلان ثنائياً رائعاً. والأهم من هذا أن ذلك
يعطيك أساساً للطلاق».

«لن أطلق فيرجينيا أبداً، حتى لو رغبت بذلك. لا تنسي ما مرت به
والدتنا، إنها ليست تجربة أرغب بتكرارها».

قالت جريس: «آه نعم، أفهم هذا. من حق فيرجينيا أن تتسكع في
جنوب فرنسا مع عشيقها الإيطالي، لكن ليس من حق زوجها التفكير
بالطلاق؟».

قال جيلز: «تستطيعين السخرية من الأمر، لكن هذا ليس من شيم
الرجل النبيل».

«لا تضحكني. بالكاد يمكننا القول إن من صفات الرجل النبيل
مقاضاة أخته في قضية وصية والدتنا».

قال جيلز وهو يرتشف رشفة أخرى من كأسه: «لقد تجاوزت
حدودك» وأضاف قائلاً: «لكن أعتقد بأني أستحق هذا، وهذا شيء سأندم
عليه لبقية حياتي. هل ستستطيعين مسامحتي يوماً؟».

«سأفعل إن حضرت عيد ميلادي، واعتذرت لأختك وصديقك
القديم، واعترفت لهما أنك كنت أحمق».

«لست متأكدا أنني أستطيع مواجهتهما».

«لقد واجهت مجموعة من الجنود الألمان ببضع قنابل يدوية
ومسدس».

«سأكرر ذلك في حال كان ذلك سيؤدي لصفح هاري وإيما عني».

وقفت جريس، ومشيت نحو شقيقها وانحنت أمامه قائلة: «بالطبع،
سيصفحان عنك أيها الأحمق السخيف».

انحنى جيلز عندما عانقته شقيقته: «أنت تعلم جيداً أننا لا نريد أن
تكون تلك المرأة سبباً للخصام بيننا».

* * *

بينما كانت سيارة جيلز تعبر يافطة مرورية تشير إلى أن كامبريدج
ترحب بالقادمين، فكر أن الوقت لم يفت على العودة، بالرغم من علمه
أنه إن أقدم على ذلك فمن المحتمل ألا يُعطى فرصة ثانية.

حالما دخل المدينة الجامعية شعر بجو الدراسة من حوله. شباب
وشابات بلباسهم الجامعي المختلف الأطوال يمشون بكافة الاتجاهات.
وهذا ما استحضر ذكرياته عندما كان في جامعة أوكسفورد، قبل أن
يتوقف عن الدراسة بسبب السيد هيتلر.

عندما عاد جيلز إلى إنكلترا قبل خمس سنوات، ناجياً من معتقل
سجناء الحرب عرض عليه مدير براسينوس فرصة للعودة إلى جامعته
القديمة وإكمال دراسته. لكنه وقتها كان جندياً في الخامسة والعشرين
من عمره خائفاً من الحرب وشعر بأن فرصة الدراسة قد فاتته كما كان
حال معظم الشباب في عمره، بمن فيهم هاري. وعلى أية حال، أتاحت له
فرصة أخرى للقتال في حرب أخرى، ولم يستطع مقاومة تحدي النزاع على

المقاعد الخضراء لمجلس العموم. اعتقد جيلز أنه غير نادم. حسناً، كان هنالك شعور قليل بالندم.

قاد جيلز نزولاً إلى طريق غرانغ وانعطف يميناً، وركن سيارته في جادة سايدويك. ومشى عابراً مدخل كلية نيوهام التي أنشئت عام 1871.

وقف جيلز عند المكتب، وكان على وشك أن يسأل عن الطريق إلى حفلة السيدة بارينغتون عندما قال البواب: «مساء الخير يا سيد جيلز، سيدجويك روم».

أدرك أنه لا مجال للعودة.

«إذا مشيت عبر الرواق، فإنها في أعلى الدرج، الباب الثالث على اليسار. لن تجد صعوبة في إيجادها».

تبع جيلز تعليماته، ماراً بمجموعات من طلاب الجامعة القادمين بزيهم الرسمي، التنانير السوداء الطويلة والكنزات البيضاء. لم ينظروا إليه مرة ثانية، أساساً لم يجب عليهم أن ينظروا إليه؟ كان رجلاً في الثالثة والثلاثين من عمره، حوالي ضعف أعمارهم.

صعد الدرج وعندما وصل إلى آخر درجة لم يحتج حينها لأية تعليمات عن الطريق لأنه كان باستطاعته سماع الأصوات والضحكات الحماسية قبل أن يصل إلى الباب الثالث على اليسار. أخذ نفساً عميقاً، وحاول ألا يلفت الانتباه عند دخوله.

كانت جيسيكا أول من رآه، وحالما رآته ركضت وهي تصرخ قائلة: «الخال جيلز، الخال جيلز، أين كنت طوال هذه المدة؟». عندما فكر

جيلز وهو ينظر إلى الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ تماماً لكنها لم تعد صغيرة، وثبت نحوه واضعة يديها حوله. نظر خلف كتفها ورأى كلاً من إيما وجريس تتجهان نحوه. وكن ثلاثهن يحاولن معانقته. نظر إلى بقية الضيوف متعجبين من سبب كل تلك الضجة.

قال جيلز بعد أن صافح هاري: «أنا آسف. لم يكن عليّ أن أورطك في كل ذلك».

قال هاري: «لا تسهب في هذا. وبصراحة، كلانا تعرض لأسوأ من ذلك».

اندهش جيلز من ارتياحه السريع لصديقه القديم. كانا يتحادثان عن بيتر ماي، عندما رآها لأول مرة. وبعدها، لم يستطع أن يزيح عينيه عنها.

قال هاري وهو يبسط ساقه نحو الأمام محاولاً لفت انتباهه بشكل غير مباشر. ولكنه لم يلاحظ كم أصبح جيلز مشوشاً، عندما نهض ومشى حول الغرفة المزدحمة، ولم يتوقف إلا لمحادثة سيباستيان وسؤاله عن مدرسته. بدا الفتى أكثر راحة وثقة مما عهده.

بدأ جيلز يشعر بالقلق من أن تكون قد غادرت قبل أن تتسنى الفرصة له أن يراها، وعندما أصبح سيباستيان ملهيا بأقراص النقانق، تابع طريقه ليجد نفسه بجانبها. كانت تتكلم مع امرأة كبيرة في السن، ولم يبدُ أنها مدركة لوجوده. وقف هناك مربوط اللسان يتساءل عن السبب في أن الرجال الإنكليز يجدون صعوبة بتقديم أنفسهم للنساء

نظرت المرأة الأخرى إلى جيلز، والتفتت للتحدث إلى شخص آخر. عرّف جيلز عن نفسه آملاً بالألا ينضم أحد آخر إليهما. تصافحا وبالكاد لامسها...

«مرحبا. أنا جيلز بارينغتون».

قالت وهي تعرف عن نفسها: «لا بد أنك شقيق جريس، عضو البرلمان الذي أقرأ عنه باستمرار وعن آرائه المتطرفة. أنا غوينيث».

«هل أنت في السنة الأخيرة؟».

قالت وهي تبسم له: «أنت تاملني. كلا، أنا أقوم بإكمال رسالة الدكتوراه. شقيقتك هي المشرفة علي».

«ما هو موضوع رسالتك؟».

«الروابط بين الرياضيات والفلسفة في اليونان القديمة».

«أتشوق لقراءتها».

«سأؤكد من أنك ستحصل على نسخة منها».

سألت إيما أختها: «من هي الفتاة التي يتحدث إليها جيلز؟».

التفتت جريس لترى وقالت: «إنها غوينيث هوجيز، واحدة من أفضل طلاب الدكتوراه عندي. وبالتأكيد سيجدها مختلفة بشكل جذري عن الليدي فيرجينيا. إنها ابنة عامل منجم من ويلز، من الوديان، كما تحب هي أن تذكّر الجميع وهي بالتأكيد تعرف معنى سليم العقل».

«إنها جذابة جداً. لا تعتقدين بأن...» قال إيما: «يا للسماء، لا، ما الذي ممكن أن يكون مشتركاً بينهما؟».

ابتسمت إِيها بينها وبين نفسها قبل أن تقول: «هل نقلت حصتك البالغة 11 بالمئة من الشركة إلى جيلز؟».

قالت جريس: «نعم، بالإضافة إلى حصتي من منزل جدنا في ساحة سميث كما اتفقت مع أمي أنني سأفعل عندما يتخلى هذا الفتى الأحمق عن تلك البغيضة».

صمتت إِيها لبرهة ثم قالت: «إذاً كنت على دراية بمضمون وصية والدتنا الجديدة؟».

قالت جريس بعفوية: «ومحتوى الرسالة أيضاً. لهذا السبب لم أحضر المحاكمة».

«كم كانت أمنا تعرفك».

قالت جريس وهي تنظر إلى شقيقها: «كم كانت أمنا تعرفنا». وهي تنظر إلى أخيها في الجهة الأخرى من الغرفة.

سأل جيلز: «هل تستطيع تدبر الأمر؟».

«نعم يا سيدي. فقط دعه لي».

«أرغب بالحصول عليه بالسرعة القصوى».

«بالطبع سيدي».

«يا له من عمل دنيء. أتمنى لو أنه يوجد طريقة حضارية أكثر من هذه للقيام بالأمر».

«يحتاج القانون إلى تغيير يا سيد جيلز، وبصراحة هنا يكمن دورك أكثر مني».

كان جيلز يعلم أن الرجل محق، ومما لا شك فيه أن القانون سيتغير مع الوقت، لكن فيرجينيا أوضحت تماماً أنها لا تستطيع الانتظار. بعد شهر من عدم اتصالها به، اتصلت به مرة لتخبره عن سبب رغبتها بالطلاق. لم تكن مضطرة لتفوه بالأشياء التي كانت متوقعة منه.

قالت قبل أن تغلق الهاتف: «شكراً لك عزيزي، علمت أنني أستطيع الاعتماد عليك».

سأل جيلز: «متى سأسمع عنك مرة أخرى؟».

أجاب الرجل قبل أن يشرب نبيذه: «خلال نهاية الأسبوع». ثم وقف وانحنى قليلاً وابتعد.

كان جيلز يضع قرنفة حمراء على سترته. لذا، لم يكن باستطاعتها أن تضيعه. نظر نحو كل أنثى تحت سن الثلاثين مرت في طريقه. ولا واحدة منهن نظرت إليه حتى توقفت بجانبه فتاة أنيقة شابة وسألت: «هل أنت السيد براون؟».

أجاب جيلز: «نعم».

«أنا الأنسة هولت من الوكالة».

من دون أي كلمة أخرى، ربطت ذراعها بذراعه وقادته إلى رصيف محطة القطار ككلب إرشاد حتى وصلا إلى مقصورة الدرجة الأولى. حاملاً جلسا في مقعديهما متقابلين، لم يكن جيلز متأكداً مما عليه فعله بعد ذلك. ولأنه كان يوم الجمعة، فإن كل المقاعد الأخرى كانت محجوزة قبل أن ينطلق القطار من المحطة. لم تنطق الأنسة هولت ببنت شفة طوال الرحلة.

عندما توقف القطار في بريغتون، كانت من بين الركاب الأوائل الذين ترحلوا. أعطى جيلز تذكرتين للجايي على الحاجز وتبعها إلى موقف سيارات الأجرة. كان من الواضح أن الأنسة هولت قد قامت بهذا مرات عديدة من قبل. كان أول ما تفوهت به عندما صعدا سيارة الأجرة ولكنها لم تكن تتحدث إليه عندما قالت:

«فندق غراند».

عند وصولهما إلى الفندق، قام جيلز بالحجز باسم السيد والسيدة براون.

قال موظف الاستقبال: «الغرفة رقم 31 سيدي». بدا الموظف وكأنه يريد أن يغمز لكنه اكتفى بالابتسام وقال: «ليلة هنيئة سيدي».

قام الحمال بنقل حقائبهما إلى الطابق الثالث. ولم تتكلم أيضاً حتى أنهى الحمال عمله وأخذ الإكرامية.

قال وهي تجلس في نهاية السرير: «اسمي أنجيلا هولت».

بقي جيلز واقفاً، ينظر إليها مدركاً أنه لن يكون محظوظاً أكثر من الآن ليقضي عطلة أسبوع مع امرأة مثلها. وسأل: «هل تستطيعين إطلاعي على الإجراءات؟».

أجابته: «بالتأكيد سيد جيلز. في الساعة الثامنة سننزل لتناول العشاء. لقد قمت بحجز طاولة في منتصف الصالة، على أمل أن يتعرف إليك أحدهم. وبعد العشاء، سنعود إلى الغرفة. سأبقى مرتدية ملابسها في جميع الأوقات، لكنك تستطيع أن تخلع ثيابك في غرفة الاستحمام حيث ستلبس البيجامة ورداء النوم. وفي الساعة العاشرة سأذهب لأنام على السرير، وأنت ستنام على الأريكة. وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل ستصل بالخدمات وتطلب زجاجة شمبانيا فاخرة وسندويش لحم. وعندما يأتي الخادم بطلبك ستقول له إنك طلبت سندويشات المارميت والطماطم. وستخبره بأنك تريد طلبك في الحال. وعندما يعود ستقوم بشكره وإعطائه خمسة جنيهات».

سأل جيلز: «لم كل هذه الاكراميات؟».

«لأنه في حال قد وصل هذا إلى المحكمة فإن الخادم ذاك سيُستدعى بدون شك للإدلاء بشهادته وعلينا أن نتأكد من ألا ينسأك».

«أفهم هذا».

«وفي الصباح، سنتناول الفطور معاً، وعندما تغادر عليك أن تدفع الفاتورة عبر الشيك لأن تعقبه سهل. وعندما نغادر الفندق ستقوم بمعانقتي وتقبيلي عدة مرات. وبعدها ستركب سيارة أجرة وتلوح لي مودعاً».

«لمَ مرات عديدة؟».

«لأنه علينا أن نتأكد من أن يحصل محقق زوجتك السري على صورة واضحة لنا معاً. هل لديك أي أسئلة أخرى قبل أن ننزل إلى العشاء يا سيد جيلز؟».

«نعم آنسة هولت. هل بإمكانك سؤالك كم مرة تقومين بهذا؟».

«أنت الرجل الثالث هذا الأسبوع، والوكالة حجزتني مقدماً لبضعة أعمال للأسبوع القادم».

«هذا جنون. إن قوانين الطلاق لدينا همجية جداً. على الحكومة أن تسن قوانين جديدة بسرعة».

قالت: «لا أتمنى هذا. لأنك إذا قمت بهذا يا سيد جيلز فإني سأبقى بدون عمل».

أليكس فيشر

1955-1954

قالت: «ببساطة أريد أن أدمره، فلن يرضيني أي شيء دون ذلك». «أؤكد لك سيدة فيرجينيا أنني سأبذل قصارى جهدي لمساعدتك في ذلك».

«من الجيد معرفة هذا. لأنه في حال أردنا العمل معاً فعلينا أن نتبادل الثقة، بدون أسرار. ومع ذلك، لا يزال عليّ الاقتناع أنك الرجل المناسب للقيام بهذا العمل. أخبرني لم تعتقد أنك مؤهل لهذا العمل؟». قال فيشر: «أعتقد أنك ستريين لاحقاً أنني مؤهل أكثر مما ينبغي يا سيدتي. فموضوعي وبارينغتون يعود لسنين خلت». «إذاً ابدأ من البداية، وأطلعني على كل التفاصيل مهما بدت صغيرة».

«بدأ هذا كله عندما كنا ثلاثتنا في مدرسة سانت بيد وكان بارينغتون صديق ابن عامل الميناء».

قالت فيرجينيا: «هاري كليفتون».

«كان يجب طرد بارينغتون من مدرسة سانت بيد».

سألته: «لماذا؟».

«لأنهم أمسكوا به وهو يسرق من مكان ما لكنه نجا».

«كيف استطاع النجاة؟».

«والده، السيد هوغو، مجرم هو الآخر، كتب له شيكاً بقيمة ألف جنيه، الأمر الذي مكن المدرسة من بناء ملعب كريكيت جديد. لذا قام المدير بغض النظر عنه، وتمكن بارينغتون من الذهاب إلى أوكسفورد». «هل ذهبت أيضاً إلى جامعة أوكسفورد؟».

«لا، بل انضممت إلى الجيش. لكن التقينا مجدداً في طريق حيث كنا نخدم في الفوج نفسه».

«هناك صنع لنفسه اسماً، ونال الصليب الحربي بعد فراره من معتقل سجناء الحرب؟».

قال فيشر وعيناه تضيقتان: «كان يجب عليه أن يكون عضواً في قيادة الفوج. في ذلك الوقت كنت أعلى رتبة منه ومسؤولاً عن قيادة هجوم ضد مجموعة من الأعداء. بعد أن طردت الألمان، قام الكولونيل بترفيعي إلى عضو في قيادة الفوج، لكن صديق بارينغتون، كوربورال بيتس، رفض توقيع الشهادة، بل خفضت رتبتي ولم يذكر اسمي في البرقية، بينما رفع بارينغتون لعضوية قيادة الفوج».

لم تكن هذه رواية جيلز عما حدث ذلك اليوم، لكن فيرجينيا عرفت أي رواية تريد أن تصدقها. «هل قابلته منذ ذلك الحين؟».

«لا. بقيت في الجيش. لكن حالما أدركت أنه قد أفضل فرصتي بالحصول على أية ترقية، سعيت للتقاعد المبكر».

«إذاً ماذا تعمل الآن أيها الرائد؟».

«سمسار في البورصة، وعضو في مجلس إدارة مدرسة بريستول للقواعد. وعضو رابطة حزب المحافظين. انضمت إلى الحزب هذا لأتمكن من أخذ دوري وأحرص على ألا يفوز بارينغتون في الانتخابات القادمة».

قالت فيرجينيا: «حسناً، سأحرص على أن تلعب دورك جيداً. لأن الشيء الوحيد الذي يهتم به أي شخص هو التمسك بمقعده في مجلس النواب. هو مقتنع بأنه في حال فاز العمال في الانتخابات، فإن أتلي سيعرض عليه وزارة».

«على جثتي».

«لا أعتقد أنه علينا التفكير بكل هذا. إن خسر مقعده في الانتخابات القادمة، فلا يوجد فرصة كبيرة بأن يختاروه مجدداً، وهذا على الأغلب يعني وضع حد لمسيرته السياسية».

قال فيشر: «أمل ذلك، لكن لا بد من الإشارة إلى أنه بالرغم من فوزه بفارق ضئيل إلا أنه لا يزال معروفاً جداً ضمن الدائرة الانتخابية».

«أتساءل عن حجم شهرته بعد أن رفعتُ دعوى عليه واتهمته بالزنا».

«إنه يحضر مسبقاً لدوافعه التي سيتذرع بها في هذا، ويقوم بإخبار الجميع بأنه اضطر لخوض تلك التمثيلية في بريغتون لأجل الحفاظ على سمعتك. حتى إنه يقوم بحملة لتغيير قوانين الطلاق».

«لكن كيف ستكون ردة فعل مناصريه في حال اكتشفوا أنه على علاقة مع طالبة في كامبريدج طوال السنة الفائتة؟».

«حالما يطلقك، فلن يكثر أحد بذلك».

«لكن، في حال لم يحصل ذلك، وبدوت من يسعى وراء وصل ما انقطع...».

قال فيشر: «هذا سيغير الموضوع بالكامل. وبإمكانك الاعتماد عليّ في أن تتأكدي من أن مازقك المحزن سيصل إلى الأذان المناسبة.»

«هذا جيد. والآن فإن أهدافنا البعيدة الأمد ستساعدنا كثيراً في حال أصبحت رئيس رابطة محافظي بريستول دوكلاند.».

«لن أرغب بأكثر من ذلك. مشكلتي الوحيدة هي بأني لا أستطيع تحمل قضاء كل ذلك الوقت في مضمار السياسة، بينما عليّ أن أكسب لقمة عيشي.» حاول فيشر ألا يبدو محرجاً.

«لن يكون عليك القلق بشأن ذلك، ما إن تنضم إلى مجلس إدارة بارينغتون للشحن.».

«لا آمل كثيراً بحصول هذا. لأن بارينغتون سوف ينقض الاتفاق حالما يسمع باسمي.».

«لا يستطيع نقض أي شيء طالما أملك سبعة ونصف بالمئة من أسهم الشركة.».

«لا أعتقد أنني فهمت تماماً.».

«إذا دعني أشرح لك حضرة الرائد. طوال الأشهر الستة الفائتة، كنت أشتري أسهم بارينغتون، وأنا الآن أملك سبعة ونصف بالمئة من الشركة. إذا راجعت نظامهم الداخلي، فإن ذلك سيعطيني الحق بتعيين عضو ما في مجلس الإدارة، ولا أستطيع التفكير أيها الرائد بأي شخص أفضل منك ليمثلني.».

«كيف يمكنني شكرك؟».

«إن هذا سهل جداً. على المدى القريب، ستكرس وقتك لتصبح رئيس رابطة المحافظين في بريستول دوكلاند، وحالما تنجح في هذا سيكون هدفك الوحيد هو أن تتحقق من أن الناخبين في بريستول دوكلاند سيتردون ممثلهم في البرلمان في الانتخابات القادمة».

«وعلى المدى البعيد؟».

«لديّ فكرة ممكن أن تثير مخيلتك. ولكن لا يمكننا التفكير فيها قبل أن تصبح رئيس رابطة المحافظين».

«إذا من الأفضل أن أعود إلى بريستول، وأبدأ بالعمل على الموضوع. لكن قبل ذلك، أرغب بسؤالك عن شيء ما».

قالت فيرجينيا: «بالطبع. يمكنك سؤالي ما تريد فنحن الآن شريكان».

«لماذا اخترتني؟».

«الجواب في غاية البساطة حضرة الرائد، لقد أخبرني جيلز مرة أنك الرجل الوحيد الذي يمقته».

* * *

طرق بيل هوكينز، رئيس رابطة المحافظين، بمطرقته على الطاولة وقال: «سادتي، قبل البدء بالاجتماع، اسمحوا لي أن أطلب من أمين السر الفخري الرائد فيشر أن يتلو محضر الدقائق الأخيرة من آخر اجتماع».

«شكراً لك حضرة الرئيس. خلال الاجتماع الأخير الذي عقد في الرابع عشر من يونيو عام 1954، طلبت مني الرابطة أن أقوم بكتابة قائمة

بأسماء المرشحين الذين سيمثلون الحزب ضمن هذه الدائرة الانتخابية في الانتخابات المقبلة وإرسالها إلى المكتب المركزي في لندن. وصلت قائمة أسماء المرشحين الرسمية لاحقاً بعد بضعة أيام، وصنعت نسخة للأعضاء أيضاً كي يقيموا المتقدمين في اجتماع اليوم.

قال رئيس الرابطة: «شكراً لك أيها الرائد. دعونا الآن ننتقل إلى البند الثاني، بالتحديد إلى قائمة أسماء المرشحين الموصى بها من المكتب المركزي. كان لديكم الوقت للنظر والتدقيق بالأسماء. لذا، سأفتح الاجتماع ضمن نقاش عام قبل أن نضع قائمة أفضل المرشحين الذين سندعوهم للمقابلة».

قام فيشر مسبقاً باطلاع الليدي فيرجينيا على تلك القائمة، واتفقا على هوية الشخص الذي اعتقدا أنه الأنسب لخدمة هدفهما على المدى البعيد. أسند فيشر ظهره إلى الوراء مستمعاً بحرص إلى آراء زملائه الأعضاء حول نقاط القوة والضعف لكل مرشح. ومع الوقت تبين أن اختياره لم يكن خيار الجميع الأول ولكن في الوقت نفسه لم يعارضه أحد.

سأله هوكينز: «هل ترغب بالتعبير عن رأيك قبل أن نقوم بالتصويت أيها الرائد؟».

«شكراً لك حضرة الرئيس. أنا أتفق مع رأي الأعضاء الذين يعتقدون أن السيد سيمبسون المرشح السابق للانتخابات يستحق أن يخضع للمقابلة، لكنني أعتقد أيضاً أنه علينا أن نأخذ بعين الاعتبار السيد دونيت. فهو متزوج من امرأة من المنطقة وهذه ميزة هامة، بالأخص عندما تنظر إلى حالة السيد بارينغتون الزوجية الحالية».

وترددت أصوات حول الطاولة.

بعد أربعين دقيقة، كان السيد غريغوري دونيت من بين قائمة أسماء أفضل المرشحين، بالإضافة إلى سيمبسون المرشح السابق بالإضافة إلى عضو مجلس بلدة محلي، وخريج جامعي تخطى الأربعين من عمره، بالإضافة إلى إحدى السيدات لأن القانون يفرض ترشيح امرأة، ثلاثتهم لا أمل منهم. كل ما احتاجه فيشر هو إيجاد سبب وجيه لتقديمه لهم كي لا يختاروا السيد سيمبسون.

بينما كان الاجتماع على وشك الانتهاء، سأل رئيس الرابطة عن أية إجراءات أخرى موجودة.

قال فيشر وهو يضغط على رأس قلمه: «لدي شيء أعلنه للجنة. لكنني أعتقد أنه من الحكمة ألا يسجل في المحضر».

قال رئيس الرابطة وهو ينظر حول الطاولة ليتأكد من أن الجميع موافقون على هذا: «أنا واثق من أنك الحكم الأفضل لذلك أيها الرائد».

قال فيشر: «عندما كنت في ملهى في لندن الأسبوع الفائت، سمعت معلومة مزعجة من شخص موثوق بخصوص السيد جيلز بارينغتون». آثار ما قاله اهتمام الجميع. «كما تعلمون جميعاً، إن زواج السيد جيلز ينهار، وهو على طريق الطلاق. شعر معظمنا بالأسى عليه عندما قرر أن يأخذ «طريق بريغتون»، وخاصة بعد أن أعلن، بشكل برأيي، أنه فعل ذلك للحفاظ على سمعة زوجته. نحن رجال راشدون ونعلم أن قوانين الطلاق بحاجة شديدة للتغيير. ومع ذلك، عندما سمعت المعلومة اكتشفت حينها أننا سمعنا نصف القصة فقط. وعلى ما يبدو أن السيد

جيلز يقيم علاقة غرامية مع طالبة من جامعة كامبريدج، على الرغم من أن زوجته كانت تبذل قصارى جهدها لوصول ما انقطع بينهما».

قال بيل هوكينز: «يا إلهي، إنه وغد حقاً».

«عليه الاستقالة».

«إني موافق تماماً سيدي. وبالفعل لم يكن ليحظى بأية فرصة لو أنه مرشح باسم الحزب».

تعالّت أصوات التمتمة حول الطاولة.

تابع فيشر بعد أن قام رئيس الرابطة بدق مطرقة بضع مرات، قائلاً: «آمل بأني أستطيع الاعتماد على الرابطة للتأكد من أن هذه المعلومة لن تصل إلى خارج هذا الغرفة».

قال رئيس الرابطة: «بالطبع، بالطبع. لا داعي لقول هذا».

أسند فيشر ظهره إلى الوراء واثقاً أنه في غضون ساعات ستكون القصة قد وصلت إلى بضعة أعضاء من حزب العمال، الأمر الذي يضمن أنه وعلى الأقل ستصل القصة إلى نصف الدائرة الانتخابية بحلول نهاية الأسبوع.

بعد أن اختتم رئيس الرابطة الاجتماع، وبدأ الأعضاء يخرجون إلى الشارع متجهين إلى الحانة، انسل أمين الصندوق، بيتر مينارد، ليمشي بجانب أليكس وطلب التحدث إليه على انفراد.

قال أليكس: «بالطبع يا صديقي. كيف أساعدك؟».

«كما تعلم، فقد أوضح رئيس الرابطة في عدة مناسبات أنه ينوي الاستقالة قبل الانتخابات العامة المقبلة».

«سمعت بهذا».

«يوجد واحد أو اثنان منا يعتقدان أن هذا العمل يتطلب رجلاً شاباً، وقد طلب مني أن أسألك عن رغبتك في أن تضع اسمك كمرشح لخلافته».

«هذا لطف منك يا بوتر. في حال شعر أغلبية زملائي أنني الرجل المناسب لهذا العمل، فإني بالتأكيد سأفكر بأخذ تلك المهمة الشاقة، لكن بشرط إجماعهم».

* * *

عندما ظهر الشيك الأول من شركة بارينغتون للشحن لقاء خدماته كعضو في المجلس، قام أليكس بإلغاء حسابه في مصرف ميدلاند، وانتقل إلى باركليز. فباركليز أحد المساهمين بإدارة شركة بارينغتون، وأيضاً ممثلة عن الحزب المحافظ. وعلى عكس ميدلاند، فإن المدير وافق له على تسهيل السحب المالي.

في اليوم التالي، سافر إلى لندن وأخذ قياساته لثلاث بذلات جديدة، وسترة للعشاء ومعطف، كلها باللون الأسود. بعد الغداء في مطعم آرمي أند نافي، ذهب إلى محلات هيلديتتش أند كي واختار نصف دزينة من القمصان، مع بيجامتي نوم ورداء نوم ومجموعة مختارة من ربطات العنق المصنوعة من الحرير. بعد التوقيع على الفاتورة، ذهب إلى شركة جون لوب للأحذية وقضى بعض الوقت في أخذ قياسات حذاءين، واحد باللون الأسود والآخر باللون البني.

قال له البائع: «سيكونان جاهزين قريباً أيها الرائد».

خلال الأسابيع الأربعة التالية، قام بدعوة كل عضو من رابطة المحافظين إما للغداء أو للعشاء، على نفقة فيرجينيا، وفي نهاية كل دعوة كان واثقاً من أن معظم الأعضاء سيدعمون غريغوري دونيت كاختيار ثانٍ للترشيح باسم الحزب ضمن الانتخابات القادمة، وواحد أو اثنان منهم قالوا بأنه الاختيار الأفضل.

بعد شرب البراندي خلال وبعد العشاء بصحبة بيتر مينارد، اكتشف فيشر أن أمين صندوق الحزب يواجه بعض الصعوبات المالية المؤقتة. في اليوم التالي، سافر أليكس إلى لندن، وبعد محادثة سرية مع فيرجينيا، اختفت تلك الصعوبات المالية المؤقتة. وأصبح أحد أعضاء الرابطة تحت سلطته بالكامل.

بعد أن أمضى أليكس بضعة أشهر في مجلس إدارة بارينغتون للشحن، وجد الفرصة التي ستجذب انتباه فرجينيا.

في غضون ذلك واطب على حضور جميع اجتماعات المجلس، وقراءة كل تقرير، وكان دائم التصويت إلى جانب الأغلبية، لذا لم يشك أحد بنيته.

لكن فرجينيا لم تشك أبداً بأن جيلز سيأخذ بعين الاعتبار تعيين أليكس في المجلس. وتساءلت إن كان سيسعى لمعرفة هوية مالك السبعة والنصف بالمئة من أسهم الشركة الذي يمثله فيشر. وفي حال قام بذلك، فلن يكتشف سوى أنها أسهم لحامله.

على الرغم من أن رئيس المجلس أكد له بأن الرائد صديق محترم وبالكاد يتلفظ بأي شيء داخل الاجتماعات ولم يتسبب فعلا بأية مشكلة، إلا أن جيلز لم يكن مقتنعاً. لم يصدق بأن فيشر قادر على تغيير مواقعه. لكن مع اقتراب موعد الانتخابات، حيث من المتوقع أن تزيد أكثرية حزب المحافظين، وأيضاً الغموض بسبب عدم قيام فرجينيا بالتوقيع بعد على أوراق الطلاق على الرغم من أنها توصلت إليه ليقوم بالمعاملة، فإن موضوع فيشر كان في أسفل لائحة مشاكله.

قال رئيس مجلس إدارة بارينغتون للشحن: «أيها السادة، لا أعتقد أنه من المبالغة أن أشير إلى أن العرض الذي سأقترحه يمكن أن يشكّل نقطة تحول في تاريخ هذه الشركة. هذا الاقتراح الجريء الذي قدمه

نائب المدير السيد كومبتون، قد حاز على كامل دعمي، وأنا أدعو أعضاء المجلس لدعم خطة قيام الشركة ببناء أول سفينة نقل ركاب جديد منذ الحرب، كمحاولة للتقدم خطوة على منافسينا كونراد وبي آند أو».

كان أليكس يستمع باهتمام واحترام إلى السيد ويليام ترافرز الذي حل محل هوغو بارينغتون: «إن رأس المال هذا سيؤثر على الاحتياطي لدينا، لكن المصارف التي نعمل معها ستدعمنا، كما تبين أرقام حساباتنا أنه إن تمكنا من بيع أربعين بالمئة فقط من مساحة السفينة الجديدة سوف نستعيد استثمارنا خلال خمس سنوات. سأكون سعيداً للإجابة عن أي سؤال لديكم».

سأل فيشر: «هل تظن أن العقل الباطني لعامة الناس لا يزال يخزن ما حل بالتايتنك وركابها، وهذا ما سيجعلهم يخشون السفر عبر السفن الفخمة مجدداً؟».

أجاب السيد ويليام: «سؤالك في محله أيها الرائد، لكن إقدام كونراد مؤخراً على إضافة سفينة جديدة إلى أسطولهم، إن دل على شيء فهو أن الجيل الجديد من المسافرين في البحر لم يعودوا يخشون الحوادث، التي حصلت للسفينة الفخمة التي أشرت إليها».

«كم يستغرق بناء مثل هذه السفينة؟».

«في حال منحنا المجلس الإذن بذلك، فسوف نبرم العقد حالاً، ونأمل بالاتفاق مع مقاول مختص بحلول نهاية السنة، ويمكننا توقع أن تقوم هذه السفينة بأولى رحلاتها في غضون ثلاث سنوات».

انتظر أليكس أن يسأل عضو آخر سؤالاً لم يرغب بأن يسأله بنفسه.

«وما هي الكلفة المقدرة لذلك؟».

اعترف السيد ويليام قائلاً: «من الصعب إعطاء رقم محدد، لكنني طلبت ثلاثة ملايين جنيه كميزانية. ومع ذلك، فإني أعتبره تقديراً مبالغاً فيه».

قال عضو آخر: «لنأمل هذا. أعتقد يجب علينا إعلام حاملي الأسهم بما نفكر فيه».

قال السيد ويليام: «أنا موافق. سأقوم بهذا في اجتماع حاملي الأسهم الذي سيعقد في الأسبوع المقبل، ويجب أن أشير أيضاً إلى أن توقعات أرباحنا مشجعة جداً، ولا أرى أي سبب يمنعنا من دفع الأرباح نفسها لحاملي الأسهم مثل السنة الماضية. ومع هذا، على المجلس أن يأخذ بعين الاعتبار إمكانية أن يكون بعض حاملي الأسهم قلقين من هذا التغيير في الواجهة، بغض النظر عن تكاليف البناء الضخمة، وهذا قد يدفع ببعض من حملة الأسهم للتخلي عن أسهمهم. ومع ذلك، حالما يدرك المساهمون وأهل المدينة أننا نملك مصادر لتغطية أي صعوبات على المدى القصير، فسوف يكون الأمر مجرد مسألة وقت قبل أن يحصل طلب كبير على الأسهم. هل يوجد أية أسئلة أخرى؟».

سأل فيشر: «هل اخترنا اسماً للقطاع الجديد من أعمال الشركة، وماذا ستسمى السفينة المزمع بناؤها؟».

«نفكر بتسمية قطاع الأعمال الجديد «بالاس لاين» أما اسم السفينة الأولى من سفن هذا القطاع فنرغب بتسميتها «باكينغهام»، الذي سيكون اسماً يدعم الحقبة الإلثزابيثية جديدة».

لقد نالت مقترحات السيد ويليام موافقة كامل أعضاء المجلس.

قالت فيرجينيا: «اشرح لي مجدداً».

«سيعلن السيد ويليام خلال الاجتماع المقبل يوم الخميس بأن شركة بارينغتون ستقوم ببناء سفينة فاخرة لمنافسة أي شيء يفكر به كل من كونراد وبي أند أو، بمبلغ تقديري قيمته ثلاثة ملايين جنيه».

«تبدو هذه الخطوة خطيرة وخيالية بالنسبة إليّ».

«وخطيرة بالنسبة إلى الآخرين، لأن معظم المستثمرين في سوق الأسهم ليسوا جريئين ولا حاملين، وسيكونون متخوفين من أن ترتفع تكاليف البناء ومواجهة صعوبة في بيع الكبائن لتغطية التكاليف. لكن في حال أرادوا التحقق من الحسابات بعناية، فإنهم سيجدون بأن شركة بارينغتون لديها المال الكافي لتغطية أية خسائر على المدى القصير».

«إذاً لماذا تنصحي ببيع أسهمي؟».

«لأنه في حال أردتِ شراءها مرة أخرى خلال ثلاثة أسابيع بعد بيعها، فسوف تحققين أرباحاً طائلة».

قالت فيرجينيا: «هذا ما لم أفهمه».

قال أليكس: «اسمحي لي أن أشرح لك. عندما تقومين بشراء سهم، لست مضطرة لتسديد ثمنه قبل مرور واحد وعشرين يوماً. وبالمقابل، عندما تبيعين سهماً، لن يدفعوا لك قبل ثلاثة أسابيع. وخلال تلك الأسابيع الثلاثة تستطيعين المبادلة بدون أن تدفعي أية نقود، ولأننا نملك معرفة عما يجري في الداخل، فسنستفيد».

«إذاً ماذا تقترح أن نفعل؟».

«سيفتتح اجتماع الشركة عند العاشرة من صباح الخميس المقبل بتقرير الأرباح الذي سيعلنه رئيس المجلس. وخلال بضع ساعات، ستهبط قيمة السهم عن مستواها الحالي بحوالي أربعة أو ثلاثة جنيهات وعشرة شلن. وفي حال قمتَ ببيع أسهمك حاملاً تفتتح السوق عند الساعة التاسعة من اليوم ذاته، فإن هذا سيؤدي إلى هبوط أكثر، ربما تحت الثلاث جنيهات. ثم تنتظرين حتى ارتفاعها قبل أن تشتري أي سهم متوفر بسعره القليل، حتى تستبدلي أسهمك».

«ألن يشك بالأمر حاملو الأسهم، ويبلغوا المجلس عما قمنا به؟».

«لن يقولوا أي شيء طالما أنهم سيحصلون على عمولة عندما يبيعون الأسهم وعمولة أخرى عندما يشترونها ثانية. لن يخسروا على أية حال».

«لكن هل سنخسر نحن؟».

«فقط في حال ارتفاع قيمة السهم بعد تقرير رئيس المجلس، لأنه حينها سيكون عليك دفع مبلغ أكبر لتستعيدي أسهمك. لكن للصراحة نادراً ما يحصل عندما تعلن الشركة بأنها وضعت ثلاثة ملايين جنيه من احتياطيها في خطر».

«إذا، ماذا سأفعل بعد ذلك؟».

«في حال أعطيتني الصلاحية للتحدث نيابة عنك، فإني سأضع العمل عند حامل أسهم أعرفه في هونغ كونغ، لذا من المستحيل تتبع أي منا».

«سيكتشف جيلز خطتنا، فهو ليس أحمق».

«ليس عندما ستظهر السجلات بعد ثلاثة أسابيع بأن مالك السبعة ونصف من الأسهم لم يتغير. وأياً يكن الأمر، فإن لديه مشاكل أكبر يواجهها الآن».

«من قبيل ماذا؟».

«وصلتني معلومة بأنه يواجه تصويت ثقة من حزب العمال بعد أن اكتشفوا تورطه بعلاقة غرامية مع الأنسة غوينيث هوجيز. وهناك احتمال ألا يترشح إلى الانتخابات. على فرض أنك لم توقعي أوراق الطلاق بعد».

* * *

«أيها الرائد فيشر، هل تستطيع التأكيد لي أن هذا التحقيق لا علاقة له بالسيد جيلز بارينغتون أو السيد هاري كليفتون، لأنه سبق لي أن مثلتهما في الماضي، وإن هذا سيخلق صراع مصالح رهيباً».

قال فيشر: «لا يتعلق تحقيقي هذا بأي شيء يخص عائلة بارينغتون. من الواضح، أن المحافظين قد اختاروا أفضل مرشحين لتمثيلهم عن بريستول دوكلاند. وبصفتي أمين سر الرابطة، أرغب بأن أكون واثقاً من عدم وجود أي شيء لديهم من الممكن أن يسبب الحرج للحزب لاحقاً».

«هل تبحث عن شيء محدد أيها الرائد؟».

«من خلال تواصلك مع الشرطة، أريد منك أن تبحث عن أسمائهم في حال كان لديهم أي شيء في سجلات الشرطة».

قام ميتشيل بالبحث عن الاسمين قبل أن يضع الورقة في جيبه. غادر من دون أن يقول أي شيء.

* * *

عند الساعة التاسعة من صباح يوم الاجتماع اتصل فيشر برقم سري في هونغ كونغ. عندما سمع صوتاً مألوفاً يرد عليه قال: «بيني، أنا الرائد».

«كيف الحال أيها الرائد، لقد مر وقت طويل ولم نسمع عنك شيئاً».

قال فيشر: «هنالك سبب، وسأوضح لك كل شيء عندما تأتي إلى لندن، لكنني الآن أريد منك إدارة عملية بيع لصالحني».

قال بيني: «قلمي جاهز».

«أريدك أن تبيع مئتي ألف سهم من شركة بارينغتون للشحن بسعر محدد تماماً عند افتتاح تبادل الأسهم في لندن».

صفر بيني وقال: «اعتبر ذلك قد تم».

«وحالما تنتهي من الأمر، أريد منك أن تشتري الأسهم نفسها خلال الأسابيع الثلاثة اللاحقة، لكن ليس قبل أن تتأكد من أن قيمتها انخفضت».

«هذا مفهوم. لدي فقط سؤال واحد أيها الرائد. هل سيحصل بيني على شيء ما مقابل هذه العملية؟».

«هذا عائد لك، لكن لا تطمع كثيراً، فسيكون هناك الكثير لاحقاً».

أغلق الراءء سماعة الهاتف وخرج من حانة بول مول واستقل سيارة
أجرة متجهاً نحو سافوي. انضم إلى زميله في غرفة المؤتمرات في الفندق
لبضع ثوانٍ فقط قبل أن يأتي رئيس المجلس ليدي بتقريره إلى حاملي
الأسهام في شركة بارينغتون للنقل البحري.

كانت القاعة الدستورية في شارع ديفيس مزدحمة. فقد توجب على العديد من أعضاء الحزب الوقوف في الممر أو في مؤخرة القاعة، كما توجب على واحد أو اثنين أن يجثما على حافة النافذة على أمل الحصول على إمكانية أفضل لمشاهدة المداولات.

لقد ألقى كل من المرشحين في القائمة، نيفيل سيمبسون وغريغوري دونيت، خطاباً قوياً، لكن فيشر، شعر في تلك اللحظة أن سيمبسون تفوق على مرشحه المفضل. كان لدى المحامي اللندي سيمبسون، الأكبر بعدة سنوات من دونيت، سجل بارز وقد تنافس مسبقاً في الانتخابات ضد أنيورين بيفان في إيبو فال، حيث استطاع زيادة حصة حزب المحافظين من الأصوات. لكن ميتشيل كان قادراً على تزويد فيشر بمعلومات كافية لإحراج الرجل.

كان سيمبسون ودونيت يجلسان على جانبي الرئيس في المنصة، بينما كانت اللجنة في الصف الأول. لقد أسعدت فيشر أخبار نجاة السيد جايلز بارينغتون من تصويت حجب الثقة خلال اجتماع مغلق لحزب العمال المحلي في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، رغم أنه لم يعترف بذلك لأي شخص سوى فيرجينيا. لقد خطط لإذلال بارينغتون بشكل علني على مرأى ومسمع حملة الانتخابات العامة، بدلاً من فعل ذلك بشكل خافت في قاعة لجنة حزب العمال. لكن لم يكن لخطته أن تنجح ما لم يُصبح دونيت مرشح حزب المحافظين، ولم يكن ذلك محسوماً بعد.

نهض الرئيس من مقعده وابتسم بتسامح للحضور وأطلق سعاله المميز قبل الشروع بمخاطبة أنصار الحزب.

«قبل تلقي الأسئلة، أود منكم أن تعرفوا أن هذا سوف يكون لقائي الأخير معكم كرئيس. وأشعر أنه ينبغي على الرابطة خوض الانتخابات العامة بمرشح ورئيس جديدين، ومن المفضل أن يكون شخصاً أكثر شباباً مني». صمت لبعض الوقت ليرى إن كان أحد ما سوف يقنعه بالعدول عن ذلك، لكن حينما لم يقم أحد بذلك، تابع كلامه على مضض.

«نحن الآن على مشارف المرحلة النهائية للاجتماع قبل اختيار الرجل الذي سوف يناضل من أجل قضيتنا في الانتخابات المقبلة. وسوف يتسنى للأعضاء فرصة طرح أسئلتهم مباشرةً على المرشحين المحتملين».

قفز أحد الرجال طويلي القامة من مكانه في مؤخرة القاعة، وبدأ الكلام حتى قبل أن يأذن بيل هوكينز بإعطاء الكلام لأحد.

«سيدي الرئيس، هل بإمكانني سؤال المرشحين، في حال فوزهما بالمقعد، إذا ما كانا سيعيشان في الدائرة الانتخابية؟».

رد سيمبسون أولاً فقال: «من المؤكد أنني سأشتري منزلاً في الدائرة الانتخابية، لكنني أتوقع أن أعيش في مجلس العموم».

تلقى هذا التعليق بعض الضحكات وقليلاً من التصفيق.

رد دونيت قائلاً: «لقد سمحتُ لنفسي بزيارة وكيل المزرعة في الأسبوع الماضي، ليس بترقب، بل بأمل اختياركم لي».

لقد أوحى التصفيق لـ فيشر أن الحشد كان منقسماً بشكل متساوٍ تماماً.

أشار الرئيس إلى امرأة في الصف الثالث لم تُخفق أبداً في طرح سؤال كلما حصل اجتماع في الرابطة، لذا قرر إزاحتها عن الطريق بشكل مبكر.

«بما أن واحداً منكما هو محام ناجح، والآخر سمسار تأمين، فهل سوف يتسنى لكما الوقت الكافي لتكريسه في هذا المقعد الهامشي الهام من أجل التحضير للانتخابات؟».

قال دونيت: «في حال اختياري، لن أعود إلى لندن الليلة، وسوف أكرس كل ساعة أكون فيها مستيقظاً من أجل الفوز بهذا المقعد والتأكد من أننا أزحنا جايلز بارينغتون مرةً واحدةً وإلى الأبد».

كان التصفيق هذه المرة مطولاً، وشعر فيشر بالارتياح للمرة الأولى. قال سيمبسون: «ليس الأمر بعدد الساعات التي تقضيها، بل الأهم هو كيف تقضيها. لقد خضتُ انتخابات عامة مسبقاً ضد خصم قوي، ولذا أنا أعرف ما يجب أن أتوقعه. ومن المهم أن تختاروا شخصاً باستطاعته التعلم بسرعة، واستخدام تلك المعرفة في هزيمة جايلز بارينغتون والفوز بهذا المقعد لصالح حزب المحافظين».

بدأ فيشر يشعر أن دونيت ربما يحتاج إلى بعض المساعدة في حال توجب إزاحة سيمبسون. أشار الرئيس إلى أحد رجال الأعمال المحليين المعروفين.

سأل: «من تعتقد أنه سوف يكون الشخص المناسب ليخلف وينستون تشرشل كزعيم لحزبنا؟».

أجاب سيمبسون، الذي استقبل بضحكات وتصفيق أكثر: «لم أكن أدرك أن هناك شغوراً في المنصب»، قبل أن يضيف بلهجة أكثر جدية:

«سنكون حمقى إذا فكرنا في استبدال أعظم رئيس وزراء في هذا القرن دون سبب وجيه لفعل ذلك».

كان التصفيق مدوياً، ولقد مضى بعض الوقت قبل أن يستطيع دونيت اسماع صوته.

«أعتقد أن السيد تشرشل أوضح بشكل جلي أنه عندما يحين الوقت، فإن خياره المفضل كخلف له، سوف يكون السير أنتوني إيدن، وزير خارجيتنا المرموق والمحترم».

لم يكن التصفيق مدوياً تماماً كما كان من قبل.

خلال الثلاثين دقيقة التالية، عندما تواصلت الأسئلة بشكل كثيف وسريع، شعر فيشر أن سيمبسون كان يُعزز موقعه كمرشح مُفضل. لكنه كان واثقاً من أن الأسئلة الثلاثة الأخيرة ستساعد مرشحه، لأسباب أقلها أنه خطط لاثنين منها، كما رتب مع الرئيس أنه سوف يقوم بطرح السؤال الأخير بنفسه.

نظر بيل هوكينز إلى ساعته.

قال: «أظن أن هناك وقتاً كافياً لثلاثة أسئلة أخرى». أشار إلى رجل في مؤخرة القاعة، كان يحاول على الدوام لفت انتباهه، فابتسم فيشر.

«هل يتفضل المرشحان بإبداء وجهة نظرهما بقوانين الطلاق الجديدة المقترحة؟». كان هناك شهيق مسموع تبعه صمت مُتوقع، إذ ظن بعض الناس في القاعة أن هذا السؤال كان يستهدف السيد جايلز بارينغتون بدلاً من أي من المرشحين اللذين على المنصة.

قال المحامي: «أنا أكره بشدة قوانين الطلاق الخاصة بنا التي عفا عليها الزمن، وهي تحتاج لإصلاح بكل وضوح، وآمل فقط ألا يُهيمن هذا الموضوع على الحملة الانتخابية في هذه الدائرة لأني أفضل هزيمة بارينغتون على أساس الكفاءة وليس الاعتماد على شائعة أو إساءة مُبطنة».

لم يجد فيشر صعوبة في إدراك سبب تطلع المكتب المركزي إلى سيمبسون كوزير في مجلس الوزراء القادم، لكنه عرف أيضاً أن ذلك لم يكن الجواب الذي يود الأعضاء المحليون سماعه».

قدر دونيت على الفور رد فعل الحضور وقال: «رغم أنني أوافق على معظم ما قاله السيد سيمبسون لتوه، لكنني أشعر أنه يحق لناخبي بريستول دوكلاند معرفة حقيقة الإجراءات المحلية الخاصة بـ بارينغتون قبل توجيههم إلى صندوق الاقتراع، وليس بعده».

من الواضح أن الجولة الأولى من التصفيق كانت لصالح دونيت.

أشار الرئيس إلى بيتر مينارد، الذي كان يجلس في منتصف الصف الأمامي.

قال مينارد وهو يقرأ من نص مكتوب: «نحن أبناء الدائرة الانتخابية، نبحث عن أكثر من مجرد عضو في البرلمان، وبالأحرى، نحن نبحث عن شراكة، وعن فريق. هل بإمكان أي من المرشحين التأكيد لنا أننا سنرى زوجتيهما بانتظام في الدائرة الانتخابية وهما تدعمانها خلال فترة الترشح للانتخابات العامة، لأننا لم نرَ الليدي بارينغتون».

لقد تلقى السائل الأول تصفيقاً حاراً.

قال دونيت وهو يشير إلى امرأة شابة تجلس في الصف الثاني: «زوجتي تقف إلى جانبي مسبقاً، وسوف تكون كذلك طوال الحملة الانتخابية. في الواقع، إذا أصبحت واحداً من أعضاء البرلمان، ربما سترونها أكثر مما سترونني».

ابتسم فيشر. لقد عرف أن السؤال أعطى فرصة لإظهار قوى دونيت وبالأهمية ذاتها، أظهر نقاط ضعف سيمبسون. لعلمكم، عندما قام بإرسال رسائل الدعوى من أجل حضورهم الاجتماع، كان قد عنون أحد المظاريف باسم السيد والسيدة دونيت، والآخر إلى المٌبجل ن. سيمبسون فقط.

قال سيمبسون: «إن زوجتي تعمل كمحاضرة في كلية الاقتصاد في لندن، لكنها ستتمكن من القدوم إلى الدائرة الانتخابية في معظم عطلات نهاية الأسبوع وخلال عطلات الجامعة». شعر فيشر بإمكانية فقدانه للأصوات. «وأنا واثق من أنكم ستوافقون أنه ليس هناك مهنة أعظم من تعليم الجيل القادم».

لقد بين التصفيق الذي تبع كلامه أن هناك شخصاً أو اثنين فقط لم يوافقا على أن كلية الاقتصاد في لندن كانت الطريقة المثلى لفعل ذلك.

قال الرئيس: «وأخيراً، أنا أعرف أن أمين سرنا، الرائد فيشر، لديه سؤال لكلا المرشحين».

قال فيشر: «لقد قرأتُ في صحيفة الديلي ميل هذا الصباح، وربما هذا ليس صحيحاً» - ضحك كلا المرشحين طواعيةً - «أن دائرة لندن الانتخابية في فولهام سنترال اختارت أيضاً قائمة مرشحيها، وسوف تلتقي مع المرشحين المحتملين يوم الاثنين. أتساءل فيما إذا كان أي منكما على

تلك القائمة وفي حال كان كذلك، هل أنتما مستعدان للانسحاب من تلك المنافسة قبل أن نصوت الليلة؟».

قال دونيت: «أنا لم أتقدم بطلب للترشح في فولهام سنترال، لأني أردتُ دائماً تمثيل أحد مقاعد الجزء الجنوبي الغربي من إنكلترا، حيث وُلدت زوجتي وترعرعت، وحيث نأمل بإنشاء عائلتنا».

أوما فيشر برأسه. وكان على سيمبسون انتظار هدوء التصفيق.

ابتدأ بقوله: «أنا على قائمة مرشحي فولهام سنترال أيها الرائد فيشر، وسأعتبر أنه من الفظاظنة سحب اسمي في غضون فترة قصيرة كهذه من دون سبب وجيه لكن، إذا كنتُ محظوظاً كفاية كي يتم اختياري الليلة، فلن يكون لدي سبب أفضل من هذا كي أنسحب».

لقد اعتقد فيشر أن هذا أمر جيد وهو يستمع للتصفيق الذي تبع كلام سيمبسون. لكن هل كان جيداً كفاية؟

نهض الرئيس من مقعده وقال: «أنا واثق من أنكم جميعاً سوف تشاركونني في تقديم الشكر لكلا المرشحين، ليس فقط من خصصنا وقتها الثمين كي يكونا معنا الليلة، بل لهذه المساهمات الرائعة التي قدمناها. ولا شك لديّ أن كليهما يستحقان أن يكونا عضوين في البرلمان، لكن لسوء الحظ ليس بإمكاننا اختيار سوى أحدهما». تصفيق أكثر لحد الآن، «وهكذا نصل الآن إلى التصويت. دعوني أوضح كيف أعتزم القيام بذلك. لو يتفضل الأعضاء بالقدوم إلى مقدمة القاعة، وسوف يعطيكم أمين سر الرابطة الرائد فيشر بطاقات الاقتراع. وبعد أن تضعوا إشارة بجانب اسم مرشحكم الذي اخترتموه، رجاءً أسقطوا البطاقة في صندوق الاقتراع. وما أن يكتمل العدد ونقوم أنا وأمين السر بتفحص الصندوق،

وهذا لا ينبغي أن يستغرق وقتاً طويلاً، سوف أُعلن من هو المرشح الذي اختير لتمثيل حزب المحافظين في بريستول دوكلاند في الانتخابات العامة القادمة».

اصطف الأعضاء بشكل منتظم بينما قام فيشر بتسليم ما يقرب من 300 بطاقة اقتراع. وبعد الإدلاء بأخر صوت، طلب الرئيس من أحد الخدم رفع صندوق الاقتراع وأخذه إلى غرفة خاصة خلف المنصة.

بعد وقت قليل من دخول الرئيس وأمين السر إلى الغرفة الخاصة، وجدا صندوق الاقتراع على طاولة في وسط الغرفة والخادم يحرسه. فجلسا على كرسيين خشبيين مقابل بعضهما، وقام الخادم بفتح قفل الصندوق قبل مغادرة الغرفة وأغلق الباب خلفه. وما أن سمع إغلاق الباب، نهض الرئيس وفتح الصندوق ثم فرغ بطاقات الاقتراع على الطاولة. وعندما جلس، سأل فيشر: «كيف تريد أن نتابع؟».

«أقترح أن تقوم بتعداد أصوات سيمبسون بينما أقوم بتعداد أصوات دونيت».

أوماً الرئيس برأسه وبدأ بفرز الأصوات. سرعان ما بدا واضحاً بالنسبة إلى فيشر أن سيمبسون قد يفوز بفارق عشرين أو ثلاثين صوتاً. وأدرك أن عليه أن يكون صبوراً وأن ينتظر اللحظة المناسبة. أتت تلك اللحظة عندما وضع الرئيس صندوق الاقتراع على الأرض وانحنى كي يتفحص داخله ويتأكد أنه لم يُفوت أيّاً من بطاقات الاقتراع. لقد تطلب الأمر منه بعض اللحظات فقط، لكن ذلك أعطى فيشر وقتاً كافياً كي يمد يده إلى جيب سترته ويُخرج خفيةً حفنة من الأصوات التي قام بتعليمها لصالح دونيت في وقت لاحق من فترة بعض الظهر تلك، ذلك الفعل

الذي تمرن عليه عدة مرات أمام إحدى المرايا. لقد دس الأصوات بمهارة إلى كومة أصواته، ولم يكن واثقاً أنها كانت كافية.

قال فيشر وهو ينظر إلى الأعلى: «إذاً، كم عدد الأصوات التي لصالح سيمبسون؟».

أجاب الرئيس: «مائة وثمانية وستون، وكم عدد الأصوات لصالح دونيت؟».

«مائة وثلاثة وسبعون». بدا الرئيس متفاجئاً.

«بما أن الأصوات متقاربة جداً أيها الرئيس، ربما من الحكمة التحقق منها مرة أخرى كي لا تحدث أي أعمال انتقامية لاحقاً».

قال الرئيس: «أتفق معك تماماً، هل لنا أن نغير أماكننا؟».

فعلا ذلك وبدأ بعد الأصوات مرة أخرى.

بعد مرور عدة دقائق قال الرئيس: «هذا صحيح تماماً يا فيشر، مائة وثلاثة وسبعون صوتاً لصالح دونيت».

«وأنا أتفق مع رقمك أيها الرئيس، مائة وثمانية وستون صوتاً لصالح سيمبسون».

«أتعلم، لم أكن أعتقد بوجود هذا العدد الكبير من الناس في القاعة».

أجاب فيشر: «وقف عدد كبير من الناس في المؤخرة، وكثيرون جلسوا في الممرات».

قال الرئيس: «هذا يوضح الأمر، لكني لا أمانع في القول لك بشكل سري، أني صوتُ لصالح سيمبسون».

أجاب فيشر: «وأنا أيضاً، لكن هذه هي الديمقراطية».

ضحك الرئيس وقال: «حسناً، أظن أنه من الأفضل العودة وإخبارهم بالنتيجة قبل أن يصاب السكان المحليون بالقلق».

«ربما من الحكمة أيها الرئيس الإعلان عن الفائز فقط وعدم الكشف كم كان التصويت متقارباً؟ ففي النهاية، يجب علينا الآن جميعاً أن نقف خلف المرشح الذي اختارته الرابطة. وبالطبع، سأسجل الأرقام الدقيقة عندما أكتب محضر الجلسة».

«هذا تفكير صائب يا فيشر».

* * *

«آسف لأنني أتصل بك في مثل هذا الوقت المتأخر من ليلة الأحد أيتها الليدي فيرجينيا، لكن طراً أمر ما، وإذا كان علينا الاستفادة منه، فأنا بحاجة لتصريح منك كي أتصرف على الفور».

أجاب الصوت الناعس: «من الأفضل أن يكون الأمر جيداً».

«لقد سمعتُ للتو أن السير ويليام ترافيرز، رئيس بارينغتون...».

«أنا أعلم من هو ويليام ترافيرز».

«- مات جراء نوبة قلبية منذ بضع ساعات».

سأل الصوت الذي استيقظ فجأة: «هل هذا خبر سيئ أم جيد؟».

«من دون شك خبر جيد، لأن أسعار الأسهم سوف تنخفض بشكل مؤكد في اللحظة التي تعلم الصحافة بالخبر، ولهذا السبب اتصلتُ بك، لأننا لا نملك سوى بضع ساعات لتتصرف».

«أفترض أنك تريد بيع أسهمي مرة أخرى؟».

«نعم أريد ذلك، وأنا واثق أنه ليس علي تذكيرك بأنك حصلت على أرباح طائلة في آخر مرة، بالإضافة إلى تدمير سمعة الشركة».

«لكن في حال بعثُ الأسهم مرة أخرى، هل هناك أي احتمال لإمكانية صعودها؟».

«الأسهم تسير في طريق واحد عندما يموت رئيس شركة عامة أيتها الليدي فيرجينيا، وخصوصاً عندما يموت بسبب نوبة قلبية».

«إذاً، امضِ قدماً، وبعْ».

لقد وعد جايلز أخته أنه سوف يكون في الوقت المحدد للاجتماع. فتوقف عند طريق مسدود خارج المبنى الرئيسي وركن سيارته الجاكوار بجانب مكتب موريس ترافيللر الذي تعود ملكيته لإيما. لقد كان مسروراً لعلمه أنها هناك مسبقاً، لأنه بالرغم من امتلاك كليهما لأحد عشر بالمئة من الشركة، إلا أن إيما تهتم أكثر بكثير مما يهتم بشؤون شركة بارينغتون للشحن، وحتى أن اهتمامها زاد منذ أن باشرت بالدراسة لنيل شهادتها في جامعة ستانفورد مع ذلك الفائز مرتين بجائزة بوليتزر، الذي لم يكن بإمكانها تذكر اسمه أبداً.

قالت إيما بسخرية: «لكنّ تذكرت اسم سايروس فيلدمان بشكل جيد لو أنه يصوت في دائرتك الانتخابية».

لم يحاول إنكار التهمة.

ابتسم جايلز وهو يخرج من سيارته عندما رأى مجموعة أطفال يخرجون من عربة أولدز جاك بومان. لقد تم إهمالها كثيراً في أيام والده، وعادت مؤخراً إلى سابق مجدها وأصبحت متحفاً في ذكرى الرجل العظيم. قامت الحفلات المدرسية بزيارات منتظمة لمشاهدة أولد جاك VC وتم إعطاؤهم دروساً في التاريخ عن حرب البور. تساءل في نفسه، كم سيمر من الوقت قبل أن يتم إعطاؤهم دروساً عن الحرب العالمية الثانية؟

عندما ركض نحو المبنى، تساءل عن سبب إحساس إِيها بالأهمية البالغة للقاء الرئيس الجديد الليلة، بينما الانتخابات على وشك الحدوث. لم يكن جايلز يعرف الكثير عن روس بيوكانان، سوى مما قرأه عنه في الفاينانشال تايمز. فبعد أن أنهى دراسته في كلية فيتيس، درس الاقتصاد في جامعة إدنبرا ومن ثم انضم إلى شركة بي أند أو كخريج متدرب. لقد شق طريقه صعوداً من أسفل السلم ليفوز بمنصب في مجلس الإدارة، قبل أن يُعين نائباً للرئيس. لقد تم ترشيحه لمنصب الرئيس، لكنه حُرِم من المنصب عندما قرر أحد أفراد الأسرة الاحتفاظ بالمنصب لذاته.

عندما قبل بيوكانان دعوة مجلس إدارة شركة بارينغتون كي يخلف السيد ويليام ترافيرز، ارتفعت قيمة أسهم الشركة بمقدار خمسة شلنات عند إعلان تعيينه، وخلال عدة أشهر، عادت إلى المستوى الذي كانت عليه قبل وفاة السير ويليام.

نظر جايلز إلى ساعته ليس لأنه كان متأخراً بضع دقائق فقط، بل لأن لديه ثلاثة اجتماعات أخرى في تلك الليلة، ومن بينها اجتماع مع اتحاد عمال الشحن، الذي لا يُحبذ إبقاءهم في الانتظار. ورغم قيامه بحملة انتخابية لمدة ثماني وأربعين ساعة في الأسبوع وعطلة مضمونة لمدة أسبوعين بأجر كامل لكل عضو من أعضاء الاتحاد، إلا أنهم بقوا متشككين بعضو برلمانهم وعلاقته بشركة الشحن التي تحمل اسمه، رغم أن هذه سوف تكون المرة الأولى التي يدخل فيها المبنى منذ أكثر من سنة.

لقد لاحظ أن الجدار الخارجي للمبنى قد طُلي مجدداً، وحين دخل من الباب خطأ فوق سجادة سميكة بلون أزرق وذهبي تحمل شعار بالاس لاين. دلف إلى المصعد وضغط على زر الطابق العلوي، وعندما خرج من المصعد، أول ما فكر به هو جده، الرئيس الموقر الذي أدخل الشركة إلى القرن العشرين قبل طرح أسهمها للبيع على العموم. لكن حينها تحولت أفكاره بشكل حتمي إلى والده، الذي كاد أن يُفلس الشركة في وقت أقل من المتوقع. لكن أسوأ ذكرياته وأحد أهم الأسباب التي جعلته يتجنب الدخول إلى هذا المبنى، هو أنه المكان الذي قُتل فيه والده. والشيء الوحيد الذي خرج به من هذه الحادثة المروعة كان جيسيكاً.

كان جايلز أول شخص من عائلة بارينغتون لا يصبح رئيساً لمجلس الإدارة، لكنه بعد ذلك أراد خوض غمار السياسة منذ لقائه بـ وينستون تشرشل الذي قدم الجوائز في مدرسة بريستول جرامار عندما كان جايلز عريف المدرسة. لكن صديقه المقرب العريف بايتس، الذي قُتل عند محاولته الهرب من الألمان، هو من حوله دون قصد من حزب المحافظين إلى حزب العمال.

اندفع إلى مكتب الرئيس وعانق أخته بشدة قبل أن يصفح راي كومبتون، الذي كان عضو إدارة مُنتدباً منذ فترة طويلة.

أول ما أدهشه عندما صافح روس بيوكانان هو مظهره الشاب الذي لا يوحي بعمره البالغ اثنين وخمسين عاماً. لكن تذكر حينها أن صحيفة الفايننشال تايمز أشارت إلى أن بيوكانان لم يكن يشرب الكحول أو يدخن، كما أنه يلعب السكواتش ثلاث مرات في الأسبوع، وينام في العاشرة

والنصف مساءً ويستيقظ في السادسة صباحاً كل يوم. هذا النظام لا يُناسب من يعمل في السياسة.

قال بيوكانان: «إنه لشرف لي أن ألتقيك أخيراً، أيها السيد جايلز». أجابه جايلز: «عمال المرفأ ينادونني جايلز، لذا ربما ينبغي على الإدارة أن تناديني كذلك».

لقد كسر الضحك أي توتر يمكن أن يتلقفه هوأي جايلز السياسي. فقد افترض أن هذا اجتماع عرضي وبذلك يستطيع التقاء بيوكانان أخيراً، لكن من النظرات التي اعتلت وجوههم، بدا وكأن ثمة شيئاً أكثر جدية في جدول الأعمال.

قال جايلز وهو يغوص في مقعد مجاور لإيما: «لا يبدو الوضع جيداً».

أجاب بيوكانان: «أخشى أنه ليس كذلك، وأنا ما كنتُ لأزعجك في فترة الانتخابات الوشيكة لو أني لم أكن أعتقد أنه يجب إعلامك بالمستجدات على الفور. سوف أدخل مباشرةً في الموضوع. ربما قد لاحظت أن أسعار أسهم الشركة قد هبطت بشكل دراماتيكي بعد موت سلفي».

قال جايلز: «نعم لاحظتُ، لكنني افترضتُ عدم وجود شيء غير عادي في ذلك».

أجاب بيوكانان: «قد تكون مصيباً في الظروف العادية، لكن ما كان غير عادي هو كيفية هبوط الأسهم بسرعة كبيرة».

«لكن يبدو أنها تعافت تماماً منذ أن توليتَ زمام الأمور».

أجاب الرئيس: «لقد تعافت، لكن لا أظن أنني السبب الوحيد في ذلك. وأتساءل إذا كان هناك تفسير آخر لهذا الهبوط الذي لا يمكن تعليقه في أسعار أسهم الشركة بعد موت السيد ويليام، وخاصةً بعد أن لفت راي انتباهي إلى أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يحصل فيها ذلك».

قال كومبتون: «هذا صحيح أيها الرئيس، لقد هبطت الأسهم فجأةً عندما أعلننا قرارنا دخول مجال سفن نقل الركاب».

قالت إيما: «لكن إذا كنتُ أذكر بشكل صحيح، فقد عادت الأسهم إلى مستواها المرتفع أيضاً».

أجاب بيوكانان: «حقاً هذا صحيح، لكن تطلب الأمر عدة أشهر قبل تعافيتها تماماً، كما لم يُسهم ذلك في تحسين سمعة الشركة. ورغم أن المرء يستطيع تقبل مثل هذه المفارقة لمرة واحدة، لكن عندما تحصل مرة أخرى، يبدأ المرء بالتساؤل عن نشوء نمط جديد. أنا لا أملك الوقت لأنظر إلى الوراء باستمرار، متسائلاً متى يحدث هذا مرة أخرى». مرر بيوكانان يده من خلال شعره الكثيف ذي اللون الأحمر المُصفر وأضاف: «أنا أدير شركة عامة، لا كازينو».

«أنت تريد أن تقول لي إن كلتا الحادثتين حصلتا بعد انضمام أليكس فيشر لمجلس الإدارة».

«هل تعرف الرائد فيشر؟».

«تلك قصة معقدة لا أريد أن أضجرك بتفاصيلها في الوقت الحالي يا روس. هذا في حال استطعتُ حضور اجتماع عمال المرفأ قبل منتصف الليل».

قال بيوكانان: «يبدو أن كل الدلائل تشير إلى فيشر، ففي كلتا الحادثتين نُفذ بيع مائتي ألف سهم، والتي يُصادف أنها تقريباً نسبة السبعة والنصف بالمئة تماماً التي يمثّلها في الشركة. وقد حصلت الأولى قبل ساعات فقط من الاجتماع السنوي العمومي عندما أعلننا عن تغيير سياستنا، والثانية حدثت مباشرةً بعد موت السيد ويليام المفاجئ». قالت إيما: «هذا أكثر من مصادفة».

قال بيوكانان: «أصبح الوضع أكثر سوءاً في كل مرة خلال فترة ثلاثة أسابيع بعد أن هبط سعر الأسهم بشكل حاد، فالسمسار الذي قام ببيعهما، أعاد شراء الكمية نفسها وحقق لعميله أرباحاً طائلة». سألت إيما: «وأنت تظن أن ذلك العميل كان فيشر؟». أجاب جايلز: «كلا، هذا مبلغ كبير جداً بالنسبة إليه». قال بيوكانان: «أثق بأنك على حق، لا بد وأنه كان يعمل بالنيابة عن شخص آخر».

قال جايلز: «أظن أنها الليدي فيرجينيا بارينغتون». أجاب بيوكانان: «لقد خطر هذا ببالي، لكنني أستطيع إثبات أن فيشر وراء ذلك». «كيف؟».

قال كومبتون: «لدي سجلات سوق الأسهم لفترتي الثلاثة أسابيع التي دققنا بها، وكلتا عمليتي البيع حصلت في هونغ كونغ عبر سمسار يدعى بيني دريسكول. لم يتطلب الأمر كثيراً من التقصي لاكتشاف أنه ليس من فترة طويلة، غادر دريسكول دبلن قبل بضع ساعات فقط من وصول الشرطة، ومن المؤكد أنه لن يعود إلى إيرلندا في المستقبل القريب».

قال بيوكانان: «الفضل يعود لأختك في أننا استطعنا اكتشاف ذلك». نظر جايلز إلى إيما باندهاش. «لقد أوصت بتوظيف السيد ديريك ميتشيل، الذي ساعدها فيما مضى. فقد سافر السيد ميتشيل إلى هونغ كونغ بطلب منا، وما إن حدد مكان الحانة التي تقدم مشروب جينيس، تطلب الأمر منه حوالي أسبوع وعدة صناديق من المشروب كي يكتشف اسم أكبر عميل لـ بيني دريسكول».

قال جايلز: «إذاً نستطيع على الأقل أن نزيح فيشر من مجلس الإدارة».

أجاب بيوكانان: «أتمنى لو كان الأمر بهذه السهولة، فهو يملك حق الوجود في مجلس الإدارة طالما يمثل نسبة سبعة ونصف بالمئة من أسهم الشركة. والدليل الوحيد الذي نملكه حيال نفاقه هو سمسار أسهم سكير يعيش في هونغ كونغ».

«هل يعني هذا أنه ليس بإمكاننا فعل شيء؟».

قال بيوكانان: «بعيداً عن ذلك، هذا هو سبب حاجتي لرؤيتك والسيدة كليفتون بشكل عاجل. أعتقد أنه حان الوقت كي نعامله بطريقة».

«أنا معكما».

قالت إيما: «أود لو أعرف ما الذي يدور في ذهنك قبل اتخاذ القرار».

فتح بيوكانان أحد الملفات التي أمامه وقال: «بالطبع، أنتما تملكان نسبة اثنين وعشرين بالمئة من أسهم الشركة فيما بينكما. وهذا يجعلكما

أكبر المساهمين حتى الآن، وأنا لن أفكر بالماضي قدماً في أي خطة دون موافقتكما».

انضم راي كومبتون إلى النقاش فقال: «ليس لدينا شك في أن هدف الليدي فيرجينيا الطويل الأمد هو إعاقة الشركة، والقيام بغارات منتظمة على موقع أسهمنا إلى أن نفقد مصداقتنا».

قال جايلز: «وأنت تعتقد أنها ستفعل ذلك فقط كي تنتقم مني؟».

أجاب بيوكانان مُتجنباً سؤال جايلز: «طالما تحظى بشخص في الداخل، فهي تعرف تماماً متى تقوم بضربتها».

سألت إيما: «لكن ألا تخاطر هي بخسارة كمية كبيرة من النقود عبر استخدام هذه الأساليب؟».

أجاب جايلز: «لا تهتم فيرجينيا أبداً بذلك، وفي حال استطاعت تدمير الشركة وأنا معها، ستكون أكثر من راضية، كما اكتشفت أمني قبل وقت طويل مما فعلت».

قال الرئيس: «ما يجعل الأمور أكثر سوءاً، هو تقديرنا أن غارتها السابقتين على أسهمنا حققتا لها أرباحاً تفوق السبعين ألف جنيه استرليني. ولهذا السبب يجب أن نتحرك الآن قبل أن تقوم بضربتها مرة أخرى».

سألت إيما: «ما الذي تفكر به؟».

قال كومبتون: «دعونا نفترض أن فيشر ينتظر بعض الأخبار السيئة كي يستطيع تكرار العملية بأكملها مرة أخرى».

قال بيوكانان: «وإذا كان علينا تزويده بها...».

قالت إيما: «لكن كيف يفيدنا ذلك؟».

أجاب كومبتون: «لأنه في هذه المرة سوف يكون دورنا لنصبح السماسرة من الباطن».

«عندما يطرح دريسكول نسبة السبعة والنصف التابعة لليدي فيرجينيا في السوق، سوف نشترىها على الفور، وسوف يتغير سعر السهم للأعلى وليس للأسفل».

قالت إيما: «لكن ذلك سوف يكلفنا مبلغاً طائلاً».

أجاب بيوكانان: «ليس إذا زدنا فيشر بالمعلومات الخاطئة. وبموافقتك، سوف أحاول إقناعه أن الشركة تواجه أزمة مالية ربما تهدد وجودها من أساسه. وسوف أجعله يعرف أننا لن نعلن عن أرباح لهذه السنة بسبب كلفة تشييد سفينة باكينغهام، الذي تجاوز ميزانيته بأكثر من عشرين بالمئة حتى الآن، ولذا لن يكون ممكناً تقديم أرباح للمساهمين».

قالت إيما: «إذا فعلت ذلك، أنت تفترض أنه سوف يقوم بنصح فيرجينيا ببيع أسهمها، بنية إعادة شرائها كلها بسعر أدنى خلال فترة التبادل التي تستمر لثلاثة أسابيع».

تابع راي كلامه: «بالضبط. لكن في حال ارتفع سعر الأسهم خلال تلك الأسابيع الثلاثة، ربما لن تكون فيرجينيا راغبة بإعادة شراء نسبة السبعة والنصف الخاصة بها، وفي هذه الحالة سوف يفقد فيشر مكانه في مجلس الإدارة، ونتخلص من كليهما».

سأل جايلز: «كم سنحتاج من نقود كي نجعل هذا يحدث؟».

أجاب بيوكانان: «أنا واثق من أنه لو كان لدي صندوق أموال فيه نصف مليون جنيه، باستطاعتي إبقائها بعيداً».

«وبالنسبة إلى التوقيت؟».

«سوف أنقل الأخبار السيئة خلال اجتماع مجلس الإدارة القادم، وأشير إلى وجوب إبلاغ المساهمين خلال الجمعية العامة للمساهمين».

«متى موعد الجمعية العامة للمساهمين؟».

«هذا ما أريد نصيحتك بشأنه أيها السيد جايلز. هل لديك أي فكرة متى سوف تنطلق الانتخابات العامة؟».

«من المحتمل أنها ستنتقل في السادس والعشرين من أيار، وهذا بالتأكيد هو التاريخ الذي أخطط له».

سأل بيوكانان: «متى سوف نعرف بالتأكيد؟».

«في العادة، هناك مهلة مقدارها شهر تقريباً قبل توقف انعقاد جلسات البرلمان».

«حسناً، سوف أدعو لعقد اجتماع مجلس الإدارة -»، قلب بعض صفحات يومياته - «في الثامن عشر من نيسان، وأحدد موعد الاجتماع السنوي العمومي في الخامس من أيار».

سألت إيما: «لماذا تريد أن تعقد الاجتماع السنوي العمومي في خضم الحملة الانتخابية؟».

«لأنه الوقت الوحيد الذي أضمن فيه عدم قدرة رئيس رابطة المحافظين الانتخابية على الحضور».

«الرئيس؟» تساءل جايلز وهو يُظهر اهتماماً أكبر بكثير.

قال راي كومبتون وهو يناوله نسخة من صحيفة بريستول إيفنينغ بوست: «من الواضح أنك لم تقرأ صحيفة المساء».

قرأ جايلز العنوان الرئيسي: بطل طبرق السابق يصبح رئيس رابطة المحافظين في بريستول دوكلاند. تم انتخاب الرائد أليكس فيشر بالإجماع...

قال: «ما الذي يُخطط له هذا الرجل؟».

«يفترض أنك سوف تخسر الانتخابات، ويريد أن يكون رئيساً عندما...».

«إذا كان ذلك صحيحاً، لا بد وأنه دعم نيفيل سيمبسون وليس جريج دانيت ليكون مرشح حزب المحافظين، لأن سيمبسون أثبت أنه خصم أكثر قوة. إنه يُخطط لشيء ما».

سألت إيما، وهي تتذكر لماذا طلب الرئيس رؤيتها وجايلز في المقام الأول: «ماذا تريد منا أن نفعل؟».

«أحتاج إلى تصريح منكما لأشتري كل أسهم تُطرح في السوق في الخامس من أيار، وأتابع الشراء طيلة الأسابيع الثلاثة التالية».

«كم المبلغ الذي يمكن أن نخسره؟».

«أخشى أنه ربما يكون بحدود عشرين إلى ثلاثين ألف جنيه. لكن على الأقل هذه المرة نحن اخترنا تاريخ المعركة، وميدانها، لذا ينبغي أن تكون الخسائر بقدر الأرباح في أسوأ الأحوال».

قال جايلز: «إذا أدى هذا إلى إيجاد بديل عن فيشر في مجلس الإدارة، بالإضافة إلى تدمير مخططات فيرجينيا، فإن مبلغ ثلاثين ألف جنيه سوف يكون ثمناً رخيصاً لندفعه».

«هما أننا نتناول موضوع استبدال فيشر كعضو في مجلس الإدارة...».

قال جايلز: «أنا لست متوفراً، حتى لو خسرت مقعدي في الانتخابات».

«لم أكن أفكر بك أيها السيد جايلز، بل كنتُ آمل لو توافق السيدة كليفتون على أن تصبح عضواً في مجلس الإدارة».

«قام رئيس الوزراء السير أنتوني إيدن بزيارة قصر باكينغهام في الساعة الرابعة من بعد ظهر هذا اليوم، للقاء جلالة الملكة. طلب السير أنتوني إذن جلالته بحل البرلمان من أجل إمكانية عقد الانتخابات العامة في السادس والعشرين من أيار. ولقد تكرمت جلالته بالموافقة على طلبه».

قالت فيرجينيا وهي تُطفئ المذياع: «كما توقعت تماماً. متى تنوي إبلاغ السيد دونيت التعيس عما يدور في ذهنك بالنسبة إليه؟».

أجاب فيشر: «التوقيت هو كل شيء. أظن أنني سوف أنتظر حتى بعد ظهر يوم الأحد قبل أن أطلب منه المجيء كي يراني».

«لماذا بعد ظهر يوم الأحد؟».

«لا أريد وجود أي عضو آخر من الرابطة في ذلك الوقت».

قالت فيرجينيا: «لكان ميكيافيللي فخوراً بأن يحظى بك كرئيس لرابطته».

«لم يكن ميكيا فيللي مؤمناً بالروابط».

ضحكت فيرجينيا وأضافت: «ومتى تنوي الاتصال بصديقنا في هونغ كونغ؟».

«سوف أتصل بـ بيني في الليلة التي تسبق الجمعية العامة للمساهمين. فمن المهم أن يُصدر أمر البيع في اللحظة التي ينهض فيها بيوكانان ليلقي كلمته في الاجتماع».

أخرجت فيرجينيا سيجارة من علبة سجائرها ثم أسندت ظهرها وانتظرت الرائد كي يشعل عود الثقاب. أخذت مجتين منها قبل أن تقول: «ألا تظن أنها مصادفة أيها الرائد، وأن كل شيء يأخذ مكانه الصحيح في اليوم نفسه؟».

«دونيت، من الجيد أن تأتي بهذه السرعة، وخصوصاً في هذا الوقت من بعد ظهر يوم الأحد».

«هذا من دواعي سروري أيها الرئيس. أنا أعرف أنك ستُسر لسماع نتائج استطلاع الآراء الجيدة للغاية. فالأرقام تشير إلى أننا يجب أن نفوز بالمقعد بفارق أكثر من ألف صوت».

«دعنا نأمل بأنك على حق يا دونيت، لأجل الحزب، لأني أخشى أن أخبرني ليست بهذه الجودة. يجدر بك أن تجلس».

استبدلت ابتسامة التفاؤل على وجه المرشح بنظرة حيرة. فسأل وهو يجلس على الكرسي مقابل فيشر: «ما هي المشكلة سيدي الرئيس؟».

«أظن أنك تعرف جيداً ما هي المشكلة».

بدأ دونيت بعض شفته السفلى وهو ينظر إلى الرئيس.

تابع فيشر قوله: «لقد تبين لنا بعد أن تقدمت بطلب الترشح لهذا المقعد وزودت اللجنة بسيرتك الذاتية، أنك لم تكن صادقاً معنا». لم يرَ فيشر رجلاً يتحول لونه إلى الأبيض سوى في ساحة المعركة. «أنت تذكر أنه طلب منك التصريح عن الدور الذي لعبته خلال الحرب». أخرج فيشر سيرة دونيت الذاتية من مكتبه وقرأ بصوت عالٍ: «بسبب إصابة تلقيتها في ملعب الركبي، لم يكن لدي خيار سوى الخدمة في فيلق الإسعاف الملكي».

غاص دونيت في كرسيه، مثل دمية متحركة قُطعت أسلاك التحكم بها.

«لقد اكتشفتُ مؤخراً أن هذا التصريح كان مُضللاً في أفضل الأحوال، وفي أسوأها مُخادعاً». أغمض دونيت عينيه. «الحقيقة هي أنك رفضت الخدمة العسكرية بدافع الضمير وقضيتَ ستة أشهر في السجن. وبعد إطلاق سراحك، انضمتَ إلى خدمة الإسعاف».

قال دونيت بيأس: «لقد مضى على هذا الأمر أكثر من عشر سنوات، وليس هناك سبب كي يعرفه أي شخص آخر».

أجاب فيشر وهو يحمل مغلفاً لا يحوي سوى فاتورة غاز: «أود لو أن الوضع كذلك يا دونيت، لكن للأسف لدينا رسالة من شخص خدم معك في بوخارست. وفي حال جاريتك في هذا الخداع، سأكون متغاضياً عن عدم أمانتك. وإذا ما اكتُشفت الحقيقة خلال الحملة الانتخابية، أو الأسوأ من ذلك، عندما تكون عضواً في البرلمان، سوف يتوجب علي الاعتراف لزملائي أنني كنتُ أعرف بهذا الشأن مسبقاً، وسوف يطالبون بتقديم استقالتي على الفور».

«لكن لا يزال بإمكانني الفوز في هذه الانتخابات، في حال مساندتك لي».

«وسوف يفوز بارينغتون بأغلبية ساحقة إذا ما أخذ حزب العمال علماً بهذا. لا تنسَ أنه لم يحصل على وسام الصليب العسكري فقط، بل هرب من سجن ألماني لأسرى الحرب».

أحنى دونيت رأسه وبدأ بالبكاء.

«تمالك نفسك يا دونيت، وتصرف مثل رجل نبيل. لا يزال هناك طريقة مشرفة لإنهاء الموضوع».

نظر دونيت إلى الأعلى، وللحظة بدا على وجهه وميض من تعابير الأمل. دفع فيشر بورقة بيضاء تحمل ترويسة الدائرة الانتخابية إلى دونيت، ونزع غطاء قلم حبره.

قال وهو يسلم القلم له: «لما لا نعمل على هذا الأمر سوية؟».

بدأ دونيت على مضض بكتابة ما يمليه عليه فيشر: «عزيزي السيد الرئيس، ببالح الأسف، وجدت أنه من الضروري تقديم استقالتي كمرشح لحزب المحافظين في الانتخابات العامة المرتقبة -»، صمت فيشر قليلاً قبل أن يضيف - «لأسباب صحية».

نظر دونيت إلى الأعلى.

«هل تعلم زوجتك أنك كنت رافضاً للخدمة العسكرية بدافع الضمير؟». هز دونيت رأسه نافياً.

«إذاً لنجعل الأمر على هذا النحو، هلا فعلنا؟». أبدى فيشر له ابتسامة متفهمة قبل أن يتابع: «أود أن أقول كم أنا آسف لتسببي بهذا الإزعاج للرابطة في هذا الوقت القريب من الانتخابات -»، صمت فيشر مرة أخرى، وأخذ يراقب يد دونيت المرتجفة وهي تتلأأ فوق الصفحة - «وأتمنى لمن يأخذ مكاني كائناً من كان وافر الحظ. المخلص لك...». لم يتكلم مرة أخرى إلى أن انتهى دونيت من توقيع اسمه أسفل الصفحة.

أمسك فيشر بالرسالة وتفحص النص بعناية. ولشعوره بالرضا، دسها ضمن مغلف ورمى بها على الطاولة.

«اكتب على المظروف، (الرئيس، خاص وشخصي) فقط». امثل دونيت له، بعد تقبله لقدره.

قال فيشر وهو يُرجع غطاء القلم إلى مكانه: «أنا آسف جداً يا دونيت، فأنا أتعاطف معك حقيقةً». وضع المغلف في الدرج العلوي لطاولة مكتبه، ثم قفله وأضاف: «لكن احتفظ برباطة جأشك أيها الزميل الصغير». نهض من كرسيه وأمسك بهرفق دونيت وقال هو يقوده رويداً رويداً نحو الباب: «أثق أنك سوف تدرك أنني كنتُ دائماً أتمنى لك التوفيق من كل قلبي، وربما من الحكمة أن تغادر الدائرة الانتخابية بأسرع ما يمكن، فنحن لا نرغب بأن تصل هذه القصة إلى يد أحد الصحفيين المتطفلين أليس كذلك؟».

بدا دونيت مرعوباً.

«وقبل أن تسأل يا غريغ، بإمكانك الاعتماد على تكتمي». قال دونيت والباب على وشك الإغلاق: «شكراً سيدي الرئيس».

عاد فيشر إلى مكتبه والتقط سماعة الهاتف وطلب رقماً مكتوباً على كراسة موجودة أمامه.

«بيتر، أنا أليكس فيشر، آسف لإزعاجك في هذا الوقت من يوم الأحد، لكن طرأت مشكلة أحتاج لمناقشتها معك بشكل عاجل. أتساءل إذا كان لديك وقت لتشاركني طعام العشاء؟».

«أيها السادة، ينبغي علي أن أبلغكم ببالح الأسي أني تلقيت زيارة بعد ظهر البارحة من غريغوري دونيت، الذي شعر بأسف أنه يتوجب عليه تقديم استقالته كمرشح لنا في البرلمان، ولهذا السبب دعوتُ لهذا الاجتماع الطارئ.

بدأ جميع أعضاء اللجنة تقريباً بالكلام في الوقت نفسه. والكلمة التي لاتزال تتكرر كانت، لماذا؟

انتظر فيشر بصبر عودة الهدوء قبل أن يُجيب على ذلك السؤال: «لقد اعترف لي دونيت بتضليله اللجنة عندما أوحى بأنه خدم في فيلق الإسعاف الملكي خلال الحرب، بينما في الواقع، كان رافضاً لأداء الخدمة العسكرية بدافع الضمير وأمضى ستة أشهر في السجن. كما وصل له خبر تقرب الصحافة من أحد زملائه في السجن في بوخارست، مما أشعره بأن لا خيار له سوى الاستقالة».

كان الهيجان الثاني في الآراء والأسئلة أكثر صخباً، لكن مرة أخرى، أخذ فيشر وقته. فهو يستطيع تحمل ذلك، لأنه كتب النص ويعلم ما هو كائن في الصفحة التالية.

«لقد شعرتُ بأن لا خيار لي سوى قبول استقالته بالنيابة عنكم، واتقفت معه على وجوب مغادرته الدائرة الانتخابية في أسرع وقت ممكن. أمل أنكم لن تشعروا بأني كنتُ متساهلاً جداً مع الشاب».

سأل بيتر مينارد: «كيف يمكننا أن نختار مرشحاً آخر في مثل هذا الوقت القصير؟».

أجاب فيشر: «كان هذا رد فعلي الأولي أيضاً، ولهذا اتصلت مباشرةً بالمكتب الرئيسي لألتمس توجيههم، لكن لم يكن هناك الكثير من الناس

في مكاتبهم في فترة بعد ظهر يوم الأحد. بيد أني اكتشفتُ شيئاً عندما تكلمتُ مع القسم القانوني التابع لهم ربما تشعررون أنه هام. ففي حال فشلنا في تبني مرشح قبل الثاني عشر من أيار، أي يوم الخميس القادم، سوف نُستبعد من خوض الانتخابات طبقاً للقانون الانتخابي، وهذا سوف يضمن فوزاً ساحقاً لـ بارينغتون، بما أن خصمه الوحيد هو مرشح ليبرالي».

وصل الضجيج حول الطاولة إلى أوجه، لكن فيشر لم يشك أبداً بحدوث ذلك. وما أن عادت مظاهر الهدوء إلى حالها، تابع كلامه: «كان اتصالي الثاني مع نيفيل سيمبسون».

ظهرت بعض الابتسامات المُفعمة بالأمل بين أعضاء اللجنة.

«لكن للأسف، فقد اقتنص من قبل فولهام سنترال ووقع مسبقاً على أوراق انتسابه. حينها تفحصتُ القائمة الأصلية التي أرسلها لنا المكتب المركزي، لأجد أن المرشحين الأفضل أمنوا مقاعدهم مسبقاً، وأولئك الباقين، بصراحة، سوف يفوز عليهم بارينغتون بسهولة. ولذا: «أنا رهن إشارتكم أيها السادة».

ارتفعت بعض الأيدي فاختر فيشر بيتر مينارد، وكأنه أول شخص لفت انتباهه.

«هذا يوم محزن بالنسبة إلى الحزب، سيدي الرئيس، لكني لا أشعر بأن أحداً يستطيع معالجة هذا الموضوع الدقيق بشكل أفضل مما فعلت».

سادت تمتمة بالموافقة حول الطاولة.

«لطف منك أن تقول ذلك يا بيتر، لقد فعلتُ فقط ما شعرتُ أنه الأفضل للرابطة».

تابع مينارد كلامه: «وأنا بإمكانني الحديث بالأصالة عن نفسي فقط يا سيدي الرئيس، عندما أقول ذلك، نظراً للمشكلة التي وجدنا أنفسنا فيها، هل من الممكن أن تتقدم للحلول مكانه؟».

قال فيشر: «كلا، كلا، أنا واثق من أنكم ستتمكنون من إيجاد شخص مؤهل أكثر مني بكثير لتمثيلكم».

«لكن أحداً لا يعرف الدائرة الانتخابية، أو ما يخص خصمنا، أكثر منك يا سيدي الرئيس».

سمح فيشر بظهور بعض التعاطف المشابه قبل أن يقول أمين سر الحزب: «أنا أوافق رأي بيتر، فليس بإمكاننا بالتأكيد تضييع الوقت بعد الآن. فكلما تكاسلنا في تأجيل الأمر، سوف نجعل بارينغتون أكثر سعادة».

بعد أن شعر فيشر بالثقة لأن رأيه بدا مقبولاً من قبل أغلبية اللجنة، حنى رأسه، وهي إشارة إلى بيتر كي يقف ويقول: «أقترح دعوة الرائد أليكس فيشر كي يكون المرشح المحتمل لحزب المحافظين في البرلمان في دائرة بريستول دوكلاند».

رفع فيشر إحدى عينيه ليرى فيما إذا كان هناك أي شخص قد يؤيد الاقتراح. فامتثل أمين السر.

قال مينارد: «من يؤيد الاقتراح». ارتفعت بعض الأيدي حول الطاولة. انتظر مينارد إلى أن انضمت اليد الأخيرة على مضمض إلى

الأغلبية، قبل أن يقول: «أعلن اتخاذ القرار بالإجماع». فتُبَع الإعلان بتصفيق حاد.

قال فيشر: «لقد غمرتموني بلطفكم أيها السادة، وأنا أقبل الثقة التي أظهرتموها لي بتواضع، لأنه كما تعرفون جميعاً، أنا أضع الحزب في المقام الأول دائماً، وهذه آخر نتيجة يمكنني توقعها. لكن، يمكنكم الاطمئنان بأنني سأفعل ما بوسعي لهزيمة جايلز بارينغتون في الانتخابات، وأعيد المحافظين إلى مجلس العموم لتمثيل بريستول دوكلاند» - خطاب تمرن عليه عدة مرات.

وقف أعضاء اللجنة وبدأوا بالتصفيق بحرارة. فأحنى فيشر رأسه وابتسم. سوف يتصل بـ فيرجينيا ما إن يصل إلى المنزل، ويخبرها أن المبلغ الصغير الذي أجازت دفعه لميتشيل كي يكتشف إذا كان هناك شيء ما في خلفيات أي من المرشحين يمكن أن يُحرج الحزب أثبت أنه استثمار أكثر من مجدٍ. شعر فيشر الآن بالثقة في قدرته على إذلال بارينغتون، وهذه المرة سوف يكون الإذلال في ميدان المعركة.

* * *

«بيني، أنا الرائد فيشر».

«من الجيد دائماً سماع صوتك أيها الرائد، وخاصةً عندما يخبرني العصفور الصغير أن التهاني قادمة».

قال فيشر: «شكراً لك، لكن ليس هذا سبب اتصالي بك».

«أنا على أهبة الاستعداد أيها الرائد».

«أريدك أن تنفذ الصفقة نفسها التي قمت بها من قبل، لكن هذه المرة ليس هناك من سبب يدعوك للخوف».

أجاب بيني: «لا بد وأنت شديد الثقة بنفسك أيها الرائد». وعندما لم يتلق أي رد منه، أضاف: «إذاً هذا أمر بيع لمئتي ألف من أسهم بارينغتون».

قال فيشر: «تماماً، لكن مرة أخرى، التوقيت بالغ الأهمية».

«أخبرني فقط متى تريد إصدار أمر البيع أيها الرائد».

«في الخامس من أيار، يوم اجتماع الجمعية العامة لمساهمي شركة بارينغتون. لكن من المهم إبرام الصفقة قبل العاشرة من صباح ذلك اليوم».

«اعتبر ذلك حصل». وبعد لحظة صمت، أضاف بيني: «إذا سوف تكتمل الصفقة كلها بحلول يوم الانتخابات؟».

«هذا صحيح».

«يا له من يوم مثالي لضرب عصفورين بحجر واحد».

جایز بارینختون

1955

عندما رن جرس الهاتف كان الوقت يشير إلى ما بعد منتصف الليل. لقد عرف جايلز أن هناك شخصاً واحداً يجروء على الاتصال به في تلك الساعة.

«ألا تنام أبداً يا غريف؟».

أجاب النائب: «ليس عندما يستقيل مرشح حزب المحافظين في خضم الحملة الانتخابية».

قال جايلز وقد استيقظ تماماً: «ما الذي تتحدث عنه؟».

«لقد استقال غريغ دونيت، لأسباب صحية. لكن يجب أن يكون هناك أسباب غير تلك، بما أن فيشر حل محله. حاول أن تحصل على قسط من النوم، بما أنني أريدك أن تتواجد في المكتب عند الساعة السابعة كي نتمكن من تحديد ما يتوجب علينا فعله بهذا الخصوص. بصراحة، كما يقول الأمريكيون، إنها لعبة مُختلفة كلياً».

لكن جايلز لم ينم. لقد فكر لبعض الوقت في أن فيشر يخطط لشيء ما، لكنه عرف الآن خطته. لا بد وأنه خطط ليكون المرشح منذ البداية. ولم يكن دونيت أكثر من كبش فداء.

لقد قبل جايلز مسبقاً خوض معركة حقيقية بما أنه يدافع عن أغلبية 414 عضو فقط، كما أن استطلاعات الرأي تشير إلى أن المحافظين سوف يزيدون أعداد مقاعدتهم. والآن هو في مواجهة شخص يعرف أنه

مستعد لإرسال الرجال إلى قبورهم إذا اعتقد أن ذلك سيؤدي إلى بقاءه على قيد الحياة. لقد كان غريغوري دونيت آخر ضحاياه.

ذهب هاري وإيما إلى بارينغتون هال صباح اليوم التالي فوجدا جايلز يتناول فطوره.

قال جايلز وهو يدهن الزبدة على قطعة خبز محمص أخرى: «ليس هناك من غدوات أو عشوات بعد الآن للأسابيع الثلاثة القادمة، فأنا أنتعل حذاءً جليدياً مناسباً للمشي على الأرصفة، وأصافح عدداً لا يُحصى من الناخبين. تأكداً من ابتعادكما عن الطريق، فأنا لستُ بحاجة إلى أن يذكرني أحد أن أختي وصهري هما من المتحمسين لحزب المحافظين». قالت إيما: «سوف نكون هناك أيضاً، نعمل من أجل قضية نؤمن بها».

«هذا كل ما أحتاجه».

قال هاري: «ما إن سمعنا بأن فيشر رشح نفسه لحزب المحافظين، قررنا أن نكون مناصرين كلياً لحزب العمال، حتى أننا أرسلنا هبة لصندوق الدعم الخاص بك».

توقف جايلز عن الأكل.

«وبالنسبة إلى الأسابيع الثلاثة القادمة، نحن نعتزم العمل ليلاً نهاراً من أجلك، إلى اللحظة التي ينتهي فيها الاقتراع، إذا كان ذلك يُسهم في ضمان عدم فوز فيشر».

قالت إيما: «لكن هناك شرط أو اثنان قبل أن نخرق مبادئنا القائمة منذ أمد طويل وندعمك».

قال جايلز وهو يسكب لنفسه كوباً كبيراً من القهوة: «عرفتُ أن هناك خدعة ما».

«ستأتي وتعيش معنا في مانور هاوس حتى نهاية الحملة الانتخابية. وإلا، بوجود غريف هاسكينز فقط للاهتمام بك، سينتهي الأمر وأنت تأكل السمك والبطاطا فقط، وتشرب الكثير من الجعة وتنام على أرضية مكتب الدائرة الانتخابية».

«ربما أنتِ على حق، لكنني أحذركِ، فأنا لن أعود إلى المنزل قبل منتصف الليل».

«هذا جيد، تأكد فقط من أنك لا توقظ جيسيكا».

قال جايلز وهو يمسك قطعة خبز محمص بيد وصحيفة باليد الأخرى: «موافق، أراكما هذا المساء».

قالت إيما وهي تبدو كأمهاتهما تماماً: «لا تغادر الطاولة حتى تُنهي طعامك».

ضحك جايلز وذكر أخته قائلاً: «لم يتوجب على أمي أن تخوض الانتخابات أبداً».

قال هاري: «لكانت أصبحت عضو برلمان بارعاً».

قال جايلز وهو يندفع خارج الغرفة والخبز المحمص في يده: «هذا شيء نستطيع جميعنا الموافقة عليه».

تبادل حديثاً قصيراً مع دينبي قبل أن يخرج مسرعاً من المنزل، حيث وجد هاري وإيما يجلسان في المقعد الخلفي لسيارته الجاكوار.

سأل وهو يجلس خلف المقود ويدير المحرك: «ماذا تفعلان كلاكما؟».

أجابت إيما: «نحن ذاهبان للعمل، ونحتاج لمن يقلنا في السيارة إذا ذهبنا لتسجيل كمتطوعين».

قال جايلز وهو يقود السيارة نحو الطريق العام: «أنتما تدركان بأنه عمل يستمر لثمانى عشرة ساعة في اليوم، ومن دون أجر».

بعد عشرين دقيقة، عندما تبعا جايلز إلى مقر الدائرة الانتخابية، تأثر كل من إيما وهاري بكثرة عدد المتطوعين من كافة الأعمار والأشكال والأحجام والذين يتحركون في كل الاتجاهات. قادهما جايلز بسرعة إلى مكتب نائبه وعرفهما إلى غريف هاسكينز.

قال: «متطوعان آخران».

«لقد انضم إلى قضيتنا أناس غريبون جداً منذ أن أصبح أليكس فيشر مرشح حزب المحافظين. أهلاً بكما، سيد وسيدة كليفتون. والآن، هل قام أي منكما بإجراء استطلاع من قبل؟».

أجاب هاري: «كلا، أبداً، وليس لحزب المحافظين حتى».

قال غريف وهو يقودهما إلى الغرفة الرئيسية: «إذاً اتبعاني». توقف أمام طاولة طويلة عليها كومة من الكراريس. فبدأ بالتوضيح لهما وهو يسلم كل منهما كراسيةً ومجموعة من الأقلام ذات الألوان الزرقاء والحمراء والخضراء: «كل واحد من هذه الكراريس يمثل شارعاً أو طريقاً في الدائرة الانتخابية».

تابع غريف كلامه: «إنه يوم حظكما، لديكما مقاطعة وودباين، وهي واحدة من معاقلنا الحصينة. دعوني أشرح القواعد الأساسية. عندما تطرقان على أحد الأبواب في مثل هذا الوقت من النهار، من المرجح أن الزوجة هي من ستفتح الباب، لأن زوجها سيكون في العمل. وفي حال فتح رجل الباب، ربما يكون عاطلاً عن العمل، والأكثر ترجيحاً أنه سوف يصوت لصالح حزب العمال. لكن مهما يكن من يفتح الباب، فكل ما عليكما قوله هو (صباح الخير، أنا هنا بالنيابة عن جايلز بارينغتون) - وليس السيد جايلز أبداً - (مرشح حزب العمال في الانتخابات يوم الخميس، السادس والعشرين من أيار) - شددنا على التاريخ دائماً - (وآمل أنك ستدعمه). والآن تأتي اللحظة حيث يتوجب عليكما استخدام بديهتكما. ففي حال قال (لقد كنتُ طوال عمري مؤيداً لحزب العمال وبإمكانكما الاعتماد عليّ)، تعلمان اسمه بالقلم الأحمر. وفي حال كان من كبار السن، تسألانه إذا كان يحتاج إلى سيارة لأخذه إلى مكان الاقتراع في اليوم المحدد. وفي حال قال نعم، اكتب (سيارة) بجانب اسمه. وفي حال قال (كنتُ أدم حزب العمال من قبل، لكنني لستُ متأكداً هذه المرة)، تعلمان اسمه بالقلم الأخضر، على أنه متردد، وسيتصل به المستشار المحلي خلال الأيام القليلة القادمة. وفي حال قال إنه لم يتعاط الأمور السياسية أبداً، أو أنه سيفكر بالأمر، وأنه لم يقرر بعد، أو أي نوع من هذه الأفكار، فهو مؤيد لحزب المحافظين، ولذا قوما بتعليمه بالقلم الأزرق، ولا تضيعا مزيداً من الوقت معه. هل تفهمان ما أقول حتى الآن؟».

أشارا بالموافقة.

تابع غريف كلامه: «إن معطيات هذه الاستطلاعات هامة جداً، لأنه في يوم الانتخابات سنعيد النظر بكل من علمنا اسمهم باللون الأحمر كي نتأكد من أنهم صوتوا. وفي حال لم يفعلوا ذلك، نقوم بزيارتهم مرة أخرى لتذكيرهم بالذهاب إلى مكان الاقتراع. وفي حال كنتم في شك في نوايا تصويت أي شخص، علموا عليه بالأخضر باعتباره متردداً، لأن آخر ما نريد فعله هو تذكير الناس بالتصويت، أو الأسوأ من ذلك، تأمين وسيلة نقل لهم إلى مكان الاقتراع، إذا كانوا سيؤيدون الطرف الآخر».

دخل أحد المتطوعين الشباب وسلم غريف ورقة وسأله: «ما الذي ينبغي عليّ فعله بهذا؟».

قرأ غريف الرسالة وقال: «أبلغه بأن يذهب من هنا. فهو من المحافظين المعروفين الذين يحاولون تضييع وقتك فقط. وبالمناسبة» قال وهو يلتفت إلى هاري وإيما: «في حال جعلكما أحدهم تنتظران على عتبة الباب لأكثر من ستين ثانية، قائلاً إنه يحتاج إلى الإقناع، أو يريد مناقشة سياسة حزب العمال بتفاصيل أكبر أو أنه يود التوسع في معرفة المرشح، فهو أيضاً من المحافظين الذين يودون تضييع وقتكما. فتمنيا له صباحاً جميلاً وامضيا قدماً. بالتوفيق. قدما لي تقريراً عندما تُنهيان الاستطلاع بالكامل».

«صباح الخير، اسمي روس بيوكانان، وأنا رئيس مجموعة بارينغتون للشحن. أود أن أرحب بكم جميعاً في الاجتماع السنوي العمومي للشركة. وسوف تجدون على كراسيكم نسخة من التقرير السنوي للشركة. وأود لفت انتباهكم إلى بضع نقاط بارزة. لقد ارتفعت الأرباح

السنوية هذه السنة من 108,000 إلى 122,000 جنيه، وهو تحسن بمقدار اثني عشر بالمئة. لقد عينا مهندسين من أجل تصميم أول سفينة فاخرة لنا، ونتوقع تقديم توصياتهم خلال الشهور الستة القادمة.

«دعوني أؤكد لكل المساهمين أننا لن نمضي قدماً في هذا المشروع حتى نكون مقتنعين بأنه اقتراح مجدٍ. ومن هذا المنطلق أنا سعيد لإعلان أننا سوف نزيد عائدات مساهمينا هذه السنة إلى خمسة بالمئة. وليس هناك أي سبب لدي لأعتقد أن نمو الشركة لن يكون دائماً، أو حتى متطوراً للأفضل، خلال السنة القادمة.»

سمح التصفيق الحار لبيوكانان بقلب صفحة من خطابه وتفحص ما سوف يقوله لاحقاً. وعندما نظر إلى الأعلى، لاحظ وجود عدة صحفيين مهتمين بالشؤون المالية يهرولون خارج الغرفة ليرسلوا المعلومات لطبعات صحفهم المسائية، وهم على علم بأن الرئيس قد سلط الضوء على النقاط الرئيسية، وسيُعرف المساهمين الآن على التفاصيل شيئاً فشيئاً.

بعد أن أنهى بيوكانان كلامه، تلقى هو وكومبتون الأسئلة لمدة أربعين دقيقة. وعندما اختتم الاجتماع أخيراً، لاحظ الرئيس ببعض الرضا أن معظم المساهمين الذين يتبادلون الأحاديث خرجوا والابتسامات تعلو وجوههم.

عندما غادر بيوكانان منصة قاعة المؤتمر في الفندق، اندفع سكرتيره وقال: «لديك اتصال عاجل من هونغ كونغ، والاستقبال ينتظر تحويله إلى غرفتك.»

عندما عاد هاري وإيما إلى مقر حزب العمال بعد إنهاء استطلاعهما، كانا مُنهكين.

سألها غريف وهو يتفحص دفاترهما بعين مهنية: «كيف أبلتتما؟».

أجاب هاري: «ليس سيئاً، فمقاطعة وودباين هي منزلنا».

قال غريف: «أتمنى ذلك، فيجب أن تكون هذه المقاطعة معقل حزب العمال، لكن غداً سوف أترككما تتجولان في جادة أركاديا، وهناك سوف تعرفان حقيقة ما الذي نحن بصدده. وقبل ذهابكما إلى المنزل، ضعاً أفضل جواب لديكما عن نتائج هذا اليوم في لوحة الملاحظات. وسوف يحصل الفائز على علبة من كادبيريز ميلك تراي».

ضحكت إيما وقالت: «لقد أخبرتني إحدى النساء قائلةً (زوجي يصوت لحزب المحافظين، لكن أنا دائماً أَدعم السيد جايلز. ومهما فعلتم، رجاءً لا تدعوه يعرف)».

ابتسم غريف وقال: «هذا ليس أمراً نادر الحدوث، لكن لا تنسي يا إيما أن أهم عمل لديك هو التأكد من أن المرشح يحظى بطعام وليلة نوم هادئة».

قال هاري عندما دخل جايلز إلى الغرفة: «وماذا بشأنني؟».

أجاب غريف: «لستُ مهتماً بك، فاسمك ليس موجوداً على ورقة الاقتراع».

كان أول سؤال لـ جايلز هو: «كم عدد الاجتماعات لديّ هذا المساء؟».

أجاب غريف دون حاجة للاستعانة بأية ملحوظات: «ثلاثة، جمعية الشباب المسيحيين في شارع هاموند عند الساعة السابعة، ونادي السنوكر في كانون رود عند الساعة الثامنة، ونادي العمال عند الساعة التاسعة. كن متأكداً من أنك لن تتأخر على أي منهم، وأنتك سوف تكون في فراشك قبل منتصف الليل».

قالت إيفا بعد أن غادر الغرفة مسرعاً ليتعامل مع آخر أزمة مستجدة: «أتساءل متى يذهب غريف للنوم».

همس جايلز: «إنه لا ينام، فهو مصاص دماء».

عندما دخل روس بيوكانان إلى غرفته في الفندق، كان الهاتف يرن. فأسرع ليُمسك بالسماعة.

«مكالمتك من هونغ كونغ في الانتظار سيدي».

قال الصوت الأسكتلندي من خلال الخط المليء بالخشخشة: «مساء الخير سيد بيوكانان».

«أنا ساندي ماكبرايد. اعتقدتُ أنه يجب أن أتصل بك وأبلغك أن كل شيء حصل كما توقعت تماماً».

«وما اسم السمسار؟».

«بيني دريسكول».

قال بيوكانان: «ليس هناك من مفاجأة في ذلك، أخبرني بالتفاصيل».

«بعد لحظات من افتتاح سوق لندن للأوراق المالية، صدر أمر بيع ملئتي ألف من أسهم شركة بارينغتون. وحسب التعليمات، اشتريناها كلها على الفور».

«بأي سعر؟».

«أربعة جنيهات وثلاثة شيلنجات».

«هل حصل شيء آخر في السوق منذ ذلك الحين؟».

«لا شيء يستحق الذكر، وبصراحة، كان هناك الكثير من أوامر الشراء أكثر من البيع بعد النتائج الممتازة التي أعلنت عنها في الاجتماع السنوي العمومي».

«ما هو سعر السهم الآن؟».

أجاب ماكبرايد: «أربعة جنيهات وستة شيلنجات، ويبدو أنه استقر عند هذا المستوى».

قال بيوكانان: «جيد، لا تشتري أي شيء بعد الآن ما لم ينحدر السعر إلى ما دون الثلاثة جنيهات وثلاثة شيلنجات».

«مفهوم سيدي».

«هذا سوف يجعل الرائد مستيقظاً في الليل طوال الأسابيع الثلاثة القادمة».

تساءل السمسار: «الرائد؟». لكن بيوكانان كان قد أغلق السماعه مسبقاً.

كانت جادة أركاديا، كما حذرهما غريف، حصناً منيعاً للمحافظين، لكن هاري وإيما لم يعودا إلى مكتب الدائرة الانتخابية خايي الوفاض. بعد أن تفحص غريف كراسة كل منهما، نظر إليهما باستغراب.

قال هاري: «لقد عملنا حسب قواعدك حرفياً، ففي حال كنا في حالة شك أياً تكن، كنا نضع علامة بالقلم الأخضر، كمتردد».

قال غريف بينما اندفع جايلز إلى الغرفة ملوحاً بنسخة من صحيفة بريستول إيفنينغ بوست: «إذا كان ما تقوله صحيحاً، سوف نفوز بال مقعد بأكثر مما تتوقع به استطلاعات الرأي».

قال وهو يسلم نائبه الطبعة الأولى من الصحيفة: «هل رأيت الصفحة الأولى يا غريف؟».

قرأ غريف العنوان الرئيسي، ثم مرره إلى جايلز وقال: «تجاهل ذلك. لا تقل ولا تفعل شيئاً. تلك هي نصيحتي».

ألقت إيما نظرة على العنوان الرئيس من فوق كتف جايلز.

فيشر يتحدى بارينغتون في مناظرة. قالت: «يبدو هذا مثيراً للاهتمام».

«سيكون هذا مثيراً، لكن فقط إذا كان جايلز أحمق بما يكفي لقبول ذلك».

سأل هاري: «لماذا لا يقبل؟ ففي النهاية، هو مناظر أفضل بكثير من فيشر، ولديه خبرة سياسية أكبر بكثير».

أجاب غريف: «ربما هذه هي الحال تماماً، لكن يجب أن لا تقدم لخصمك منصة للكلام. فيما أن جايلز هو عضو حالي في البرلمان، باستطاعته إملاء الشروط».

قال جايلز: «نعم، لكن هل قرأت ما قاله السافل؟».

أجاب غريف: «لماذا أضيع وقتي على فيشر، في حين أن المناظرة لن تحدث؟».

تجاهل جايلز التعليق، وبدأ يقرأ الصفحة الأولى بصوت عالٍ: «(هناك كثير من الأسئلة ينبغي على بارينغتون الإجابة عنها إذا كان يأمل بأن يكون عضو برلمان عن دوكلاند في السادس والعشرين من أيار. فبمعرفتي الجيدة به، أنا واثق من أن بطل طبرق لن يتصل من التحدي. سوف أكون في كولستون هول يوم الخميس القادم، في التاسع عشر من أيار، وسأكون سعيداً للإجابة عن أي سؤال يوجه إليّ من الجمهور. سوف يكون هناك ثلاثة مقاعد في المنصة، وفي حال لم يحضر السيد جايلز، أنا واثق من أن الناخبين سوف يستخلصون النتائج الخاصة بهم)».

تساءلت إيما: «ثلاثة مقاعد؟».

قال غريف: «يعلم فيشر أن الليبراليين سوف يظهرون لأن لا شيء لديهم ليخسروه، لكن نصيحتي تبقى كما هي. تجاهل السافل. سوف يكون هناك عناوين رئيسية أخرى غداً، وعندها»، قال وهو يُشير إلى الصحيفة: «ستكون جيدة فقط للسمك والبطاطا».

كان روس بيوكانان يجلس في مكتبه في شركة بارينغتون يتفحص آخر تقرير من هارلاند ووولف عندما دخل سكرتيه مسرعاً.

«معي على الخط ساندي ماكبرايد من هونغ كونغ. هل تود تلقي الاتصال؟».

«صلي به».

«صباح الخير يا سيدي. ظننتُ أنك تريد معرفة أن بيني دريسكول يتصل كل بضع ساعات ليستعلم عما إذا كان لدينا أي أسهم لشركة بارينغتون من أجل البيع. لا يزال لدي مئتا ألف سهم في سجلاطي والسعر مستمر في الصعود، أنا أتصل لأسألك إذا كنتَ تريدني أن أبيع أي منها؟»
«ليس قبل أن تنتهي مهلة الثلاثة أسابيع. حتى ذلك الوقت، نحن مشترون لا بائعون».

في اليوم التالي، عندما رأى جايلز العنوان الرئيسي في جريدة الإيفنينغ بوست، أدرك أن ليس باستطاعته تجنب مواجهة مباشرة مع فيشر بعد الآن. أسقف بريستول يتأرض مناظرة انتخابية. هذه المرة، قرأ غريف الصفحة الأولى باهتمام أكبر.

لقد وافق أسقف بريستول، المحترم فريدريك كوكين، ليعمل كوسيط في مناظرة انتخابية تُعقد في كولستون هول يوم الخميس القادم في التاسع عشر من أيار عند الساعة السابعة والنصف مساءً. كما وافق كل من الرائد أليكس فيشر، مرشح حزب المحافظين، والسيد ريجينالد إيلسوورثي، المرشح الليبرالي، على الاشتراك في المناظرة. أما السيد جايلز بارينغتون، مرشح حزب العمال، فلم يستجب لدعوتنا بعد.
قال غريف: «لا أزال أظن أنه ينبغي عليك تجاهلها».

قال جايلز وهو يلقي الصحيفة بيد نائبه: «لكن انظر إلى الصورة في الصفحة الأولى».

نظر غريف إلى الصورة، التي أظهرت كرسيًا فارغاً في منتصف المنصة في كولستون هول وهناك ضوء كشاف مسلط عليه، ومن فوق تعليق يقول: هل سوف يظهر السيد جايلز؟

قال جايلز: «مؤكد أنك ترى أنه في حال لم أظهر، سوف يحظون بيوم حافل».

«وفي حال لم تحضر، سوف يحظون بيوم سيئ»، صمت غريف قليلاً ثم أضاف: «لكن الخيار لك، وإذا كنت مصمماً على التواجد هناك، يجب أن نقلب الوضع لمصلحتنا».

«كيف نفعل ذلك؟».

«سوف تُصدر بياناً صحفياً عند الساعة السابعة من صباح غد، ولذا نتصدر العناوين الرئيسية على سبيل التغيير».

«وماذا نقول؟».

«نقول إنك سعيد بقبول التحدي، لأنه سيعطيك فرصة كشف سياسات المحافظين على حقيقتها، وفي الوقت نفسه تترك الناس في بريستول يقررون من هو الرجل المناسب لتمثيلهم في البرلمان».

سأل جايلز: «ما الذي جعلك تغير رأيك؟».

لقد كنتُ أتفحص آخر معطيات استطلاعات الرأي، وهي تشير إلى أنه من المرجح أن تخسر بفارق أكثر من ألف صوت، وبذلك أنت لم تعد المفضل، بل أنت المتحدي الآن».

«ما الذي يمكن أن يسير على نحو خاطئ أيضاً؟».

«يمكن لزوجتك أن تظهر، وتأخذ مقعداً في الصف الأول وتطرح السؤال الأول. ثم تظهر صديقتك وتصفعها على وجهها، وفي هذه الحالة لا داعي لك لتقلق بشأن جريدة بريستول إيفنينغ بوست لأنك سوف تكون على الصفحة الأولى في كل صحف البلاد».

جلس جايلز في مقعده على وقع تصفيق حاد. وبدا خطابه أمام القاعة المزدهمة أفضل ما يمكن، كما تبين أن إطلالته كآخر المتحدثين كانت في مصلحته.

وصل المرشحون الثلاثة قبل نصف ساعة من موعدهم، ثم دارو حول بعضهم مثل فتیان مدرسة يحضرون أول درس في الرقص لهم. وفي النهاية استطاع الأسقف الذي يعمل كوسيط في المناظرة، جمعهم معاً والتوضيح لهم كيف ينوي تسيير الأمسية.

«سوف أدعو كل واحد منكم لإلقاء خطاب افتتاحي بحيث لا يستمر أكثر من ثماني دقائق. وبعد سبع دقائق، سوف أقرع الجرس، ثم أقرعه مرة أخرى بعد الدقيقة الثامنة كي أظهر أن وقتكم انتهى. وما أن تنتهوا من إلقاء خطاباتكم، سوف أبدأ بتلقي الأسئلة من الحضور.»

سأل فيشر: «كيف يمكن ترتيب الدور؟».

«بسحب عيدان القش.» عندئذٍ أمسك الأسقف بثلاثة عيدان في قبضته ودعا كل واحد من المرشحين ليختار واحداً، فاختر فيشر أقصر واحد منها.

قال الأسقف: «إذاً ستكون أنت أول الخطباء، وأنت الثاني أيها السيد إيلسوورثي، وسوف يكون السيد جايلز الأخير.»

ابتسم جايلز في وجه فيشر وقال: «حظاً سيئاً أيها الصديق القديم.»

قال فيشر معترضاً، ما أثار استغراب الأسقف أيضاً: «كلا، لقد أردتُ أن أبدأ أولاً».

عندما قاد الأسقف الرجال الثلاثة إلى المنصة عند الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة، كانت تلك المرة الأولى التي صفق فيها جميع الحضور في القاعة. جلس جايلز في مقعده ونظر إلى الجمهور الغفير. لقد قدر وجود أكثر من ألف شخص يحضرون المناظرة.

أدرك جايلز أن كل حزب أصدر 200 بطاقة لأنصاره، ما ترك حوالي 400 صوت متردد من أجل الفوز بها، وهي تقريباً مساوية لفارق الأصوات التي فاز بها في الانتخابات الأخيرة.

افتتح الأسقف المداولات في الساعة السابعة والنصف. فقدم المرشحين الثلاثة للحضور ثم دعا الرائد فيشر لإلقاء خطابه الافتتاحي. مشى فيشر ببطء نحو مقدمة المسرح ووضع أوراق خطابه المحضر على المنبر ونقر على الميكروفون. لقد ألقى خطابه بعصبية، وأبقى وجهه منخفضاً، ومن الواضح أنه خائف من خسارة مكانته.

عندما قرع الأسقف الجرس ليشير إلى بقاء دقيقة واحدة له، بدأ فيشر بالإسراع مما سبب له التلعثم بكلماته. ربما أمكن لـ جايلز إبلاغه عن قاعدة ذهبية، ففي حال خُصص لك ثماني دقائق، يجب أن تُحضر خطاباً مدته سبع دقائق. ومن الأفضل أن تنهي كلامك باكراً من أن يتم إيقافك في خضم اختتام حديثك. ورغم هذا، كوفئ فيشر بتصفيق مطول من أنصاره عندما عاد إلى مقعده.

دُهِش جايلز عندما نهض ريج إيسوورثي لعرض القضية الليبرالية. لم يكن لديه خطاب محضر، أو حتى قائمة عناوين تذكره بالمواضيع التي

ينبغي له التركيز عليها. وبدلاً من ذلك، ثرثر عن قضايا محلية، وعندما قُرِع جرس الدقيقة الأخيرة، توقف في منتصف الجملة وعاد إلى مقعده. لقد حقق إيلسوورثي شيئاً لم يعتقد جايلز أنه ممكن، إذ جعل فيشر يبدو بمظهر جيد. ومع ذلك، كان لايزال خُمسة الموجودين يُهللون لبطلهم.

نهض جايلز وسط استقبال حار من مناصريه البالغ عددهم مئتين، رغم أن قسماً كبيراً من الحضور بقي مكتوف الأيدي. وهو شيء أصبح مألوفاً لديه كلما خاطب الدوائر الحكومية. بقي واقفاً بجانب المنبر، ينظر بشكل عرضي فقط إلى ملحوظاته.

ابتدأ بتوضيح فشل المحافظين في الوزارات، وألقى الضوء على ماهية سياسات حزب العمال في حال تمكنه من تأليف الحكومة المقبلة. ثم انتقل إلى المواضيع المحلية، حتى أنه تناول سياسة حفر الأرصفة غامزاً من قناة الليبراليين، مما أثار الضحك في القاعة المزدحمة. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى نهاية خطابه، كان نصف الحضور على الأقل يصفقون. ولو أن الاجتماع انتهى في حينه، لكان هناك فائز واحد فقط.

أعلن الأسقف قائلاً: «سوف يتلقى المرشحون أسئلة من الحضور الآن، وآمل أن يحصل هذا بطريقة محترمة وهادئة».

رفع ثلاثون من أنصار جايلز أيديهم، وجميعهم مُجهز جيداً بأسئلة مُعدة لمساعدة مرشحهم وتقويض خصميه الاثنين. والمشكلة الوحيدة هي أن ستين يداً أخرى رُفعت بذات الإصرار في الوقت نفسه.

لقد كان الأسقف فطناً بما يكفي كي يعرف مكان جلوس الكتل الثلاثة المختلفة، فاختار بمهارة أعضاء غير محازبين من عموم الناس

أرادوا معرفة أمور مثل: ما هو موقف المرشحين من عدادات مواقف السيارات في بريستول، مما أعطى للمرشح الليبرالي فرصة كي يلمع نجمه، وموقفهم من انتهاء توزيع الحصص التموينية، الذي وافق جميعهم عليه، والتوسع المقترح لتزويد السكك الحديدية بالكهرباء، الذي لم يُسهم في دفع قضية أي أحد منهم.

لكن جايلز أدرك أن سهماً سوف يُصوب عليه في نهاية المطاف، وتوجب عليه التأكد من عدم إصابته للهدف. لقد سمع أخيراً رنة القوس.

سأل رجل طويل ونحيل في منتصف عمره، ظن جايلز أنه يعرفه: «هل بإمكان السيد جايلز توضيح سبب زيارته لـ كامبريدج لمرات كثيرة خلال فترة البرلمان السابق أكثر مما زار دائرته الانتخابية؟».

جلس جايلز من دون حراك لبرهة من الزمن كي يُحضر نفسه. كان على وشك النهوض من مكانه عندما نهض فيشر، ومن الواضح أنه لم يكن مُتفاجئاً بالسؤال، إذ يفترض بجميع الحاضرين معرفة ما الذي يوحى إليه السائل بالضبط.

قال: «دعوني أؤكد للجميع في هذه القاعة، بأني سأقضي في بريستول وقتاً أكثر بكثير مما أقضيه في أي مدينة أخرى، مهما كانت الإلهاءات».

نظر جايلز إلى الأسفل ليرى عدداً كبيراً من الحضور وجوههم خالية من التعابير. بدا أنه ليس لديهم أي فكرة عما كان يتحدث عنه فيشر.

نهض المرشح الليبرالي فيما بعد. ومن الواضح أنه تاه عن الموضوع، لأن كل ما قاله: «كوني من أوكسفورد، أنا لا أزور المكان الآخر ما لم أكن مضطراً لذلك».

ضحك بعض الناس.

لقد زود الخصمان جايلز بذخيرة مناسبة ليرد عليهما. فوقف والتفت نحو فيشر.

«أشعر أنه يجب عليّ سؤال الرائد فيشر، إذا كان في نيته قضاء وقت في بريستول أكثر مما يقضيه في أي مدينة أخرى، فهل هذا يعني في حال فوزه يوم الخميس القادم، أنه لن يذهب إلى لندن ليأخذ مقعده في مجلس العموم؟».

صمت جايلز قليلاً بانتظار خفوت الضحك والتصفيق، قبل أن يضيف: «أنا واثق من أنني لست في حاجة لتذكير المرشح المحافظ بكلمات إيمانويل بيرك، (لقد تم انتخابي لتمثيل شعب بريستول في ويستمينستر، وليس لتمثيل ويستمينستر في بريستول)، وهذا أحد المحافظين الذين أتفق معهم من كل قلبي». جلس جايلز والتصفيق مستمر. ورغم إدراكه بأنه لم يجب عن السؤال، إلا أنه شعر بإفلاته منه.

قال الأسقف وهو يشير إلى امرأة تجلس في وسط القاعة، بدا واثقاً من أنها محايدة: «أظن أن هناك وقتاً لسؤال واحد فقط».

«هل بإمكان أي من المرشحين الثلاثة إخبارنا عن مكان زوجاتهم هذه الليلة؟».

جلس فيشر وكتف ذراعيه، بينما بدا إيلسوورثي محتاراً. وفي النهاية التفت الأسقف إلى جايلز وقال: «أظن أنه دورك كي ترد أولاً».

وقف جايلز ونظر مباشرة إلى المرأة.

بدأ كلامه قائلاً: «زوجتي وأنا نسير حالياً في إجراءات الطلاق التي
أمل أنها ستنتهي في المستقبل القريب».
جلس والصمت المزعج يلف المكان.

وقف إيلسورثي وقال: «يجب أن أعترف أنه منذ أن أصبحتُ مرشحاً
ليبرالياً لم يتسنَّ لي إيجاد أي شخص يرغب بالخروج معي، ناهيك عن
الزواج بي».

استقبل كلامه بموجة عارمة من الضحك والتصفيق الحار. لقد ظن
جايلز لبرهة من الوقت أن إيلسورثي ساعد في تخفيف التوتر.
نهض فيشر ببطء.

قال، وقد فاجأ جايلز بكلامه: «صديقتي، التي انضمت إلي هنا هذه
الأمسية وهي تجلس في الصف الأول، سوف تكون بجانبني حتى نهاية
الحملة الانتخابية. جيني، هلا وقفتِ وانحنيتِ للحضور».

نهضت امرأة شابة جذابة والتفتت لتواجه الحضور ولوّحت لهم
بيدها. لقد استقبلت بتصفيق حار.

همست إيما: «تُرى أين رأيت هذه المرأة من قبل؟». لكن هاري
كان يركز على فيشر، الذي لم يعد إلى مقعده، ومن الواضح أن لديه شيئاً
آخر يقوله.

«ظننتُ أنه من المهم لكم معرفة أنني تلقيتُ هذا الصباح رسالةً من
الليدي بارينغتون».

ساد صمت في القاعة لم يُحققه أي من المرشحين طوال الأمسية. كان جايلز يجلس على طرف مقعده عندما أخرج فيشر رسالةً من داخل جيب سترته. ففتحها ببطء وبدأ يقرأ.

(«عزيزي الراحل فيشر، أكتبُ لأعبر عن إعجابي بحملتك الانتخابية النبيلة التي قمت بها نيابة عن حزب المحافظين. وددتُ إعلامك أنني لو كنتُ مواطنة في بريستول، فلن أتردد بالتصويت لك، لإيماني أنك المرشح الأفضل. أمل رؤيتك وأنت تأخذ مقعدك في مجلس العموم. المخلصة لك، فيرجينيا بارينغتون»).

ساد تصفيق حاد في القاعة، وأدرك جايلز أن كل ما حققه طوال الساعة الأخيرة قد تبخر بدقيقة واحدة. طوى فيشر الرسالة ودسها في جيبه، ثم عاد إلى مكانه. حاول الأسقف جاهداً إعادة الهدوء إلى الاجتماع، بينما أتباع فيشر يتابعون الهتاف، تاركين أنصار جايلز في حالة يأس.

لقد ثبت أن غريف كان على حق. لا تعطِ خصمك منصة للكلام أبداً.

«هل تدبرت إعادة شراء أي من تلك الأسهم؟».

أجاب بيني: «كلا، ليس بعد، فلا تزال أسهم شركة بارينغتون ترتفع إثر أرباحها السنوية التي فاقت التوقعات، بالإضافة إلى التوقعات التي تشير إلى أن حزب المحافظين سيزيد أغلبيته في الانتخابات».

«ما هو السعر الذي يتأرجح حوله السهم الآن؟».

«حوالي أربع جنيهات وسبعة شيلينجات، ولا أستطيع توقع هبوطه في المستقبل القريب».

سأل فيشر: «كم المبلغ المحتمل أن نخسره؟».

أجاب بيني: «نخسره؟ ليس نحن من سوف يخسر، بل أنت فقط. فالليدي بارينغتون لن تخسر شيئاً. لقد باعت مسبقاً كامل أسهمها بسعر أعلى بكثير مما دفعته لأجلها».

«لكن إذا لم تُعد شراءها، سوف أفقد مكاني في مجلس الإدارة».

«وإذا أعادت شراءها، سوف تضطر إلى دفع مبلغ كبير من المال، وأظن أنها لن تكون سعيدة بفعل ذلك». انتظر بيني عدة لحظات قبل أن يضيف: «حاول النظر إلى الجانب المشرق أيها الرائد. فبحلول مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم، سوف تكون عضواً في البرلمان».

لم تقم الصحيفتان المحليتان بتغطية جيدة لعضو البرلمان الحالي في اليوم التالي. فبالكاد أتت على ذكر خطاب جايلز، ومجرد صورة كبيرة لفيرجينيا على الصفحة الأولى، تُظهر جمالها مع نسخة من رسالتها إلى فيشر مطبوعة تحتها.

قال غريف: «لا تقلب الصفحة».

قام جايلز بقلبها على الفور ليجد أن آخر استطلاعات الرأي، تشير إلى أن المحافظين سوف يزدون من أغليبيتهم البرلمانية بواقع ثلاثة وعشرين مقعداً. كما أصبح ترتيب بريستول دوكلاند الثامنة على لائحة حزب العمال ومن المرجح جداً سقوطها لصالح المحافظين.

ما إن أنهى جايلز قراءة المقالة، قال غريف: «ليس بإمكان أي عضو حالي فعل الكثير عندما ينقلب المد الوطني ضد حزبه، أظن أن العضو الجيد يستحق ألف صوت إضافي، كما يمكن للمرشح الخصم أن يخسر ألفاً، لكن بصراحة، لست واثقاً حتى من أن ألفي صوت إضافية سوف يكونان كافيين. لكن ذلك لن يوقفنا عن النضال من أجل أي صوت حتى الساعة التاسعة من ليلة الخميس. لذا تأكد من أنك لن تخذل رفاقك أبداً. أريد منك أن تخرج للشوارع وتصافح أي شيء يتحرك. ما عدا أليكس فيشر. وإذا صادفت ذلك الرجل، فأنا أعطيك الإذن بأن تخنقه».

«هل تمكنت من إعادة شراء أي من أسهم بارينغتون؟».

«أخشى أنني لم أفعل أيها الرائد. فهي لم تهبط عن حدود أربع جنيهات وثلاثة شيلينجات».

«إذاً فقد فقدت مكاني في مجلس الإدارة».

أجاب بيني: «أعتقد أنك ستكتشف بأن ذلك كان دائماً جزءاً من خطة بارينغتون». مكتبة الرمحي أحمد

«ما الذي تعنيه؟».

«لقد كان ساندي ماكبرايد هو من اشترى أسهمك في اللحظة التي عُرضت في السوق، وهو الشاري الرئيس خلال فترة الواحد والعشرين يوماً الماضية. فالجميع يعرف أنه سمسار شركة بارينغتون».

«السافل».

«من الواضح أنهم عرفوا بتحركاتك أيها الرائد. لكن ليست كل الأخبار سيئة، لأن الليدي فيرجينيا ربحت أكثر من سبعين ألف جنيه من خلال استثمارها الأصلي، ولذا أعتقد أنها تدين لك بواحدة».

لم يكن بإمكان جايلز أن يعمل بجد أكثر مما فعل خلال الأسبوع الأخير من الحملة الانتخابية، حتى لو أنه في بعض الأوقات بدا مثل سيزيف وهو يدفع بصخرته إلى أعلى التلة.

عندما عاد إلى مقر حملته الانتخابية في أمسية الاقتراع، كانت المرة الأولى التي يرى فيها غريف مكتئباً: «لقد تم إسقاط عشرة آلاف من هذه في صناديق البريد وسط الدائرة الانتخابية في الليلة الماضية، تحسباً لكي لا ينساها أحد».

نظر جايلز إلى نسخة الصفحة الأولى لصحيفة بريستول إيفنينغ بوست التي تحمل صورة فيرجينيا فوق رسالتها إلى فيشر. وتحتها هناك كلمات تقول: إذا أردت أن تُمثل في البرلمان من قبل رجل شريف ونزيه، صوت لـ فيشر.

قال غريف: «إن ذلك الرجل قدر»، ثم أضاف عندما دخل واحد من أوائل المتطوعين وهو يحمل الصحف الصباحية: «وقد رمي فوق رؤوسنا من مكان عال».

غاص جايلز في كرسيه وأغمض عينيه. لكن بعد مرور لحظة كاد يقسم إنه سمع غريف يضحك. لقد كان يضحك. فتح عينه، فمرر له غريف نسخة من صحيفة الديلي ميل وقال: «سوف يكون الوضع متقارباً يا بني، لكن على الأقل عدنا إلى المنافسة».

لم يتعرف جايلز فوراً إلى الفتاة الجميلة في الصفحة الأولى، التي اختيرت لتوها كنجمة لبرنامج ذا بيني هيل شو. لقد أخبرت جيني مراسل الأعمال الفنية عن العمل الذي قامت به قبل أن تحظى بفرصتها الكبيرة.

«لقد دُفع لي عشرة جنيهات في اليوم كي أرافق مرشح حزب المحافظين في جولة ضمن دائرته الانتخابية، وأُخبر الجميع أنني كنتُ صديقه.»

لم يعتقد جايلز أن هذه صورة جيدة جداً لـ فيشر.

أطلق فيشر شتيمة بصوت عالٍ عندما رأى الصفحة الأولى لصحيفة الديلي ميل.

ابتلع فنجان قهوته الثالث ونهض ليذهب إلى مقر حملته الانتخابية، عندما سمع وقع صحيفة الصباح وهي تسقط على ممسحة الأرجل. كان على كل الرسائل الانتظار إلى الليل، وكاد يتجاهلها لو أنه لم يلاحظ رسالة تحمل شعار شركة بارينغتون. انحنى للأسفل والتقطها ثم عاد إلى المطبخ. فتحها وأخرج شيكين، واحد لأجله بمبلغ 1000 جنيه، سداد ربع سنوي كمدير إدارة في شركة بارينغتون، والثاني بمبلغ 7,341 جنيهاً كأرباح سنوية لليدي فيرجينيا، وهو أيضاً مُجير إلى «الرائد أليكسندر فيشر» كي لا يعرف أحد أنها نسبة السبعة والنصف من أسهمها التي مكنته من أن يكون في مجلس الإدارة. ليس بعد الآن.

عندما عاد في تلك الأمسية، جير شيكاً بالمبلغ نفسه وأرسله إلى الليدي فيرجينيا. تفحص ساعته متسائلاً إذا كان الوقت مبكراً جداً ليتصل بها. أشارت الساعة إلى الثامنة وبضع دقائق، ومن المفروض أن يكون واقفاً خارج تيمبل ميدز ليجتمع بالناخبين وهم يخرجون من المحطة في

طريقهم إلى عملهم. من المؤكد أنها استيقظت في هذا الوقت. فرفع
السماعة واتصل برقم كينسينغتون.

رن الهاتف عدة مرات قبل أن يرد صوت ناعس. كان على وشك
إنهاء المكالمة، سألت فيرجينيا بلهجة أمرّة: «من هناك؟».

«أنا أليكس فيشر. فكرتُ أن أتصل بكِ كي تعرفي أنني قمتُ ببيع كل
أسهمك في شركة بارينغتون، وأنتِ حققتِ أرباحاً تفوق السبعين ألفاً». انتظر لسماع كلمة شكراً لك، لكنه لم يتلقَ أي شيء من هذا، فسألها:
«أتساءل إذا كنتِ تودين إعادة شراء أسهمكِ؟ ففي النهاية، لقد حققتِ
أرباحاً طائلة منذ أن كنتِ في مجلس الإدارة».

«لن أخسر كثيراً من النوم بسبب ذلك أيها الرائد».

«لكنني تساءلتُ أنه نظراً للظروف...».

«أية ظروف؟».

قال وهو ينظر إلى الشيك الذي قيمته 7341 جنيهاً: «إذا كان ربما
من المناسب أن تفكري بمكافأة صغيرة».

«صغيرة بمقدار كم؟».

«ربما بمقدار خمسة آلاف جنيه؟».

«سوف أفكر بالأمر». عمّ الصمت، فظن فيشر أن الهاتف أغلق في
وجهه. وأخيراً، قالت فيرجينيا: «لقد فكرتُ بالأمر قليلاً أيها الرائد، وقررتُ
عدم الموافقة».

قال محاولاً عدم الظهور بشكل يائس: «إذاً ربما تعطيني قرضاً...».

«ألم تخبرك مربيتك أن لا تكون معيراً ولا مستعيراً؟ كلا، بالطبع، لم تفعل، لأنه لم يكن لديك مربية».

التفتت فيرجينيا وطرقت ثلاث مرات على هيكل السرير الخشبي.
«آه، لقد وصلت الخادمة لتوها وجلبت لي فطوري أيها الرائد، لذا أنا مضطرة لأن أقول لك وداعاً. وعندما أقول وداعاً، أعني وداعاً».
سمع فيشر صوت إغلاق الهاتف. فنظر إلى الشيك المُجير باسمه بقيمة 7341 جنيهاً وتذكر كلمات بيني: إنها تدين لك بواحدة.

كان جايلز مستيقظاً عند الساعة الخامسة من صباح يوم الانتخابات، وليس لأنه لم يستطع النوم فحسب.

عندما نزل إلى الطابق السفلي، فتح دينبي باب غرفة الفطور وقال: «صباح الخير أيها السيد جايلز»، وكأن هناك انتخابات عامة في كل صباح.

دخل جايلز غرفة الطعام، وتناول وعاءً وملاًه برقائق الذرة والفواكه. كان يراجع جدول أعماله في النهار عندما فُتح الباب ودخل سيباستيان مرتدياً سترةً زرقاء جميلة وقميصاً رمادياً.

«سيب. متى عدت؟».

«في وقت متأخر من الليلة الماضية يا خالي جايلز. فقد أعطت معظم المدارس يوم إجازة بسبب استخدامها كمراكز اقتراع، لذا تساءلتُ إذا كان بإمكانني المجيء إلى المنزل وتقديم العون لك».

سأل جايلز بينما وضع دينبي طبقاً من البيض واللحم المقدد أمامه: «ما الذي تود فعله؟».

«أي شيء باستطاعتي فعله لمساعدتك على الفوز».

«إذا كان هذا ما تود فعله، اصغ لي باهتمام. لدى الحزب ثماني غرف للجان في يوم الانتخابات موزعة عبر الدائرة الانتخابية. وجميعها تُقاد من قبل متطوعين، بعضهم لديه خبرة في عشرة انتخابات. وجميعهم

لديهم معطيات محدثة عن استطلاعات الرأي من المقاطعات المسؤولين عنها. كما يوجد هناك علامة لكل شارع وطريق وجادة وزقاق يظهر أين يعيش أنصارنا. ولدينا أيضاً متطوع يجلس خارج كل مركز اقتراع، يتفحص أسماء الناس الذين أدلوا بأصواتهم. كما أن أكبر مشاكلنا هي في إعادة لائحة الأسماء تلك إلى غرفة اللجنة، كي يتسنى لنا متابعة أنصارنا الذين لم يصوتوا بعد، ونتأكد من إيصالهم إلى مراكز الاقتراع قبل إغلاقها في الساعة التاسعة هذه الليلة. هناك قاعدة عامة»، أضاف جايلز بينما دخلت إيما وهاري إلى الغرفة: «وهي أن معظم جماعتنا يصوتون بين الساعة الثامنة والعاشر صباحاً، بعد وقت قليل من بدء التصويت، في حين أن المحافظين يبدؤون بالظهور عند الساعة العاشرة، ويستمررون بالتوافد حتى الرابعة من بعد الظهر. لكن بعد ذلك الوقت، عندما يعود الناخبون إلى المنزل بعد العمل، ذلك هو الوقت الأكثر أهمية بالنسبة إلينا، لأنهم في حال لم يصوتوا وهم في طريقهم إلى المنزل، فمن المستحيل تقريباً جعلهم يخرجون مرة أخرى».

سأل جايلز: «ما الذي طلب غريف فعله منكما اليوم؟».

قالت إيما: «سأكون متواجدة في غرفة اللجنة».

قال هاري: «وأنا سأدق أبواب الناخبين الذين علمناهم بالقلم الأحمر، وإذا كانوا بحاجة لتوصيلة، سأقلهم إلى مركز الاقتراع».

قال جايلز: «لا تنس، لأن آخر مرة ركب بعضهم بالسيارة ربما كانت منذ الانتخابات الأخيرة، ما لم يكن هناك زفاف أو جنازة في عائلتهم خلال السنين الأربع الماضية». ثم سأل إيما: «في أي غرفة لجنة وضعك غريف؟».

«سأساعد الأنسة باريش في مقاطعة وودباين».

قال جايلز: «يجب أن تشعري بالإطراء، فالآنسة باريش أسطورة. والرجال الناضجون يخافون على حياتهم إذا نسوا أن يصوتوا. بالمناسبة، لقد تطوع سيب ليكون واحداً من مراسليكم. ولقد شرحتُ له للتو مهامه».

ابتسمت إيما في وجه ابنها.

«أنا ذاهب». قال جايلز وهو يقفز من مكانه، لكن ليس قبل أن يضع قطعتين من اللحم المقدد بين شطيرتين من الخبز البني. أدركت إيما أن إليزابيث فقط هي من وبخته، وربما ليس هي فقط في يوم الانتخابات.

قال وهو يمشي: «سأزور كل غرفة لجنة في وقت ما خلال اليوم، لذا سأراكم لاحقاً».

كان دينبي في انتظاره خارج باب المنزل.

«آسف لإزعاجك يا سيدي، لكن آمل أن يكون من اللائق أن يأخذ طاقم المنزل إجازة لمدة نصف ساعة بين الرابعة والرابعة والنصف من هذا اليوم».

«هل هناك من سبب معين؟».

«من أجل أن يدلوا بأصواتهم يا سيدي».

بدا جايلز محرجاً، فهمس قائلاً: «كم عدد الأصوات؟».

«سته لصالحك يا سيدي، وواحد متردد». رفع جايلز حاجبه.
«البستاني الجديد يا سيدي، لديه أفكار أعلى من مستواه، وهو يظن أنه
يؤيد المحافظين».

أجاب جايلز وهو يخرج من باب المنزل: «إذاً دعنا نأمل بأني لن
أخسر بفارق صوت واحد».

كانت جيسيكا تقف في الممشى وهي تُمسك بباب سيارته، كما تفعل
في كل صباح. فسألته: «هل بإمكانك مرافقتك يا خالي جايلز؟».

«ليس هذه المرة. لكنني أعدك أنك ستكونين إلى جانبي في الانتخابات
المقبلة. وسأقول للجميع إنك صديقتي، وعندها سأفوز بشكل ساحق».

«أليس هناك من شيء أستطيع القيام به لأساعدك؟».

«كلا... نعم. هل تعرفين البستاني الجديد؟».

«ألبرت؟ نعم، إنه لطيف جداً».

«إنه يفكر بالتصويت لصالح المحافظين. حاولي إقناعه بتغيير رأيه
بحلول الساعة الرابعة من هذا اليوم».

أجابت جيسيكا بينما جلس جايلز خلف مقود السيارة: «سأفعل،
سأفعل».

ركن جايلز سيارته خارج مدخل المرفأ تماماً قبل الساعة السابعة
صباحاً. صافح جميع الرجال الذين لم يبدووا وردية عملهم الصباحية
بعد، والذين أنهموا ورديتهم الليلية. لقد تفاجأ كم أن كثيراً منهم أرادوا
التحدث إليه.

«لن أخذك أيها الرئيس هذه المرة».

«بإمكانك الاعتماد عليّ».

«أنا في طريقي إلى مكان الاقتراع مباشرة».

عندما خرج رئيس عمال وردية العمل الليلية، دايف كولمان، أخذه جايلز جانباً وسأله إذا كان يعرف سبب حماسة الرجال.

أجاب كولمان المعروف بصراحته: «يعتقد الكثير منهم أنه حان الوقت كي تحل مشاكلك الزوجية، لكنهم يفتنون الرائد فيشر المتخاطر للغاية، وهم بالتأكيد لا يرغبون بأن يكون ممثلاً لمظالمنا في البرلمان»، ثم أضاف: «على المستوى الشخصي، كنتُ سأحترم الرائد فيشر أكثر لو أن لديه الشجاعة ليُري وجهه في المرآة. هناك بعض المحافظين في الاتحاد، لكنه لم يزعج نفسه حتى ليتعرف إليهم».

لقد تأثر جايلز بالإجابة التي تلقاها عندما زار مصنع W. D & H. O Willis للسيجار، ومرة أخرى عندما ذهب للقاء العمال في شركة بريستول للطائرات. لكنه أدرك في يوم الانتخابات العامة، أن كل مرشح مقتنع بأنه سيفوز، حتى الليبراليين.

دخل جايلز إلى أول غرفة لجنة في الساعة العاشرة وبضع دقائق. فأخبره الرئيس المحلي أن اثنين وعشرين بالمئة من أنصارهم المعروفين صوتوا مسبقاً، وهذا يتطابق مع انتخابات عام 1951، عندما فاز جايلز بفارق 414 صوتاً.

سأل جايلز: «ماذا بشأن المحافظين؟».

«ستة عشر بالمئة».

«كيف هذا بالمقارنة مع انتخابات عام 51؟».

قال رئيس اللجنة: «لقد ازدادوا بواقع واحد بالمئة».

بحلول الوقت الذي وصل فيه جايلز إلى غرفة اللجنة الثامنة، كانت الساعة تخطت الرابعة بقليل. كانت الأنسة باريش تنتظره بجانب الباب، وفي إحدى يديها طبق جبنة وبندورة وفي الأخرى كوب كبير من الحليب. الأنسة باريش هي واحدة من قلائل في مقاطعة وودباين يملكون براداً.

سأل جايلز: «كيف هي الأحوال؟».

«الحمد لله، أنها أمطرت بين الساعة العاشرة والرابعة، لكن الشمس سطعت الآن. بدأت أؤمن أن السماء ربما تكون اشتراكية. لكن لا يزال لدينا الكثير من العمل لننجزه في حال أردنا تعويض ما خسرناه خلال الساعات الخمس الماضية».

«أنتِ لم تخطئي أبداً في توقع الانتخابات يا آيريس. ما هي توقعاتك؟».

«تريد الحقيقة؟».

«الحقيقة».

«النتائج متقاربة جداً».

«إذاً دعينا نعود للعمل». بدأ جايلز بالتحرك ضمن الغرفة وهو يشكر الجميع على مساعدتهم.

قالت الأنسة باريش: «عائلتك تشكل ورقة رابحة، إذا تذكرنا أنهم من المحافظين».

«بإمكان إيما أن تفعل أي شيء تريده».

قالت الأنسة باريش بينما كان جايلز يراقب أخته وهي تنقل الأرقام من أحد مراكز الاقتراع إلى ورقة استطلاع الرأي: «إنها جيدة، لكن سيباستيان الشاب هو النجم اللامع. لو أن لدينا عشرة منه، لن نخسر أبداً».

ابتسم جايلز وقال: «إذاً أين الشاب الآن؟».

«إيما في طريقه إلى أحد مراكز الاقتراع، أو في طريق العودة، فهو لا يؤمن بالبقاء ساكناً».

في الحقيقة، كان سيباستيان ساكناً، ينتظر أحد أمناء الصناديق لتسليمه آخر قائمة أسماء كي يعيدها إلى الأنسة باريش التي استمرت بمده بحليب الشوكولا من ماركة تايزر وفراي، رغم نظرة عدم الموافقة العرضية التي تبديها أمه.

قال أمين الصندوق لأحد أصدقائه الذي صوت لتوه: «المشكلة هي أن عائلة ميلر التي تقطن هناك في المنزل رقم واحد وعشرين، جميع أفرادهم البالغ عددهم ستة، لا يتكبدون حتى عناء عبور الطريق، رغم حقيقة أنهم لا يتوقفون عن الشكوى من هذه الحكومة المحافظة. ولذا في حال خسرتنا بفارق نصف دزينة، سنعرف على من يقع اللوم».

قال الصديق: «لم لا تجعل الأنسة باريش تذهب إليهم؟ كنتُ سأفعل ذلك بنفسي، لكنني لا أستطيع ترك مكاني». التفت سيباستيان ووجد نفسه يعبر الطريق.

توقف خارج المنزل ذي الرقم 21، لكنه استغرق بعض الوقت ليستجمع شجاعته ويطرق الباب. كاد أن يهرب عندما رأى حجم الرجل الذي فتح الباب.

صرخ الرجل: «ماذا تريد أيها الصبي؟».

أجاب سيباستيان بأفضل ما في جعبته من لكنة المدرسة العامة: «أنا أمثل الرائد فيشر، مرشح حزب المحافظين، وكان يُفضل لو أنك تدعمه اليوم، بما أن استطلاعات الرأي تُظهر أنه من المرجح أن تكون النتائج متقاربة».

قال السيد ميلر وهو يغلق الباب بقوة في وجهه: «اغرب من هنا قبل أن أصفحك على خدك».

ركض سيباستيان عبر الطريق وما أن أخذ آخر الأرقام من أمين الصندوق، رأى الباب ذي الرقم 21 يُفتح، ليظهر السيد ميلر مرة أخرى وهو يقود خمسة من أفراد عائلته عبر الطريق. فأضاف سيباستيان عائلة ميلر إلى معطيات استطلاعه قبل أن يركض عائداً إلى غرفة اللجنة.

عاد جايلز إلى المرفأ بحدود الساعة السادسة، كي يلتقي بوردية العمال النهارية وهم يخرجون بينما يدخل عمال الوردية الليلية.

قال أحدهم: «هل كنتَ تقف هناك طوال اليوم أيها الرئيس؟».

أجاب جايلز وهو يصافح يداً أخرى: «يبدو كذلك».

التفتَ واحد أو اثنان منهم عندما رأوه يقف هناك وتوجهوا بسرعة نحو مركز الاقتراع المجاور، بينما بدا جميع أولئك الخارجين يذهبون باتجاه واحد، ولم يكونوا متوجهين إلى أقرب حانة.

في الساعة السادسة والنصف مساءً، بعد أن ذهب كل عمال المرفأ إما إلى عملهم أو إلى منازلهم، قام جايلز بفعل ما قام به في عملي الانتخاب السابقتين وقفز على متن أول حافلة لعمال الميناء متوجهة نحو المدينة.

ما إن ركب فيها، صعد إلى الطابق العلوي وصافح عدة ركاب مدهوشين. وعندما انتهى من الطابق السفلي، قفز من الحافلة في الموقف التالي وصعد إلى حافلة أخرى تذهب في الاتجاه المعاكس. استمر في الصعود والنزول من الحافلات طوال الساعتين والنصف التاليتين، وبقي يصافح الناس إلى أن تجاوزت الساعة التاسعة بدقيقة واحدة.

نزل جايلز من الحافلة الأخيرة، وجلس وحيداً في الموقف. لم يكن هناك من شيء آخر يستطيع فعله كي يفوز بهذه الانتخابات.

سمع جايلز نغمة جرس تردد صداها من بعيد ونظر إلى ساعته: 9:30 مساءً، حان وقت التحرك. قرر أن ليس بإمكانه إيجاد حافلة أخرى، وبدأ بالمشي بشكل متباطئ نحو مركز المدينة، آملاً أن يسهم هواء المساء بتصفية ذهنه قبل فرز الأصوات.

في هذه الأثناء، سوف تبدأ الشرطة المحلية بجمع صناديق الاقتراع من جميع أنحاء الدائرة الانتخابية قبل تسليمها في مبنى البلدية، وهي عملية تستغرق أكثر من ساعة حتى تنتهي. وما إن تُسلم كل الصناديق، ويتم التحقق منها مرةً وأخرى، سوف يصدر أمين المجلس البلدي السيد

وينرايت الأمر بفض الأختام كي يبدأ فرز الأصوات. وفي حال أُعلنت النتيجة قبل الواحدة من ذلك الصباح، سوف يكون ذلك معجزة.

لم يكن مقدراً لسام وينرايت أن يحطم الرقم القياسي في السرعة في البر أو البحر. فسوف تُنقش على شاهدة قبره كلمات «ببطء، لكن بثقة». لقد تعامل جايلز مع أمين المجلس البلدي في أمور محلية خلال العقد الماضي ولا يزال لا يعرف أي حزب يدعم. كان يشك بأنه يصوت. ما يعرفه جايلز أن هذا سوف يكون آخر انتخاب لـ وينرايت، بما أنه سيتقاعد نهاية السنة. برأي جايلز، ستكون المدينة محظوظة جداً بإيجاد خلف جدير. ربما يخلف شخص ما وينرايت، لكن ليس بإمكان أحد الحلول مكانه، كما قال توماس جيفرسون عندما خَلَفَ بينجامين فرانكلين في منصب السفير الأميركي في فرنسا.

لوح واحد أو اثنان من المشاة بيده عندما كان جايلز يتابع طريقه إلى مبنى البلدية، بينما تجاهله آخرون بكل بساطة. بدأ يفكر بحياته، وماذا يمكن أن يفعل في حال لم يعد عضو برلمان عن بريستول دوكلاند. سوف يصبح في الخامسة والثلاثين من عمره بعد عدة أسابيع. حقاً، إنه ليس عمراً كبيراً، لكن منذ عودته إلى بريستول بعد نهاية الحرب مباشرة، قام بعمل واحد فقط، وبصراحة، لم يكن مؤهلاً للقيام بعمل آخر، إنها المشكلة الأزلية لأي عضو برلمان ليس لديه مقعد آمن.

عادت أفكاره إلى فيرجينيا، التي كان من الممكن أن تجعل حياته أكثر سهولة فقط، عبر توقيع ورقة قبل ستة أشهر خلت. لقد أدرك الآن أنه لم يكن جزءاً من خطتها. فقد كانت تتطلع دائماً إلى ما بعد الانتخابات من أجل أن تسبب له أكبر إحراج ممكن. لقد تأكد الآن أنها مسؤولة عن وضع فيشر في مجلس الإدارة لشركة بارينغتون، حتى إنه

تساءل إن كانت هي من غرست البذرة في عقل فيشر أن بإمكانه هزيمة جايلز والحلول مكانه كعضو في البرلمان.

ربما هي تجلس الآن في منزلها في لندن بانتظار صدور النتائج، رغم أنها في الحقيقة كانت مهتمة بمقعد واحد. هل كانت تستعد لغارة أخرى على أسهم الشركة كجزء من خطة طويلة الأمد من أجل إخضاع عائلة بارينغتون؟ لقد كان جايلز واثقاً أنها وجدت في روس بيوكانان وفي إيما نداءً لها.

كانت جريس هي من أعادته أخيراً إلى رشده بشأن فيرجينيا، وبفعلها ذلك، لم تذكر الموضوع مرة أخرى. كما يعود الفضل لها بتعريفه إلى غوينيث. لقد حرصت على المجيء إلى بريستول وتقديم العون له من أجل استعادة مقعده، لكنها أول من أدركت بأنها لو شوهدت تسعى معه في الطريق العام، فإن الشخص الوحيد الذي سوف يستفيد من ذلك هو فيشر.

كان جايلز يتحادث مع غوينيث عبر الهاتف في كامبريدج كل صباح قبل ذهابه إلى المكتب، لكن ليس عندما يعود في الليل، رغم طلبها منه إيقاظها، لأنه نادراً ما يعود للمنزل قبل منتصف الليل. وفي حال خسر هذه الليلة، سوف يقود سيارته إلى كامبريدج في الصباح كي يُفزي بهومومها. وفي حال فاز، سينضم إليها في فترة بعد الظهر ويتشارك الانتصار معها. ومهما كانت النتيجة، فهو لن يخسرها.

قال صوت عابر أعاده إلى العالم الواقعي: «حظاً طيباً أيها السيد جايلز، أنا واثق من أنك ستفوز». استعاد جايلز ابتسامته الواثقة، لكنه لم يكن متأكداً.

بإمكانه أن يرى الآن الكتلة الضخمة لمبنى البلدية تلوح أمامه.
سوف يكون المتطوعون الذين اختيروا للمساعدة في عملية فرز
الأصوات موجودين في المكان مسبقاً. ويُعتبر هذا مسؤولية عظيمة،
يتولاها في العادة مستشار محلي أو مسؤولون كبار من الحزب. سوف
تكون الآنسة باريش مسؤولة عن مدققي حزب العمال الستة، كما كانت
في الانتخابات الأربعة السابقة، وهو يعلم أنها دعت هاري وإيما
للانضمام إلى فريقها المختار. لقد أخبرت جايلز: «كنتُ سأطلب من
سيباستيان القدوم أيضاً، لكن عمره لا يسمح بذلك».

أجاب جايلز: «سيخيب أمله».

«لقد خاب، لكنني تدبرتُ له رخصة حضور، وبذلك يستطيع مراقبة
كل شيء يحصل من الشرفة».

«شكراً لك».

أجابت الآنسة باريش: «لا تشكرني، تمنيتُ لو أنه كان معي طوال
الحملة».

أخذ جايلز نفساً عميقاً وهو يصعد درج مبنى البلدية. لا ينبغي له
أن ينسى، مهما كانت النتيجة، شكر العديد من الناس الذين دعموه،
والتي مكافأتهم الوحيدة سوف تكون الفوز. لقد تذكر كلمات أولد جاك
بعد أن حقق مئة جولة في ملعب لوردز للكريكت: يمكن لأي شخص أن
يكون فائزاً جيداً. أما إمارة الرجل العظيم فهي كيف تتعامل مع الهزيمة.

كان غريف هاسكينز يجوب رواق مبنى البلدية بخطى واسعة جيئةً وذهاباً عندما رأى جايلز يمشي نحوه. تصافح الرجلان كما لو أنهما لم يريا بعضهما منذ أسابيع.

قال جايلز: «في حال فزتُ، أنت...».

أجاب غريف: «لا تكن عاطفياً معي، فلا يزال هناك عمل يجب أن نقوم به».

سارا معاً من خلال الباب المتأرجح نحو المسرح الرئيس ليجدا أن المئات من المقاعد التي كانت في العادة تملأ القاعة تم استبدالها بدزنتين من الطاولات على شكل منصة من صفيين، بكراسٍ خشبية على كلا الجانبين.

وقف سام وينرايت ويدها على وركيه ورجلاه متباعدتان في منتصف خشبة المسرح. أطلق صفرةً ليعلن البدء. فظهرت المقصات، وفُضت الأختام، ثم فُتحت صناديق الاقتراع وقُلبت رأساً على عقب ليخرج منها آلاف البطاقات الصغيرة، يحمل كل منها ثلاثة أسماء، ثم فُرشت على الطاولات أمام محصي الأصوات.

أول عمل لهم هو فرز البطاقات إلى ثلاث أكوام قبل بدء العد. ركز جانب من الطاولة على فيشر بينما عمل الآخر على بارينغتون. واستغرق البحث عن أصوات إيلسوورثي وقتاً أطول بقليل.

جال جايلز وغريف بعصبية في أرجاء القاعة، محاولين الاستكشاف من بين أكوام بطاقات الاقتراع إذا كان هناك فوز واضح لطرف أو لآخر. بعد إكمال جولة كاملة حول القاعة، كان من الواضح لهما أن لا أحد من الطرفين حظي بذلك الفوز الواضح. بدا جايلز متقدماً بشكل مريح إذا نظرت إلى كومة البطاقات التي جُمعت من صناديق مقاطعة وودباين، لكن بدا أيضاً أن فيشر هو الفائز بوضوح إذا ما تفحصت صناديق الاقتراع القادمة من جادة أركاديا. وبعد جولة أخرى، بقيا في حيرة. والشيء الوحيد الذي تمكنا من توقعه بنوع من التأكيد هو أن الليبراليين سوف يحصلون على المركز الثالث.

نظر جايلز إلى الأعلى عندما سمع تصفيقاً حاراً يأتي من الطرف الآخر للقاعة. فقد دخل فيشر لتوه مع نائبه وبعض الداعمين الأساسيين. تعرف جايلز إلى بعض منهم من أمسية المناظرة. ولم يستطع تجنب ملاحظة أن فيشر قد غير ملابسه وارتدى بذلة أنيقة بصفين من الأزرار، وهو يبدو سلفاً بكل تفاصيله كعضو برلمان. بعد تبادل الحديث مع واحد أو اثنين من فارزي الأصوات، بدأ أيضاً بالتجوال في أرجاء القاعة، وهو يحرص على عدم الاصطدام بـ بارينغتون.

استمر جايلز وغريف برفقة الأنسة باريش وهاري وإيما، بالمشي بهدوء بين الممرات، يراقبون باهتمام تكديس بطاقات الاقتراع بالعشرات، وعندها، ما إن يصبح عددها مئة، تُربط بأحزمة حمراء أو زرقاء أو صفراء، بحيث يمكن التعرف عليها بسهولة. وأخيراً تم صفها برزم من خمسمائة بطاقة، مثل جنود في استعراض.

أخذ كل واحد من مدققي الأصوات أحد الصفوف وتفحصوا كدسة العشرة بطاقات كي لا تكون تسعة أو أحد عشر، والأكثر أهمية، عدم كون

كدسة المئة، تساوي مئة وعشرة أو تسعين. وإذا ظنوا بوجود خطأ ما، يطلبون إعادة عد الرزمة بحضور السيد وينزايت أو واحد من نوابه. لقد حذرت الأنسة باريش فريقها بعدم الاستخفاف بالأمر.

بعد مرور ساعتين من العد، هز غريف كتفيه كجواب على سؤال جايلز الهامس عن كيفية الوضع. في مثل هذا الوقت من عام 1951، كان قادراً على إبلاغ جايلز أنه قد فاز، حتى لو بفارق عدة مئات من الأصوات. لكن ليس هذه الليلة.

وما إن وضع مُدققو الأصوات الرزم ذات الخمسمائة صوت بشكل مرتب في مكانها، رفعوا إحدى أيديهم كي يعرف أمين المجلس البلدي أنهم أنهوا المهمة وأنهم جاهزون لتأكيد نتائجهم. أخيراً، عندما رُفعت آخر يد، أطلق السيد وينزايت صفرةً حادة بصفارته وقال: «تحققوا الآن مرة أخرى من كل رزمة». ثم أضاف: «هلا تفضل المرشحون ونوابهم بالانضمام إلي على خشبة المسرح».

صعد جايلز وغريف الدرج أولاً، حيث فيشر وإيلسوورثي على بعد خطوة خلفهما. وفوق طاولة في وسط خشبة المسرح، حيث بإمكان الجميع رؤية ما يحدث بالضبط، كان هناك كومة صغيرة من بطاقات الاقتراع. عددها ليس أكثر من دزينة، كما قدر جايلز.

أعلن أمين المجلس البلدي: «أيها السادة، تلك هي بطاقات الاقتراع الملغاة. ينص القانون الانتخابي بأني أنا، وأنا وحدي، من يقرر في حال يجب إشراك أي منها في عد الأصوات النهائي. لكن، لديكم الحق بالاختلاف مع أي من أحكامي».

وقف وينرايت بجانب كومة الأصوات، وعدل نظارته وتفحص البطاقة العلوية. كان فيها علامة x على المربع الخاص بـ فيشر، لكن أيضاً هناك خربشة عليه بكلمات «اللهم احفظ الملكة».

قال فيشر قبل أن يتمكن وينرايت من الإدلاء برأيه: «من الواضح أن الصوت لي».

نظر أمين المجلس البلدي إلى جايلز، ومن ثم إلى إيلسوورثي، فأوما كلاهما بالموافقة، وهكذا وُضعت البطاقة على يمينه. وفي البطاقة التالية هناك إشارة صح وليس x على المربع الخاص بـ فيشر.

قال فيشر بإصرار: «من الواضح أنهم اعتزموا التصويت لي». ومرة أخرى أوما جايلز وإيلسوورثي برأسيهما.

وضع أمين المجلس البلدي البطاقة في كومة فيشر، ما أدى إلى ابتسام المرشح المحافظ، إلى حين رأى أن البطاقات الثلاثة التالية كان فيها إشارة صح على مربع بارينغتون.

وفي البطاقة التالية، تم شطب المرشحين الثلاثة واستبدلوا بعبارة صوتوا لصالح دان اليأس. فوافق جميعهم على أنها ملغاة. وفي البطاقة التالية كان هناك إشارة صح على اسم إيلسوورثي، وقُبلت على أنها صوت لصالح المرشح الليبرالي.

وكتب على البطاقة الثامنة أبطلوا عقوبة الإعدام، فانضمت إلى كومة البطاقات الملغاة من دون تعليق. والتاسعة فيها إشارة صح على مربع بارينغتون، فلم يكن لـ فيشر خيار سوى السماح بها، ما أعطى سبباً بواقع 2-4 لصالح جايلز مع بقاء بطاقتين فقط لتفحصهما. كان في

البطاقة التالية إشارة صح في مربع بارينغتون، مع كلمة أبدأ بجانب اسم فيشر.

قال فيشر: «يجب إلغاء هذه البطاقة».

قال أمين المجلس البلدي: «في هذه الحالة، سوف اضطر لمعاملة (اللهم احفظ الملكة) بالطريقة نفسها».

قال إيلسوورثي: «هذا أمر منطقي، من الأفضل استبعاد كليهما».

قال جايلز مدركاً أن هذا سوف يزيد السبق من 2-4 إلى 1-4: «أنا أوافق على ما قاله الرائد فيشر». بدا فيشر وكأنه يريد أن يعترض، لكنه لم يقل شيئاً.

نظر جميعهم إلى البطاقة الأخيرة. ابتسم وينرايت وقال وهو يضع الورقة التي عليها كلمات الاستقلال من أجل سكوتلاند في كومة البطاقات المملغة: «أظن أنه لم يحدث هذا معي طوال حياتي».

عندئذٍ تفحص وينرايت بطاقات الاقتراع مرة أخرى قبل أن يقول: «هذه أربعة أصوات لصالح بارينغتون مقابل صوت لصالح فيشر وصوت لصالح إيلسوورثي». كتب الرقم في دفتر ملاحظاته وأضاف: «شكراً لكم أيها السادة».

تمتم غريف إلى جايلز وهما يغادران خشبة المسرح وينضمآن إلى الأنسة باريش ومحصي الأصوات التابعين لها: «لنأمل أنه ليس الصوت الوحيد الذي فزت به هذه الليلة».

عاد أمين المجلس البلدي مرة أخرى إلى مقدمة خشبة المسرح وصفر مرة أخرى. فبدأ فريق نوابه على الفور بتدوين الأرقام النهائية من كل

طاولة، قبل أن يوصلوها إلى خشبة المسرح ويسلموها إلى أمين المجلس البلدي.

تفحص أمين المجلس البلدي كل رقم باهتمام قبل إدخال الأرقام في آلة حاسبة ضخمة. وما إن ضغط على زر الجمع للمرة الأخيرة، كتب الأرقام النهائية بجانب الأسماء الثلاثة، ونظر إليها بتمعن لبرهة من الوقت، ثم دعا المرشحين للانضمام إليه مرة أخرى فوق خشبة المسرح. عندئذٍ أخبرهم بالنتيجة ووافق على طلب جايلز.

اكفهر وجه الأنسة باريش عندما رأت فيشر يشير لأنصاره وإبهامه للأعلى، وأدركت أنهم خسروا. نظرت إلى الأعلى نحو الشرفة لتجد سيباستيان يلوح لها بحماس. فلوحت له، لكنها نظرت إلى الأسفل مرة أخرى عندما نقر السيد وينزايت على الميكروفون وقال:

«أعلن أنا، مسؤول مراقبة الانتخابات في دائرة بريستول دوكلاند الانتخابية، عن الأرقام النهائية للأصوات التي حصل عليها كل من المرشحين كما يلي: السيد جايلز بارينغتون، 18,714، والسيد ريجينالد إيلسوورثي، 3,472، والرائد أليكساندر فيشر، 18,908.»

اندلع هتاف وتصفيق حادين من أنصار فيشر. فانتظر وينزايت استعادة الهدوء قبل أن يضيف: «لقد طلب عضو البرلمان الحالي إعادة عد الأصوات، ولقد وافقت على طلبه. هلا تفضل أمين كل صندوق بإعادة تفحص أكوام بطاقاته بكل حرص، والتأكد من عدم وجود أي خطأ.»

بدأ مدققو الأصوات العد مرة وأخرى، لكل عشرة بطاقات، ومن ثم لكل مائة بطاقة، وأخيراً لكل خمسمائة بطاقة، قبل رفع أيديهم للإشارة بأنهم أنهوا المهمة للمرة الثانية.

نظر جايلز إلى الأعلى وهو يصلي بصمت، ليرى سياستيان يلوح بتلهف، لكن عندها قال غريف شيئاً شتت انتباهه.

قال غريف: «لا بد وأنت تفكر بخطابك، يجب أن تشكر أمين المجلس البلدي وأعوانه، وأعوانك، وفوق كل هذا، في حال فاز فيشر، يجب أن تظهر شهماً. ففي النهاية، سيكون هناك دائماً انتخابات أخرى». لم يكن جايلز واثقاً من خوضه لانتخابات أخرى. كان على وشك أن يقول ذلك، عندما اندفعت الأنسة باريش للانضمام إليهما.

قالت: «أسفة للمقاطعة، لكن يبدو أن سياستيان يحاول لفت انتباهك».

نظر جايلز وغريف إلى الشرفة حيث يتكئ سياستيان على الدرابزين، وكأنه تقريباً يرجو واحداً منهما للانضمام إليه.

قال غريف: «لم لا تصعدي إلى الأعلى لتري ما مشكلته».

صعدت الأنسة باريش السلام باتجاه الشرفة لتلتقي بـ سياستيان الذي ينتظر على الدرجة الأخيرة. أمسك بذراعها، وسحبها نحو الدرابزين وأشار إلى وسط القاعة قائلاً: «هل ترين الرجل الجالس في الصف الثالث الذي يرتدي قميصاً أخضر؟».

نظرت الأنسة باريش في الاتجاه الذي يشير إليه وقالت: «نعم، ماذا بشأنه؟».

«لقد كان يغش».

قالت الأنسة باريش وهي تتصنع الهدوء: «ما الذي يجعلك تقول ذلك؟».

«لقد بلغ عن خمسمائة صوت لصالح فيشر لواحد من نواب أمين المجلس البلدي».

قالت الأنسة باريش: «نعم هذا صحيح، فليده خمسة أكوام من ذات المائة أمامه».

أجاب سيباستيان: «أعلم ذلك، لكن واحدة من هذه الأكوام فيها بطاقة اقتراع لصالح فيشر في أعلاها، والتسعة والتسعون بطاقة التي تحتها هي لصالح خالي جايلز».

سألت الأنسة باريش: «هل أنت متأكد من ذلك؟ لأنه في حال طلب غريف من السيد وينرايت تفحص تلك الأصوات بشكل شخصي، وتبين أنك مخطئ...».

أجاب سيباستيان بشكل حاسم: «أنا متأكد من ذلك».

لاتزال الأنسة باريش غير واثقة، لكن ما إن عادت إلى الأسفل، أسرعت نحو جايلز، الذي حاول أن يبدو واثقاً بينما يتكلم مع إيما وغريف. فأخبرتهما بما ادعى به سيباستيان، فلم تُقابل سوى بتعابير عدم التصديق. نظر أربعتهم إلى الشرفة، ليروا سيباستيان يشير بتلهف إلى الرجل ذو القميص الأخضر.

قالت إيما: «أجد أنه من السهولة تصديق ما يوحى إليه سيباستيان».

سأل غريف: «لماذا؟ هل رأيت الرجل حقيقةً يضع بطاقة الاقتراع الخاصة بـ فيشر فوق واحدة من رزمننا؟».

«كلا، لكنني فعلاً رأيتُ الرجل في المناظرة يوم الخميس الفائت. كان هو الذي سأل عن سبب زيارة جايلز لكامبريدج أكثر من زيارته لبريستول خلال فترة البرلمان السابق».

نظر جايلز إلى الرجل بتمعن، بينما كانت الأيدي ترتفع أكثر فأكثر في أرجاء الغرفة للإشارة إلى أن إعادة العد على وشك الانتهاء. قال: «أظنك على حق».

غادرهم غريف من دون قول كلمة أخرى، وشق طريقة بسرعة نحو خشبة المسرح، حيث طلب التحدث على انفراد مع أمين المجلس البلدي.

ما إن سمع ما كان يدعيه الوكيل، نظر السيد وينرايت إلى الأعلى نحو سيباستيان، ثم حول نظره إلى مدقق الأصوات الذي يجلس في نهاية صف الطاولات الثالث.

قال وعيناه عادتا للنظر إلى سيباستيان: «ما يقوله هذا الطفل، ادعاء خطير جداً».

أجاب غريف: «إنه ليس طفل، إنه شاب. وأياً يكن الأمر، هذا طلب رسمي لك كي تقوم بإجراء فحص».

قال وينرايت بعد أن نظر مرة أخرى إلى مدقق الأصوات المعني: «إذاً سيكون الأمر على عاتقك». ومن دون كلمة أخرى، استدعى اثنين من أعوانه وقال من دون أي توضيح لهما: «اتبعاني».

نزل الرجال الثلاثة الدرج إلى أرض المسرح وتوجهوا مباشرةً إلى الطاولة في نهاية الصف الثالث، حيث جايلز وغريف على بعد خطوة منهم فقط. نظر أمين المجلس البلدي إلى الرجل الذي يرتدي القميص الأخضر، وقال: «أتساءل إذا بإمكانك السماح لي بأخذ مقعدك، بما أن نائب السيد جايلز طلب مني تفقد أرقامك بشكل شخصي».

نهض الرجل ببطء، ووقف بجانب الطاولة بينما جلس وينرايت على كرسيه وتفحص الأكوام الخمسة لأصوات فيشر على الطاولة أمامه.

أمسك بالرزمة الأولى، وأزال الرباط المطاطي الأصفر وتفحص بطاقة الاقتراع في الأعلى. لقد احتاج لنظرة خاطفة فقط ليتأكد من أن كل المئة صوت خُصصت بشكل صحيح لصالح فيشر. والكومة الثانية أعطت النتيجة ذاتها، وكذلك الثالثة، وفي ذلك الوقت كان سياستيان ينظر إلى الأسفل من فوق الشرفة، ولا يزال يبدو واثقاً.

عندما أزال وينرايت ورقة الاقتراع عن الرزمة الرابعة، ظهر له علامة x بجانب اسم فيشر. تفقد بقية الكومة ببطء وحرص، ليجد أن كل التسعة والتسعين قد صوتوا لصالح بارينغتون. وأخيراً تفقد الرزمة الخامسة، التي كانت كلها لصالح فيشر.

لم يلاحظ أحد بأن المرشح المحافظ كان قد انضم إلى المجموعة الصغيرة التي تحيط بالطاولة الأخيرة.

سأل فيشر: «هل هناك مشكلة؟».

أجاب أمين المجلس البلدي: «لا شيء ليس باستطاعتي التعامل معه»، ثم التفت إلى أحد معاونيه وقال: «اطلب من الشرطة مرافقة هذا السيد إلى خارج المبنى».

عندئذ تبادل حديثاً صغيراً مع سكرتيه، قبل أن يعود إلى خشبة المسرح ويأخذ مكانه وراء آلة الجمع. ومرة أخرى، أخذ وقته في إدخال كل رقم قدمه معاونوه. وبعد أن ضغط زر الجمع للمرة الأخيرة، أدخل الأرقام الجديدة بجانب اسم كل مرشح، وعندما شعر بالرضى أخيراً، طلب منهم جميعاً العودة إلى خشبة المسرح. وهذه المرة، بعد أن أخبرهم بالأرقام التي تمت مراجعتها، لم يطلب جايلز إعادة العد.

عاد وينرايت إلى ميكروفونه ليعلن عن نتائج العد الثاني للحضور. «... أعلن عدد الأصوات التي أدلي بها لصالح كل مرشح لتكون على النحو التالي:

السيد جايلز بارينغتون، 18,813، والسيد ريجينالد إيلسوورثي، 3,472، والرائد أليكساندر فيشر، 18,809».

وفي هذه المرة، كان أنصار حزب العمال هم من اندفع بالهتاف والتصفيق لعدة دقائق قبل أن يقدر وينرايت على إعلان طلب الرائد فيشر لإعادة عد الأصوات.

«هلا تفضل مدققو الأصوات بتفحص أرقامهم بعناية للمرة الثالثة، وإعلام أحد معاوني في الحال إذا كان هناك أي تغييرات ترغبون بالإبلاغ عنها».

عندما عاد أمين المجلس البلدي إلى طاولة مكتبه، وسلمه سكرتيه الكتاب المرجعي الذي طلبه. قلب عدة صفحات من كتاب قانون الانتخاب لـ ماكولي إلى أن وصل إلى فصل كان قد علم عليه في وقت سابق من فترة بعد الظهر تلك. بينما كان وينرايت يؤكد تفهمه لواجبات مسؤولي مراقبة الانتخابات، كان فريق التدقيق التابع لـ فيشر، يتحركون

جيئة وذهاباً في الممرات مطالبين بإظهار بطاقة الاقتراع الثانية لكل رزمة من رزم بارينغتون.

وبالرغم من هذا، بعد مرور أربعين دقيقة، كان وينرايت قادراً على الإعلان بأنه لم يكن هناك من تغيير لنتائج العد الثاني. فطلب فيشر على الفور تعداداً آخر. قال وينرايت: «لستُ مستعداً للموافقة على ذلك الطلب»، ثم أضاف مقتبساً كلام ماكولي بالضبط: «لقد كانت الأرقام متسقة خلال الأحداث الثلاثة الماضية المنفصلة».

زعم فيشر قائلاً: «لكن بشكل صارخ، ليس هذه هي الحالة الآن، فقد اتسقت لمرتين فقط. سوف تذكر بأني ربحت في الأولى دون عناء على الإطلاق».

كرر وينرايت قائلاً: «لقد اتسقت لثلاث مرات، إذا تذكرنا الخطأ المشؤوم الذي ارتكبه زميلك في الفرز الأول».

أجاب فيشر: «زميلي؟ هذا افتراء مشين لي. فأنا لم أر الرجل من قبل طيلة حياتي. وإذا لم تسحب هذا البيان وتسمح بإعادة العد، فلا خيار لي سوى استشارة محامي في الصباح».

قال وينرايت: «هذا سوف يكون مؤسفاً للغاية، لأني لا أفضل رؤية عضو المجلس بيتر مينارد في منصة الشهود وهو يحاول شرح كيف أنه لم يصادف رئيس رابطة حزبه المحلي، الذي يصدف أيضاً أنه مرشحه البرلماني المحتمل».

احمر وجه فيشر وغادر خشبة المسرح.

نهض السيد وينرايت من مكانه ومشى ببطء نحو مقدمة خشبة المسرح، ونقر على الميكروفون للمرة الأخيرة. تنحنح وقال: «أعلن بصفتي مسؤول الانتخابات في دائرة بريستول دوكلاند الانتخابية عن الأرقام النهائية للأصوات المُدلى بها لكل مرشح كما يلي:

السيد جايلز بارينغتون، 18,813

السيد ريجينالد إيلسوورثي، 3,472

الرائد إيكساندر فيشر، 18,809.

«ولذلك أعلن أن السيد جايلز بارينغتون هو عضو البرلمان المُنتخب حسب الأصول عن دائرة بريستول دوكلاند الانتخابية».

نظر عضو البرلمان عن بريستول دوكلاندز إلى الأعلى نحو الشرفة وأحنى رأسه لسيباستيان كليفتون.

سياستيان كليفتون

1957-1955

صرخ غريف الذي كان يتأرجح بجانب طاولة في وسط الغرفة وييده كأس شمبانيا وبالأخرى سيجارة: «ارفعوا كؤوسكم للرجل الذي جعلنا نفوز بالانتخابات!».«

صرخ الجميع وهم يضحكون ويصفقون: «نخب سيباستيان!».«

سأل غريف وهو يتعثر في المشي كي ينضم إلى سيباستيان: «هل شربت شمبانيا من قبل؟».«

أجاب سيباستيان: «مرة واحدة فقط، عندما احتفل صديقي برونو بعيد ميلاده الخامس عشر، فقد أخذنا والده لتناول العشاء في حانة محلية. ولذا أظن أن هذه هي كأسى الثانية».«

قال غريف: «خذ هذه النصيحة مني، لا تتعود عليه. فهو رحيق الأغنياء»، ثم أضاف وهو يضع ذراعه حوله: «نحن أبناء الطبقة العاملة، نتوقع الحصول على كأسين منها في السنة فقط، وعلى حساب شخص آخر».«

«لكني أعتزم أن أكون غنياً».«

قال غريف وهو يملأ كأسه مرة أخرى: «لم أنا لست متفاجئاً؟ في هذه الحالة، يجب أن تصبح اشتراكياً يحبذ الشمبانيا، ويعلم الله أنه لدينا ما يكفي منهم في حزبنا».«

قال سيباستيان بحسم: «أنا لستُ في حزبكم، أنا أويد المحافظين في كل المقاعد الأخرى سوى المقعد الذي يشغله خالي جايلز».

قال غريف في الوقت الذي جاء العضو المُنتخب حديثاً للانضمام إليهما: «إذاً ينبغي عليك أن تأتي للعيش في بريستول».

قال جايلز: «ليس هناك احتمال كبير لحدوث ذلك، فقد أخبرني والداه أنهما يأملان بحصوله على منحة دراسية في كامبريدج».

«حسناً، إذا كان سيعيش في كامبريدج بدلاً من بريستول، ربما سوف ينتهي الأمر بك لترى خالك أكثر مما نراه».

قال جايلز: «لقد شربت كثيراً».

أجاب غريف وهو يضع كأسه على الطاولة: «ليس أكثر مما كنتُ سأشرب لو خسرتنا».

«وحاول ألا تنسى أن المحافظين اللعينين قد زادوا أغلبيتهم في مجلس العموم».

«يجب أن نعود للمنزل يا سيب، في حال توجب ذهابك للمدرسة غداً بشكل لائق. يعلم الله كم عدد القواعد التي خرقتها خلال الساعات القليلة الماضية».

«هل بإمكانني تمني ليلة سعيدة للآنسة باريش قبل أن أذهب؟».

«نعم بالطبع، لم لا تفعل ذلك بينما أذهب لدفع فاتورة المشاريب. المشاريب على حسابي، بما أن الانتخابات انتهت الآن».

شق سيباستيان طريقه وسط مجموعات من المتطوعين، بعضهم كان يتمايل مثل أغصان في مهب الريح، بينما آخرون، يضعون رؤوسهم على أقرب طاولة وقد فقدوا وعيهم، أو أنهم ببساطة، غير قادرين على الإتيان بحركة. وجد الأنسة باريش جالسة على طاولة في الجانب البعيد للغرفة وبصحبتها زجاجتا شمبانيا فارغتان. وعندما وصل إليها في نهاية المطاف، لم يكن واثقاً من أنها تعرفت إليه.

«آنسة باريش، أريد أن أشكرِكَ على سماحكِ لي بأن أكون في فريقك. لقد تعلمتُ الكثير منك. أتمنى فقط لو أنكِ واحدة من أساتذتي.»

قال الأنسة باريش: «هذا إطراء بحق يا سيباستيان، لكن أخشى أنني وُلدتُ في القرن الخطأ. سوف يمر وقت طويل قبل أن تحظى امرأة بفرصة التعليم في مدرسة فتیان مستقلة». حملت نفسها على الوقوف وعانقته بشدة ثم قالت: «حظاً طيباً يا سيباستيان، آمل أنك ستحصل على منحة كامبريدج تلك.»

سأل سيباستيان جايلز في طريق عودتهما إلى منزل المزرعة: «ما الذي قصدته الأنسة باريش بقولها إنها وُلدت في القرن الخطأ؟»

أجاب جايلز: «ببساطة، إن النساء في جيلها لم يُعطوا الفرصة لإيجاد وظيفة مناسبة. لربما أصبحت معلمةً رائعة، واستفاد مئات الأطفال من حكمتها ورجاحة عقلها. الحقيقة هي أننا فقدنا جيلين من الرجال في الحربين العالميتين، وجيلين من النساء اللواتي لم يُعطين فرصة للحلول مكانهم.»

«هذا كلام جميل يا خالي جايلز، لكن ما الذي سوف تفعله حيال هذا الأمر؟»

ضحك جايلز وقال: «كان بإمكانني القيام بعمل أكثر لو أننا فزنا بالانتخابات، لأنه وقتها ربما أصبحت وزيراً. والآن ينبغي لي أن أرضى بفترة أخرى في الصفوف الأمامية للمعارضة».

سأل سيباستيان: «هل ستعاني أُمي من المشكلة ذاتها؟ لأنها تصلح لتكون عضو برلمان جيد للغاية».

«كلا، رغم أنني لا أتخيل رغبتها بدخول المجلس. أخشى أنها لا تستطيع تحمل الناس الحمقى، وهذا جزء من مواصفات الوظيفة. لكن لدي شعور بأنها سوف تفاجئنا جميعاً في نهاية المطاف».

ركن جايلز السيارة خارج منزل المزرعة، وأطفأ المحرك ثم وضع إصبعاً على شفثيه وقال: «اصمت. لقد وعدتُ أمك أنني لن أوقظ جيسيكا».

مشيا على أطراف أصابعهما عبر الأرض المرصوفة بالحصى، ثم فتح جايلز باب المدخل بهدوء على أمل ألا يُصدر صريراً. كانا في وسط الصالون تقريباً عندما رآها جايلز، متكومة على كرسي وغارقة في النوم بجانب الموقد الذي تكاد ناره تنطفئ. فرفعها بلطف وحملها على السلام بين ذراعيه. ركض سيباستيان أمامه وفتح باب غرفة نومها ثم سحب البطانية بينما وضعها جايلز في الفراش. كان على وشك إغلاق الباب وراه عندما سمع صوتاً يقول: «هل فزنا يا خالي جايلز؟».

همس جايلز: «نعم لقد فزنا، بفارق أربعة أصوات».

قالت جيسيكا بعد تتأؤب طويل: «واحد منها كان لي، لأني طلبتُ من ألبرت التصويت لك».

قال سيباستيان: «إذاً هذا يستحق صوتين». لكن قبل أن يتمكن من توضيح السبب، غرقت جيسيكا في النوم مرة أخرى.

في الوقت الذي ظهر فيه جايلز على مائدة الفطور صباح اليوم التالي، ربما من الأفضل وصفه كفطور متأخر.

«صباح الخير، صباح الخير، صباح الخير»، قالها جايلز وهو يدور حول الطاولة. أخذ طبقاً من الخزانة الجانبية ثم رفع أغطية ثلاث صوانٍ فضية واختار أجزاءً كبيرة من البيض المخفوق، واللحم المقدد والفاصولياء المطبوخة، وكأنه لا يزال فتى في المدرسة. ثم جلس بين سيباستيان وجيسيكا.

قالت جيسيكا: «تقول أمي أنه ينبغي عليك تناول كوب من عصير البرتقال وبعض رقائق الذرة مع الحليب قبل تناول الأطباق الساخنة».

قال جايلز: «وهي محقة في ذلك، لكن هذا لن يمنعني من الجلوس بجانب صديقتي المفضلة».

قالت جيسيكا مما جعله يصمت بفعالية أكثر مما يستطيع إسكاته أي وزير محافظ على الإطلاق: «أنا لستُ صديقتك المفضلة، لقد أخبرتني أمي أن صديقتك المفضلة هي غوينيث»، ثم أضافت مقلدةً إيها التي انفجرت من الضحك: «يا للسياسيين!».

حاول جايلز الانتقال إلى جبهةٍ أكثر أماناً، فالتفت إلى سيباستيان وقال: «هل ستلعب في الفريق الأساسي لكرة القدم هذه السنة؟».

أجاب: «لن أَلعب إن كنا نريد الفوز بأي مباراة، يجب علي أن أقضي معظم وقتي في التأكد من نجاحي في ثمانية مناهج أساسية إذا كنتُ سأحظى بفرصةٍ للالتحاق بصف أعلى في السنة القادمة».

«هذا سيُسعد خالتك جريس».

قالت إيما وهي تنظر من فوق صحيفتها: «ناهيك عن أمه».

سأل جايلز وهو يحاول إخراج نفسه من المأزق: «ما هي المواد التي سوف تختارها إذا نجحت في الانتقال إلى الصف الأعلى؟».

«اللغات الحديثة، مع الرياضيات كمادة احتياطية».

«حسناً، إذا فزتَ بمنحة دراسية في كامبريدج فستتفوق على أبيك وعليّ معاً».

صححت إيما كلامه قائلةً: «على أبيك وعليّ».

ذكره سياستيان قائلاً: «لكن ليس أمي أو خالتي جريس».

قال جايلز الذي قرر أن يلزم الصمت ويركز على بريده الصباحي الذي جلبه مارسدن من قاعة بارينغتون: «صحيح». فتح مغلفاً أبيض طويلاً وأخرج منه صفحة واحدة كان ينتظرها منذ ستة أشهر. قرأ الوثيقة مرة أخرى، قبل أن يقفز بفرح في الهواء. فتوقف الجميع عن الأكل وحدقوا إليه، إلى أن سأل هاري أخيراً: «هل طلب منك الملك تأليف حكومة؟».

أجاب جايلز: «كلا، إنها أخبار أفضل بكثير من ذلك، لقد وقعت فيرجينيا أوراق طلاقها أخيراً. وأخيراً أصبحتُ رجلاً حراً!».

قالت إيما وهي تنظر من فوق صحيفة الدايلي إكسبريس: «يبدو أنها وقعتها في الوقت المناسب».

سأل جايلز: «ماذا تقصدين؟».

«هناك صورة لها في عمود ويليام هيكري هذا الصباح، ويبدو لي أنها حامل في الشهر السابع».

«هل تفصح المقالة عن الوالد؟».

«كلا، لكن دوق أريزو هو الرجل الذي يضع ذراعه عليها في الصورة». مررت إيما الصحيفة إلى أخيها وأضافت: «من الواضح أنه يريد للجميع أن يعرفوا أنه الرجل الأكثر سعادة في العالم».

قال جايلز: «ثاني أسعد رجل في العالم».

سألت جيسيكا: «هل هذا يعني أنني لن أضطر للتحدث مع الليدي فيرجينيا مرة أخرى؟».

أجاب جايلز: «نعم هذا صحيح».

قالت جيسيكا: «يا للروعة».

فتح جايلز مغلفاً آخر وأخرج منه شيكاً مقترناً باسم روس بيوكانان. وعندما دقق فيه، رفع فنجان قهوته نحو صورة جده، السيد والتر بارينغتون.

أومأت إيما برأسها عندما رفعه ليربها إياه، وقالت: «لقد تلقيت شيكاً أيضاً».

بعد لحظات، فُتِح الباب ودخل دينبي الغرفة.

«أسف لإزعاجك أيها السيد جايلز، لكن الدكتور هوجيز على الخط».

قال جايلز وهو يحمل بريده الصباحي متوجهاً نحو الباب: «كنتُ على وشك الاتصال بها».

قال هاري: «لم لا تتلقاه من غرفة مكثبي، وهكذا لن يزعجك أحد».

قال جايلز وهو يكاد يركض خارج الغرفة: «شكراً لك».

قال هاري: «ومن الأفضل أن نذهب يا سيباستيان، إن كنت ترغب في العودة في الوقت المحدد إلى المدرسة هذه الليلة».

سمح سيباستيان لأمه بإعطائه قبلة عابرة قبل أن يصعد إلى الطابق الثاني ليُحضر حقيبة ملابسه. وعندما عاد بعد عدة لحظات، كان دينبي يفتح باب المنزل له.

قال: «وداعاً أيها السيد سيباستيان، سنتشوق لرؤيتك مرة أخرى في العطلة الصيفية».

«شكراً لك يا دينبي»، قالها سيباستيان وهو ينطلق نحو السيارة، حيث وجد جيسيكا تقف بجانب الباب. فعانقها بشدة قبل أن يركب في المقعد الأمامي بجانب أبيه.

قالت جيسيكا: «تأكد من نجاحك في المناهج الأساسية الثمانية، كي أتمكن من إخبار أصدقائي كم هو ذكي أخي الكبير».

قد يكون مدير المدرسة هو أول من اعترف بأن الصبي الذي أخذ يومين إجازة كي يساعد خاله في الانتخابات العامة، ليس الشاب نفسه الذي عاد إلى دير بيتشكروفت بعد عدة أيام.

مشرف السكن في مدرسة سيباستيان، السيد ريتشاردز، وصف الأمر مثل عيد غطاس «القديس بول في الطريق إلى بريستول»، لأنه عندما عاد كليفتون لبدأ الدرس باجتهاد من أجل امتحانات نهاية الفصل الدراسي، لم يعد يرضى بالتجول بلا هدف أو الاعتماد على مواهبه الطبيعية فقط في اللغات والرياضيات التي أوصلته دائماً إلى خط النهاية في الماضي. فللمرة الأولى في حياته، بدأ بالدراسة بجد مثل أصدقائه الأقل موهبة، برونو مارتينيز وفيك كوفمان.

عندما نُشرت نتائج المناهج الأساسية في لوحة إعلانات المدرسة، لم يتفاجأ أحد أن ثلاثتهم سوف يبدوون السنة الأكاديمية الجديدة في الدرجة السادسة، رغم أن عدة أشخاص، ليس من ضمنهم خالته غريس، كانوا مدهوشين عندما دُعي سيباستيان للانضمام للمجموعة المُنتقاة التي اختيرت للاستعداد لجائزة المنحة الدراسية في كامبريدج.

لقد وافق مشرف السكن على أن بإمكان كليفتون، وكوفمان ومارتينيز التشارك بالدراسة خلال سنتهم النهائية، ورغم أن سيباستيان بدا أنه يدرس بجد مثل صديقيه، إلا أن السيد ريتشاردز أخبر مدير المدرسة أنه لا يزال قلقاً من أن الصبي ربما يعود في وقت ما إلى عاداته

القديمة. ربما أثبتت هذه الهواجس عدم صحتها لو لم تحدث أربع حوادث منفصلة سوف تحدد مستقبل سياستيان خلال السنة الأخيرة له في دير بيتشكروفت.

حصلت الحادثة الأولى في وقت مبكر من الفصل الدراسي الجديد، عندما دعا برونو سياستيان وفيك للانضمام له ولأبيه لعشاء في بيتشكروفت أرمز من أجل الاحتفال بالنجاح في الامتحانات. لقد قبل سياستيان بسعادة، وكان يتشوق كي يتعرف أكثر بمتع الشمبانيا عندما أُلغى الاحتفال في اللحظة الأخيرة. وضح برونو أن شيئاً ما طراً مما جعل والده يُغير مشاريعه.

قال فيك بعد أن غادر برونو كي يتمرن في الكورال: «من المرجح أنه غير رأيه».

سأل سياستيان: «إلام ترمي؟».

«أظن أنك سوف تجد أنه عندما اكتشف السيد مارتينيز أنني يهودي، وأن برونو لن يوافق على الاحتفال من دوني، أُلغى كل شيء».

«قد أفهم تماماً أنه أُلغى الاحتفال لأنك أحمق يا كوفمان، لكن من يهتم بكونك يهودياً؟».

أجاب فيك: «أناس أكثر بكثير مما تظن، ألا تذكر عندما دعاك برونو لحفل عيد ميلاده الخامس عشر؟ لقد وضح في ذلك الوقت أنه يُسمح له باستقبال ضيف واحد، ودوري سيأتي في الاحتفال التالي. نحن اليهود لا ننسى هذه الأشياء».

«لا أزال غير مصدق بأن السيد مارتينيز قد يلغي العشاء لا لسبب سوى أنك يهودي».

«بالتأكيد لن تستطيع يا سيب، لكن هذا فقط لأن والديك متحضران. فهما لا يحكمان على الناس من السرير الذي وُلدا فيه، ولقد نقلنا عدم التحيز هذا إليك، دون أن تدرك ذلك. لكن للأسف أنت لا تمثل الأكثرية، حتى في هذه المدرسة».

أراد سيباستيان أن يعترض، لكن كان لصديقه شيء أكثر يقوله عن الموضوع.

«أعلم أن بعض الناس يظنون أننا نحن اليهود مذعورون بسبب الهولوكوست، ومن يلومنا بعد هذه الحقائق التي لاتزال تتكشف عما حدث حقيقةً في معسكرات الاعتقال الألمانية تلك؟ لكن صدقني يا سيباستيان، فأنا أستطيع الإحساس بمعادة السامية عن بعد ثلاثين خطوة، وسوف تكون مسألة وقت فقط قبل أن تضطر أختك لمواجهة المشكلة ذاتها».

انفجر سيباستيان ضاحكاً وقال: «جيسكا ليست يهودية. ربما بوهيمية بعض الشيء، لكن ليست يهودية».

«أستطيع أن أوكد لك يا سيباستيان، رغم أنني قابلتها مرة واحدة فقط، أنها يهودية».

حصلت الحادثة الثانية خلال العطلة الصيفية، عندما انضم سيباستيان إلى والده في غرفة المكتب للاطلاع على تقرير نهاية العام

المدرسي. كان سيباستيان ينظر إلى مجموعة صور العائلة فوق مكتب هاري عندما لفت انتباهه صورة بعينها: صورة لأمه تشبك ذراعها بذراع والده وخاله على المرج الأخضر في مانور هاوس. لا بد وأن أمي كانت بحدود الثانية عشرة من العمر، وربما الثالثة عشرة في ذلك الوقت، بلباس المدرسة الأحمر. ظن سيباستيان للحظة أنها جيسيكا، فهما تتشابهان كثيراً. بالتأكيد لم يكن الأمر سوى خدعة ضوئية. لكن حينها تذكر زيارتهم للدكتور بارناردو، وكيف كشف والداه السر بسرعة عندما أصر بأن جيسيكا هي الفتاة الوحيدة التي قد يعتبرها أختاً له.

قال والده بعد أن قلب الصفحة الأخيرة لتقرير سيباستيان: «بشكل إجمالي، إنه تقرير مرضٍ جداً، وأنا آسف لأنك سوف تترك اللغة اللاتينية، لكنني واثق من أن المدير قد يكون لديه أسبابه لفعل ذلك. وأنا أتفق مع الدكتور بانكس وويليامز أنك إذا ما استمرت بالاجتهاد، فسوف يكون لديك فرصة جيدة للفوز بمنحة دراسية في كامبريدج». ابتسم هاري ثم أضاف: «بانكس وويليامز ليس رجلاً ميالاً للمبالغة، لكنه أخبرني أنه يقوم بتحضيرات لك من أجل زيارة كليته القديمة في وقت ما من الفصل الدراسي الثاني، لأنه يأمل أنك سوف تتبع خطاه في كلية بيترهاوس في كامبريدج، حيث كان باحثاً».

كان سيباستيان يحدق إلى الصورة، فسأله والده: «هل سمعت ما قلته لتوي؟».

أجاب سيب بهدوء: «أبي، ألا تظن أن الوقت قد حان كي تخبرني بالحقيقة بشأن جيسيكا؟». فحول نظره من الصورة إلى والده.

دفع هاري بالتقرير إلى جانب الطاولة وتردد للحظة ثم أسند ظهره على الكرسي وأخبر سيباستيان بكل شيء. ابتداءً بكيف أن جد سيباستيان مات بين يدي أولجا بيوتروفسكا، ثم انتقل إلى الفتاة الصغيرة التي وُجِدَت في سلة في مكتبه، وكيف أن إيما تتبعت أثرها إلى مأوى بارناردو في بريدجووتر. وعندما وصل إلى النهاية، كان لدى سيباستيان سؤال واحد.

«ومتى سوف تخبرها بالحقيقة؟».

«أنا أطرح على نفسي السؤال ذاته كل يوم».

«لكن لماذا انتظرت كل هذا الوقت يا أبي؟».

«لأنني لا أريد لها معاناة تجربة صديقك فيك كوفمان التي تخبرني إياها كل يوم».

قال سيباستيان: «سوف تعاني جيسكا أكثر في حال اكتشفت الحقيقة بنفسها».

صُدم هاري بسؤاله التالي.

«هل تريد مني إخبارها؟».

حدق هاري إلى ابنه البالغ سبعة عشر عاماً وتساءل، متى يصبح الطفل راشداً. فأجابه أخيراً: «كلا، يجب على أمك وعليّ أن نتولى هذا الأمر. لكن ينبغي علينا إيجاد اللحظة المناسبة».

قال سيباستيان: «لكن يكون هناك لحظة مناسبة».

حاول هاري تذكر المرة الأخيرة التي سمع فيها تلك الكلمات.

برزت الحادثة الثالثة عندما وقع سياستيان في الحب للمرة الأولى. ليس بامرأة، بل بمدينة. كان حياً من النظرة الأولى، لأنه لم يصادف شيئاً بهذا الجمال والتأثير والرغبة والإغراء في الوقت نفسه. ففي الوقت الذي أدار ظهره لها ليعود إلى بيتشكروفت، كان أكثر تصميماً على رؤية اسمه مطبوعاً بالذهب على لوحة الشرف في المدرسة.

ما إن عاد سياستيان من كامبريدج، بدأ بالدراسة بجد واجتهاد في ساعات لم يكن يدرك وجودها، وحتى المدير بدأ يعتقد أن الحدث المستبعد يمكن أن يصبح ممكناً. لكن عندئذٍ التقى سياستيان بحبه الثاني، الذي تسبب بحصول الحادثة الأخيرة.

لقد كان مدركاً لوجود روبي منذ فترة، لكنه لم ينتبه إليها بشكل حقيقي حتى نهاية الفصل الدراسي الأخير في بيتشكروفت. وربما لم يكن لينتبه لها حتى في ذلك الوقت لو أنها لم تلمس يده بينما كان يقف بانتظار طبق الحساء. لقد افترض سياستيان أن ذلك حدث بشكل عرضي، ولم يكن ليفكر بالأمر لو أنه لم يحدث مرة أخرى في اليوم التالي. كان ينتظر بالصف لأخذ طبق ثانٍ من الحساء، رغم حقيقة أن روبي قد سكت له مسبقاً أكثر من أي شخص آخر في المرة الأولى. وما إن التفت ليعود إلى طاولته، دست روبي قصاصة ورق في يده. فلم يقرأها إلى أن صار وحيداً في مكتبه بعد الفطور.

أراك في سكول لاين عند الساعة الخامسة؟

كان سياستيان يدرك تماماً أنه من غير المسموح له الذهاب إلى سكول لاين، وفي حال أمسك بفتى هناك سوف يُعاقب بستة عصي من أفضل ما عند مشرف السكن. لكنه اعتقد أن الأمر يستحق المخاطرة.

عندما قُرع الجرس معلناً نهاية الدرس الأخير، تسلل سيب خارج الصف وأخذ طريقاً طويلاً حول أرض الملاعب قبل أن يتسلق فوق السور الخشبي ويهبط متعثراً أسفل ضفة منحدره إلى سكول لاين. لقد تأخر خمس عشرة دقيقة، لكن روبي ظهرت من وراء إحدى الأشجار وتوجهت إليه مباشرةً. اعتقد سيباستيان أنها بدت مختلفة تماماً، ليس فقط لأنها لم تكن ترتدي إزاراً بل ترتدي كنزة بيضاء وتنورة سوداء ذات ثنيات. كما أسدلت شعرها، وكانت المرة الأولى التي يراها فيها تضع أحمر شفاه.

لم يجدا الكثير ليتكلما بشأنه، لكن بعد هذا اللقاء كانا يلتقيان مرتين، وأحياناً ثلاث مرات في الأسبوع، لكن ليس لأكثر من نصف ساعة أبداً، لأنه يجب عليهما العودة في الوقت المحدد لتناول العشاء عند الساعة السادسة.

لقد قبّل سيب روبي عدة مرات خلال لقائهما الثاني قبل أن تُعرفه إلى إحساس ما حصل عندما تباعدت شفثاهما وتلامس لساناهما. وعلى أية حال، لم يتطور الأمر عنده أكثر من الملامسة ومحاولة استكشاف أجزاء مختلفة من جسدها بينما هما متواريان خلف إحدى الأشجار. لكن قبل أسبوعين فقط من انتهاء الفصل الدراسي، سمحت له بفك أزرار كنزتها ووضع إحدى يديه على صدرها. وحينئذٍ سار كل شيء على نحو خاطئ.

«مفصول؟».

«لم تترك لي خياراً آخر يا كليفتون».

«لكن لم يبق سوى أربعة أيام فقط على نهاية الفصل الدراسي يا

سيدي».

قاطعته المدير قائلاً: «ويعلم الله ما قد تفعله خلال ذلك الوقت لو لم

أفصلك».

«لكن ما الذي فعلته لأستحق عقوبة قاسية كهذه يا سيدي؟».

«أظن أنك تعرف تماماً ما فعلته يا كليفتون، لكن إذا كنت ترغب

بتعداد قواعد المدرسة التي خرقتها خلال الأيام القليلة الماضية، فسأفعل

ذلك بسعادة».

لقد اضطرُ سياستيان لمنع نفسه من الضحك عندما تذكر آخر

أعماله الطائشة.

أحنى الدكتور بانكس ويليامز رأسه وتفحص بعض الملاحظات التي

دونها قبل استدعاء الصبي إلى مكتبه. لقد مر بعض الوقت قبل أن يتكلم

مرة أخرى.

«بما إنه بقي أقل من أسبوع لنهاية الفصل الدراسي يا كليفتون، وبما

أنك أنهيت امتحاناتك النهائية، ربما أغض الطرف عن الإمساك بك وأنت

تدخن في الجناح القديم، وحتى أتجاهل علبة الجعة الفارغة التي وُجِدَت تحت سريرك، لكن لا يمكن التغاضي عن آخر حماقاتك بتلك السهولة».

كرر سيباستيان قوله مستمتعاً بإحراج المدير: «حماقتي الأخيرة؟».

«القبض عليك في غرفة مكتبك مع إحدى الخادِمات بعد إطفاء الأضواء».

أراد سيباستيان أن يسأل فيما إذا كان من المستحسن لو أنها لم تكن خادمة، ولو ترك الأنوار مُضاءة. لكنه أدرك أن مثل هذا المزاح قد يؤدي به إلى مشكلة أكبر، وأنه في حال لم يفز بمنحة مفتوحة إلى كامبريدج، وهي المرة الأولى التي تحققها المدرسة على مدى جيل بأكمله، فرمها يُطرد أيضاً، ولا يُكتفى بفصله مؤقتاً. لكنه كان يفكر مسبقاً بكيفية تحويل فصله المؤقت من عار إلى وسام شرف. بعد أن أوضحت روبي بشكل جلي أنها مستعدة للقيام بعملية جنسية غير شرعية لقاء أجر بسيط، وافق سيباستيان بسعادة على شروطها، وهي وافقت على التسلل من نافذة غرفة مكتبه بعد إطفاء الأضواء في تلك الأمسية. ورغم أنها المرة الأولى التي يرى فيها سيباستيان امرأة عارية، بدا واضحاً له بسرعة أن روبي تسللت عبر تلك النافذة من قبل. قطع المدير عليه سلسلة أفكاره.

قال وهو يبدو متعجباً أكثر من المعتاد: «أريد أن أسألك عن شيء، من رجل إلى رجل. ربما تؤثر إجابتك بشكل كبير على قراري بتوصية مسؤول القبول في كامبريدج كي يسحب منحتك، والذي سوف يحزننا

جميعنا جداً هنا في بيتشكروفت. لكن مسؤوليتي الكبرى على أية حال هي الحفاظ على سمعة المدرسة».

شد سياستيان قبضة يديه بإحكام وحاول البقاء هادئاً. فكونه مفصلاً هو أمر، لكن خسارته لمقعده في كامبريدج ستكون بالتأكيد شيئاً آخر. وقف هناك، بانتظار مواصلة المدير لكلامه.

«خذ وقتك قبل الإجابة عن سؤال الثاني يا كليفتون، لأنه قد يُقرر مستقبلك. «هل كان لـ كوفمان أو مارتينيز يد في...»»، تردد المدير، فمن الواضح أنه يبحث عن الكلمة المناسبة، لكنه استقر أخيراً على تكرار: «أعمالك الطائشة؟».

كبت سياستيان ابتسامة. ففكرة تلفظ فيكتور كوفمان بكلمة «ملابس داخلية»، فضلاً عن محاولة إنزالها عن روبي، كانت ستُسبب تشككاً ومرحاً.

أجاب سياستيان: «أؤكد لك أيها المدير، أنه لم يسبق لـ كوفمان أبداً على حد علمي، أن دخن سيجارة أو تناول جرعة من الجعة. وبالنسبة إلى النساء، فإنه يشعر بالإحراج عندما يُضطر لخلع ملابسه أمام رئيسة الممرضات».

ابتسم المدير. فمن الواضح أن سياستيان قدم الجواب الذي يرغب بسماعه، وهو الفائدة المُضافة لكونه الحقيقة.

«وبالنسبة إلى مارتينيز؟».

لقد توجب على سياستيان التفكير بسرعة إذا كان سوف ينقذ صديقه المُقرب. فهما بقيا معاً منذ أن ساعده في قتال الوسائد في المهجع

في أول فصل دراسي له، لأن جريمة الصبي الوحيدة هي كونه ليس بريطانياً، والأسوأ من ذلك، أنه يتحدر من بلاد لا تلعب الكريكت، تلك اللعبة التي يمقتها سياستيان - والتي عززت من أواصر علاقتهما. كان سياستيان يعلم أن برونو يُدخن من وقت لآخر، وقد انضم إليه في ذات مرة لشرب جعة في إحدى الحانات المحلية، لكن بعد الامتحانات فقط. وهو يعلم أيضاً أن برونو لن يعارض ما عرضته روبي. وما لم يكن متأكداً منه تماماً هو مقدار ما يعرفه المدير مسبقاً. إضافة إلى ذلك حقيقة أنه عُرض على برونو مقعداً في كامبريدج أيضاً في أيلول، ورغم أنه التقى بوالد صديقه مرتين فقط إلا أنه لم يُرد أن يكون الشخص المسؤول عن عدم ذهاب ابنه إلى كامبريدج.

«وبالنسبة إلى مارتينيز؟»، كرر المدير بلهجة أكثر حزمًا بقليل.

«برونو، كما أثق بأنك تعلم حضرة المدير، هو من الكاثوليك المؤمنين، وقد أخبرني في عدة مناسبات أن المرأة الوحيدة التي سينام معها ستكون زوجته». كان هذا صحيحاً، رغم أنه لم يُعبر عن ذلك الرأي بقوة مؤخراً.

أوماً المدير برأسه بكل اهتمام، فتساءل سياستيان للحظة فيما إذا نجا بفعلته، إلى أن أضاف الدكتور بانكس ويليامز: «وماذا بشأن التدخين والشراب؟».

أقر سياستيان قائلاً: «لقد حاول مرةً تدخين سيجارة خلال العطلة، لكنها جعلته يشعر بالغثيان، وعلى حد علمي لم يعد إلى فعلته تلك منذ ذلك الحين». حسناً، ليس منذ الليلة الماضية، كان على وشك أن يضيف. لم يبدُ المدير مقتنعاً. ثم أضاف: «ولقد رأيتَه يشرب كأساً من الشمبانيا في

إحدى المناسبات، لكن فقط بعد أن عُرض عليه مقعد في كامبريدج. وكان مع أبيه في ذلك الوقت».

ما لم يعترف به سيباستيان، هو أنه بعد أن قام السيد مارتينيز بإيصالهما إلى المدرسة بسيارته الرولز رويس الحمراء في تلك الأمسية، قام سيباستيان بتهريب الزجاجاة إلى غرفة مكتبه، حيث شرباها كلها بعد إطفاء الأضواء. لكن سيباستيان قرأ كثيراً من روايات أبيه البوليسية ويعرف جيداً أن الناس المذنبين غالباً ما يدينون أنفسهم عبر تكرارهم لجملته واحدة كثيراً.

«أنا مُمتن لصراحتك في هذا الأمر يا كليفتون. فليس من السهل عليك أن تُستجوب بشأن صديقك. ولا أحد يحب المراوغين».

استتبع هذا الأمر بصمت طويل آخر، لكن سيباستيان لم يحاول كسره.

أخيراً قال المدير: «من الواضح أنه لا سبب عندي كي أزعج كوفمان، رغم أنه ينبغي علي التحدث مع مارتينيز، لأتأكد فقط من أنه لم يخرق أيّاً من قواعد المدرسة خلال الأيام الأخيرة القليلة المتبقية له في بيتشكروفت».

ابتسم سيباستيان، بينما انزلت قطرة من العرق على أنفه. ثم أضاف المدير: «مع ذلك، لقد كتبتُ لأبيك، موضحاً سبب عودتك إلى المنزل بشكل أبكر بعدة أيام. لكن بسبب صراحتك وندمك الواضحين، لن أخبر مسؤول القبول في كامبريدج أنه تم فصلك مؤقتاً».

قال سيباستيان وهو يبدو مرتاحاً بحق: «أنا في غاية الامتنان لك يا سيدي».

«ستعود الآن إلى غرفة مكتبك وتحزم أمتعتك وتحضر نفسك للمغادرة في الحال. لقد تم إخطار مشرف سكنك بهذا الأمر، وسيقوم بإجراءات سفرك إلى بريستول».

قال سيباستيان ورأسه محني خشية أن يرى المدير الابتسامة على وجهه: «شكراً لك يا سيدي».

«لا تحاول الاتصال بأي من كوفمان أو مارتينيز قبل مغادرتك لمبنى المدرسة. وشيء آخر يا كليفتون، سوف تبقى قواعد المدرسة مُطبقة عليك حتى آخر يوم من الفصل الدراسي. وفي حال خرقت أيّاً منها، لن أتردد في إعادة النظر بقراري المتعلق بمقعدك في كامبريدج. هل هذا مفهوم؟».

أجاب سيباستيان: «بالتأكيد».

«لنأمل بأنك تعلمت شيئاً من هذه التجربة يا كليفتون، شيئاً ستستفيد منه في المستقبل».

قال سيباستيان عندما نهض المدير من وراء مكتبه وسلمه رسالة: «لنأمل ذلك».

«أرجو منك تسليم هذه إلى أبيك حالما تصل إلى المنزل».

قال سيباستيان وهو يضع الرسالة في جيب سترته: «سأفعل ذلك بالتأكيد».

مد المدير يده فصافحها سيباستيان، لكن من دون حماس كبير.

قال المدير: «حظاً طيباً يا كليفتون».

رد سيباستيان قبل أن يخلق الباب بهدوء من خلفه: «شكراً لك يا سيدي».

أسند المدير ظهره إلى كرسيه، وهو راضٍ تماماً عن سير المقابلة. لقد كان مرتاحاً رغم أنه غير مُتفاجئ بأن كوفمان لم يكن متورطاً بمثل هذه الحادثة البغيضة، وخصوصاً لأن والده، شاول كوفمان، كان عضواً في هيئة الإشراف على المدرسة بالإضافة لكونه رئيس مجلس إدارة بنك كوفمان، إحدى أهم المؤسسات المالية المحترمة في مدينة لندن.

وهو بالتأكيد لم يُرد الخلاف مع والد مارتينيز، الذي ألمح مؤخراً إلى أنه سيقدم هبة بقيمة عشرة آلاف جنيه استرليني لمكتبة المدرسة في حال قُدم لابنه مقعد في كامبريدج. لم يكن متأكداً تماماً كيف جمع الدون بيدرو مارتينيز ثروته، لكن أية أجور أو كلف إضافية كانت تُدفع دائماً عن طريق البريد.

من ناحية أخرى، كان كليفتون مشكلة منذ اللحظة التي عبر فيها بوابات المدرسة. لقد حاول المدير أن يكون متفهماً، نظراً لكل ما عاناه والد ووالدة الصبي، لكن هناك حدوداً لقدرة المدرسة على التحمل. في الواقع، لو لم يكن من المرجح فوز كليفتون بتلك المنحة المفتوحة في كامبريدج، لم يكن بانكس وويليامز ليتردد بطرده منذ فترة طويلة. لقد سُعد أخيراً بالتخلص منه، وأمل فقط بعدم انضمامه للتلاميذ القدامى.

«أيها التلاميذ القدامى»، قالها بصوت عالٍ وهو يحفز ذاكرته. فقد كان من المقرر له إلقاء خطاب بمناسبة حفل عشائهم السنوي في لندن في تلك الأمسية، عند تقديمه لتقريره الأخير عن نهاية الفصل الدراسي، بعد مُضي خمسة عشر عاماً له كمدير للمدرسة.

لقد قام سكرتيه بطباعة خطابه وترك نسخة على مكتبه كي يراجعه في حال أراد القيام ببعض التعديلات الأخيرة. كان يود قراءته مرة أخرى، لكن اضطراره للتعامل مع كليفتون جعل ذلك مستحيلاً. كما أن إضافة أية تعديلات أخيرة سوف تكون باليد أثناء رحلة القطار إلى لندن.

نظر إلى ساعته، ثم وضع الخطاب في حقيبته وتوجه إلى مكان إقامته في الطابق الثاني. لقد سُعد عندما وجد أن زوجته وضبت له مسبقاً سترة وبنطال العشاء، مع قميص أبيض مُنشى، وربطة عنق على شكل فراشة، وزوج جوارب وأدوات استحمام. أوضح لرئيس التلاميذ القدامى بشكل جلي أنه لم يكن موافقاً عندما صوتوا على إيقاف ارتداء ربطات العنق البيضاء والسترات ذات الذيل من أجل حفل العشاء السنوي.

أوصلته زوجته بالسيارة إلى المحطة، وقد وصلا قبل دقائق فقط من موعد انطلاق القطار إلى بادينغتون. اشترى بطاقة عودة درجة أولى وأسرع عبر الجسر إلى الرصيف البعيد، حيث توقف محرك القطار قبل صعود ركابه. مشى فوق الرصيف ونظر إلى ساعته مرة أخرى. بقي أربع دقائق. أوماً برأسه إلى الحارس الذي كان يبدل العلم الأحمر بآخر أخضر.

صرخ الحارس بينما توجه المدير إلى قسم الدرجة الأولى في مقدمة القطار: «ليصعد الجميع».

صعد على متن العربة وغاص في أحد الكراسي على الزاوية ليتفاجأ بغيمة من الدخان أمامه. عادة مقرفة. لقد توافق مع مراسل صحيفة التايمز الذي اقترح مؤخراً وجوب تخصيص عربات أكثر لغير المدخنين من ركاب الدرجة الأولى من قبل شركة سكك الحديد الغربية.

عندما انقشع الدخان، نظر إلى الأعلى فرآه يجلس في الجانب الآخر
من العربة.

أطفأ سيباستيان سيجارته، ثم قفز من مكانه، وأنزل حقيبته من الرف الذي فوقه، وغادر العربدة من دون أي كلمة. لقد أدرك بمرارة أنه رغم عدم تفوه المدير بأي كلمة إلا أن عينيه لم تفارقاه أبداً.

حمل حقيبته على ظهره، وجال عبر العربات إلى الجهة الخلفية من القطار، حيث حشر نفسه في عربدة مزدحمة من عربات الدرجة الثالثة. وبينما كان ينظر عبر النافذة، حاول التفكير إذا كان هناك طريقة للخروج من مأزقه الحالي.

ربما ينبغي عليه العودة إلى عربدة الدرجة الأولى والتوضيح للمدير أنه ينوي قضاء عدة أيام برفقة خاله عضو البرلمان، السيد جايلز بارينغتون؟ لكن لماذا يجب عليه فعل ذلك، في حين تم إعطاؤه تعليمات بالعودة إلى بريستول وتسليم رسالة الدكتور بانكس ويليامز إلى والده؟ الحقيقة هي أن والداه كانا في لوس أنجلوس يحضران احتفالاً من أجل منح والدته شهادة في إدارة الأعمال بامتياز مع مرتبة الشرف، ولن يعودا إلى إنكلترا قبل نهاية الأسبوع.

بإمكانه سماع المدير يقول، إذاً لماذا لم تخبرني ذلك منذ البداية، وعند ذلك يمكن لمشرف سكنك أن يصدر لك بطاقة القطار المناسبة؟ لأنه كان يعتزم العودة إلى بريستول في نهاية يوم الفصل الدراسي، ولذلك عندما يعودان في يوم السبت، لن يعرفا بالأمر. لربما نجا بفعلته أيضاً، لو أنه لم يكن يدخن في عربدة الدرجة الأولى. ففي النهاية، تم تحذيره من

عواقب خرقه لقواعد المدرسة قبل نهاية الفصل الدراسي. لقد خرق ثلاث قواعد للمدرسة خلال ساعة من مغادرته لمبنى المدرسة. لكنه لم يعتقد أبداً أنه سوف يرى المدير مرة أخرى في حياته.

لقد أراد أن يقول، أنا فتى كبير الآن وأستطيع فعل ما يحلو لي، لكنه يعرف أن ذلك لن ينفذ. في حال قرر حقاً العودة إلى الدرجة الأولى، هناك خطر بأن يكتشف المدير أن لديه بطاقة للدرجة الثالثة فقط، وهي خطة ذكية لطالما استخدمها من وإلى المدرسة في بداية ونهاية الفصل الدراسي.

كان يجلس في مقعد على الزاوية ضمن عربة الدرجة الأولى، ويتأكد من أنه يرى الممر بشكل واضح. وفي اللحظة التي يدخل فيها مُحصل التذاكر من الطرف الآخر للعربة، يخرج سيباستيان بسرعة ويختفي في أقرب مرحاض، ولا يُقفل الباب بل يُبقي إشارة شاغر في مكانها. وما إن ينتقل مُحصل التذاكر إلى العربة التالية، يتسلل عائداً إلى مقصورة الدرجة الأولى حتى نهاية الرحلة. وبما أنها خدمة من دون توقف، لم تفشل الخطة أبداً. حسناً، لقد كادت أن تفشل ذات مرة، عندما عاد الجابي مرة أخرى وأمسك به في العربة الخطأ. انفجر بالبكاء فوراً واعتذر، موضحاً أن والده ووالدته دائماً يسافران في الدرجة الأولى، ولم يدرك حتى أنه يوجد درجة ثالثة. لقد نجا بفعلته، لكنه حينها كان في الحادية عشرة من عمره فقط. الآن هو في السابعة عشرة، ولن يكون جابي التذاكر هو الوحيد الذي لن يصدقه.

بدأ سيباستيان يفكر بما سيفعله عندما يتوقف القطار في بادينغتون، إذا لم يعتقد بوجود أي احتمال للإعفاء عنه، وتقبل أنه لن يذهب إلى كامبريدج في أيلول.

لم يُلَقِ المدير حتى ولو نظرة على خطابه بينما كان القطار ينطلق مسرعاً عبر الريف نحو العاصمة.

هل ينبغي عليه أن يذهب ويبحث عن الصبي ويطلب بتوضيح؟ هو يعلم أن مشرف سكن كليفتون زوده بتذكرة ذهاب درجة ثالثة إلى بريستول، إذاً ماذا كان يفعل في عربة الدرجة الأولى لقطار يتجه إلى لندن؟ هل ركب القطار الخطأ بطريقة ما؟ كلا، فذلك الصبي يعرف دائماً في أي اتجاه يذهب. هو فقط لم يتوقع الإيقاع به. على أية حال، لقد كان يدخل، رغم أنه أُبلغ بوضوح أن قواعد المدرسة ستبقى مُطبقة حتى آخر يوم في الفصل الدراسي. لم ينتظر الصبي ولو لساعة كي يتحداه. ليس هناك من ظروف مُخففة، ولم يترك كليفتون له أي خيار.

غداً في الاجتماع الصباحي سيُعلن أن كليفتون طُرد. وحينها سوف يتصل بمسؤول القبول في كلية بيترهاوس، ومن ثم بوالد الصبي، ليوضح سبب عدم ذهاب ولده لكامبريدج. ففي النهاية، ينبغي على الدكتور بانكس وويليامز التفكير بسمعة المدرسة، التي اهتم بها دون كلل خلال الأعوام الخمسة عشر الماضية.

قلب عدة صفحات من خطابه، قبل أن يصل إلى الفقرة المعنية. قرأ الكلمات التي كتبها عن إنجاز كليفتون، وتردد لبرهة من الوقت، ثم قام بشطبها.

فكر سيباستيان إن كان ينبغي عليه مغادرة القطار كأول أو آخر راكب عندما يقف في محطة بادينغتون. لا يهم الأمر كثيراً، طالما يتجنب اللقاء بالمدير.

قرر أن يكون أول المغادرين، فجثم على طرف مقعده لآخر عشرين دقيقة من زمن الرحلة. تفقد جيوبه ليجد أن لديه جنيهاً واحداً واثنى عشر شلناً ونصف، وذلك مبلغ أكبر من المعتاد، لكن مشرف سكنه كان قد سدد له كل مصروفه الذي لم يُنفق.

لقد خطط في البداية لقضاء عدة أيام في لندن قبل العودة إلى بريستول في اليوم الأخير للفصل الدراسي، إذ لم يكن لديه نية على الإطلاق لتسليم رسالة المدير إلى والده. أخرج المغلف من جيبه. كان موجهاً إلى المحترم هـ. أ. كليفتون: خاص. نظر سياستيان خلصة في أرجاء العربة ليتأكد من عدم وجود أحد ينظر إليه قبل فتحها. قرأ كلمات المدير ببطء، ثم أعاد قراءتها. كانت الرسالة مدروسة، وعادلة، ولدهشته، لم تأتِ على ذكر روبي. لو أنه فقط استقل القطار إلى بريستول، وذهب إلى المنزل وسلم الرسالة إلى والده بعد عودته من أميركا، لكانت الأشياء مختلفة كلياً. اللعنة. ما الذي كان يفعله المدير في القطار أساساً؟

أعاد سياستيان الرسالة إلى جيبه، وحاول التركيز على ما سيفعله في لندن، لأنه بالتأكيد لن يعود إلى بريستول إلى أن يعود الوضع إلى حالته الطبيعية، وربما يتطلب هذا بعض الوقت. لكن لكم من الوقت يأمل أن يعيش بجنيه واحد واثنى عشر شلناً ونصف؟ كان على وشك اكتشاف ذلك.

كان يقف بجانب باب العربة قبل وقت طويل من توقف القطار في محطة بادينغتون، حتى أنه فتحه قبل توقفه. قفز خارجاً، وركض باتجاه الحاجز بالسرعة التي تسمح بها حقيبته الثقيلة وسلم تذكرته إلى الجابي قبل أن يختفي بين الحشود.

لقد زار سيباستيان لندن مرة واحدة فقط، كان فيها مع والديه، وهناك سيارة بانتظارهم لتقلهم إلى منزل خاله الكائن في سميث سكوير. أخذه خاله جايلز إلى برج لندن كي يرى مجوهرات التاج الملكي، ومن ثم إلى مدام توسو للاستمتاع بالأعمال الشمعية لإيدموند هيلاري، وبيتي جرابل ودون برادمان قبل تناول الشاي مع قطعة كعك لزج في فندق ريجينت بالاس. وفي اليوم التالي أخذهم في جولة إلى مجلس العموم، وهناك شاهدوا وينستون تشرشل وهو يحدق بغضب من على المنصة الأولى. لقد دُهِش سيباستيان جراء قامه الرجل القصيرة.

عندما آن أوان عودته إلى المنزل، أخبر سيباستيان خاله أنه لا يطيق صبراً كي يعود إلى لندن. والآن عاد، وليس هناك سيارة لتقله، وآخر شخص بإمكانه المخاطرة بزيارته هو خاله. لم يكن لديه أي فكرة عن مكان قضاء ليلته.

عندما شق طريقه بين الحشود، اصطدم بشخص، وكاد يوقعه أرضاً. فالتفت ليرى شاباً يبتعد مسرعاً، حتى أنه لم يهتم بالاعتذار.

خرج سيباستيان من المحطة إلى شارع محاط بمنازل ذات شرفات من العصر الفيكتوري، والعديد منها يعرض لافتة مكتوب فيها أسرة وفطور. اختار المنزل ذو مطرقة الباب الأكثر لمعاناً وأحواض الأزهار الأكثر أناقةً. فتحت الباب امرأة جميلة ترتدي مئزراً منزلياً من النايلون منقوشاً بالورود، وابتسمت بترحيب لضيفها المحتمل. لو أنها تفاجأت بوجود شاب بزي مدرسي يقف أمام عتبتها، لم تكن لتظهر هذه الابتسامة.

قالت: «ادخل، هل تبحث عن مكان للإقامة يا سيدي؟».

أجاب سيباستيان وهو مدهوش لمناداته بسيدي: «نعم، أحتاج غرفة لقضاء الليلة، وأتساءل كم بدل ذلك؟».

«أربعة شلنات في الليلة، ومن ضمنها الفطور، أو جنيه واحد لمدة أسبوع».

قال سيباستيان وهو مدرك لحاجته للبحث عن مكان إقامة أرخص في الصباح في حال اعتزم البقاء في لندن لمدة أطول: «أحتاج غرفة لقضاء ليلة واحدة».

قالت: «بالطبع». وحملت حقيبته وتوجهت إلى الممر.

لم يرَ سيباستيان امرأة تحمل حقيبة من قبل، لكنها أصبحت في منتصف السلام قبل أن يتمكن من فعل أي شيء بخصوص ذلك.

قالت: «اسمي السيدة تيببت، لكن زبائني يدعونني تيببي». وعندما وصلت إلى أعلى سلم الطابق الأول، أضافت: «سأضعك في الغرفة رقم سبعة. وهي في مؤخرة النزل، ولذا من المُستبعد أن تستيقظ بسبب حركة المرور الصباحية».

لم يكن سيباستيان يعلم ما الذي تتحدث عنه، بما أنه لم يُوقظ بسبب حركة المرور طيلة حياته.

فتحت السيدة تيببت باب الغرفة رقم سبعة، ووقفت جانباً كي تسمح لضييفها بالدخول. كانت الغرفة أصغر من غرفة مكتبه في بيتشكروفت، لكن، مثل مالكتها، مرتبة وأنيقة. وهناك سرير واحد، بملاءة نظيفة ومغسلة في الزاوية.

قالت السيدة تيببت قبل أن يسأل: «سوف تجد الحمام في نهاية الممر».

قال: «لقد غيرتُ رأبي يا سيدة تيببت، سوف آخذ الغرفة طيلة الأسبوع».

أخرجت مفتاحاً من معطفها، لكن قبل أن تسلمه إياه قالت: «إذاً الحساب جينه واحد، مقدماً».

قال سيباستيان: «نعم بالطبع». مد يده إلى جيب سرواله، ليجده فارغاً. فجرب الآخر ومن ثم آخر، لكن لم يكن هناك أثر للنقود. أخيراً، ركع على ركبتيه وفتح حقيبته ثم بدأ يبحث بعصبية بين ملابسه.

وضعت السيدة تيببت يديها على وركيها، ولم تعد ابتسامتها ظاهرة. بحث سيباستيان من دون طائل بين ملابسه إلى أن استسلم أخيراً، وانهار على السرير وتضرع لتكون تيببي أكثر تعاطفاً من مدير المدرسة.

دخل المدير إلى غرفته في فندق ريفورم كلوب، واستحم بسرعة قبل ارتداء سترة حفل العشاء. تفقد ربطة عنقه في المرآة التي فوق المغسلة، ثم عاد إلى الطابق السفلي لينضم إلى مضيفه.

كان نيك جود، رئيس رابطة الخريجين، ينتظره في أسفل السلم، فقاد ضيف الشرف خاصته إلى قاعة الاستقبال، حيث انضموا إلى الأعضاء الآخرين في اللجنة بجانب البار.

سأل الرئيس: «ما الذي تود شربه حضرة المدير؟».

”دراي شيري فقط لو سمحت».

لقد أزعجته كلمات جود التالية إذا قال بعد طلب المشروب:
«اسمح لي أن أكون أول من يهنئك بمناسبة فوز المدرسة بأفضل منحة
دراسية في كلية بيترهاوس. وهو تكريم جدير بتتويج سنتك الأخيرة».
لم يقل المدير شيئاً، لكنه أدرك أنه يجب إعادة كتابة الثلاثة سطور
التي شطبها من خطابه. ولا يجب ذكر خبر طرد كليفتون الآن. ففي
النهاية، لقد فاز الصبي بالمنحة الدراسية، ولن يتغير هذا الوضع إلى أن
يتحدث مع مسؤول القبول في كامبريدج عند الصباح.

لسوء الحظ، لم يكن الرئيس هو الشخص الوحيد الذي أشار إلى
إنجاز كليفتون، وبحلول الوقت الذي نهض فيه المدير لإلقاء خطاب
تقريره السنوي، لم يرَ أي داعٍ لجعل المجتمعين يعرفون بما خطط لفعله
في اليوم التالي. لقد تفاجأ بتلقي الإعلان عن أفضل منحة دراسية ذلك
التصفيق المطول.

لقي الخطاب استحساناً جيداً، وعندما جلس الدكتور بانكس
ويليامز، أتي كثير من التلاميذ القدامى إلى المنصة كي يتمنوا له تقاعداً
سعيداً حتى كاد أن يفوت عليه آخر قطار عائد إلى بيتشكروفت. وبمجرد
أن استقر به المقام في مقصورة الدرجة الأولى أعادته أفكاره إلى
سيباستيان كليفتون. بدأ بكتابة بضع كلمات لخطابه أمام الاجتماع
الصباحي: فخطر بباله، «معايير»، و«أخلاق»، و«شرف»، «انضباط»
و«احترام»، وفي الوقت الذي توقف فيه القطار في بيتشكروفت، كان قد
أنهى مسودته الأولى.

عندما سلم تذكركه، ارتاح لرؤية زوجته تجلس في السيارة بانتظاره،
رغم تأخر الوقت.

سألته حتى قبل أن يغلق باب السيارة: «كيف جرت الأمور معك؟». «أعتقد أنه بإمكانني القول إن خطابي لاقى استحساناً جيداً، نظراً للظروف».

«الظروف؟».

بحلول الوقت الذي وصلا فيه إلى منزل المدير، أخبر زوجته عن المواجهة المؤسفة مع كليفتون والتي حدثت في القطار المتوجه إلى لندن.

سألته وهو يفتح الباب: «وما الذي تعتزم فعله بهذا الشأن؟».

«لم يترك لي أي خيار. سوف أُعلن في الاجتماع الصباحي أن كليفتون قد طُرد، ولهذا مع الأسف لن يلتحق بكامبريدج في أيلول».

قالت السيدة بانكس ويليامز: «أليس هذا قاسياً بعض الشيء؟ ففي النهاية ربما لديه سبب مقنع لتواجهه في القطار المتجه إلى لندن».

«إذاً لماذا غادر العربة في اللحظة التي رأي فيها؟».

«ربما يا عزيزي لم يرغب بقضاء كامل الرحلة معك. ففي النهاية، يمكن لك أن تكون مخيفاً للغاية».

أجاب متجاهلاً تعليقها: «لكن لا تنسي أنني رأيتك يدخن أيضاً».

«لماذا لا يدخن؟ فقد كان خارج مبنى المدرسة، ولم يعد تلميذاً في هذه الحالة».

«لقد أوضحتُ بشكل جلي أن قواعد المدرسة تُطبق عليه حتى نهاية الفصل الدراسي، وإلا فسيواجه العواقب».

«هل ترغب بتناول كأس قبل النوم يا عزيزي؟».

«كلا، شكراً لك. يجب أن أحظى بنوم هائئ، فيوم غد لن يكون سهلاً».

تساءلت قبل أن تُطفئ الضوء: «بالنسبة إليك، أم لكليفتون؟».

جلس سيباستيان على طرف السرير، وأخبر السيدة تيببت عن كل ما حصل في ذلك اليوم. لم يترك شيئاً، حتى أنه أراها الرسالة التي كتبها مدير المدرسة.

«إلا تظن أنه من الحكمة العودة إلى المنزل؟ ففي النهاية، سوف يقلق والداك كثيراً إذا لم تكن هناك عند عودتهما. وعلى أية حال، لا يمكن لك التأكد من أن المدير سيطردك».

«صدقيني أيتها السيدة تيببت، سيحزم هيللي بيللي أمره، ويعلن عن قراره في الاجتماع الصباحي غداً».

«يجب عليك الذهاب إلى المنزل».

«لا أستطيع، بعد أن خذلتهما. فالشيء الوحيد الذي لطالما أراداه هو أن أذهب إلى كامبريدج. ولن يسامحاني أبداً».

قالت السيدة تيببت: «لن أكون واثقة من ذلك، فقد اعتاد أبي القول دائماً، إذا واجهت مشكلة، فكر بها جيداً ونم قبل اتخاذك لقرار ربما تندم عليه لاحقاً. فالأشياء دائماً تبدو أكثر تفاؤلاً في الصباح».

«لكن ليس لدي أي مكان لأنام فيه».

قالت السيدة تيببت وهي تضع إحدى ذراعيها على كتفه: «لا تكن سخيلاً، بإمكانك قضاء الليل هنا. لكن ليس بمعدة فارغة، ولذا حاملاً تُفرغ حقيبتك، تعال للأسفل وانضم إليّ في المطبخ».

قالت النادلة وهي تدخل مسرعة من باب المطبخ: «عندي مشكلة مع الطاولة رقم ثلاثة».

سألت السيدة تيببت بهدوء وهي تكسر بيضتين وتُسقطهما في مقلاة كبيرة: «أي نوع من المشاكل يا جانيس؟».

«لا أستطيع فهم كلمة مما يقولونه».

«آه، نعم، السيد والسيدة فيرير. أظن أنهما فرنسيان. كل ما عليك معرفته هو واحد، واثنان وبيضة». لم تبدُ جانيس مقتنعة، فأضافت السيدة تيببت: «تكلمي ببطء فقط، ولا ترفعي صوتك. فليس خطؤهما أنهما لا يعرفان التحدث بالإنكليزية».

سأل سيباستيان وهو يضع سكينه وشوكته على الطاولة: «هل تودين مني التحدث إليهما؟».

سألت السيدة تيببت وهي تضع المقلاة على النار: «هل تستطيع التحدث بالفرنسية؟».

«نعم أستطيع».

«إذاً افعل ما يحلو لك».

نهض سيباستيان عن طاولة المطبخ ورافق جانيس إلى قاعة الطعام. كانت الطاولات التسع مشغولة جميعها، فمرت جانيس بجانب ثنائي في منتصف العمر يجلسان في الزاوية البعيدة للقاعة.

قال سيباستيان بالفرنسية: «صباح الخير يا سيدي، كيف أستطيع مساعدتك؟».

نظر الضيف المذهول إلى سيباستيان بارتباك وقال: «نحن إسبان».

قال سيباستيان بالإسبانية: «صباح الخير يا سيدي. كيف يمكنني مساعدتك؟». انتظرت جانيس إلى أن أنهى السيد والسيدة فيرير حديثهما معه.

قال سيباستيان: «سأعود بعد لحظة واحدة»، ثم عاد إلى المطبخ.

قالت السيدة تيببت وهي تكسر بيضتين أخريين: «إذاً، ما الذي يريده ضيفانا الفرنسيان؟».

أجاب سيباستيان: «إنهما إسبانيان وليسا فرنسيان، وهما يريدان بعض الخبز البني المٌحمص بشكل خفيف، وبيضاً مسلوقاً وفنجانين من القهوة».

«هل من شيء آخر؟».

«نعم، كيفية الذهاب إلى السفارة الإسبانية».

«جانيس، تكفلي بتقديم القهوة والخبز المٌحمص بينما أهتم بالبيض».

سأل سيباستيان: «وما الذي أستطيع فعله؟».

«هناك دليل هاتف على طاولة قاعة الطعام. ابحث عن السفارة الإسبانية، ثم جد الخريطة وأرهما كيف يصلان إلى هناك».

قال سيباستيان وهو يضع نصف شلن على الطاولة: «بالمناسبة، لقد أعطيتني هذا».

ابتسمت السيدة تيببت وقالت: «هذا أول بقشيش لك».

قال سيباستيان وهو يدفع بالنقود على الطاولة: «أول نقود أكسبها في حياتي، إذاً أنا الآن أدين لك بثلاثة شلنات ونصف فقط». غادر المطبخ دون أن ينبس بكلمة أخرى، ثم أخذ دليل الهاتف. بحث عن السفارة الإسبانية وبعد أن وجدها على خريطة، أخبر السيد والسيدة فيرير بكيفية الوصول إلى تشيشام بلاس. وبعد لحظات، عاد إلى المطبخ بنصف شلن آخر.

قالت السيدة تيببت: «استمر على هذا الحال، وأنا سأجعل منك شريكاً».

خلع سيباستيان سترته، ورفع كمي قميصه ثم اتجه إلى المغسلة.

«ماذا تظن أنك فاعل الآن؟».

أجاب وهو يفتح صنوبر الماء الساخن: «سوف أقوم بغسل الأطباق، أليس هذا ما يفعله الزبائن في الأفلام عندما لا يتمكنون من دفع فواتيرهم؟».

قالت السيدة تيببت وهي تضع قطعتين من اللحم المقدد إلى جانب بيضتين مقلتين: «أراهن أن هذه سابقة أخرى لك. الطاولة رقم واحد يا

جانيس، السيد والسيدة رامسبوتون من يوركشاير. أنا لا أستطيع فهم كلمة مما يقولانه أيضاً. إذاً قل لي يا سيباستيان»، قالت بينما جانيس تغادر المطبخ: «هل بإمكانك التحدث بلغات أخرى؟».

«الألمانية، والإيطالية والفرنسية والعبرية».

«العبرية؟ هل أنت يهودي؟».

«كلا، لكن أحد أصدقائي في المدرسة يهودي، وقد علمني إياها أثناء دروس الكيمياء».

ضحكت السيدة تيببت وقالت: «أظن أنه ينبغي عليك الذهاب إلى كامبريدج بأسرع ما يمكن، لأنك لست مؤهلاً لتكون غاسل صحون».

ذكرها سيباستيان قائلاً: «لن أذهب إلى كامبريدج أيتها السيدة تيببت، وليس هناك من أحد يُلام سواي. لكن أنا أخطط حقاً لزيارة إيتون سكوير وأحاول معرفة أين يعيش صديقي برونو مارتينيز. لا شك أنه سيعود من المدرسة بحلول بعد ظهر يوم الجمعة».

قالت السيدة تيببت: «فكرة جيدة، ومن المؤكد أنه سيعرف إذا كنتَ مطروداً أو مجرد... ماذا كانت الكلمة الأخرى؟».

أجاب سيباستيان: «مفصول مؤقتاً»، بينما دخلت جانيس مسرعة إلى المطبخ وهي تحمل طبقين فارغين، وذلك أرفع مديح مخلص يمكن لطباخ أن يتلقاه على الإطلاق. أعطتهما إلى سيباستيان قبل أن تأخذ بيضتين مسلوقتين أخريين.

ذكرتها السيدة تيببت: «الطاولة رقم خمسة».

قالت جانيس: «والطاولة رقم تسعة تطلب المزيد من رقائق الذرة». «إذا خذي علبة طازجة من غرفة المؤونة أيتها الحمقاء الناعسة». لم يُنه سيباستيان غسيل الأطباق إلى أن تخطت الساعة العاشرة، فسأل: «ماذا بعد؟».

«تقوم جانيس بتنظيف قاعة الطعام ثم تُحضر لفطور يوم غد، بينما أقوم بتنظيف المطبخ. عادة يكون دفع الحساب عند الساعة الثانية عشرة، وما إن يغادر النزلاء، نُغير الملاءات، ونُرتب الأسرة ونسقي أحواض الورد على النوافذ».

قال سيباستيان وهو يُنزل كمي قميصه: «إذاً ما الذي تودين مني فعله؟».

«اصعد على متن حافلة باتجاه إيتون سكوير وتبين ما إذا كان صديقك متوقع له أن يعود يوم الجمعة». ارتدى سيباستيان سترته. «لكن ليس قبل أن تُرتب سريرك وتتأكد من نظافة غرفتك».

ضحك وقال: «أنتِ تكادين تشبهين أُمي».

«سأخذ هذا على سبيل الإطراء. تأكد من عودتك قبل الواحدة، لأني أتوقع حضور بعض الضيوف الألمان، وربما تكون مفيداً». توجه سيباستيان نحو الباب. فأضافت وهي تُعيد إليه قطعتي النصف شلن: «سوف تحتاج لهذا، في حال لم تعتمزم المشي إلى إيتون سكوير ذهاباً وإياباً».

«شكراً لك أيتها السيدة تيببت».

«تيببي، بما أنه من الواضح أنك سوف تكون زبوناً دائماً».

وضع سيباستيان النقود في جيبه وقبلها على خديها، ما جعل السيدة تبيت تسكت للمرة الأولى.

غادر المطبخ قبل أن تتمكن من استعادة حالتها الطبيعية، وصعد السلام ثم رتب غرفته قبل أن يعود إلى القاعة حيث تفقد الخريطة.

قبل أن يغادر، أخبرته جانيس أن يستقل الحافلة رقم 36، ثم ينزل في سلون سكوير ويمشي من هناك.

كان أول ما لاحظته سيباستيان عندما أغلق باب النزل خلفه هو كمية الناس الذين يتدافعون في كل الاتجاهات، بخطى مختلفة تماماً عن أهل بريستول. انضم إلى صف الركوب في موقف الحافلة وشاهد العديد من الحافلات الحمراء ذات الطابقين تأتي وتروح قبل ظهور واحدة تحمل الرقم 36. صعد على متنها ثم إلى الطابق الثاني وجلس في مقعد أمامي بما أنه أراد أن يحظى بمنظر يمكنه من مراقبة كل ما يحدث تحته.

سأل الجابي: «إلى أين أيها الشاب؟».

أجاب سيباستيان: «إلى سلون سكوير، ولو سمحت، هلا أعلمتني عندما نصل إلى هناك؟».

«أجرة ذلك بنسين».

انهمك سيباستيان بكل المناظر وهو يجول متجاوزاً ماربل آرك، وصولاً إلى بارك لاين وأطراف هايد بارك كورنر، لكنه حاول التركيز على ما سيفعله حالما يصل. كل ما كان يعرفه هو أن برونو يقطن في إيتون

سكوير، لكنه لم يكن يعرف رقم المنزل. لقد أمل فقط بأن تكون الساحة صغيرة.

«سلون سكوير»، صرخ الجابي عندما توقفت الحافلة بجانب و. ش. سميث.

شق سيباستيان طريقه بسرعة إلى أسفل الدرج. وما إن وصل إلى الرصيف، نظر حوله كي يجد أي نقطة علام. فاستقرت عيناه على مسرح رويال كورت، حيث جوان بلورايت كانت تقدم عرض مسرحية الكراسي. تفقد خريطته، وتجاوز المسرح ثم انعطف يمينا، مُقدراً أن إيتون سكوير على بعد مائتي ياردة فقط.

ما إن وصل إليها، أبطأ في مشيته على أمل الالتقاء بسيارة الرولز رويس الحمراء التي يملكها الدون بيدرو، لكن لم يكن هناك أثر لأي سيارة. لقد أدرك أنه ما لم يكن محظوظاً فسيستغرق ساعات ليجد أين يقطن برونو.

عندما كان يمشي على الرصيف، لاحظ أن نصف المنازل قد تحول إلى شقق، تُظهر لائحة باسم الساكنين فيها بجانب أجراس أبوابها. أما النصف الآخر، فكان منازل ليس فيها إشارة لقاطنيها، سوى مطرقة باب نحاسية أو جرس فيه علامة «تجار». لقد بدا سيباستيان واثقاً من أن والد برونو لم يكن من نوع الرجال الذين يتشاركون في باب المنزل الرئيسي مع أشخاص آخرين.

وقف على أعلى درج المنزل رقم واحد وضغط على الجرس. بعد لحظة، ظهر أحد الخدم مرتدياً معطفاً أسود وربطة عنق بيضاء، ذكره بـ مارسدن في بارينغتون هال.

قال سيباستيان بتهذيب: «أنا أبحث عن السيد مارتينيز».

أجاب الخادم: «ليس هناك من سيد يسكن هنا بهذا الاسم»، ثم أغلق الباب قبل أن يحظى سيباستيان بفرصة لسؤاله عما إذا كان لديه أي فكرة عن مكان إقامة السيد مارتينيز.

اختبر سيباستيان خلال الساعة التالية كل شيء من، «إنه لا يعيش هنا»، إلى إغلاق الباب بعنف في وجهه. وفي نهاية الساعة الثانية، عندما وصل إلى الطرف البعيد من الساحة، وكجواب على سؤاله المتكرر، سألته إحدى الخادMAT: «هل هو سيد أجنيبي يقود سيارة رولز رويس حمراء؟».

أجاب سيباستيان بشعور من الارتياح: «نعم إنه هو».

قالت الخادمة وهي تشير لجهة اليمين: «أظن أنك ستجده يعيش في المنزل رقم أربعة وأربعين، على بعد منزلين من هنا».

قال سيباستيان: «شكراً جزيلاً». مشى بحيوية إلى المنزل رقم 44، وصعد الدرج، ثم أخذ نفساً عميقاً وطرق مرتين على مطرقة الباب النحاسية.

مضى بعض الوقت قبل أن يُفتح الباب ويُستقبل سيباستيان من قبل رجل ضخم جداً، يفوق طوله ست أقدام وبدا أكثر شبهاً بملاككم مما هو بخادم.

سأل بلكنة لم يتعرف إليها سيباستيان: «ما الذي تريده؟».

«أتساءل إذا كان هذا مكان إقامة برونو مارتينيز؟».

«من أنت؟».

«اسمي سيباستيان كليفتون».

تغيرت نبرة صوت الرجل فجأة وقال: «نعم لقد سمعته يتحدث عنك، لكنه ليس هنا».

«أتعرف متى يمكن أن يعود؟».

«أظن بأني سمعتُ السيد مارتينيز يقول إنه سوف يعود بعد ظهر يوم الجمعة».

قرر سيباستيان عدم طرح أي سؤال آخر، وقال ببساطة: «شكراً لك». أوما العملاق برأسه ثم أغلق الباب بعنف. أو هل كان يغلقه فقط؟

بدأ سيباستيان يركض باتجاه سلون سكوير فهو كان مصمماً على العودة في الوقت المحدد كي يساعد السيدة تيببت في التعامل مع ضيوفها الألمان. استقل أول حافلة متجهة إلى محطة بادينغتون. وما إن عاد إلى المنزل رقم 37 في شارع برايد، حتى انضم إلى السيدة تيببت وجانيس في المطبخ.

سألت حتى قبل أن يحظى بفرصة للجلوس: «هل حالفك الحظ يا سيب؟».

أجاب سيباستيان بفخر: «لقد استطعتُ معرفة مكان إقامة برونو و...».

قالت السيدة تيببت وهي تضع طبق نقانق وبطاطا مهروسة أمامه: «المنزل رقم أربعة وأربعين في إيتون سكوير».

«كيف تعرفين ذلك؟».

هناك اسم لمارتينيز مذكور في دليل الهاتف، لكنك كنتَ قد غادرت في الوقت الذي فكرتُ بذلك. هل عرفت متى سيعود إلى المنزل؟».

«نعم، في وقت ما من بعد ظهر الجمعة».

«إذاً أنا عالقة معك ليومين آخرين». بدا سيباستيان مُحرجاً إلى أن أضافت: «مما يجعل الأمر جيداً تماماً لأن الألمان سيقون حتى فترة بعد ظهر الجمعة، ولذا أنت...»، قاطعت طريقة ثابتة على الباب أفكارها فقالت: «إن لم أكن مُخطئة، سيكون هذا السيد كروول وأصدقائه. تعال معي يا سيب ودعنا نعرف إذا كان بإمكانك فهم كلمة واحدة مما يقوله».

ترك سيباستيان طبق النقانق والبطاطا المهروسة على مضض ولحق بالسيدة تيببت. كان بجانبها عندما فتحت باب النزل.

بالكاد استطاع النوم عدة لحظات خلال الثماني والأربعين ساعة التالية، ما بين حمل الحقائق إلى أعلى وأسفل السلم، وما بين مطاردة سيارات الأجرة، وتقديم المشاريع، والأكثر أهمية، ترجمة عدد لا يُحصى من الأسئلة من قبيل «أين يقع مسرح لندن بالاديوم؟» و«هل تعرف أي مطاعم ألمانية جيدة؟»، ولقد تمكنت السيدة تيببت من الإجابة عن معظمها دون الرجوع إلى أي خريطة أو كُتيب إرشادي. وفي مساء الخميس، أي في آخر ليلة لهم، احمر وجه سيباستيان عندما طُرح عليه سؤال لم يعرف الإجابة عنه. فأتت السيدة تيببت لنجدته.

«أخبرهم أنهم سيجدون كل الفتيات اللاتي يحتاجون إليهن في مسرح ويندميل في سوهو».

أحني الألمان رؤوسهم بخضوع.

عندما غادروا في فترة بعد ظهر الجمعة، أعطى السيد كرول سيباستيان جنيهاً واحداً وصافحه بحرارة. أعطى سيباستيان النقود إلى السيدة تيببت، لكنها رفضت أخذها قائلةً: «إنها لك، لقد استحققتها بجدارة».

«لكني لم أدفع بعد نفقات المسكن والمأكل. وإذا لم أدفع، فإن جدتي، التي كانت فيما مضى مديرة فندق جراند هوتيل في بريستول، لن تجعلني أعرف نهاية القصة أبداً».

أخذته السيدة تيببت بين ذراعيها وقالت: «حظاً طيباً يا سيب». وعندما أفلتته أخيراً، أسندت ظهرها وأضافت: «اخلع سروالك».

بدا سيباستيان أكثر حرجاً مما كان عندما سأله السيد كرول عن مكان وجود نادٍ التعري.

«أريد كي السروال، إذا لم ترغب بأن تبدو وكأنك قادم لتوك من العمل».

قال رجل لن يكون بمقدور سياستيان نسيانه: «لستُ واثقاً من وجوده في الداخل، لكنني سأتحقق من ذلك».

تردد صدى صوت قادم من الممر المكسو بالرخام: «سيب! من الرائع رؤيتك أيها الصديق العزيز»، ثم أضاف برونو وهو يصافح صديقه: «خشيتُ ألا أراك ثانيةً، في حال كانت الشائعات صحيحة».

«أية شائعات؟».

«كارل، أرجو أن تطلب من إيلينا تقديم الشاي في غرفة الاستقبال».

قاد برونو سياستيان إلى داخل المنزل. كان سياستيان دائماً يأخذ زمام المبادرة في بيتشكروفت، وبرونو يساعده. أما الآن فقد انقلبت الأدوار، حيث تبع الضيف مضيفه عبر الممر ومنه إلى غرفة الاستقبال. لطالما اعتقد سياستيان أنه تربى بشكل مريح نوعاً ما، حتى إلى درجة الترف، لكن ما رآه عندما دخل غرفة الاستقبال قد يُفاجئ أفراد العائلة المالكة. فاللوحات، والمفروشات، وحتى السجاد لن ترى مثيله في متحف.

«أية شائعات؟» كرر سياستيان كلامه بعصبية، بينما جلس على طرف الكنبه.

أجاب برونو: «سأجيبك فوراً، لكن أولاً، أخبرني لماذا غادرت المدرسة بشكل مُفاجئ للغاية؟ ففي غضون دقيقة كنتَ تجلس معي ومع فيك في غرفة المكتب، ثم اختفيت».

«ألم يقل المدير أي شيء في الاجتماع الصباحي في اليوم التالي؟».

«ولا حتى كلمة واحدة، ما جعل الأمر أكثر غموضاً. بالطبع لكل واحد نظرية، لكن بما أن المدير ومشرف السكن كانا صامتين مثل صمت القبور، لم يعلم أحد ما هي الحقيقة وما هو الخيال. لقد سألتُ رئيسة الممرضات، مصدر كل المعرفة، لكنها كانت تصمت في كل مرة يُذكر فيها اسمك، على غير عاداتها تماماً. لقد ألمح فيك إلى الأسوأ، لكن كأسه دائماً نصف فارغة. وهو مقتنع بأنك مطرود وأن ذلك هو آخر ما سوف نسمعه عنك، لكنني قلتُ له إننا سوف نلتقي جميعنا مرة أخرى في كامبريدج».

قال سيباستيان: «أخشى أننا لن نلتقي، لقد كان فيك على حق». عندها أخبر صديقه كل شيء حصل منذ مقابله مع المدير بداية الأسبوع، ما جعل برونو بلا شك يشعر بالأسى لخسارته مقعده في كامبريدج.

عندما وصل إلى نهاية القصة، قال برونو: «إذاً لهذا السبب استدعاني هيللي بيللي إلى مكتبه بعد الاجتماع صباح يوم الأربعاء». «ما العقوبة التي حصلت عليها؟».

«ست ضربات بالعصا، وإنذار في حالة تكرار أي خرق للقواعد فسيتم فصلي مؤقتاً».

قال سيباستيان: «لربما نجوت بفعلي بالفصل المؤقت، لو لم يُمسك بي هيللي بيللي وأنا أدخن في القطار المتجه إلى لندن».

«لماذا ذهبت إلى لندن في حين كان لديك تذكرة إلى بريستول؟».

«كنتُ سأتسكع هنا حتى الجمعة، ومن ثم أذهب إلى المنزل في آخر يوم للفصل الدراسي. فأمي وأبي لن يعودا من الولايات المتحدة حتى يوم غد، ولذا اعتقدتُ أنهما لن يعرفا ما حصل. لو أني لم ألتقي ب هيللي بيللي في القطار، لكنتُ نجوتُ بفعلتي».

«لكن في حال استقلت القطار إلى بريستول اليوم، فسابقيان غير مدركين ما حصل».

أجاب سيباستيان: «مستحيل، لا تنسَ ما قاله هيللي بيللي، لقد كلامه ساخراً، (سوف تبقى قواعد المدرسة مُطبقة عليك حتى آخر يوم من الفصل الدراسي، وفي حال خرقت حتى ولو واحدة منها، لن أتردد بإعادة التفكير بقراري المتعلق بذهابك إلى كامبريدج. هل هذا مفهوم؟). وخلال ساعة من خروجي من مكتبه، خرقتُ ثلاث قواعد أمام عينيه».

دخلت خادمة الغرفة وهي تحمل صينية فضية كبيرة مليئة بطعام لم يتذوقه أي منهما في بيتشكروفت.

وضع برونو زبدة على واحدة من الفطائر الساخنة وقال: «حالما ننتهي من شرب الشاي، لم لا تذهب إلى النزل وتجلب أغراضك. يمكنك البقاء هنا الليلة، وسوف نحاول التفكير بما يجب عليك فعله فيما بعد».

«لكن كيف سيشعر أبوك تجاه هذا الأمر؟».

«لقد أخبرته ونحن في طريقنا إلى هنا من المدرسة إنني لم أكن لأذهب إلى كامبريدج في أيلول لو أنك لم تتحمل مسؤولية ما حصل. فقال إنني محظوظ بوجود مثل هذا الصديق، وأبدى رغبته بشرك شخصياً عندما تتسنى له الفرصة».

«لو أن بانكس وويليامز رآك أولاً يا برونو، لكنت فعلت الشيء نفسه».

«ليس هذا موضوعنا يا سيب. فقد رآك أولاً، ولذا أنا نجوتُ بأخذ نصيبي من الضرب ونجا فيك من العقوبة في الوقت المناسب، لأنه كان يأمل بمعرفة روبي بشكل أكثر حميمية».

قال سيباستيان: «روبي، هل عرفت ما الذي حصل معها؟».

قال برونو عندما عادت الخادمة وهي تحمل كعكة فواكه كبيرة: «إيلينا، سيعود صديقي إلى محطة بادينغتون كي يجلب أغراضه. هلا طلبتِ من السائق إيصاله، بالإضافة إلى تجهيز غرفة الضيوف إلى حين عودته إلى هنا؟».

«أخشى أن السائق قد غادر لتوه كي يجلب أباك من المكتب. ولا أتوقع عودتهما قبل موعد العشاء».

قال برونو: «إذاً يجب عليك ركوب سيارة أجرة، لكن ليس قبل تناول قطعة من كعكة الفواكه».

همس سيباستيان: «بالكاد لدي ما يكفي من النقود من أجل الحافلة، فما بالك بسيارة أجرة».

قال برونو وهو يلتقط سكين الكعكة: «سوف أحجز لك واحدة على حساب أبي».

قالت السيدة تيببت ما إن أخبرها سيباستيان بكل ما حصل في فترة بعد الظهر تلك: «هذه أخبار رائعة، لكنني ما زلت أعتقد أنه ينبغي

عليك الاتصال بوالديك كي يعرفا مكان وجودك. ففي النهاية، لاتزال غير متأكد من خسارة مقعدك في كامبريدج».

«لقد فُصلت روبي من العمل، كما رفض مشرف السكن مناقشة الموضوع، وحتى رئيسة الممرضات، رفضت قول أي كلمة. بإمكانني التأكيد لك يا سيدة تيببت أنني لن أذهب إلى كامبريدج. وفي مطلق الأحوال، لن يعود والدي من أميركا حتى يوم غد، ولذا لن أتمكن من الاتصال بهما حتى لو أردتُ ذلك».

تابعت السيدة تيببت في تقديم مشورتها فقالت: «حسناً، في حال كنت ستغادر، من الأفضل أن تذهب وتوضب أغراضك لأنه يمكنني الاستفادة من الغرفة. فقد اضطررتُ لرفض ثلاثة زبائن مسبقاً».

«سوف أكون سريعاً بقدر ما أستطيع». غادر سيباستيان المطبخ وركض إلى غرفته في الطابق العلوي. وما إن حزم أمتعته ورتب الغرفة، عاد ليجد السيدة تيببت وجانيس تقفان في الصالة بانتظاره.

قالت السيدة تيببت وهي تفتح الباب الرئيسي: «لقد كان أسبوعاً لا يُنسى حقاً، ربما لن ننساه لا أنا ولا جانيس».

قال سيباستيان وهم يمشون معاً على الرصيف: «عندما أكتبُ مذكراتي يا تيببي، سوف أخصص لك فصلاً كاملاً».

قالت بحزن: «ستنسنا قبل ذلك بفترة طويلة».

«لن يحدث ذلك أبداً. سوف يصبح هذا المكان منزلي الثاني، وسترين». طبع سيباستيان قبلةً على خد جانيس، قبل أن يعانق تيببي

بحرارة، ثم أضاف قبل دخوله إلى سيارة الأجرة التي تنتظره: «لن تتخلصي مني بهذه السهولة».

لوحت السيدة تيببت وجانيس بيديهما له بينما سارت السيارة في طريقها عائدةً إلى إيتون سكوير. لقد أرادت تيببي أن تخبره مرة أخرى، لأجل السماء اتصل بوالدتك في اللحظة التي تعود فيها من أميركا، لكنها أدركت أن لا فائدة من ذلك.

قالت بينما انعطفت السيارة إلى اليمين في نهاية الطريق واختفت بعيداً عن الأنظار: «جانيس، اذهبي وغيري ملاءات الغرفة رقم سبعة». عادت السيدة تيببت بسرعة إلى المنزل. في حال لم يتصل سيبب بوالدته، سوف تتصل هي.

في تلك الليلة، أخذ والد برونو كلا الصبيين إلى فندق الريتز لتناول العشاء، مزيد من الشمبانيا، والتجربة الأولى لـ سيباستيان في أكل المحار. الدون بيدرو، كما يُصر على سيباستيان أن يناديه، شكره مرة بعد أخرى على تحمل المسؤولية، وإبقاء فرصة ذهاب برونو إلى كامبريدج قائمة. وكرر قوله له: «يا له من تصرف إنكليزي».

جلس برونو يتناول لقيمات من طعامه بصمت، وبالكاد يشارك في الحديث. بدا أن كل ثقته التي كان عليها فترة بعد الظهر قد تبخرت بحضور والده. لكن حصلت المفاجأة الكبرى في تلك الأمسية عندما كشف الدون بيدرو أن لـ برونو أخوين أكبر منه، دייغو ولويس، وهو شيء لم يأتِ على ذكره من قبل، ومن المؤكد أنهما لم يزورا في دير

بيتشكروفت أبدأً. أراد سيباستيان معرفة السبب، لكن بما أن صديقه أبقى رأسه محنياً، قرر الانتظار حتى يكونا وحدهما.

قال الدون بيدرو: «إنهما يعملان إلى جانبي في تولي إدارة أعمال العائلة».

سأل سيباستيان ببراءة: «وما هو عمل العائلة؟».

أجاب الدون بيدرو دون الدخول بالتفاصيل: «استيراد وتصدير».

قدم الدون بيدرو لضيفه الشاب أول سيجار كوبي، وسأله عن مخططاته الآن بما أنه لن يذهب إلى كامبريدج. أجاب سيباستيان وهو يسعل: «أفترض أنه ينبغي عليّ البحث عن عمل».

«هل تود كسب مائة جنيه نقداً؟ هناك شيء تستطيع القيام به من أجلي في بيونس آيرس، وستعود إلى إنكلترا في نهاية الشهر».

«شكراً لك يا سيدي، هذا كرم بالغ. لكن ما الذي يُتوقع مني فعله لقاء مبلغ كبير كهذا؟».

«تعال معي إلى بيونس آيرس يوم الاثنين القادم، وابق لعدة أيام في ضيافتي، وخذ طرداً معك في طريق عودتك إلى ساوثهامبتون على متن السفينة كوين ماري».

«لكن لماذا أنا؟ بالتأكيد يستطيع واحد من طاقمك تنفيذ مهمة سهلة كهذه؟».

أجاب الدون بيدرو دون أن يفوت الفرصة: «لأن الطرد يحوي إرثاً عائلياً، وأنا أحتاج لشخص يتحدث الإنكليزية والإسبانية معاً، ويمكن الوثوق به. فالطريقة التي أظهرت نفسك بها عندما كان برونو في خطر

تقنعني بأنك الرجل المناسب»، ثم أضاف «ربما هذه طريقتي في قول شكراً لك».

قال سيباستيان وهو غير مصدق لحظه: «هذا لطف منك يا سيدي».

قال الدون بيدرو وهو يُخرج محفظته من جيبه: «دعني أعطك عشرة جنيهاً مقدماً، وسوف تحصل على التسعين الباقية في اليوم الذي تُبحر فيه عائداً إلى إنكلترا». أخرج ورقتين بقيمة خمسة جنيهاً من محفظته ودفع بهما على الطاولة. لقد كان مبلغاً أكثر مما أُعطي لسيباستيان طيلة حياته. ثم أضاف: «لم لا تُمتعا نفسيكما أنت وبرونو في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟ ففي النهاية، أنتما تستحقان ذلك».

لم ينبس برونو ببنت شفة.

حالما قُدمت الخدمة لآخر ضيف، أمرت السيدة تيببت، جانيس بتنظيف غرفة الطعام بالمكنسة الكهربائية والتحضير لفطور الغد، لكن ليس قبل انتهائها من غسيل الأطباق، وكأنها لم تعطِ الأمر من قبل أبداً. ثم اختفت السيدة تيببت في الطابق العلوي. لقد ظنت جانيس أنها ذهبت إلى مكتبها من أجل التحضير للتسوق الصباحي، لكنها جلست على طاولة مكتبها تحديق إلى الهاتف فقط. سكتت لنفسها كأساً من الويسكي، وهو شيء نادراً ما تفعله قبل ذهاب آخر نزيل إلى سريره، أخذت جرعة منه ثم رفعت السماعة.

قالت: «دليل الهاتف؟»، ثم انتظرت إلى أن أتى صوت آخر على الخط.

سأل الصوت: «ما الاسم؟».

«السيد هاري كليفتون».

«وأى مدينة؟».

«بريستول».

«والعنوان؟».

أجابت السيدة تيببت محاولةً الظهور وكأنها تعرفه: «ليس لدي عنوان، لكنه مؤلف مشهور». انتظرت لبعض الوقت ثم تساءلت إذا ما قُطع الخط عليها، إلى أن قال الصوت: «رقم المشترك هذا غير مدرج في دليل الهاتف يا سيدي، ولذا أخشى أني غير قادر على إيصالك به».

«لكن هذه حالة طارئة».

«آسف يا سيدي، لكني لا أستطيع وصلك به حتى لو كنت ملكة إنكلترا».

أغلقت السيدة تيببت سماعة الهاتف. وجلست لبعض الوقت متسائلةً إذا كان هناك أي طريقة أخرى للاتصال بالسيدة كليفتون. ثم فكرت بجانيس، وعادت إلى المطبخ.

سألت جانيس: «من أين تشتري تلك المجلات التي تدفين رأسك بها دائماً؟».

أجابت جانيس وهي تواصل الغسيل: «من المحطة، وأنا في طريقي إلى العمل». قامت السيدة تيببت بتنظيف الفرن وهي تفكر بجواب

جانيس. وما إن أنهت المهمة برضا، خلعت مئزرها وطوته بعناية، ثم أخذت سلة التسوق الخاصة بها وقالت: «أنا ذاهبة للسوق».

بعد مغادرة النزل، لم تنعطف إلى اليمين كما تفعل في كل صباح، عندما تتوجه إلى اللحام باحثةً عن أفضل شرائح اللحم المقدد الدانماركي، وإلى بائع الخضار من أجل أفضل الفاكهة، وإلى الخباز من أجل الخبز الأكثر سخونة وكأنه لتوه خارج من الفرن، والتي لن تشتري أي منها ما لم يكن سعرها مقبولاً. لكن ليس اليوم. فقد انعطفت إلى اليسار ومشت باتجاه محطة بادينغتون.

أبقت يدها مشدودةً على محافظتها، لأنها كثيراً من النزلاء أبلغوها بتعرضهم للسرقة خلال لحظات من وضع قدمهم في لندن، وسيباستيان آخر مثال. لقد كان ناضجاً جداً بالنسبة لعمره، ومع ذلك لا يزال ساذجاً إلى حد كبير.

شعرت السيدة تيببت بعصبية غير معهودة وهي تعبر الطريق وتنضم إلى حشود الركاب الذين يشقون طريقهم إلى داخل المحطة. ربما لأنها لم تدخل إلى مكتبة من قبل. لم يتسنَّ لها قدر كبير من الوقت كي تقرأ منذ أن قُتل زوجها وطفلها قبل خمسة عشر عاماً بالقصف الجوي في الجهة الشرقية للندن. لو قُدر للطفل أن يعيش، لكان بعمر سيباستيان تقريباً.

ومن دون سقف يأويها، انتقلت بيتي إلى الغرب، مثل طائر يحتاج لإيجاد أماكن طعام جديدة. لقد توظفت كعاملة تنظيف في نزل الملاذ الآمن. وبعد ثلاث سنوات أصبحت نادلة، وعندما مات المالك، لم ترث النزل لكنها بالأصح قبلت بإدارته، بما أن البنك كان يبحث عن شخص، أو

أي شخص، ليفك رهن العقار. كانت على وشك الإفلاس، لكنها أنقذت في العام 1951 بسبب مهرجان لندن الذي جذب مليون زائر إضافي إلى لندن، ما سمح للنزل أن يربح للمرة الأولى. ولقد ازداد هذا الربح في كل عام، حتى ولو بهامش قليل، والآن تم فك الرهن وأصبح المشروع لها. لقد اعتمدت على زبائنها الدائمين من أجل مساعدتها في تخطي محنة فصل الشتاء، لأنها تيقنت في وقت مبكر أن أولئك الذين يعتمدون على الزبائن العرضيين سوف يضطرون قريباً لإغلاق أبوابهم.

انتفضت السيدة تيببت من حلم يقظتها، ونظرت في أرجاء المحطة إلى أن استقرت عيناها على لافتة مكتوب عليها و. هـ. سميث. بقيت تراقب بينما كان المسافرون يدخلون ويخرجون. ومعظمهم يشتري الصحف الصباحية بثمن نصف بنس، لكن آخرين كانوا يتجولون بين رفوف الكتب في مؤخرة المكتبة.

غامرت بالدخول إلى هناك لكنها وقفت عاجزةً في وسط المكتبة، معيقةً حركة الزبائن. وعندما رأت امرأة في الخلف تكدس الكتب فوق الرفوف، مشت باتجاهها، لكنها لم تقاطع عملها.

نظرت المساعدة إلى الأعلى وقالت بأدب: «هل يمكنني مساعدتك يا سيدتي؟».

«هل سمعتِ بمؤلف يدعى هاري كليفتون؟».

أجابت المساعدة: «أوه نعم، إنه واحد من أكثر مؤلفينا شهرةً. هل هناك عنوان معين تبحثين عنه؟». هزت السيدة تيببت رأسها نافيةً. فقالت المساعدة: «إذاً دعينا نذهب لنرى ما لدينا في المخزن». مشت المساعدة نحو الطرف الآخر للمكتبة، والسيدة تيببت تتبعها، ثم توقفت

عندما وصلت إلى قسم فيه لافتة مكتوب فيها الجريمة. كانت نسخ كتاب الأمور الغامضة مصفوفة بشكل مرتب بعدة فراغات تؤكد كم كان المؤلف مشهوراً. أضفت المساعدة: «وبالطبع، هناك مذكرات السجن، والسيرة ذاتية لـ للورد بريستون، تدعى المبادئ الوراثة، وهي تدور حول قضية الميراث المذهلة بين كليفتون وبارينغتون. ربما تذكرينها؟ فقد هيمنت على عناوين الصحف الرئيسية لعدة أسابيع».

«أي من روايات السيد كليفتون تنصحين بها؟».

أجابت المساعدة: «كلما يُطرح عليّ هذا السؤال بخصوص أي مؤلف، أقترح دائماً البدء بأول كتاب له». تناولت نسخة من ويليام ورويك وقضية الشاهد الأعمى عن الرف.

«هل الكتاب الآخر، الذي له علاقة بالوراثة، يخبرني أكثر عن عائلة كليفتون؟».

أجابت المساعدة وهي تتجه نحو قسم السيرة الذاتية: «نعم، وستجدينه مشوقاً مثل أي رواية أخرى»، ثم أضافت وهي تعطيها الكتابين: «ثمنهما ثلاثة شلنات يا سيدتي».

عندما عادت السيدة تيببت إلى النزل قبل وقت الغداء تماماً، دُهشت جانيس لرؤية سلة التسوق فارغة، ودُهشت أكثر عندما أقفلت باب مكتبها عليها، لتخرج فقط في حال قُرع الباب الرئيسي ليعلن عن زبون محتمل.

لقد استغرقت يومين وليلتين لتقرأ مبادئ الوراثة لـ ريج بريستون، وبذلك أدركت السيدة تيببت أن عليها زيارة مكان آخر لم تدخله من قبل، وسوف يكون أكثر إرهاقاً للأعصاب بكثير من المكتبة.

نزل سيباستيان لتناول الفطور في وقت مبكر من صباح الاثنين، لأنه أراد تبادل الحديث مع والد برونو قبل مغادرته للعمل.

قال وهو يجلس على طاولة الفطور: «صباح الخير يا سيدي».

أجاب بيدرو وهو يضع صحيفته على الطاولة: «صباح الخير يا سيباستيان، إذاً هل حزمت أمرك فيما إذا كنت ستأتي معي إلى بيونس آيرس؟».

«نعم يا سيدي. أحب أن أذهب معك إذا لم يفت الأوان على ذلك».

أجاب الدون بيدرو: «لن يكون ذلك مشكلة، تأكد فقط من أن تكون جاهزاً في الوقت الذي أعود به».

«متى سنغادر يا سيدي؟».

«حوالي الساعة الخامسة».

قال سيباستيان في الوقت الذي دخل فيه برونو إلى الغرفة: «سأكون جاهزاً وبالانتظار».

قال الدون بيدرو عندما جلس ابنه: «سوف تُسر لسماعك أن سيباستيان سيسافر إلى بيونس آيرس معي. وسوف يعود إلى لندن بنهاية الشهر. احرص على الاهتمام به عندما يعود».

كان برونو على وشك التعليق على كلام أبيه عندما دخلت إيلينا ووضعت طبقاً من الخبز المحمص في وسط الطاولة.

سألت برونو: «ما الذي تود تناوله على الفطور يا سيدي؟».

«بيضتان مسلوقتان لو سمحت».

قال سيباستيان: «وأنا أيضاً».

قال الدون بيدرو وهو ينهض من مكانه على رأس الطاولة: «يجب أن أذهب، لديّ موعد في شارع بوند». التفت إلى سيباستيان وأضاف: «أحرص على أن تكون جاهزاً أنت وأمتعتك للمغادرة بحلول الساعة الخامسة».

قال سيباستيان وهو يبدو متحمساً بحق: «لا أطيق الانتظار يا سيدي».

قال برونو ووالده يغادر الغرفة: «أتمنى لك يوماً سعيداً يا أبي». لم يتكلم ثانية إلى حين سمع الباب الرئيسي يُغلق، وعندها نظر إلى الجانب الآخر للطاولة وقال لصديقه: «هل أنت واثق من أنك اتخذت القرار الصحيح؟».

لم تتوقف السيدة تيببت عن الارتجاف. فهي لم تكن مقتنعة أن باستطاعتها إتمام الأمر. عندما جلس النزلاء لتناول الفطور ذلك الصباح، قُدم لهم بيض مسلوق وخبز محمص محروق مع شاي فاتر، وقد انتهى الأمر بإيقاع اللوم على جانيس. لقد تبين أن عدم قيام السيدة تيببت بالتسوق لمدة يومين كان أمراً سيئاً، فقد كان الخبز فاسداً، والفاكهة أكثر من ناضجة، كما لم يعد لديها لحم مقدد. شعرت جانيس بالراحة عند خروج آخر نزيل ساخط من غرفة الفطور. حتى أن أحدهم رفض دفع الفاتورة.

ذهبت إلى المطبخ لترى إذا كانت السيدة تشعر بسوء، لكن لم يكن هناك من أثر لها. فتساءلت جانيس أين يمكن أن تكون.

كانت السيدة تيببت في الحقيقة على متن الحافلة رقم 148 في طريقها إلى وايتهاول. لم تكن تعرف إذا كان باستطاعتها إتمام الأمر. حتى لو وافق على رؤيتها، فماذا ستقول له؟ ففي النهاية، ما شأنها بذلك؟ لقد أصبحت مشغولة الذهن للغاية لدرجة أن الحافلة عبرت جسر ويستمينستر قبل أن تنزل من الحافلة. أخذت وقتها في المشي بجانب نهر التايمز، ليس لأنها معجبة بالمناظر على جانبي النهر مثل السياح.

لقد غيرت رأيها عدة مرات قبل أن تصل إلى ساحة البرلمان، حيث أصبحت خطواتها أبطأ وأبطأ إلى أن توقفت أخيراً خارج مدخل مجلس العموم، حيث تحولت إلى عمود ملح مثل زوجة لوط.

ابتسم كبير البوابين للتمثال المتجمد، وهو الذي اعتاد على التعامل مع الناس الذين يشعرون بالرهبة عند زيارتهم الأولى لقصر ويستمينستر وقال: «هل بإمكانك مساعدتك يا سيدتي؟».

«هل هنا مكان رؤية أحد أعضاء البرلمان؟».

«هل لديك موعد؟».

أجابت السيدة تيببت: «كلا ليس لدي موعد».

«لا تقلقي، فلا يحظى كثير من الناس بموعد. سيكون عليك أن تأملي أن يكون النائب في المجلس وأن يكون لديه وقت لرؤيتك. وفي حال وددت الانضمام إلى الصف، سوف يقوم أحد زملائي بمساعدتك».

صعدت السيدة تيببت الدرج، وتجاوزت قاعة ويستمينستر ثم انضمت إلى صف طويل وصامت. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المقدمة بعد ساعة، تذكرت أنها لم تخبر جانيس أين كانت ذاهبة.

اصطُحبت إلى الردهة الرئيسية، حيث أدخلها أحد الموظفين إلى مكتب الاستقبال.

قال الموظف المسؤول: «صباح الخير يا سيدتي، من هو الشخص الذي تأملين برؤيته؟».

«السيد جايلز بارينغتون».

«هل أنتِ أحد أفراد دائرته الانتخابية؟».

أول ما خطر ببالها أن هذه فرصة أخرى للهروب. قالت: «كلا، أود التحدث معه بخصوص مسألة شخصية».

قال الموظف وكأن لا شيء يمكن إدهاشه: «أفهم ذلك، أعطني اسمك لو سمحتِ وسوف أكتبه على بطاقة الزوار».

«السيدة فلورنس تيببت».

«وعنوانك».

«المنزل رقم سبعة وثلاثين، شارع برايد، بادينغتون».

«وبشأن ماذا ترغبين بالتحدث مع السيد جايلز؟».

«بشأن ابن أخته، سيباستيان كليفتون».

أكمل الموظف كتابة البطاقة وسلمها إلى أحد السعاة.

سألت: «لكم من الوقت عليّ الانتظار؟».

أجاب وهو يشير إلى المقاعد الخضراء التي تحيط بجدران الردهة المركزية: «يستجيب الأعضاء بسرعة في العادة إذا كانوا في المجلس. لكن ربما تودين الجلوس وأنت تنتظرين».

مشى الساعي عبر الممر الطويل إلى الطابق السفلي للمجلس.

عندما دخل إلى ردهة الأعضاء سلم البطاقة إلى أحد زملائه الذي أخذها بدوره إلى الغرفة. لقد كان المجلس مزدحماً بأعضاء أتوا للاستماع إلى بيتر ثورنيكروفت، وهو يعلن عن رفع توزيع المشتقات النفطية بالبطاقة بعد نهاية أزمة قناة السويس.

وجد الساعي السيد جايلز يجلس في مكانه المعتاد، فسلم البطاقة لعضو في نهاية الصف الثالث، حيث بدأت تقدمها البطيء، فكل عضو يتفقد الاسم ومن ثم يمررها على طول الخط، إلى أن وصلت أخيراً إلى السيد جايلز.

وضع عضو البرلمان عن بريستول دوكلاند البطاقة في جيبه بينما وقف على قدميه في اللحظة التي أنهى فيها وزير الخارجية النقاش بشأن المسألة السابقة، على أمل لفت انتباه رئيس المجلس.

صرخ رئيس المجلس: «السيد جايلز بارينغتون».

«هل بإمكان وزير الخارجية إخبار المجلس كيف سيؤثر إعلان الرئيس على الصناعة البريطانية، وبشكل خاص على مواطنينا الذين يعملون في حقل الدفاع؟».

نهض السيد سيلوين لويد مرة أخرى وقال: «أستطيع أن أقول للسيد المحترم والشجاع إني على اتصال دائم بسفيرنا في واشنطن، وهو يؤكد لي...».

في الوقت الذي أجاب فيه السيد لويد على السؤال الأخير بعد مُضي أربعين دقيقة، نسي جايلز تماماً أمر بطاقة الزائر.

لقد مر حوالي ساعة من الوقت، بينما كان يجلس في غرفة الشاي مع بعض الزملاء، وحينها أخرج محفظته فسقطت البطاقة على الأرض. التقطها ونظر إلى الاسم، لكنه لم يتذكر أحداً باسم السيدة تيببت. قلبها وقرأ الرسالة، فنهض من مقعده بسرعة واندفع خارجاً من غرفة الشاي ولم يتوقف عن الركض حتى وصل إلى الردهة المركزية وهو يصلي على أمل أنها لم تفقد ثقتها به. وعندما وقف بجانب مكتب الموظف المسؤول، طلب منه الاتصال بالسيدة تيببت.

«آسف أيها السيد جايلز، لكن السيدة غادرت قبل دقائق قليلة، وقالت إنه يجب عليها العودة إلى العمل».

قال السيد جايلز وهو يقلب البطاقة ليتفحص العنوان: «اللعنة».

قال جايلز وهو يركب سيارة أجرة تقف خارج مدخل أعضاء المجلس: «شارع برايد، بادينغتون. وأنا مُتأخر مسبقاً، لذا أسرع قليلاً».

أجاب السائق وهو يقود السيارة خارج البوابات الرئيسية محاولاً إيجاد طريقه للخروج من ساحة البرلمان: «أنت لا تريدني أن أتخطى حدود السرعة، أليس كذلك يا سيدي؟».

أراد أن يقول جايلز له نعم أريدك أن تفعل، لكنه أمسك لسانه. ما إن علم أن السيدة تيببت غادرت مجلس العموم، اتصل بصهره ليخبره عن تلك الرسالة الغامضة من مجهول. كان أول رد فعل لهاري هو أن يستقل أول قطار متجه إلى لندن، لكن لم ينصحه جايلز بالمجيء، في حال تبين أن ذلك إنذار خاطئ. لكن جايلز أخبره بوجود احتمال لأن يكون سيباستيان في طريق عودته إلى بريستول.

جلس جايلز على طرف مقعده متمنياً تحول كل إشارات المرور إلى اللون الأخضر، كما حث السائق على تغيير مساره كلما سنحت له الفرصة كي يقطع عدة ياردات إضافية. لم يكن بإمكانه إيقاف التفكير بما عاناه هاري وإيما خلال اليومين الماضيين. ترى هل أخبرا جيسيكاً؟ وإذا فعلاً، فهي ستكون جالسة أعلى الدرج في مانور هاوس تنتظر بقلق عودة سيباستيان.

ما إن توقفت سيارة الأجرة خارج المنزل رقم 37، لم يستطع السائق تجنب التفكير بالسبب المحتمل الذي يجعل عضو برلمان يزور نزلًا في

محطة بادينغتون. لكن لم يكن هذا من شأنه، وخصوصاً أن السيد النبيل أعطاه بقشيشاً كبيراً. خرج جايلز بسرعة من سيارة الأجرة وركض نحو الباب وطرق عدة مرات. وبعد عدة لحظات، فتحت الباب امرأة شابة وقالت: «آسفة يا سيدي، لكن آخر غرفة قد شُغلت».

أخبرها جايلز: «لستُ أبحث عن غرفة، كنتُ أمل رؤية...»، ألقى نظرة مرة أخرى على بطاقة الزائر - «السيدة تيببت».

«من يريدونها؟».

«جايلز بارينغتون».

قالت قبل أن تُغلق الباب: «لو سمحت، انتظر هنا يا سيدي».

انتظر جايلز على الرصيف وهو يتساءل فيما إذا كان سيباستيان على بعد مائة ياردة من محطة بادينغتون كل هذا الوقت. لقد كان عليه أن ينتظر لدقيقتين قبل أن يُفتح الباب مرة أخرى.

قالت السيدة تيببت وهي تبدو مرتبكة: «أنا آسفة جداً أيها السيد جايلز، فليس لدى جانيس فكرة عمن تكون. رجاءً ادخل إلى صالة الاستقبال».

ما إن جلس جايلز في مقعد مريح عالي المسند، قدمت السيدة تيببت له كوباً من الشاي.

قال: «كلا، شكراً لك، أنا متلهف لأعرف إذا كان لديك أية أخبار عن سيباستيان. فوالداه قلقان جداً عليه».

أجابت السيدة تيببت: «بالطبع هما كذلك، لقد أخبرته أكثر من مرة أن عليه الاتصال بوالدته، لكن...».

قاطعها جايلز: «لكن؟».

«إنها قصة طويلة أيها السيد جايلز، سأكون سريعة قدر الإمكان». بعد عشر دقائق، أخبرته السيدة تيببت أن آخر مرة رآته فيها كانت عندما غادر في سيارة أجرة عائداً إلى إيتون سكوير، وأنها لم تسمع خبراً عنه منذ ذلك الوقت.

«إذاً حسب ما تعرفين، هو يقيم مع صديقه برونو مارتينيز في المنزل رقم أربعة وأربعون في إيتون سكوير؟».

«هذا صحيح أيها السيد جايلز. لكن...».

قال جايلز وهو ينهض من مقعده ويُخرج محفظته: «أنا مدين لك للغاية».

قالت السيدة تيببت وهي تلوح بإحدى يديها: «أنت لا تدين لي بشيء يا سيدي، فكل ما فعلته هو من أجل سيباستيان، وليس من أجلك. لكن إذا سمحت لي بإسداء نصيحة واحدة...».

قال جايلز وهو يجلس مرة أخرى: «نعم بالطبع».

«سيباستيان قلق من غضب والديه منه لأنه ضيع فرصة الذهاب إلى كامبريدج و...».

قاطعها جايلز قائلاً: «لكنه لم يفقد مقعده في كامبريدج».

«هذا أفضل خبر سمعته طيلة هذا الأسبوع. من الأفضل أن تجده بسرعة وتدعه يعرف ذلك، لأنه لن يذهب إلى المنزل وهو يعتقد أن والديه غاضبان منه».

قال جايلز وهو ينهض مرة ثانية: «سيكون التوقف الثاني لي في المنزل رقم أربعة وأربعين في إيتون سكوير».

قالت السيدة تيببت: «قبل ذهابك، ينبغي أن تعلم أنه تحمل المسؤولية عن صديقه، ولهذا السبب لم يتلق برونو مارتينيز العقوبة ذاتها. ولذا ربما يستحق المديح وليس التوبيخ الشديد».

«موهبتك ضائعة يا سيدة تيببت... كان عليك الالتحاق بالسلك الدبلوماسي».

«وأنت مجامل بارع أيها السيد جايلز، مثل معظم أعضاء البرلمان. ليس لأني صادفتُ واحداً منهم على الإطلاق من قبل، لكن لا تدعني أؤخرك أكثر من ذلك».

قال جايلز وهو ينهض من مكانه للمرة الثالثة: «شكراً لك مرة أخرى. ما إن ألتقي بـ سيباستيان وأرتب الأمور، ربما ستعودين إلى مجلس العموم وتنضمين إلينا في تناول الشاي؟».

«هذه مراعاة بالغة منك أيها السيد جايلز، لكني لا أستطيع تحمل أخذ يومين إجازة في أسبوع واحد».

قال جايلز بعد أن فتحت الباب الرئيسي ومشيت معه على الرصيف: «إذا سيكون ذلك في الأسبوع المقبل. سوف أرسل سيارة لتقلك».

قالت السيدة تيببت: «هذا لطف منك، لكن...».

«ليس هناك من لكن. لقد كان سيباستيان محظوظاً، محظوظاً جداً، عندما توقف عند المنزل رقم سبعة وثلاثين».

عندما رن جرس الهاتف، جال الدون بيدرو في الغرفة، لكنه لم يرفع السماعة إلى أن تحقق من أن باب غرفة مكتبه مغلق.

«مكالمتك الدولية من بيونس آيريس تنتظر على الخط يا سيدي».

سمع طقطقة، قبل أن يقول صوت: «أنا دييغو».

«اسمع جيداً. كل شيء في مكانه الصحيح، ومن ضمنه حصان

طروادة خاصتنا».

«هل هذا يعني أن شركة سوثبيز وافقت على...؟».

«سيكون التمثال ضمن لوائح البيع الخاصة بهم في نهاية هذا

الشهر».

«إذاً كل ما نحتاجه الآن هو حامل حقيبة».

«أظن أن لدي الشخص المثالي. إنه أحد أصدقاء برونو في المدرسة

يحتاج لعمل وهو يتكلم الإسبانية بطلاقة. والأفضل من ذلك أن خاله عضو في البرلمان وجده كان لوردًا، إذاً هو ما يعتبره الإنكليز ذا دم أزرق، ما يُمكن من جعل الأمور أكثر سهولة».

«هل يعرف سبب اختيارك له؟».

قال الدون بيدرو: «كلا. وهذا ما سوف يجعلنا بعيدين عن كل ما

يحدث».

«متى يصل إلى بيونس آيريس؟».

«سوف ينضم إليّ على متن السفينة هذا المساء، وسيعود بأمان إلى

إنكلترا قبل وقت طويل من اكتشاف أي شخص لما خططنا له».

«هل تظن أنه كبير بما يكفي ليُنْفذ مثل هذا العمل الهام؟».

«الفتى أكبر من عمره، والمهم أيضاً، إنه يحب المخاطرة قليلاً».

«يبدو مثالياً. وهل وضعتَ برونو في الصورة؟».

«كلا. كلما قلت معرفته، كان ذلك أفضل».

قال ديبغو: «موافق. هل هناك شيء آخر تريد إعلامي به قبل أن

تصل؟».

«أحرص فقط على أن تكون الإرسالية جاهزة للتحميل والشحن على

متن السفينة كوين ماري في رحلة عودتها».

«وماذا بشأن الأوراق النقدية؟».

قُطعت أفكار الدون بيدرو جراء نقرة خفيفة على الباب. فالتفت

ليجد سياستيان يدخل الغرفة.

«أمل أني لا أقاطعك يا سيدي».

قال الدون بيدرو وهو يضع السماعه ويبتسم للشاب الذي أصبح

آخر قطعة في الأحجية: «كلا، كلا».

فكر جايلز في التوقف عند أقرب كشك هاتف كي يتصل ب هاري

ويخبره أنه اقتفى أثر سياستيان وأنه في طريقه لأخذه، لكنه أراد رؤية

الصبي أولاً وجهاً لوجه قبل إجراء الاتصال.

كانت حركة المرور مزدحمة جداً في بارك لاين، ولم يُظهر سائق

سيارة الأجرة أي اهتمام بزيادة سرعته، ناهيك عن قطع الإشارة

البرتقالية. أخذ نفساً عميقاً، وفكر بينما السيارة تنعطف عند هايد بارك كورنر، ما الفارق الذي قد تُحدثه بضع دقائق.

أخيراً، اقتربت سيارة الأجرة من المنزل رقم 44 في إيتون سكوير، فدفع جايلز مبلغ العداد بالتحديد قبل أن يصعد الدرج ويقرع الباب. فتح الباب رجل عملاق، وابتسم لجايلز وكأنه تقريباً كان يتوقع حضوره. «هل لي بمساعدتك يا سيدي؟».

«أنا أبحث عن ابن أختي سيباستيان كليفتون الذي فهمتُ أنه يُقيم هنا مع صديقه برونو مارتينيز».

قال الخادم بأدب: «كان يقيم هنا يا سيدي، لكنهما غادرا إلى مطار لندن منذ حوالي عشرين دقيقة».

سأله: «هل تعلم على أي طائرة هم مسافرون؟».

«لا أعلم سيد جايلز».

«أو أين هم ذاهبون؟».

«لم أسأل».

«شكراً لك»، قال جايلز، الذي يُدرك بعد مُضي سنوات عليه كضارب كرة افتتاحي، معنى المماطلة عندما يواجهها. التفت لبحث عن سيارة أجرة أخرى في الوقت الذي أُغلق فيه الباب وراءه. وجد إشارة صفراء مُضاءة فلوح للسيارة التي قامت بالانعطاف على الفور كي تُقله.

قال قبل أن يدخل إلى المقعد الخلفي بسرعة: «مطار لندن، وسوف أعطيك ضعف ما يظهر على العداد في حال أوصلتني إلى هناك خلال

أربعين دقيقة». انطلقا بالسيارة في اللحظة التي فُتح فيها باب المنزل رقم 44 ليخرج شاب يهبط الدرج بسرعة ويلوح له بلهفة.

صرخ جايلز: «قف!». فأصدرت سيارة الأجرة صريراً وتوقفت.
«احزم أمرك يا سيدي».

«أنزل جايلز زجاج النافذة بينما كان الشاب يركض نحوه.

قال: «اسمي برونو مارتينيز. هما لم يذهبا إلى المطار، بل في طريقهم إلى ساوثهامبتون ليلحقا بالسفينة س س ساوث أميركا».

قال جايلز: «شكراً لك، سوف أدع سيباستيان يعلم...».

قال برونو: «لا، أرجوك لا تفعل يا سيدي، ومهما تفعل، لا تخبر أبي
أني تحدثت إليك».

لم يلحظ أي منهما أن هناك شخصاً يحدق من نافذة المنزل رقم 44.

استمتع سيباستيان بالجلوس في المقعد الخلفي لسيارة الرولز
رويس، لكنه فوجئ عندما توقف في مقاطعة باترسي.

سأل الدون بيدرو: «هل طرت مرة في هيليكوبتر من قبل؟».

«كلا يا سيدي، أنا لم أركب في طائرة أبداً من قبل».

«ستستغرق رحلتنا ساعتين في الجو. وإذا كنت ستعمل لدي، فسوف
تتعلم بسرعة أن الوقت يساوي المال».

حلقت الهيليكوبتر في السماء ثم مالت لجهة اليمين واتجهت جنوباً نحو ساوثهامبتون. نظر سيباستيان إلى حركة المرور في ذلك الوقت المبكر من المساء وهي تتابع خطوتها البطيئة إلى خارج لندن.

قال سائق سيارة الأجرة: «لا أستطيع الوصول إلى ساوثهامبتون خلال أربعين دقيقة يا سيدي».

قال جايلز: «مفهوم، لكن إذا استطعت إيصالي إلى رصيف الميناء قبل أن تُبحر السفينة س س ساوث أميركا، سأضاعف أجرتك كما قلت سابقاً».

انطلق سائق سيارة الأجرة مثل حصان أصيل يخرج من حظيرته وفعل ما بوسعه ليتغلب على حركة المرور في ساعة الذروة، فدخل في شوارع جانبية لم يعرف جايلز بوجودها، ويتخطى إشارات المرور الحمراء. لكن مع ذلك استغرق أكثر من ساعة قبل أن يصل إلى طريق وينشستر، ليجد أن أعمال الطرق المنتشرة هناك حددت الحركة في مسار واحد من الطريق مما أبطأ سرعته. نظر جايلز من نافذته إلى الخارج ليرى أن ليس هناك تقدماً كبيراً في أعمال الطريق.

بقي ينظر إلى ساعته، لكن عقرب الثواني كان الشيء الوحيد الذي احتفظ بسرعته الثابتة، كما أن فرص وصولها للميناء قبل الساعة التاسعة بدت مستبعدة أكثر بمرور الوقت. فتضرع بأمل أن تتأخر السفينة لعدة دقائق فقط، رغم معرفته أن القبطان لا يستطيع تحمل تفويت المد عليه.

أسند جايلز ظهره للخلف وفكر بكلمات برونو. مهما تفعل، لا تُخبر أبي أني تحدثتُ معك. لم يكن بإمكان سيباستيان طلب أكثر من ذلك من

صديق. نظر إلى ساعته مرة أخرى، كانت تشير إلى الساعة والنصف. كيف أمكن للخادم اقتراح مثل هذا الخطأ البسيط عندما قال إنهما في طريقهما إلى مطار لندن؟ الساعة الساعة وخمس وأربعون دقيقة مساءً. من الواضح أنه لم يكن خطأ، لأن الرجل خاطبه بـ «السيد جايلز»، رغم استحالة معرفة أنه على وشك الظهور أمام عتبة بابه. ما لم... الساعة الثامنة مساءً. وعندما قال، «هما غادرا إلى مطار لندن»، من كان الشخص الآخر الذي يُلمح إليه؟ هل هو والد برونو؟

الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة. لم يتمكن جايلز من الوصول إلى جواب مرضٍ لأي من تلك الأسئلة في الوقت الذي تأرجحت السيارة فيه خارج طريق وينشيستر وتوجهت إلى الميناء. الساعة الثامنة والنصف مساءً. نحى جايلز كل هواجسه جانباً وبدأ يفكر بما يجب فعله في حال وصلا إلى رصيف الميناء قبل أن ترفع السفينة مرساتها. الساعة الثامنة وخمس وأربعون دقيقة.

قال بلهجة آمرة: «أسرع!»، رغم أنه اعتقد مسبقاً أن السائق ضغط بقدمه إلى النهاية على دواسة الوقود. وفي النهاية وجد سفينة الركاب الضخمة، وبينما كانت السفينة تزداد كبراً وكبراً بمرور الوقت، بدأ يعتقد أنهما ربما يصلان إليها في الوقت المحدد تماماً. لكن حينها سمع صوتاً كان يمقته: ثلاث صفرات قوية وطويلة لبوق السفينة محذراً من الضباب.

قال السائق: «الوقت والمد لا ينتظران أحداً». ملاحظة لم يكن لـ جايلز أن يعيش من دونها في تلك اللحظة بالتحديد. توقفت سيارة الأجرة إلى جانب سفينة ساوث أميركا، لكن سلم الركاب كان قد رُفِع مسبقاً وحبال الرسو قد أرخيت كي تسمح للسفينة الضخمة بالإبحار ببطء مبتعدة عن رصيف الميناء إلى البحر الواسع.

صرخ قائلاً دون أن يكون لديه أي فكرة عن مكانه: «مكتب مدير الميناء!». لقد اضطر السائق للتوقف مرتين ليسأل عن الاتجاهات قبل أن يوقف السيارة بجانب المكتب الوحيد الذي لاتزال أنواره مضاءة.

قفز جايلز من السيارة واندفع داخل مكتب مدير الميناء دون أن يطرق الباب. وفي الداخل، أصبح وجهاً لوجه أمام ثلاثة رجال مفزوعين.

قال رجل بلهجة أمره يرتدي زي سلطة الميناء، ويظهر على سترته صفائر ذهبية أكثر مما على زملائه الآخرين: «من أنت؟».

قال وهو يشير إلى خارج النافذة: «انا السيد جايلز بارينغتون. وابن أختي على متن تلك السفينة. هل هناك من طريقة لإنزاله منها؟».

«لا أظن ذلك يا سيدي، ما لم يرغب القبطان بإيقاف السفينة والسماح له بالنزول فوق واحد من قواربنا، وهذا أمر مستبعد تماماً. لكنني سأحاول. ما اسم الراكب؟».

«سيباستيان كليفتون. وهو لا يزال قاصراً، ولدي تفويض من والديه لإخراجه من تلك السفينة».

أمسك مدير الميناء بميكروفون وبدأ يعبثُ ببعض الأزرار على لوحة تحكم في محاولة منه للاتصال بالقبطان.

قال: «لا أريد أن أرفع من آمالك، لكن القبطان وأنا خدمنا معاً في البحرية الملكية، ولذا...».

قال الصوت الإنكليزي البحت: «معكم قبطان السفينة س س ساوث أميركا».

قال مدير الميناء قبل تمرير طلب السيد جايلز: «أنا بوب وولترز أيها القبطان. لدينا مشكلة، وسأكون ممتناً لأي مساعدة بإمكانك تقديمها».

قال القبطان: «سأكون سعيداً في تلبية طلبك في الظروف العادية يا بوب، لكن المالك موجود في غرفة القيادة، ولذا عليّ طلب الإذن منه».

قال جايلز ومدير الميناء معاً: «شكراً لك»، قبل أن ينقطع الخط.

سأل جايلز: «هل هناك أية ظروف يكون لك فيها سلطة رفض قرار القبطان؟».

«عندما تكون سفينته راسية في المصب. فما إن تتخطى المنارة الشمالية، تُعتبر في القنال وتصبح خارج صلاحياتي القانونية».

«لكن بإمكانك إصدار أمر لأي قبطان عندما تكون سفينته في المصب؟».

«نعم يا سيدي، لكن تذكر، إنها سفينة أجنبية، ولا نريد أزمة دبلوماسية، ولذا لن أرغب بمعارضة قرار القبطان ما لم أكن مقتنعاً بحدوث فعل إجرامي».

سأل جايلز: «ما الذي يؤخرهم كثيراً في الرد؟». فجأةً، خشخش صوت في شبكة الاتصال الداخلية.

«آسف يا بوب. المالك غير راغب بتلبية طلبك لأننا نقرب من حائط الميناء وقريباً سوف نصل إلى القنال».

خطف جايلز الميكروفون من يد مدير الميناء وقال: «معك السيد جايلز بارينغتون. رجاء أوصلني بالمالك. أريد التحدث معه بشكل شخصي».

قال الكابتن: «آسف أيها السيد جايلز، لكن السيد مارتينيز غادر غرفة القيادة وذهب إلى مقصورته، وترك أوامر صارمة بعدم إزعاجه».

هاري كليفتون

1957

لقد افترض هاري أن لا شيء يمكن أن يفوق الفخر الذي شعر به عندما سمع بفوز سيباستيان بمنحة دراسية في جامعة كامبريدج. كان مخطئاً. فقد شعر بالفخر نفسه وهو يشاهد زوجته تعتلي الدرج المفضي إلى المنصة لاستلام شهادتها في إدارة الأعمال، بامتياز مع مرتبة الشرف، من رئيس جامعة ستانفورد، والاس ستيرلينغ.

لقد عرف هاري أكثر من أي شخص، التضحيات التي بذلتها إيما لتلبي المعايير العالية التي حددها البروفيسور فيلدمان لنفسه ولطلابيه، حتى أنه توقع من إيما ما هو أكثر، كما أوضح بشكل جلي على مدى السنوات الماضية.

بينما كانت تغادر المنصة على وقع تصفيق حار، وهي ترتدي رداء التخرج الأزرق كبقية الطلاب الذين سبقوها، قذفت قبعة تخرجها بفرح في الهواء، علامةً على أن سنوات مرحلة ما قبل تخرجها أصبحت خلفها. لم يكن بوسعها سوى أن تتساءل عن رأي أمها العزيزة بمثل هذا التصرف من سيدة إنكليزية عمرها 36 عاماً، وفي العلن.

تحولت نظرات هاري من زوجته إلى البروفيسور المرموق في دراسات إدارة الأعمال، والذي كان يجلس في المنصة على بعد مقعدين من رئيس الجامعة. لم يبدِ سايروس فيلدمان أي محاولة لإخفاء مشاعره بما يتعلق بتلميذته اللامعة. فقد كان أول من وقف على قدميه للتصفيق لإيما، وآخر من جلس. غالباً ما تعجب هاري من قدرة زوجته على جعل

الرجال الأقوياء، بدءاً من الفائزين بجائزة بوليتزر وصولاً إلى رؤساء الشركة، يخضعون لإرادتها، تماماً كما فعلت أمها من قبلها.

كم كانت إليزابيث لتشعر بالفخر بابنتها اليوم، لكن ليس أكثر من أمه، لأن ميسي عانت الكثير من الصعوبات قبل تمكنها من وضع الحرفين BA (إدارة أعمال) بعد اسمها.

تناول هاري وإيما طعام العشاء مع البروفيسور فيلدمان وزوجته إيلين في الأمسية الماضية. لم يكن فيلدمان قادراً على رفع أنظاره عن إيما، حتى أنه اقترح وجوب أن تعود إلى ستانفورد وتحت إشرافه الشخصي، كي تُكمل رسالة الدكتوراه.

قالت إيما وهي تشبك ذراعها بذراع هاري: «ماذا بشأن زوجي المسكين؟».

أجاب فيلدمان دون محاولة إخفاء ما في ذهنه: «سيتوجب عليه فقط أن يتعلم العيش من دونك لمدة سنتين». عندما يسمع العديد من الرجال الإنكليز ذوي الدم الحامي مثل هذا الاقتراح بشأن زوجاتهم، ربما يلكمون فيلدمان على أنفه، وربما أيضاً تُسامح امرأة أقل تحملاً من السيدة فيلدمان إذا ما رفعت دعوى طلاق كما فعلت سابقاتها الثلاث. ابتسم هاري فقط، بينما تظاهرت السيدة فيلدمان بأنها لم تنتبه.

لقد وافق هاري على اقتراح إيما بوجوب سفرهما إلى إنكلترا مباشرةً بعد انتهاء الحفل، بما أنها تريد العودة إلى مانور هاوس قبل عودة سيباستيان من بيتشكروفت. استغرقت إيما في تفكيرها، فابنهما لم يعد تلميذ مدرسة، وهو على بعد ثلاثة أشهر فقط من سنته الجامعية الأولى.

ما إن انتهى الحفل، تمشت إيما على العشب مستمعةً بالجو الاحتفالي وتعرفت إلى زملائها الخريجين الذين هم مثلها، أمضوا ساعات لا تُحصى في الدراسة وحيدين بينما كانوا يعيشون في بلاد بعيدة، والآن يتقابلون للمرة الأولى. لقد تعرف الأزواج ببعضهم وتبادلوا عناوين سكنهم. وبحلول الساعة السادسة، عندما بدأ النُدل بطي الكراسي، وجمع زجاجات الشمبانيا المشروبة عن آخرها وتكديس الأطباق الفارغة، اقترح هاري أنه ربما ينبغي لها العودة إلى الفندق.

لم تتوقف إيما عن الكلام طيلة الطريق المؤدي إلى فندق فيرمونت، وعندما كانت تحزم الأمتعة، وأثناء الركوب في سيارة الأجرة في طريقهما إلى المطار، وبينما هما ينتظران رحلتها في صالة الدرجة الأولى. لكنها لم تكد تصعد على متن الطائرة وتجد مكان جلوسها وتثبت حزامها، حتى أغمضت عينيها وغرقت مباشرةً في سبات عميق.

قالت إيما وهما ينطلقان في طريق عودتهما الطويل من مطار لندن إلى مانور هاوس: «أنت تتصرف كرجل في منتصف العمر بشكل واضح».

أجاب هاري: «أنا في منتصف العمر، فعمري سبعة وثلاثون عاماً، والأسوأ، أن النساء الشابات بدأن يناديني بـ سيدي».

قالت إيما وهي تنظر إلى الخريطة: «حسناً، لا أشعر أنني في منتصف العمر. انعطف إلى اليمين بعد إشارة المرور وسوف تكون في طريق جريت باث».

«هذا لأن حياتك بدأت للتو بالنسبة إليك».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنك حصلت على شهادتك وعُينتِ في مجلس إدارة شركة بارينغتون، وهذا يفتح الباب لحياة جديدة كلياً بالنسبة إليك. ولنكن واقعيين، فقبل عشرين عاماً لم تكن أي من هاتين الفرصتين ممكنة».

«لقد كانتا ممكنتين بالنسبة إلى وضعي لأن سايروس فيلدمان وروس بيوكانان رجلان متنوران عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع النساء على قدم المساواة. ولا تنسَ أن جايلز وأنا نملك عشرين بالمئة من الشركة فيما بيننا، كما أن جايلز لم يبدِ أي اهتمام بأخذ مكان في مجلس الإدارة».

«ربما يكون الوضع كذلك، لكن إذا حرصتِ على أداء العمل بشكل جيد، ربما هذا يساعد بإقناع رؤساء مجالس الشركات الآخرين على الاحتذاء بحذو روس».

«لا تخدع نفسك. سوف تمر عقود من الزمن قبل أن تُعطى النساء الكفووات الفرصة للحلول مكان الرجال غير الأكفاء».

«حسناً، دعينا على الأقل نتضرع ليكون الأمر أفضل بالنسبة إلى جيسيكا. أمل أنها بحلول الوقت الذي تنتهي فيه من المدرسة، لن يكون هدفها الوحيد في الحياة هو تعلم كيفية الطبخ وإيجاد شخص مناسب لتتزوجه».

«هل تظن أن هذين الأمرين كانا هدي في الوحيدين في الحياة؟».

أجاب هاري: «إذا كانا كذلك، فقد فشلتِ في كليهما. ولا تنسي بأنك اخترتني عندما كنتِ في الحادية عشرة من عمرك».

قالت إيما: «في العاشرة. لكن مع ذلك، تطلب الأمر منك سبعة أعوام أخرى لتُقدم عليه».

قال هاري: «أياً يكن الأمر، لا ينبغي علينا الافتراض أنه فقط بسبب فوز كلانا بمقعد في أوكسفورد، وكون جريس بروفيسورة في جامعة كامبريدج، فإن هذا سيكون الطريق الذي تسير عليه جيسिका».

«ولماذا ينبغي عليها ذلك، وهي بهذه الموهبة الكبيرة؟ أعلم أنها معجبة بإنجاز سيب، لكن قدوتها هي باربرا هيبورث وأخرى تُدعى ماري كاسات، ولهذا السبب كنتُ أفكر بماهية الخيارات الأخرى المفتوحة أمامها».

نظرت إِيها مرة أخرى إلى الخريطة وقالت: «انعطف يميناَ بعد حوالي نصف ميل. يجب أن يكون هناك لافتة تشير إلى بلدة ريدينغ».

سأل هاري: «ما الذي كنتما تخططانه أنتما الاثنان من وراء ظهري؟».

«في حال جيسिका كانت جيدة بما يكفي، وإذا أكدت لي معلمتها في مادة الفنون ذلك، فإن المدرسة تريد منها التقدم بطلب للحصول على مقعد في الكلية الملكية للفنون، أو كلية سلايد للفنون الجميلة».

«ألم تذهب الآنسة فيلدينغ إلى كلية سلايد؟».

«نعم، وهي تذكرني دائماً بأن جيسिका بعمر الخامسة عشرة هي فنانة أفضل منها عندما كانت في سنة الدبلوم».

«لا بد وأن ذلك مزعج قليلاً».

«يا له من رد فعل مثالي بالنسبة إلى رجل. في الواقع، الآنسة فيلدينغ مهتمة فقط برؤية جيسिका تحقق طموحها. تريدها أن تكون أول فتاة من مدرسة ريد ميدز تحصل على مقعد في الكلية الملكية».

قال هاري: «سيكون هذا إنجازاً مضاعفاً، بما أن سيب هو أول فتى من بيتشكروفت يحصل على أعلى منحة دراسية في كامبريدج».

صححت إيمّا كلامه: «الأول منذ العام 1922. انعطف اليسار عند الدوار القادم».

قال هاري وهو ينفذ تعليماتها: «لا بد وأنهم يحبونك في مجلس إدارة بارينغتون. بالمناسبة، في حال نسيت، سوف يصدر كتابي خلال الأسبوع القادم».

«هل سيرسلونك إلى أي مكان مثير من أجل الترويج له؟».

«سأتحدث في حفل غداء أدبي لصحيفة يوركشاير بوست يوم الجمعة، وقد أبلغتُ بأنهم باعوا عدداً كبيراً من التذاكر التي لديهم من أجل نقل الغداء من أحد الفنادق المحلية إلى حلبة السباق الكائنة في مدينة يورك».

مالت إيمّا نحوه كي تطبع قبلة على خده وقالت: «مبروك يا عزيزي!».

«أخشى أن لا علاقة لي بالأمر، لأنني لست المتحدث الوحيد».

«قل لي اسم منافسك كي أتمكن من قتله».

«اسمها أجاثا كريستي».

«إذاً، هل أثبت ويليام وورويك أخيراً أنه منافس لإيركول بوارو؟».

«أخشى أن ليس بعد. لكن من ناحية أخرى، لقد كتبت الآنسة كريستي تسعاً وأربعين رواية، في حين أتممتُ لتوي روايتي الخامسة فقط.»

«ربما ستلحق بها بحلول الوقت الذي تكون قد كتبت فيه تسعاً وأربعين رواية.»

«سوف أكون محظوظاً جداً. إذاً، بينما أجوب أنحاء البلاد محاولاً الوصول إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، ما الذي تنوين فعله؟»

«أخبرتُ روس أني سأتي إلى المكتب لأراه يوم الاثنين. أنا أحاول إقناعه بعدم المضي قُدماً في إنشاء سفينة باكينغهام.»
«لكن لماذا؟»

«ليس الوقت مناسباً الآن للمخاطرة باستثمار هذا المبلغ من النقود على سفينة فاخرة في حين أن الركاب يبدلون ولاءهم بسرعة نحو الطائرات.»

«أتفهم وجهة نظرك، رغم أني أفضل كثيراً الإبحار إلى نيويورك على الطيران إليها.»

قالت إيما وهي تربتُ على فخذها: «هذا لأنك في منتصف العمر. كما أني وعدتُ جايلز أيضاً بالمرور على بارينغتون هال والتأكد من أن مارسدن جهّز كل ما يلزم له ولغوينيث عندما يأتیان إلى هناك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.»

«سيكون مارسدن على أتم الاستعداد من أجلهما.»

«سوف يبلغ عامه الستين في السنة القادمة، وأعلم أنه يفكر بالتقاعد».

قال هاري وهما يتجاوزان أول لافتة باتجاه بريستول: «لن يكون من السهل إيجاد أحد ليحل مكانه».

«لا تريد غوينيث استبداله. إنها تقول إن الوت حان لجايلز كي يدخل في النصف الثاني للقرن العشرين».

«ما الذي يجول في ذهنها؟».

«تعتقد أنه ربما يكون هناك حكومة عمالية بعد الانتخابات القادمة، وبما أنه من المؤكد تقريباً أن جايلز سيكون وزيراً، فهي تعتزم تحضيره للمهمة، وهذا لا يتضمن أن يكون مُدلاً بالخدم. الخادم الوحيد الذي تريد منه أن يساعده في المستقبل سوف يكون القانون المدني».

«لقد أصبح جايلز محظوظاً عندما التقى بـ غوينيث».

«ألم يحن الوقت بالنسبة إليه كي يتقدم لطلب يد الفتاة المسكينة؟».

«نعم لقد حان، لكنه لا يزال مجروحاً من تجربته مع فيرجينيا، ولا أظن أنه جاهز تماماً لزواج آخر».

قالت إيما وهي تركز مرة أخرى على الخريطة: «إذاً من الأفضل له أن يتجاوز هذا الأمر، لأن النساء الجيدات مثل غوينيث لا يتوافرن كثيراً».

قال هاري وهو يزيد من سرعته ليتجاوز إحدى الشاحنات: «لا يزال من الصعب عليّ الاعتياد على فكرة أن سيب لم يعد تلميذاً بعد الآن».

«هل خططت لأي شيء من أجل أول عطلة نهاية أسبوع يقضيها في المنزل؟».

«فكرت أن أخذه لمشاهدة مباراة جلوسيسترشاير وبلاك هيث في ملعب كاونتي غراوند غداً».

ضحكت إيما وقالت: «سوف يكون هذا مساعداً في بناء الشخصية، كي يُجبر على مشاهدة فريق يخسر أكثر بكثير مما يربح».

قال متجاهلاً تعليقها: «وربما بإمكاننا الذهاب جميعاً إلى مسرح أولد فيك في إحدى أمسيات الأسبوع القادم».

«ماذا يُعرض هناك؟».

«هاملت».

«من يلعب دور الأمير؟».

«ممثل شاب يدعى بيتر أوتول، يقول سيب عنه أنه مشهور، مهما كان ذلك يعني».

«من الرائع أن يكون سيب معنا طيلة الصيف. ربما ينبغي أن نقيم له حفلة قبل ذهابه إلى كامبريدج. ونُعطيه فرصة ليلتقي ببعض الفتيات».

«سيحظى بوقت أكثر من كافٍ بالنسبة إلى الفتيات. أظن أنه من العار إنهاء الحكومة للخدمة الإلزامية. يمكن لسيب أن يكون ضابطاً جيداً، فالخدمة الإلزامية تجعله يتحمل مسؤولية رجال آخرين».

قالت إيما: «أنت لست في منتصف العمر، أنت بالتأكيد من رجال ما قبل التاريخ».

ضحك هاري وهو يركن السيارة خارج مانور هاوس، وكان سعيداً لرؤية جيسيكا تجلس بانتظارهم أعلى الدرج.

«أين سيب؟» كان أول سؤال لإيما وهي تخرج من السيارة وتعانق جيسيكا.

«لم يعد من المدرسة البارحة. ربما ذهب مباشرةً إلى بارينغتون هال وأمضى الليلة مع خالي جايلز».

قال هاري: «ظننتُ أن جايلز كان في لندن، سوف أتصل به لأرى إذا كان بإمكانهما الانضمام لتناول العشاء معنا».

صعد هاري الدرج ودخل المنزل، ثم رفع سماعة الهاتف في الصالة واتصل برقم محلي.

«لقد عدنا»، قالها عندما سمع صوت جايلز على الخط.

«عوداً حميداً يا هاري. هل أمضيت وقتاً ممتعاً في الولايات المتحدة؟».

«لا يمكن أن يكون أفضل من ذلك. لقد سرقت إيما الأضواء بالطبع، وأظن أن فيلدمان يريد أن تكون زوجته الخامسة».

قال جايلز: «حسناً، لربما هناك بعض الفوائد المؤكدة من ذلك، فهذا ليس التزاماً طويل الأمد عندما يتعلق الأمر بذلك الرجل، وكونه من كاليفورنيا، سوف يكون هناك إجراءات طلاق جيدة جداً في النهاية».

ضحك هاري وقال: «بالمناسبة، هل سيب معك؟».

«لا، ليس معي. في الحقيقة، أنا لم أره منذ فترة. لكنني واثق من أنه لا يستطيع أن يكون بعيداً. لماذا لا تتصل بالمدرسة لتعرف إذا كان في المدرسة؟ اتصل بي مجدداً عندما تعرف مكانه، لأن لدي بعض الأخبار لك».

قال هاري: «سوف أفعل». أغلق السماعة وبحث عن رقم مدير المدرسة في دليل الهاتف.

قال عندما رأى النظرة القلقة على وجه إيما: «لا تقلقي يا عزيزتي، هو لم يعد تلميذاً بعد الآن، كما تذكريني دائماً. أنا واثق من أنه سوف يكون هناك تفسير بسيط لذلك». اتصل برقم بيتشكروفت 117، وبينما كان ينتظر أحداً ليجيب عليه، أخذ زوجته بين ذراعيه.

«معك الدكتور بانكس ويليامز».

«حضرة المدير، معك هاري كليفتون. آسف على إزعاجك بعد انتهاء المدرسة، لكنني أتساءل إذا كان لديك أي فكرة عن مكان وجود ابني سيباستيان».

«ليس عندي أي فكرة يا سيد كليفتون. فأنا لم أره منذ أن فصل في وقت مبكر من هذا الأسبوع».

«فُصل؟».

«أخشى أنه كذلك يا سيد كليفتون. أخشى أنه لم يكن لي سوى هذا الخيار».

«لكن ما الذي فعله كي يستحق ذلك؟».

«بعض التجاوزات البسيطة، ومن بينها التدخين».

«وهل هناك من تجاوزات كبيرة؟».

«لقد ضُبط وهو يحتسي المشروب في غرفة مكتبه مع إحدى الخادِمات».

«وهل كان ذلك يستوجب الفصل؟».

«ربما كنتُ تغاضيتُ عن ذلك بما أنه الأسبوع الأخير في الفصل الدراسي، لكن لسوء الحظ لم يكن أي منهما يضع أي ملابس عليه».

كتم هاري ضحكته، وكان سعيداً فقط لأن إيمًا لا تستطيع سماع الطرف الآخر من المحادثة.

«عندما أتاني في اليوم التالي، قلتُ له بعد المناقشة، وبعد التشاور مع مشرف سكنه، أنه لا خيار لدي سوى فصله. وعندئذٍ أعطيته رسالة وطلبتُ منه تسليمها لك. ومن الواضح أنه لم يفعل ذلك».

سأل هاري وقد أصبح قلقاً للمرة الأولى: «لكن أين يمكن أن يكون؟».

«ليس عندي أي فكرة. كل ما أستطيع قوله لك هو أن مشرف سكنه زوده بتذكرة درجة ثالثة إلى تيمبل ميدز، وأنا ظننتُ أني لن أراه بعد ذلك. لكنني اضطررتُ للسفر إلى لندن في فترة بعد ظهر اليوم نفسه كي أحضر حفل عشاء للتلاميذ القادمي، ولدهشتي اكتشفت أنه يسافر في القطار نفسه».

«هل سألته عن سبب سفره إلى لندن؟».

أجاب المدير بشكل جاف: «لكنّ فعلتُ ذلك لو أنه لم يغادر
العربة في اللحظة التي رأني فيها».
«لمَ قد يفعل ذلك؟».

«ربما لأنه كان يدخن، وأنا حذرته مسبقاً أنه في حال خرق أي من
قواعد المدرسة خلال وقت الفصل الدراسي فسوف يُطرد. وهو يعرف
تماماً أن ذلك سوف يعني اتصالي بمسؤول القبول في كامبريدج وتوصيتي
بسحب المنحة الدراسية».
«وهل فعلت ذلك؟».

«كلا لم أفعل. والفضل يعود لزوجتي. فلو أنني تصرفت بطريقتي،
لكان قد طُرد وخسر مقعده في كامبريدج».

«بسبب التدخين، حتى عندما لم يكن في مبنى المدرسة؟».

«لم يكن ذلك أول تجاوزاته. فقد كان يجلس في عربة الدرجة الأولى
وهو لا يملك نقوداً لشراء تذكرة درجة أولى، كما أنه كذب في وقت سابق
على مشرف سكنه بشأن عودته مباشرةً إلى بريستول. وهذا، بالإضافة إلى
تجاوزاته الأخرى، يمكن أن يكون كافياً تماماً لإقناعي أنه غير جدير بمقعد
في جامعتي القديمة. لا شك لدي بأني سوف أعيش لأندم على تساهلي».

قال هاري وهو يحاول البقاء هادئاً: «وهذه كانت تلك آخر مرة
تراه فيها؟».

أجاب المدير قبل أن يغلق السماعاة: «نعم، وهذه آخر مرة أريد أن
أراه فيها».

أخبر هاري إيما بكل ما قاله المدير عدا الجزء المتعلق بالخادمة.

سألت إيماء بقلق: «لكن أين يمكن أن يكون الآن؟».

«أول شيء أفعله هو الاتصال بـ جايلز مجدداً وأدعه يعلم بما حصل، قبل أن نقرر ما يجب فعله لاحقاً». رفع هاري السماعة مرة أخرى واستغرق بعض الوقت لتكرار ما قاله المدير حرفياً.

بقي جايلز صامتاً للحظات ثم قال: «لم يكن من الصعب معرفة ماذا كان يجول بذهن سيب بعد أن رآه بانكس ويليامز في القطار».

قال هاري: «حسناً أنا ملعون إذا كان بوسعي معرفة ذلك».

قال جايلز: «ضع نفسك مكانه، فهو يعتقد أنه أصبح مطروداً وأنه فقد مقعدة في كامبريدج بسبب إمساك المدير به يدخن في القطار المتجه إلى لندن من دون إذن. وأظن أنك سوف تكتشف بأنه خائف من العودة إلى المنزل ومن مواجعتك أنت وإيماء».

«حسناً، لم تعد تلك هي المشكلة بعد الآن، لكن ينبغي علينا إيجادها وإعلامه أنه غير مطرود. إذا قادتُ السيارة الآن إلى لندن مباشرةً، هل بإمكانني الإقامة في سميث سكوير؟».

«بالطبع تستطيع، لكن ليس لهذا أي معنى يا هاري. يجب أن تبقى في مانور هاوس مع إيماء. سوف أذهب إلى لندن وعندها سوف نعرف القصة من الطرفين».

«لكن كان من المفروض أن تمضي أنت وغوينيث عطلة نهاية الأسبوع معاً، أم أنك نسيت».

«وسيب هو ابن أختي يا هاري، في حال أنك نسيت».

قال هاري: «شكراً لك».

«سوف أتصل بك حالما أصل إلى لندن».

«قلت إن لديك بعض الأخبار؟».

«هذا ليس مهماً. حسناً، ليس بقدر أهمية إيجاد سيب».

قاد جايلز سيارته إلى لندن في تلك الأمسية، وعندما وصل إلى سميث سكوير، أكد مدير المنزل أن سيباستيان لم يتصل.

ما إن نقل جايلز هذه الأخبار إلى هاري، حتى كان اتصاله الثاني مع المفوض المساعد في شرطة سكوتلاند يارد. لم يكن أكثر تعاطفاً، لكنه أوضح أن هناك تليغات عن فقدان عشرات الأطفال في لندن كل يوم، ومعظمهم أصغر بكثير من سيباستيان. ففي مدينة يبلغ تعداد سكانها ثمانية ملايين نسمة، كان ذلك مثل البحث عن إبرة في كومة قش. لكنه قال إنه سوف ينشر تعميماً في كل مراكز شرطة منطقة ميت.

بقي هاري وإيما ساهرين حتى وقت متأخر من الليل وهما يتصلان بـ ميسي، جدة سيباستيان، وعمته جريس وديكنز، وروس بيوكانان، وغريف هاسكينز وحتى الأنسة باريش، في محاولة منهم لمعرفة إذا اتصل بهم سيباستيان في أي وقت. لقد اتصل هاري بـ جايلز عدة مرات في اليوم التالي، لكن لم يكن لديه أي شيء جديد ليقوله. بقي يكرر، إبرة في كومة قش.

«كيف تسير الأمور مع إيما؟».

«ليست في حال جيدة. فهي تخشى من الأسوأ بمرور الوقت».

«وجيسيكا؟».

«في حالة يُرثى لها».

«سوف أتصل بك حالما أعرف أي شيء».

اتصل جايلز ب هاري في فترة بعد ظهر اليوم التالي من مجلس العموم ليخبره أنه في طريقه إلى بادينغتون لزيارة امرأة طلبت رؤيته لأن لديها أخباراً عن سياستيان.

جلس هاري وإيما بجانب الهاتف بانتظار اتصال جايلز، لكنه لم يعاود الاتصال حتى ما بعد الساعة التاسعة من تلك الأمسية.

قالت إيما بعد أن خطفت سماعة الهاتف من يد هاري: «أخبرني أنه سليم وبحالة جيدة».

أجاب جايلز: «إنه سليم وبحالة جيدة، لكن أخشى أن هذا هو الخبر الوحيد الجيد. فهو في طريقه إلى بيونس آيريس».

قالت إيما: «ما الذي تتحدث عنه؟ لم يرغب سيب بالذهاب إلى بيونس آيريس؟».

«ليس لدي أي فكرة. فكل ما بإمكانني قوله لك هو أنه على متن السفينة س س ساوث أميركا مع شخص يُدعى بيدرو مارتينيز، وهو والد أحد أصدقائه في المدرسة».

«إنه برونو، هل هو معه أيضاً؟».

«كلا، هذا غير ممكن، لأنني رأيته في منزله في إيتون سكوير».

قالت إيما: «سنأخذ السيارة ونذهب إلى لندن مباشرةً. ومن ثم نزور برونو في الصباح الباكر».

قال جايلز: «لا أظن أن ذلك سيكون تصرفاً حكيماً في ظل هذه الظروف».

قالت إيما: «لمَ لا؟».

«لعدة أسباب، ليس أقلها أنني تلقيتُ لتوي اتصالاً من السيد آلان ريدماين، أمين سر مجلس الوزراء. وسأل إذا كان بالإمكان الالتقاء به نحن ثلاثتنا في داوونينغ ستريت عند العاشرة غداً صباحاً. ولا يسعني التصديق أنها صدفة».

قال جايلز عندما حضر ثلاثتهم إلى مكتب أمين سر مجلس الوزراء:
«طاب يومك أيها السيد آلان، هلا سمحت لي بأن أعرفك بأختي إيما
وصهري هاري كليفتون؟».

صافح السيد آلان ريديماين، هاري وإيما قبل تعريفهما إلى السيد
هيو سبينسر.

قال موضحاً: «السيد سبينسر هو مساعد وزير في وزارة المالية،
وسوف يتوضح سبب حضوره لاحقاً».

جلسوا جميعهم حول طاولة دائرية وسط الغرفة.

قال السيد آلان: «أدرك أن سبب الدعوة لهذا الاجتماع هو مناقشة
أمر بالغ الخطورة، لكن قبل أن أبدأ، أود أن أقول يا السيد كليفتون، إني
متابع نهم لـ ويليام وورويك. وكتابك الأخير موجود على الجانب الذي
تنام فيه زوجتي من السرير، ولذا لسوء الحظ لن يُسمح لي بقراءته إلى
أن تُنهي آخر صفحة فيه».

«هذا لطف بالغ منك يا سيدي».

قال السيد آلان وقد تغيرت نبرة صوته: «دعوني أبدأ بتوضيح سبب
حاجتنا لرؤيتكم على عجل. أود أن أوكد لكما أيها السيد والسيدة
كليفتون، أننا مهتمون بصالح ابنكما مثلكما، حتى لو أن مصالحنا تختلف
عن مصالحكما». واصل كلامه قائلاً: «تتركز مصلحة حكومتنا حول رجل

يُدعى الدون بيدرو مارتينيز، الذي له علاقة بالكثير من الأعمال لدرجة أننا نملك خزانة ملفات مُخصصة له فقط. السيد مارتينيز هو مواطن أرجنتيني يقيم في إيتون سكوير، ولديه منزل ريفي في شيلينجفورد، وثلاث سفن ركاب، وسلسلة من جياذ البولو موجودة في اسطبلات غاردز بولو كلوب في ويندسور غريت بارك، بالإضافة لشقة في آسكوت. وهو يأتي إلى لندن دائماً خلال الموسم ولديه شبكة علاقات واسعة من الأصدقاء والشركاء الذين يعتقدون أنه أحد بارونات المواشي الأثرياء. ولم لا؟ فهو يمتلك أراضي عشبية مساحتها ثلاثة آلاف أكر في الأرجنتين، فيها حوالي خمسمائة ألف رأس ماشية. ورغم أن هذا يوفر له أرباحاً طائلة، إلا أن هذا في الواقع ليس أكثر من واجهة لتغطية نشاطاته الشنيعة».

سأل جايلز: «وماهي تلك النشاطات؟».

«ولأقولها بصراحة أيها السيد جايلز، إنه نصاب دولي. فهو يجعل مورياتي يبدو صبيّاً بريئاً إذا ما قورن به. اسمح لي أن أخبرك أكثر قليلاً بما نعرفه عن السيد مارتينيز، وعندها سوف أكون سعيداً بالإجابة عن أية أسئلة ربما تكون لديكم. لقد التقت دروبنا في البداية عام 1935، عندما كنتُ مساعداً خاصاً ملحقاً بوزارة الحرب. فقد اكتشفتُ أنه يقوم بأعمال تجارية مع ألمانيا. وقد نسج علاقات وثيقة مع هنريك هيملر، رئيس الاستخبارات الألمانية، ونحن نعلم أنه التقى بـ هتلر في ثلاث مناسبات على الأقل. وخلال الحرب جنى ثروة طائلة بتزويده الألمان بكل ما يحتاجونه من مواد خام تنقصهم، رغم أنه كان يعيش في إيتون سكوير».

سأل جايلز: «لماذا لم تقم بإلقاء القبض عليه؟».

أجاب السيد آلان: «من مصلحتنا عدم فعل ذلك، لقد كنا حريصين على اكتشاف شبكة علاقاته في بريطانيا، وما الذي يخططون لفعله. وما إن انتهت الحرب، عاد مارتينيز إلى الأرجنتين واستمر بالتجارة كأحد مربي الماشية. في الواقع، لم يعد ولا حتى مرة واحدة إلى برلين بعد دخول الحلفاء إلى المدينة. كما استمر بزيارة هذه البلاد بانتظام حتى أنه أرسل جميع أبنائه الثلاثة إلى مدارس إنكليزية عامة، وابنته حالياً في مدرسة روديان».

قالت إيماء: «سامحني على مقاطعتك، لكن ما شأن سيباستيان بكل هذا؟».

«لم يكن له شأن حتى الأسبوع الماضي، عندما ظهر من دون سابق إنذار في المنزل رقم 44 في إيتون سكوير، وقد دعاه صديقه برونو للإقامة هناك».

قال هاري: لقد التقيتُ بـ برونو مرتين وشعرتُ أنه شاب رائع».

قال السيد آلان: «أنا واثق من أنه كذلك، وهذا ما يضيف لصورة مارتينيز على أنه رجل عائلة محترم يحب إنكلترا. لكن ابنك تورط من دون قصد في عملية كانت تعمل عليها أجهزة تطبيق القانون لدينا منذ عدة سنوات عندما التقى بالدون بيدرو مارتينيز للمرة الثانية».

تساءل جايلز: «للمرة الثانية؟».

قال السيد آلان وهو يشير إلى كراسة ملحوظاته: «في الثامن عشر من حزيران 1954، دعا مارتينيز سيباستيان للانضمام إليه في مطعم بيتشكروفت أرمز للاحتفال بعيد ميلاد برونو الخامس عشر».

قال جايلز: «هل تراقب مارتينيز بهذه الشدة؟».

«نحن نفعل ذلك بكل تأكيد». أخرج سكرتير مجلس الوزراء مغلفاً
بنياً من الأوراق التي أمامه، وأخذ منه ورقتين نقديتين من فئة الخمسة
جنيهاً ووضعهما على الطاولة ثم أضاف: «ولقد أعطى السيد مارتينيز
هاتين الورقتين النقديتين إلى ابنكما مساء يوم الجمعة».

قالت إيما: «لكن هذا مال أكثر مما أخذه سياستيان في حياته.
فنحن نعطيه خمسة شلنات في الأسبوع كمصروف جيب».

«لقد توقعْتُ أن يدرك مارتينيز أن مبلغاً كهذا سوف يكون أكثر من
كاف ليُدِير رأس الشاب. ثم لفق الموضوع عبر دعوة سياستيان لمرافقته
إلى بيونس آيريس في الوقت الذي علم فيه أن الصبي كان في أشد حالاته
ضعفاً».

سأل هاري: «كيف تسنى لك حيازة ورقتي الخمسة جنيهاً
العشوائية التي أعطها مارتينيز إلى ابني؟».

قال الرجل من وزارة المالية وهو يتحدث للمرة الأولى: «إنها ليست
عشوائية، فقد جمعنا أكثر من عشرة آلاف منها خلال العشرة سنوات
الماضية كنتيجة لمعلومات زودنا بها مصدر موثوق على حد تعبير
الشرطة».

قال جايلز بلهجة أمرّة: «ماذا يعني مصدر موثوق؟».

سأل سبينسر: «هل سمعت مرة بضابط استخبارات ألماني يُدعى
الرائد برنارد كروغر؟».

أوحى الصمت الذي تبع سؤاله بأن أحداً منهم لم يسمع به، فأضاف: «الرائد كروغر هو رجل استخبارات واسع الحيلة، كان مفتش شرطة في برلين قبل التحاقه بالاستخبارات الألمانية. في الحقيقة، لقد انتهى الأمر به ليعمل كمسؤول فرقة مكافحة التزوير. وبعد أن أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، أقنع هيملر أنه من الممكن للنازيين زعزعة الاقتصاد البريطاني عبر إغراق إنكلترا بنسخ ممتازة من ورقة الخمسة جنيهات، لكن فقط في حال سُمح له باختيار أفضل فنيي الطباعة والنقش على النحاس ومنقحي الصور من معسكر الاعتقال في ساشسينهوسن، حيث كان يشغل منصب القائد. لكن أفضل إنجازاته كان استخدام المزور الكبير سالومون سوموليانوف، الذي اعتقله وأرسله إلى السجن ليس أقل من ثلاث مرات عندما كان مع شرطة برلين. وما إن أصبح سوموليانوف في عهدهم، تمكن فريق كروغر من تزوير حوالي سبعة وعشرين مليون من ورقة الخمسة جنيهات، بقيمة إجمالية تساوي مائة وخمسة وثلاثين مليون جنيه».

كان هاري على وشك أن يشهق.

«في وقت ما من العام 1945، عندما تقدم الحلفاء في برلين، أعطى هتلر أمراً بتدمير تلك المطابع، ولدينا ما يكفي من الأدلة للاقتناع بأنها دُمرت. لكن قبل عدة أسابيع من استسلام ألمانيا، قُبض على كروغر وهو يحاول عبور الحدود الألمانية السويسرية وبحوزته حقيبة مليئة بالعملة الورقية المزورة. لقد أمضى عامين في السجن ضمن القطاع البريطاني من برلين. لربما فقدنا اهتمامنا به لو أن بنك إنكلترا لم يقرع ناقوس الخطر عبر إعلامنا أن العملة الورقية التي وُجدت مع كروغر كانت أصلية. ولقد ادعى حاكم المصرف في ذلك الوقت أن لا أحد على وجه الأرض كان قادراً

على تزييف ورقة الخمسة جنيهات البريطانية، ولا شيء يمكن أن يقنعه
بغير ذلك. لقد استجوبنا كروغر حول كيفية تداول العديد من هذه
العملة، لكن قبل أن يعطينا المعلومات، تفاوض بمهارة حول شروط
إطلاق سراحه، مستخدماً الدون بيدرو مارتينيز كورقة مساومة».

توقف السيد سبينسر عن الكلام من أجل أخذ رشفة من الماء، لكن
لم يقاطعه أحد.

«عُقد اتفاق لإطلاق سراح كروغر بعد أن أمضى ثلاث سنوات في
السجن من حكمه البالغ سبع سنوات، لكن ليس قبل أن يُعلمنا إبان
نهاية الحرب، أن مارتينيز عقد صفقة مع هيملر لتهريب ما قيمته
عشرين مليون جنيه من عملة الخمسة جنيهات خارج ألمانيا وبطريقة
ما جلبها إلى الأرجنتين، حيث توجب عليه انتظار تعليمات أخرى. ولم
يكن هذا صعباً بالنسبة إلى رجل هرب كل شيء بدءاً من دبابة شيرمان
وصولاً إلى غواصة روسية لألمانيا.

«ومقابل تخفيف سنة أخرى من حكمه، أعلمنا كروغر أن هيملر،
إلى جانب حفنة منتقاة بعناية من القيادة النازية العليا، ومن المحتمل
حتى أن من ضمنهم هتلر نفسه، كانوا يأملون بالفرار من مصيرهم عبر
الوصول بطريقة ما إلى بيونس آيريس، حيث يقضون أيامهم عندئذٍ على
حساب بنك إنكلترا.

واصل سبينسر كلامه: «لكن، عندما أصبح واضحاً أن هيملر وأتباعه
لن يذهبوا إلى الأرجنتين، وجد مارتينيز نفسه يملك عشرين مليون جنيه
من العملة المزورة وعليه التخلص منها. وهي ليست مهمة سهلة. في
البداية، صرفتُ النظر عن قصة كروغر على أنها خيال محض، اخترعت

للحفاظ على حياته، لكن من ناحية أخرى، وبمرور السنين، وظهور الكثير والكثير من عملة الخمسة جنيهاً المزورة في السوق كلما كان مارتنيز في لندن أو ابنه لويس يُدير طاوولات القمار في مونتني كارلو، أدركتُ أننا نواجه مشكلة حقيقية. وهذا ثبتُ صحته مرة أخرى أيضاً عندما أنفق واحدة من ورقتي الخمسة جنيهاً التي لديه ثمناً لبذلة من ماركة سافيل رو ولم يعرف البائع أنها مزورة».

شارك السيد آلان في الحديث قائلاً: «قبل عامين، عبرتُ للسيد تشرشل عن غضبي من موقف بنك إنكلترا. وبعقريّة فذة، أعطى تعليماته بوجوب طرح عملة ورقية جديدة من فئة الخمسة جنيهاً بأسرع ما يمكن. وبالطبع، طرح مثل هذه العملة في التداول لا يمكن أن يحدث بين ليلة وضحاها، وعندما أعلن بنك إنكلترا أخيراً عن خطته لإصدار ورقة خمسة جنيهاً جديدة، أعطوا مارتنيز إنذار بأن الوقت ينفد منه من أجل التخلص من ثروته الضخمة المزورة».

عاود السيد سبينسر الكلام فقال: «وعندئذٍ أعلن أولئك النصابون في بنك إنكلترا أن أي ورقة نقدية قديمة من فئة الخمسة جنيهاً تُقدم قبل الحادي والثلاثين من كانون الأول من عام 1957، سوف تُبدل بواحدة جديدة. ولذا كان كل ما على مارتنيز القيام به هو تهريب عملته المزورة إلى داخل بريطانيا، حيث يقوم بنك إنكلترا بتحويلها بسرور إلى عملة قانونية. ونحن نقدر بأن مارتنيز خلال العشر سنوات الماضية استطاع التخلص من خمسة إلى عشرة ملايين جنيه، لكن هذا يتركه مع ثمانية وربما تسعة ملايين أخرى لاتزال مخفية في الأرجنتين. وما إن أدركنا أن لا شيء يمكننا فعله لتغيير موقف بنك إنكلترا، أدخلنا فقرة في ميزانية السنة الماضية، بهدف وحيد هو جعل مهمة مارتنيز أكثر صعوبة. ففي

شهر نيسان الماضي، أصبح من غير القانوني لأي شخص جلب أكثر من ألف جنيه نقداً إلى داخل المملكة المتحدة. ولقد اكتشف مؤخراً، أن ليس بإمكانه أو أي أحد من شركائه عبور أي حدود في أوروبا دون قيام الجمارك بتفتيش حقائبهم».

قال هاري: «لكن هذا لا يوضح حتى الآن ما الذي يفعله سياستيان في بيونس آيريس».

أجاب سبنسر: «لدينا سبب للاعتقاد أيها السيد كليفتون، أن ابنك قد وقع في شباك مارتينيز. ونظن أن الدون بيدرو سيستخدمه لتهديب آخر ثمانية أو تسعة ملايين جنيه إلى داخل إنكلترا. لكننا لا نعرف كيف أو أين».

قالت إيما وهي تحديق مباشرة إلى أمين سر مجلس الوزراء: «إذاً لا بد وأن سياستيان في خطر كبير».

أجاب السيد آلان: «نعم ولا، طالما أنه لا يعلم السبب الحقيقي لرغبة مارتينيز بذهابه إلى الأرجنتين، لن تُمس منه حتى شعرة واحدة. لكن في حال اكتشاف الحقيقة وهو في بيونس آيرس، وهو بكل المقاييس ذكي وواسع الحيلة، لن نتردد في نقله تحت حماية مجمع سفارتنا على الفور».

سألت إيما: «لماذا لا تفعل ذلك حاملاً يضع قدمه خارج السفينة؟». ثم أضافت وهي تنظر إلى هاري طلباً للمؤازرة: «فقيمة ابنا بالنسبة إلينا أهم بكثير من عشرة ملايين جنيه يملكها أي شخص».

أجاب سبنسر: «لأن هذا قد يُنبه مارتينيز إلى حقيقة أننا نعرف ما هو بصدد التخطيط له».

«لكن لا بد أن هناك مخاطرة بإمكانية التضحية بـ سيب، مثل بيدق على رقعة شطرنج لا تملك السيطرة عليها».

«لن يحدث ذلك طالما بقي غافلاً عما يحدث. ونحن مقتنعون أنه دون مساعدة ابنك، لن يأمل مارتينيز بنقل تلك الكمية من النقود. سيباستيان هو فرصتنا الوحيدة لاكتشاف كيف يعتزم القيام بذلك».

قالت إيما بيأس: «إنه في السابعة عشرة من عمره».

«ليس أقل عمراً بكثير من زوجك عندما قبض عليه بسبب جريمة قتل، أو السيد جايلز عندما حصل على وسام الصليب العسكري».

قالت إيما: «كانت تلك ظروفًا مختلفة كلياً».

قال السيد آلان: «العدو نفسه».

قال هاري وهو يأخذ يد زوجته بين يديه: «نحن نعلم أن سيب سيساعد بأي طريقة بإمكانه تقديمها، لكن ليس هذا هو الموضوع. فالمخاطر كبيرة جداً بما لا يُقاس».

قال أمين سر مجلس الوزراء: «بالطبع أنت على حق، وإذا قلت لنا أنك تريد منا وضعه رهن الاعتقال في اللحظة التي ينزل فيها من السفينة، سوف أعطي الأوامر على الفور. لكن»، أضاف قبل تمكن إيما من الموافقة: «لقد حضرنا خطة، إلا أنها لن تنجح دون تعاونكما».

انتظر اعتراضات أخرى، لكن الضيوف الثلاثة بقوا صامتين.

تابع السيد آلان كلامه: «لن تصل السفينة ساوث أميركا إلى بيونس آيريس قبل خمسة أيام، وإذا قُدر لخطتنا النجاح، نحن بحاجة لإيصال رسالة إلى سفيرنا قبل أن ترسو».

سأل جايلز: «لماذا لا تتصل به بكل بساطة؟».

«أتمنى لو كان الأمر بتلك السهولة. فالسنترال الدولي يُدار من قبل اثنتي عشرة امرأة، وكل واحدة منهن على جدول رواتب مارتينيز. والشيء نفسه ينطبق على البرقيات. فعملهم هو نقل أي معلومة يمكن أن تكون ذات أهمية له؛ معلومات عن السياسيين، والبنوك، ورجال الأعمال، وحتى عمليات الشرطة، وعندئذٍ يستطيع استخدامها لمصلحته حتى أنه يحصل على أموال أكثر له. فمجرد ذكر اسمه على أي خط هاتف سوف يُطلق جرس إنذار، وسوف يُبلغ ابنه دايغو خلال دقائق. في الحقيقة، كان هناك أوقات كنا فيها نستفيد من الوضع ونُغذي مارتينيز بمعلومات زائفة، لكن ذلك خطر جداً هذه المرة».

قال مساعد وزير المالية: «أيها السيد آلان، لماذا لا تُخبر السيد والسيدة كليفتون بما يجول في ذهننا، وتدعهما يُقرران».

دخل إلى مطار لندن وتوجه مباشرةً إلى اللافتة المكتوب عليها الطاقم فقط.

قال الموظف المسؤول بعد تفقد جواز سفره: «صباح الخير أيها الكابتن ماي، إلى أين تطير اليوم يا سيدي؟».

«إلى بيونس آيريس».

«رحلة موفقة».

ما إن فُحصت حقائبه، مر عبر الجمارك وتوجه مباشرةً إلى البوابة رقم 11. لا تقف، ولا تنظر حولك، ولا تلفت الانتباه إلى نفسك، كانت تلك هي التعليمات التي أعطاها له الرجل المجهول الذي كان معتاداً على التعامل مع الجواسيس أكثر مما هو مع المؤلفين.

كانت الساعات الثماني والأربعون الأخيرة من دون توقف، بعد أن وافقت إيما أخيراً، ولو على مضمض، على أن بإمكانه مساعدتهم بالعملية المُسماة هروب. فمنذ ذلك الحين، اقتباساً من الرقيب الأول الذي خدم معه سابقاً، لم تطأ قدماه الأرض.

لقد استغرق تفصيل وخياطة واحدة من البزات التي يرتديها الكابتن في شركة الطيران البريطانية واحدة من تلك الساعات، والصورة لأجل جواز السفر المزور ساعة أخرى، والملخص عن خلفية حياته الجديدة، ومن ضمنها زوجة مطلقة وولدان، ثلاث ساعات، ودرس عن مهام كابتن

عصري في شركة الطيران البريطانية، ثلاث ساعات، وإرشاد سياحي عن بيونس آيريس، ساعة واحدة، وعلى مائدة العشاء مع السيد آلان في ناديه، كان لديه عشرات الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة.

قبل أن يغادر نادي أثينايوم ليُضي ليلة مؤرقة في منزل جايلز في سميث سكوير، سلمه السيد آلان ملفاً ضخماً، وحقية مع مفتاح.

«اقرأ كل ما في هذا الملف أثناء رحلتك إلى بيونس آيريس، ثم سلمه إلى السفير الذي سوف يُتلفه. لقد تم حجز غرفة لك في فندق ميلونجا. ويتوقع سفيرنا السيد فيليب ماثيوز، رؤيتك في السفارة عند الساعة العاشرة من صباح يوم السبت. وسوف تسلمه أيضاً هذه الرسالة من وزير الخارجية السيد سيلوين للويد، التي سوف توضح سبب وجودك في الأرجنتين».

ما إن وصل إلى البوابة، اتجه مباشرةً إلى مكتب المضيفين.

قالت حتى قبل أن يفتح جواز سفره: «صباح الخير أيها الكابتن، أتمنى لك رحلة سعيدة».

خرج باتجاه مدرج المطار وصعد السلم إلى الطائرة ثم دخل إلى مقصورة درجة أولى خالية.

قالت الشابة الجذابة: «صباح الخير أيها الكابتن ماي، اسمي أنابيل كاريك. وأنا كبيرة المضيفات».

لقد أضفى الزي والنظام شعوراً كأنه عاد إلى الجيش، حتى وإن كان في مواجهة عدو مختلف هذه المرة، أو هل كان العدو نفسه، كما أوحى السيد آلان؟

«هل تسمح لي بأن أدلك على مقعدك؟».

قال وهي تقوده إلى مؤخرة مقصورة الدرجة الأولى: «شكراً لك يا آنسة كارريك». هناك مقعدان خاليان، لكنه يعلم أن واحداً فقط سوف يُشغل. فالسيد آلان لا يترك شيئاً كهذا للصدفة.

قالت المضيفة: «سوف يستغرق الجزء الأول من الرحلة سبع ساعات، هل أقدم لك مشروباً قبل أن نُقلع أيها الكابتن؟».

«كأس من الماء فقط، شكراً لك». خلع قبعته ووضعها على المقعد بجانبه، ثم وضع الحقيبة على الأرض تحت مقعده. لقد بلغ بعدم فتحها إلى حين إقلاع الطائرة، وأن يتأكد من عدم تمكن أي شخص من رؤية ما يقرأه. هذا ليس لأن الملف ذكر مارتينيز بالاسم من الصفحة الأولى حتى الأخيرة، إذ أشار إليه فقط بـ «المراقب».

بعد مُضي عدة لحظات، بدأ المسافرون الأوائل يشقون طريقهم إلى الطائرة، وخلال العشرين دقيقة التالية، وجدوا أماكن جلوسهم، ووضعوا حقائبهم في الخزائن العلوية، وخلعوا معاطفهم، وبعضهم خلع سترته، ثم استقروا في أماكنهم واستمتعوا بكأس من الشمبانيا، وثبتوا أحزمتهم، واختاروا صحيفة أو مجلة، ثم انتظروا سماع الكلمات التالية: «هذا كابتن الطائرة يُحدثكم».

ابتسم هاري لفكرة إصابة الكابتن بالمرض أثناء الرحلة فتسرع الآنسة كارريك إليه لتطلب مساعدته. وكيف ستكون ردة فعلها عندما يخبرها أنه خدم في البحرية التجارية البريطانية والجيش الأميركي، لكن ليس في القوات الجوية أبداً؟

سارت الطائرة في المدرج، لكن هاري لم يفتح حقيبته إلى أن أصبحوا في الجو وأطفأ الكابتن إشارة ربط الأحزمة. فأخرج ملفاً ضخماً وفتحه ثم بدأ بدراسة محتوياته، وكأنه يحضر للامتحان.

بدا الوضع مثل رواية إيان فليمينغ، لكن الفرق الوحيد هو أن دور القائد بوند قد أُسند إليه. في الوقت الذي قلب هاري فيه الصفحات، تكشفت حياة مارتينيز أمامه. وعندما أخذ استراحة لتناول طعام العشاء، لم يستطع تجنب التفكير بأن إيما كانت على صواب، فلم يكن ينبغي عليهما السماح باستمرار تورط سياستيان مع هذا الرجل. فتلك مخاطرة كبيرة للغاية. لكنه اتفق معها أنه في حال شعر في أي وقت بتعرض حياة ابنهما للخطر، سوف يعود إلى لندن على متن الطائرة التالية وسيباستيان يجلس إلى جانبه. نظر من خلال النافذة، فبدلاً من الطيران باتجاه الجنوب، كان من المقرر أن يكون هو وويليام وورويك في ذلك الصباح في طريقهما باتجاه الشمال للبدء بجولة ترويجية للكتاب. لقد كان يتطلع للقاء أجاثا كريستي في حفل الغداء الأدبي لصحيفة يوركشاير بوست. لكنه بدلاً من ذلك، كان يتوجه نحو أميركا الجنوبية آملاً تجنب الالتقاء بالدون بيدرو مارتينيز.

أغلق الملف، ثم أعاده إلى الحقيبة، ودسها تحت المقعد، ثم انجرف إلى نوم خفيف، لكن (المُراقب) لم يفارقه. ففي عمر الرابعة عشرة، ترك مارتينيز المدرسة، وبدأ الحياة كمتدرب في محل لبيع اللحوم. طُرد بعد بضعة أشهر (السبب مجهول)، والمهارة الوحيدة التي أخذها معه هي كيفية تقطيع أوصال الذبيحة. وبعد مُضي عدة أيام عليه كعاطل عن العمل، انجرف المُراقب نحو الجرائم الصغيرة، ومن بينها السرقة والسطو

والإغارة على ماكينات القمار، فأنتهى الأمر بالقبض عليه وإرساله إلى السجن مدة ستة أشهر.

وبينما هو في السجن، تشارك في الزنزانة مع خوان ديلغادو، وهو مجرم صغير أمضى سنوات وراء القضبان أكثر مما أمضاها خارجها. وبعد أن قضى مارتينيز مدة سجنه، انضم إلى عصابة خوان وسرعان ما أصبح واحداً من أكثر مساعديه الموثوقين. وعندما قبض على خوان مرة أخرى أيضاً وأُعيد إلى السجن، أصبح مارتينيز مسؤولاً عن إمبراطوريته المتضائلة. كان في السابعة عشرة من عمره آنذاك، مثل عمر سيباستيان، وبدأ أنه مُجهز لحياة الجريمة. لكن القدر دار بشكل غير متوقع عندما وقع في حب كونسويلا توريس، وهي عاملة هاتف تعمل في مقسم الاتصالات الدولية. لكن والد كونسويلا، وهو سياسي محلي كان يُخطط للترشح لمنصب عمدة بيونس آيريس، أوضح لابنته بشكل جلي أنه لا يريد لمجرم تافه أن يكون صهراً له.

تجاهلت كونسويلا نصيحة والدها وتزوجت من مارتينيز ثم أنجبت منه أربعة أطفال، حسب الترتيب الأميري الجنوبي الصحيح، ثلاثة صبيان تلاهم فتاة. لقد كسب مارتينيز أخيراً احترام والد زوجته عندما جمع ما يكفي من المال لتمويل حملته الانتخابية المظفرة ليكون عمدة.

ما إن استقر المقام بالعمدة في مبنى البلدية، أصبحت كل عقود البلدية تمر من تحت يدي مارتينيز، بإضافة نسبة 25 بالمائة «كرسم خدمة». لكن لم يمضِ كثير من الوقت حتى أصبح المراقب متبرماً من كونسويلا والسياسات المحلية معاً، وبدأ بتوسيع اهتماماته عندما اكتشف أن الحرب الأوروبية تعني أن هناك فرصاً لا نهاية لها لأولئك الذين يدعون الحيادية.

رغم أن مارتينيز كان ميالاً بشكل طبيعي لدعم البريطانيين، إلا أن الألمان هم من قدموا له فرصة تحويل ثروته الصغيرة إلى أخرى ضخمة. لقد احتاج النظام النازي لأصدقاء يستطيعون القيام بالعمل، ورغم أن المُرَاقِب لم يكن سوى في الثانية والعشرين من عمره عندما ظهر في برلين وفي حوزته دفتر أوامر شراء فارغ، إلا أنه غادر بعد شهرين بطلبات تتراوح بدءاً من أنابيب نبط إيطالية وصولاً إلى ناقلة نبط يونانية. وكلما حاول إتمام صفقة، كان المُرَاقِب يُصرح بأنه صديق مقرب من السيد هنريك هيملر، رئيس الاستخبارات الألمانية، وأنه التقى بالسيد هتلر نفسه في مناسبات عديدة.

خلال السنوات العشر التالية، كان المُرَاقِب ينام في الطائرات والسفن والقطارات والحافلات وحتى أنه نام مرة في عربة يجرها حصان، خلال سفره حول العالم من أجل تأمين قائمة المتطلبات الألمانية.

لقد أصبحت لقاءاته مع هيملر أكثر تكراراً. وإبان نهاية الحرب، عندما بدا أن نصر الحلفاء محتوم وانهارت العملة الألمانية، أصبح قائد الاستخبارات الألمانية يدفع للمُرَاقِب نقداً أوراقاً نقدية من فئة الخمسة جنيهاً، من مطبعة ساشسينهوسن. وعندئذٍ يعبر المُرَاقِب الحدود ويودع النقود في جنيف، حيث تُحول إلى فرنكات سويسرية.

قبل نهاية الحرب بوقت طويل، جمع الدون بيدرو ثروة، لكنها لم تتراكم إلا حين كان الحلفاء على وشك الهجوم على العاصمة الألمانية إذ عرض هيملر عليه فرصة العمر. لقد اتفق الرجلان على إتمام الصفقة، وغادر المُرَاقِب ألمانيا وبحوزته عشرون مليون جنيه من فئة الخمسة

جنيهاً المزورة، وغواصته الخاصة، وملازم شاب من طاقم هيملر الشخصي، لم تطأ قدمه أرض الوطن أبداً مرة أخرى.

لدى وصوله إلى بيونس آيريس، اشترى المراقب أحد البنوك المتعثرة مقابل خمسين مليون بيزوس، وأخفى العشرين مليون جنيه خاصته في الخزانات، ثم انتظر أعضاء القيادة النازية الأحياء ليظهروا في بيونس آيريس ويصرف لهم بوليصة تقاعدهم.

حدق السفير في جهاز تسجيل البرقيات وهو يُخشخش في الزاوية البعيدة لمكتبه.

كان هناك رسالة تُرسل مباشرةً من لندن. لكن كما هو الحال في كل توجيهات وزارة الخارجية، ينبغي له قراءة ما بين السطور، لأن الجميع يعلم بأن الاستخبارات الأرجنتينية سوف تحصل على الرسالة في الوقت نفسه، في مكتب يبعد مائة ياردة فقط عن السفارة.

بيتر ماي، كابتن فريق الكريكت البريطاني، سوف يقوم بالضربة الافتتاحية في المنافسة الأولى للعبة الكريكت التي تُقام في ملعب لورد هذا السبت عند الساعة العاشرة. لدي بطاقتان للعبة، وآمل أن يتمكن الكابتن ماي من الانضمام إليك.

ابتسم السفير. فقد كان يعلم جيداً مثل أي تلميذ مدرسة إنكليزي، بأن المباريات التجريبية تبدأ دائماً عند الحادية عشرة والنصف صباحاً يوم الخميس، وأن بيتر ماي لم يبق بالضربة الأولى. لكن من ناحية أخرى، لم تكن بريطانيا في حالة حرب مع بلاد تلعب الكريكت أبداً.

«هل التقينا من قبل يا صديقي القديم؟».

أغلق هاري الملف بسرعة ونظر إلى رجل في منتصف العمر. كان مُتشبثاً بمسند رأس المقعد الفارغ المجاور له بيد واحدة، وهو يحمل كأساً من النبيذ الأحمر بالأخرى.

أجاب هاري: «لا أعتقد ذلك».

قال الرجل وهو يحدق إليه: «أكاد أقسم أننا التقينا، وربما أخطأتُ بينك وبين شخص آخر».

تنفس هاري الصعداء عندما هز الرجل كتفيه ومشى متخبطاً نحو كرسيه في الجزء الأمامي من المقصورة. كان على وشك فتح الملف مرة أخرى ومتابعة دراسته عن خلفية مارتينيز، عندما التفت الرجل وشق طريقه ببطء عائداً نحوه.

«هل أنت مشهور؟».

ضحك هاري وقال: «هذا مستبعد تماماً. فكما ترى، أنا كابتن طيار في شركة الخطوط البريطانية، وقد كنتُ كذلك طيلة الاثني عشر عاماً الماضية».

«إذاً أنت لا تتحدر من بريستول؟».

أجاب هاري متمسكاً بشخصيته الجديدة: «كلا، لقد وُلدتُ في إيسوم، وأنا أعيش الآن في إيويل».

مرة أخرى انطلق الرجل نحو مقعده وقال: «سأتذكر خلال لحظات
من تُذكرني».

أعاد هاري فتح الملف، لكن مثل ديك ويتينغتون، التفت الرجل
للمرة الثالثة قبل أن يتمكن حتى من قراءة سطر آخر. وهذه المرة التقط
قبعة هاري وجلس في مقعد بجانبه وقال: «أنت لا تؤلف كتباً بأي حال
من الأحوال؟».

أجاب هاري بشكل أكثر حسماً، في الوقت الذي ظهرت فيه الأنسة
كاريك وهي تحمل صينية فيها مشاريب: «كلا». رفع حاجبيه وأبدى لها
نظرة أمل أن يفهم منها ما معناه، «أنقذيني أرجوك».

«أنت تذكرني بمؤلف يتحدر من بريستول، لكنني سأكون ملعوناً إذا
تذكرت اسمه. هل أنت واثق من أنك لست من بريستول؟». نظر إليه
عن قرب، قبل أن يزفر غمامة من دخان السيجارة في وجه هاري.

رأى هاري الأنسة كاريك وهي تفتح باب قُمرة القيادة وتقول: «لا
بد وأنها حياة مثيرة كونك طياراً».

«هنا الكابتن يتحدث معكم. نحن على وشك التعرض لبعض
المطبات الجوية، لذا أرجو عودة جميع الركاب إلى مقاعدهم وتثبيت
أحزمتهم».

ظهرت الأنسة كاريك مرة أخرى في المقصورة ومشت مباشرة إلى
مؤخرة قسم الدرجة الأولى.

«عذراً لإزعاجك يا سيدي، لكن الكابتن طلب من جميع الركاب...».

قال الرجل وهو يرفع نفسه للأعلى، لكن ليس قبل أن ينفخ غمامة
دخان أخرى باتجاه هاري: «نعم لقد سمعته»، ثم أضاف وهو يشق
طريقه ببطء عائداً إلى مقعده: «سوف أتذكر الشخص الذي تذكرني به».

خلال الجزء الثاني من الرحلة إلى بيونس آيرس، أكمل هاري ملف الدون بيدرو مارتينيز.

بعد الحرب، أمضى المُرَاقِب كل وقته في الأرجنتين، متربحاً على جبل من النقود. كما انتحر هيملر قبل محاكمته في نورمبيرغ، في حين حُكِم على ستة من أتباعه بالموت. وأُرسل ثمانية عشر آخرين إلى السجن ومن بينهم الرائد كروغر. ولم يأتِ أحد يطرق على باب الدون بيدرو ليُطالب بتأمينه على الحياة.

قلب هاري الصفحة ليجد أن القسم التالي كان مكرساً لعائلة المُرَاقِب. استراح بعض الوقت قبل أن يتابع القراءة.

لدى مارتينيز أربعة أبناء. ابنه الأول ديبغو، طُرد من مدرسة هارو بعد أن أوثق أحد الصبية الجدد إلى مُشعاع حراري ساخن. عاد إلى وطنه الأصلي دون حصوله على شهادة التعليم العامة، حيث انضم إلى والده، وبعد ثلاث سنوات، تخرج بمرتبة امتياز في مجال الجريمة. ورغم أن ديبغو كان يرتدي بذلات زرقاء بصفين من الأزرار من ماركة سافيل رو، إلا أنه كان سيُمضى معظم أوقاته في بذلة السجن لو أن والده لم يكن لديه عدد لا يُحصى من القضاة وضباط الشرطة والسياسيين على جدول رواتبه.

ابنه الثاني، لويس، تحول من صبي إلى زير نساء خلال عطلة صيفية واحدة في الريفيرا. والآن يقضي معظم ساعات يقظته على طاولات

الروليت في مونتي كارلو، يقامر بأوراق أبيه النقدية من فئة الخمسة جنيهات في محاولة لإعادة كسبها بعملة مختلفة. وكلما حالفه الحظ بشكل جيد، تجد كميات كبيرة من الفرنكات طريقها إلى حساب الدون بيدرو في جنيف. لكن مارتينيز بقي متضيقاً لأن الكازينو يحصل على عوائد أكثر منه.

الابن الثالث، برونو، لم يكن مشابهاً لأبيه، إذ أنه أظهر خصالاً حميدةً ورثها من والدته أكثر مما أظهر من عيوب والده، رغم أن مارتينيز كان سعيداً بتذكير أصدقائه اللندنيين أن لديه ابناً سيذهب إلى كامبريدج في أيلول.

هناك القليل من المعلومات عن الطفل الرابع، ماريا تيريزا، التي كانت في مدرسة روديان، وتقضي العطلة دائماً مع والدتها. توقف هاري عن القراءة عندما جهزت الأنسة كاريك طاولة عشاء له، لكن حتى أثناء تناول الوجبة، بقي الرجل اللعين في باله.

خلال السنوات التي تلت الحرب، شرع مارتينيز بتعزيز مصادر دخل مصرفه. إذ قام مصرف عائلات المزارعين الاجتماعي بإقراض أولئك العملاء الذين يمتلكون أراضي ولا يملكون نقوداً. كانت أساليب مارتينيز بدائية لكن فعالة. فقد قام بإقراض المزارعين أي مبلغ من النقود يطلبونه، لقاء معدلات فوائد فاحشة، طالما كانت القروض مغطاة بقيمة أرض المزارع.

في حال لم يكن الزبائن قادرين على سداد دفعاتهم الربع سنوية، يتلقون إشعار رهن، يمنحهم تسعين يوماً من أجل تصفية الدين المستحق. وفي حال فشلوا في فعل ذلك، وكلهم تقريباً فعلوا، تُصادر

صكوك ملكية الأرض من قبل البنك، وتُضاف إلى المساحة الواسعة التي راكمها مارتينيز مسبقاً. وكل من يشتكي، يتلقى زيارة من دييغو، الذي يُعيد تشكيل وجوههم، وهذا أرخص بكثير وأكثر فعالية من توظيف المحامين.

الشيء الوحيد الذي ربما قوض صورة بارون الماشية التي عمل عليها مارتينيز جاهداً كي يُنميها في لندن هو حقيقة أن زوجته كونسويلا استنتجت أخيراً أن والدها كان على حق منذ البداية، وقدمت دعوى طلاق. وبينما كانت الإجراءات تتابع في بيونس آيريس، كان مارتينيز يُخبر أي شخص في لندن يسأل عن الموضوع، بأن كونسويلا ماتت للأسف بسبب مرض السرطان، وبذلك يُحول أي عار اجتماعي محتمل إلى تعاطف.

بعد فشل والد كونسويلا بإعادة انتخابه كعمدة - دعم مارتينيز مرشح المعارضة - انتهى الأمر بها وهي تعيش في قرية على بعد بضعة أميال خارج بيونس آيريس. كانت تتلقى معونة شهرية لم تكن تُغطي رحلات تسوقها العديدة في العاصمة، وليس هناك من إمكانية للسفر خارج البلاد. ومن سوء حظ كونسويلا، أن واحداً فقط من أولادها أظهر اهتماماً بالبقاء على اتصال معها، وهو الآن يعيش في إنكلترا.

هناك شخص واحد لم يكن عضواً من عائلة مارتينيز استحق صفحته الخاصة في ملف هاري: كارل راميريز، الذي وظفه مارتينيز كخادم/بمهام متعددة. ورغم أن لدى راميريز جواز سفر أرجنتينيا، إلا أنه يحمل شهياً مدهشاً لكارل أوتو لندسورف، أحد أعضاء فريق المصارعة الأولمبية الألماني لعام 1936 والذي أصبح لاحقاً ملازماً مُتخصصاً بالاستجواب في الاستخبارات الألمانية. لقد كانت وثائق راميريز مذهلة مثل أوراق

الخمسة جنيهات التي تخص مارتينيز، ومن المؤكد تقريباً أنها صادرة من المصدر نفسه.

أبعدت الأنسة كاريك صينية العشاء، وقدمت للكابتن ماي براندي وسيجاراً، رفضها بكل تهذيب، بعد أن شكرها على المطبات الهوائية. فابتسمت.

قالت وهي تتصنع ضحكة: «لقد تبين أنها سيئة تماماً بمقدار ما اعتقد الكابتن أساساً. كما طلب مني إعلامك إنه في حال إقامتك في فندق ميلونجا، فأنت مرحب بك للانضمام إلينا في حافلة شركة الطيران البريطانية، مما يُمكنك من تجنب السيد بولتون» - رفع هاري أحد حاجبيه - «الرجل من بريستول، والمقتنع تماماً أنه التقاك في مكان ما من قبل».

لم يستطع هاري تجنب ملاحظة الأنسة كاريك وهي تنظر أكثر من مرة إلى يده اليسرى، التي تُظهر حلقة باهتة من الجلد تشير بوضوح إلى أن خاتم الزواج قد أُزيل. لقد طُلق الكابتن ماي من زوجته أنجيلا منذ أكثر من سنتين فقط. كان لديهما طفلان: جيم بعمر العاشرة، يأمل بالذهاب إلى كلية إيبسوم، وسالي، بعمر الثمانية، التي تملك جوادها الخاص. حتى أنه يملك صورة لهما ليُثبت ذلك. لقد سلم هاري خاتمه إلى إيما لتحتفظ به بأمان قبل رحيله تماماً. هناك شيء آخر لم توافق عليه.

قال السفير: «لقد طلبت لندن مني تحديد موعد لرؤية الكابتن بيتر ماي عند الساعة العاشرة غداً صباحاً».

كتبت سكرتيرته ملاحظة في كراسته وقالت: «هل ستطلب أي معلومات عن خلفية الكابتن ماي؟».

«كلا، لأنه لا فكرة لدي عن هذا الشخص، أو السبب الذي لدى وزارة الخارجية لرؤيتي إياه. احرصي على جلبه مباشرة إلى مكثبي في اللحظة التي يصل فيها».

انتظر هاري حتى نزل آخر راكب قبل أن ينضم إلى الطاقم. بعد أن أنهى إجراءات التفتيش في الجمارك، خرج من المطار ليجد حافلة صغيرة تنتظر بجانب الرصيف.

وضع السائق حقيبته في مكان الأمتعة بينما صعد هاري على متن الحافلة لتستقبله الأنسة كاريك بابتسامة.

سأل: «هل يمكنني الانضمام إليكم؟».

أجابت وهي تتحرك لتُفسح المجال له: «نعم بالطبع».

قال وهو يوافقها: «اسمي بيتر».

سألته بينما شقت الحافلة طريقها نحو المدينة: «اسمي أنايل. ما الذي أتى بك إلى الأرجنتين؟».

«أخي ديك يعمل هنا. ونحن لم نرَ بعضنا منذ سنوات طويلة، ولذا اعتقدت أنه ينبغي عليّ القيام بالمبادرة بمناسبة عيد ميلاده الأربعين».

قالت أنايل وهي ترسم ضحكة على وجهها: «هل هو أخوك الأكبر؟ ماذا يعمل؟».

«إنه مهندس ميكانيك. وهو يعمل في مشروع سد بارانا منذ خمس سنوات».

«لم أسمع به من قبل».

«ليس هناك من داعٍ لتسمعي به، فهو في وسط المجهول».

«حسناً، سوف يحدث له صدمة حضارية بعض الشيء عندما يعود إلى بيونس آيريس، لأنها واحدة من أكثر المدن عالميةً على وجه الأرض، وهي بالتأكيد مكان التوقف المفضل بالنسبة إليّ أثناء السفر».

قال هاري وهو يرغب بتغيير الموضوع قبل أن تنفذ منه التفاصيل المتعلقة بعائلته المتبناة مؤخراً: «لكم من الوقت سوف تبقى هنا هذه المرة؟».

«ثمان وأربعون ساعة. هل تعرف بيونس آيريس يا بيتز؟ في حال لم تعرف، فأنت مدعو لمتعة حقيقية».

أجاب هاري: «كلا، هذه المرة الأولى لي». لا تفقد تركيزك، نبهه السيد آلان، لأنه حينئذٍ سوف يزل لسانك.

«إذاً ما هو المسار الذي تطير فيه عادةً؟».

«أنا في محور عبر الأطلسي - نيويورك، بوسطن وواشنطن». لقد استقر الرجل المجهول من وزارة الخارجية على ذلك المسار لأنه يتضمن المدن الثلاثة التي زارها هاري خلال الجولة الترويجية لكتابه.

«يبدو هذا ممتعاً. لكن احرص على أخذ عينة من حياة الليل بما أنك هنا. فالأرجنتينيون يجعلون الأميركيين يبدوون محافظين».

«هل هناك من مكان معين ينبغي أن آخذ أخي إليه؟».

«مطعم ليزارد، فيه أفضل راقصي التانجو، لكني بلغت أن أفضل أطباق الطعام موجود في ماجيستيك، وهذا لا يعني أنني جربته أبداً. في العادة، يذهب الطاقم للسهر في نادي الماتادور الكائن في جادة الاستقلال. ولذا في حال توفر الوقت لك ولأخيك، سوف نرحب بانضمامكما إلينا».

قال هاري عندما وقف الباص خارج الفندق: «شكراً لك. ربما أتفق معك بهذا الشأن تماماً».

حمل حقيبة أنابيل إلى داخل الفندق.

قالت وهما يسجلان دخولهما: «هذا المكان رخيص وممتع»، ثم أضافت وهما يدخلان إلى المصعد: «لذا إذا أردت الاستحمام دون انتظار المياه حتى تسخن، من الأفضل أن تفعل ذلك في آخر الليل، أو في الصباح الباكر».

عندما وصلا إلى الطابق الرابع، ترك هاري أنابيل وخرج إلى الممر الخفيف الإضاءة شاقاً طريقه نحو الغرفة رقم 469. بعد دخوله، اكتشف أن الغرفة لم تكن أفضل حالاً من الممر. ففيها سرير مزدوج ضخم منحني في وسطه، وصنبور يخرج منه نقاط مياه بلون بني، وعلاقة مناشف فيها خرقة واحدة للوجه، وملاحظة تُبلغه أن الحمام موجود في نهاية الممر. استعاد ملاحظة السيد آلان في ذاكرته، لقد حجزنا لك في فندق لن يفكر مارتينيز وأتباعه بزيارته أبداً. لقد أدرك السبب لتوه. يحتاج هذا المكان إلى تعيين أمه كمديرة له، وحبذا لو أنها عينت بالأمس.

خلع قبعته، وجلس على طرف السرير. لقد أراد الاتصال بـ إيما وإخبارها كم يفتقدها، لكن لم يكن بوسع السيد آلان أن يكون أوضح من ذلك: لا اتصالات هاتفية، ولا نوادٍ ليلية، ولا زيارات لمعالم المدينة السياحية، ولا تسوق، حتى لا تغادر الفندق إلى أن يحين وقت زيارة السفير. رفع قدميه على السرير وأسند رأسه على الوسادة. فكر بـ سيباستيان وإيما والسيد آلان، ومارتينيز، ونادي الماتادور... غرق الكابتن ماي في النوم.

عندما استيقظ هاري، كان أول ما فعله هو إنارة الإضاءة بجانب سريره وتفقد ساعته التي أشارت إلى 2:26 بعد منتصف الليل. لقد شتم عندما أدرك أنه لم يخلع ثيابه.

كاد أن يسقط من فوق السرير، فمشى عبر الغرفة نحو النافذة وحدث إلى مدينة بدا من الضجيج وحركة المرور والأضواء المتلألئة فيها أنها لا تزال مستيقظة تماماً. أغلق الستائر، وخلع ثيابه ثم عاد إلى السرير، على أمل أن يغفو بسرعة مرة أخرى. لكن أفكاراً عن مارتينيز، وسيب والسيد آلان، وإيما وجايلز وحتى جيسيكأ، سرقت النوم من عينيه، وكلما حاول الاسترخاء بشدة وطرد هذه الأفكار من عقله، استحوذت علي انتباهه أكثر.

عند الساعة الرابعة والنصف بعد منتصف الليل، استسلم للأمر وقرر أخذ حمام. وعندها غرق في النوم. عندما استيقظ، قفز من السرير، ورفع الستائر ليرى أول خيوط الشمس وهي تُخيم على المدينة. تفقد الوقت ليجد أن الساعة تشير إلى السابعة وعشر دقائق صباحاً. شعر بحاجة إلى حمام ساخن وطويل فابتسم للفكرة.

بدأ بالبحث عن رداء استحمام، لكن كل ما يُقدمه الفندق هو منشفة حمام رقيقة وقطعة صابون. فمشى في الممر متوجهاً نحو الحمام. كان هناك إشارة على مقبض الباب مكتوب عليها مشغول، وقد تمكن من سماع شخص يرش الماء في الداخل. قرر هاري الانتظار، كي لا يأخذ

مكانه أحد في الطابور. وعندما فُتح الباب أخيراً بعد مُضي عشرين دقيقة تقريباً، التقى هاري وجهاً لوجه بالرجل الذي أمل عدم رؤيته مرة أخرى أبداً.

قال معترضاً طريقه: «صباح الخير أيها الكابتن».

أجاب هاري محاولاً تجاوزه: «صباح الخير يا سيد بولتون».

قال: «لا داعي للعجلة يا صديقي القديم، سوف يستغرق حوض الاستحمام ربع ساعة حتى يفرغ، ومن ثم ربع ساعة كي يمتلئ مرة أخرى». أمل هاري أنه في حال لم يتفوه بكلمة فإن بولتون سوف يفهم المعنى ويمضي في سبيله. لكنه لم يفعل، إذ أضاف المتطفل اللحوح قائلاً: «النسخة المطابقة لك، يكتب روايات بوليسية. والشيء الغريب هو أن بإمكانني تذكر اسم المحقق، لكنني ملعون إذا تمكنتُ من تذكر اسم المؤلف. إنه على رأس لساني».

عندما سمع هاري آخر قطرات الماء وهي تغرغر في البالوعة، تنحى بولتون جانباً على مضض سامحاً له بدخول الحمام.

كرر بولتون قوله وهو يمشي في الممر: «إنه على رأس لساني».

أغلق هاري الباب وأقفله، لكن ما إن فتح صنوبر الماء حتى سمع طريقةً على الباب.

«كم من الوقت سوف تستغرق هناك؟».

وفي الوقت الذي أصبح هناك كمية كافية من الماء له ليدخل حوض الاستحمام، سمع شخصين يتحادثان على الجانب الآخر من الباب. أو هل كانوا ثلاثة؟

كانت قطعة الصابون كافية ليصل في استحمامه حتى قدميه فقط، وبحلول الوقت الذي جفف بين أصابع قدميه، أصبحت المنشفة مبللة تماماً. فتح باب الحمام ليجد طابوراً من النزلاء الساخطين، وحاول عدم التفكير بمدى الوقت الذي سوف يستغرقه آخر واحد فيهم كي ينزل لتناول الفطور. الآنسة كاريك على صواب، كان ينبغي عليه الاستحمام عندما استيقظ في منتصف الليل.

ما إن عاد إلى غرفته، قام هاري بحلاقة ذقنه، ثم ارتدى ملابسه بسرعة، وأدرك أنه لم يتناول شيئاً من الطعام منذ أن غادر الطائرة. أقفل غرفته، واستقل المصعد نزولاً إلى الطابق الأرضي، ثم مشى في الردهة باتجاه غرفة الطعام. وعندما دخل، كان أول من وقعت عيناه عليه هو السيد بولتون، جالساً لوحده، يضع المربي على قطعة خبز محمص. فالتفت ثم غادر المكان. فكر بخدمة الغرف، لكن ليس لوقت طويل.

كان موعده مع السفير الساعة العاشرة، كما عرف من كراسة ملحوظاته أنه لن يستغرق سوى عشر إلى خمس عشرة دقيقة كي يصل إلى السفارة مشياً على الأقدام. كان يمكن له أن يتمشى ويبحث عن مقهى، لولا إحدى تعليمات السيد آلان المكررة: لا داعي لمخاطر غير ضرورية. مع ذلك، قرر المغادرة في وقت أبكر بقليل ومشى ببطء. لقد شعر بالارتياح عندما اكتشف أن السيد بولتون لم يكن يترصده في الممشى أو في المصعد أو الردهة، وقد استطاع الخروج من الفندق دون مصادفته مرة أخرى.

ثلاثة أبنية إلى اليمين ثم بنائتين إلى اليسار وسيجد نفسه في ساحة بلازا دي مايو، وكتيب الدليل السياحي أكد له ذلك. وبعد مضي عشرة

دقائق، بدا هذا صحيحاً. كانت الأعلام البريطانية مرفوعة على السواري حول الساحة، ولم يسعَ هاري سوى إلى التساؤل عن السبب.

عبر الطريق، وهذا ليس أمراً سهلاً في مدينة تفتخر بعدم وجود إشارات مرور فيها، ثم مضى باتجاه كونسيتيوشنال آفينيو، ليتوقف لبعض الوقت كي يُبدي إعجابه بتمثال شخص يُدعى إسترادا. تُخبره تعليماته، أنه في حال استمر بالمشي لمسافة 200 ياردة سوف يصل إلى مجموعة بوابات حديدية مُزينة بشعار التاج الملكي البريطاني.

وجد هاري نفسه واقفاً خارج السفارة عند الساعة 9:33. فجال حول المبنى، أصبحت الساعة 9:43، ثم جال مرة أخرى بشكل أبطأ، فأصبحت الساعة 9:56. وأخيراً مشى عبر البوابات ليعبر فناءً مفروشاً بالحصى ثم يصعد عدة درجات، حيث فُتح له باب مزدوج من قبل حارس تشير أوسمته إلى أنهما خدما في ميدان الحرب نفسه. كان الملازم هاري كليفتون الذي خدم في فرقة تكساس رينجرز يود التوقف والتحدث معه، لكن ليس اليوم. وبينما هو يمشي نحو مكتب الاستقبال، تقدمت منه امرأة شابة وسألته: «هل أنت الكابتن ماي؟».

«نعم، أنا هو».

«اسمي بيكي شو. وأنا السكرتيرة الخاصة للسفير، وقد طلب مني أن أوصلك مباشرةً إلى مكتبه».

قال هاري: «شكراً لك». قادته إلى ممر مفروش بالسجاد الأحمر، ثم وقفت في نهايته وطرقت بلطف على باب مزدوج، ودخلت دون انتظار الرد. لقد تبين عدم صحة مخاوف هاري من أن السفير لم يكن بانتظاره.

دخل الغرفة الكبيرة الأنيقة ليجد أن السفير يجلس وراء مكتبه أمام نوافذ واسعة شبه دائرية. وقف سعادته، الرجل ذو الوجه الصغير المربع الذي يضج بالطاقة، ومشى بحيوية نحو هاري.

قال وهو يصفحه بثبات: «كم جميل أن ألتقي بك أيها الكابتن ماي، هل ترغب بفنجان قهوة، وربما بعض بسكويات الزنجبيل؟».

قال هاري: «بسكويات الزنجبيل، نعم لو سمحت».

أشار السفير برأسه، فغادرت السكرتيرة الغرفة بسرعة وأغلقت الباب وراءها.

قال السفير وهو يقود هاري نحو زوج من الكراسي الجلوس عليهما يجعل المرء مطلقاً على مرج السفارة المُشذب والمفروش بالزهور: «يجب أن أكون صريحاً معك الآن أيها الصديق القديم، فليس لدي أي فكرة على الإطلاق عن ماهية هذا الاجتماع، سوى أنه إذا كان أمين سر مجلس الوزراء يريدني أن أراك بشكل عاجل، ينبغي أن يكون الأمر هاماً. فهو ليس برجل يميل إلى إهدار وقت أي شخص».

أخرج هاري مغلفاً من جيب سترته وسلمه للسفير مع ملف ضخم كان في عهده.

قال سعادته وهو ينظر إلى الشعار الموجود على المغلف: «أنا لا أحصل على كثير من هذه الأشياء».

فُتح الباب، وعادت بيكي وهي تحمل صينية عليها قهوة وبسكويات، وضعتها على الطاولة بينهما. فتح السفير رسالة وزير الخارجية وقرأها بروية، لكن لم يقل شيئاً إلى أن غادرت بيكي الغرفة.

«ظننتُ أنه ليس هناك من شيء جديد بإمكانني معرفته عن الدون بيدرو مارتينيز، لكن يبدو أنك على وشك إثبات أنني مُخطئ. لمَ لا تبدأ أولاً أيها الكابتن ماي؟».

بدأ بقوله: «اسمي هاري كليفتون»، ثم شرح سبب إقامته في فندق ميلونجا ولماذا لم يكن قادراً على الاتصال بابنه ويدعه يعرف أن عليه العودة إلى إنكلترا في الحال.

لقد تفاجأ هاري برد السفير إذ قال: «هل تعلم يا سيد كليفتون، في حال أمرني وزير الخارجية باغتيال مارتينيز، لكنتُ نفذت الأمر بسعادة غامرة. فليس بوسعي تخيل عدد الأرواح التي أزهقها هذا الرجل».

«وأخشى أن ابني ربما يكون التالي».

«ليس إذا كان الأمر متعلقاً بي بشكل من الأشكال. الآن، كما أرى الوضع، أولويتنا الأساسية هي تأمين سلامة ابنك. والثانية، أظن أن السيد آلان يعتقد أنها بذات الأهمية، هي اكتشاف كيف يعتزم مارتينيز تهريب مثل هذا الكم الكبير من النقود عبر الجمارك. من الواضح أن السيد آلان يعتقد»، - ألقى نظرة على الرسالة - «أن ابنك ربما يكون الشخص الذي بإمكانه معرفة كيف يُخطط لفعل ذلك. هل هذا تقييم منصف؟».

«نعم يا سيدي، لكنه لن يكون قادراً على الوصول إلى ذلك ما لم أتمكن من التحدث إليه دون أن يعلم مارتينيز».

«هذا مفهوم». أرجع السفير رأسه إلى الخلف، وأغمض عينيه، وضم أطراف أصابعه معاً وكأنه مستغرق في الصلاة، ثم أضاف وعيناه لا تزالان

مغمضتين: «الخدعة ستكون في تقديم شيء لمارتينيز ليس بإمكان النقود شراؤه».

قفز من كرسيه، ومشى نحو النافذة، وهدق باتجاه المرج العشبي، حيث كان عدة أعضاء من طاقمه يشغلون أنفسهم في التحضير لحفلة في الحديقة.

«قلت إنه ليس من المقرر لـ مارتينيز وابنك الوصول إلى بيونس آيريس قبل الغد؟».

«سترسو سفينتهما س س ساوث أميركا حوالي الساعة السادسة غداً صباحاً يا سيدي».

«وأنت بلا شك تعرف بالوصول الوشيك للأميرة مارغريت بزيارة رسمية؟».

«إذاً هذا سبب وجود العديد من الأعلام البريطانية في ساحة بلازا دي مايو».

ابتسم السفير وقال: «سوف تكون سموها معنا لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط. وحفلة الحديقة ستكون أبرز أنشطة رحلتها التي تُقام على شرفها هنا في السفارة يوم الاثنين في فترة بعد الظهر، والتي دُعي إليها أبرز وجوه المجتمع في بيونس آيريس. ليس من ضمنهم مارتينيز، لأسباب واضحة، رغم أنه أوضح لي بجلاء وفي أكثر من مناسبة عن مدى رغبته بالحضور. لكن إذا كان لخطتي أن تنجح، فيجب أن نتحرك، ونتحرك بسرعة».

مال السفير، وضغط على زر تحت مكتبه. فظهرت الأنسة شو بعد لحظات، وببيدها قلم وكراسة.

«أريدك أن ترسلي دعوة إلى الدون بيدرو مارتينيز لحضور الحفلة الملكية في الحديقة يوم الاثنين». حتى لو كانت سكرتيرته متفاجئة، فهي لم تُظهر ذلك. «وأريد أيضاً أن أرسل له رسالة في الوقت نفسه».

أغمض عينيه، من الواضح أنه يؤلف الرسالة في ذهنه، فقال: «عزيزي الدون بيدرو، يُسعدني بشكل بالغ، كلا، بشكل خاص، أن أُرْفَقَ لكم دعوة لحضور حفل في حديقة السفارة، والذي سوف نتشرف فيها بشكل خاص، كلا، كلا، لقد استخدمت (كلمة خاص) مسبقاً، على وجه الخصوص بحضور صاحبة السمو الملكي الأميرة مارغريت. فقرة جديدة. وكما سوف ترى، فالدعوة مُوجهة لك ولضيوفك. وحاشا لي أن أنصحك، لكن إذا كان هناك أي رجال إنكليز في طاقمك يمكن أن يحضروا، أعتقد أن سموها ستعتبر ذلك أمراً ملائماً. أتطلع للالتقاء بكم، المخلص إلخ. هل يبدو ذلك متغطرساً بما يكفي؟».

قالت الأنسة وهي تومئ برأسها: «نعم». أبقى هاري فمه مغلقاً.

«آنسة شو، سوف أوقع عليها حاملاً تطبعينها، ومن ثم أريدك أن تتدبري تسليمها مع الدعوة إلى مكتبه على الفور، كي تكون على مكتبه قبل أن يعود غداً صباحاً».

«ما التاريخ الذي يجب أن أضعه عليها يا سيدي؟».

قال السفير وهو يلقي نظرة على الروزنامة الموجودة على مكتبه: «هذا تفكير جيد، ما هو تاريخ مغادرة ابنك لإنكلترا، أيها الكابتن ماي؟».

«يوم الاثنين، العاشر من حزيران يا سيدي».

نظر السفير إلى الروزنامة مرة أخرى وقال: «أرخبها بسبعة حزيران، فبإمكاننا دائماً وضع الملامة على خدمة البريد بسبب وصولها المتأخر. فجميعهم يفعل ذلك». لم ينبس بكلمة أخرى إلى أن غادرت سكرتيرته الغرفة.

قال وهو يعود إلى مقعده: «الآن يا سيد كليفتون، دعني أخبرك بما يجول في خاطري».

لم يشهد هاري، سيباستيان برفقة مارتينيز، وهما ينزلان من سلم سفينة س س ساوث أميركا في الصباح التالي، لكن سكرتيرة السفير هي من فعلت. فقد سلمت لاحقاً رسالة إلى فندق هاري، تؤكد فيها أنهما وصلا وتطلب منه العودة إلى مدخل السفارة الجانبي القريب من الدكتور لويس أجوت عند الثانية من بعد ظهر اليوم التالي، قبل ساعة كاملة من الوقت المقرر لوصول أول ضيوف حفلة الحديقة.

جلس هاري على الطرف البعيد للسريير، متسائلاً فيما إذا ثبت صحة كلام السفير عندما قال إن مارتينيز سوف يبتلع الطعم أسرع مما يفعل سمك السلمون في نهر تويد. لقد تجاهله السلمون في المرة الوحيدة التي اصطاد فيها على الإطلاق.

صرخ مارتينيز وهو يحمل البطاقة ذات الحواف الموشاة بالذهب عالياً: «متى وصلت هذه الدعوة؟».

أجاب السكرتير: «لقد سُلمت باليد البارحة عبر أحد أعضاء طاقم السفارة».

قال مارتينيز باستغراب: «هذا ليس من شيم البريطانيين أن يُرسلوا دعوة بهذا التأخير».

«لقد اتصلت السكرتيرة الشخصية للسفير للاعتذار. وأخبرتني أنهم لم يتلقوا ردوداً من عدد من الدعوات التي أرسلت عبر البريد، وافترضت أنها ضلت طريقها. في الحقيقة قالت إنه إذا استلمت دعوة أخرى في البريد، فأرجو أن تتجاهلها».

قال مارتينيز: «اللجنة على خدمة البريد». مرر الدعوة إلى ابنه وبدأ يقرأ رسالة السفير.

قال مارتينيز: «كما ترى من البطاقة، بإمكانني اصطحاب ضيف. هل ترغب بمرافقتي؟».

أجاب ديبغو: «لا بد وأنتك تمزح. فأنا أفضل أن أخرج على ركبتي أثناء قداس في الكاتدرائية على أن أشاهد وأنا أنحني وأتملق في حفلة حديقة إنكليزية».

«إذاً ربما آخذ سيباستيان معي. ففي النهاية، هو حفيد أحد اللوردات، ولذا لا ضرر من إعطاء انطباع أن لي علاقات جيدة مع الأرستقراطية البريطانية».

«أين الفتى الآن؟».

«لقد حجزت له في فندق الرويال لمدة يومين».

«ما السبب الذي أبديته من أجل جلبه إلى هنا أساساً؟».

«أخبرته أن بإمكانه قضاء بضعة أيام إجازة في بيونس آيريس قبل عودته إلى إنكلترا مع إرسالية أحتاج تسليمها إلى شركة سوثبي، وسوف يتلقى أجراً جيداً لقاء ذلك».

«هل ستخبره بما في داخل الصندوق؟».

«بالتأكيد لا. كلما قلت معرفته كان أفضل».

«ربما يجب أن أذهب معه، لأتأكد فقط من عدم وجود أي

هفوات».

«كلا، فهذا سوف يُحبط كل الغاية من العملية. سيعود الصبي إلى إنكلترا على متن السفينة كوين ماري، بينما نسافر نحن إلى لندن بالطائرة بعد عدة أيام. وهذا سوف يمكنه من الإفلات من الشبكة في حين تُركز الجمارك البريطانية قواها علينا. وسوف نكون في لندن في الوقت المحدد للمزاد».

هل ما زلت تريدني أن أزايد بالنيابة عنك؟».

«نعم، فأنا لا أستطيع المخاطرة بتوريط أي أحد من خارج العائلة».

«لكن ألا يحتمل أن يتعرف إليّ أحد؟».

«أشك في ذلك إن كنت تزايد عبر الهاتف».

قال السفير: «لو تكرمت بالوقوف هنا سيدي الرئيس. فسموها ستأتي إليك أولاً. وأنا واثق من أن لديكما الكثير لتحدثا بشأنه».

قال الرئيس: «لغتي الإنكليزية ليست جيدة».

«لا تقلق يا سيدي الرئيس، فسموها معتادة على التعامل مع تلك المشكلة».

خطا السفير خطوة إلى يمينه وقال: «طاب نهارك سيدي رئيس الوزراء. سوف تكون الشخص الثاني الذي يُقدم إلى الأميرة، ما إن تُنهي حديثها مع الرئيس».

«هلا ذكرتني بالطريقة الصحيحة لمخاطبة جلالتها؟».

أجاب السفير دون تصحيح هفوته: «بالطبع يا سيدي، سوف تقول سموها (طاب نهارك يا رئيس الوزراء)، وقبل أن تصافحها، ينبغي أن تنحني». أبدى السفير إيماءة خفيفة برأسه ليُبين له ذلك. بدأ عدة أشخاص يقفون بقربه بالتدرب على هذه الحركة، من باب الحيلة. ثم أضاف: «وبعد أن تنحني، عندئذٍ تقول (طاب نهارك يا صاحبة السمو). سوف تبدأ الحديث بموضوع من اختيارها، وبإمكانك الاستجابة له بشكل ملائم. ليس من اللباقة أن تطرح عليها أي سؤال، ويجب أن تخاطبها بصيغة سيدي. وعندما ترحل عنك لتنتقل إلى العمدة، تنحني مرة أخرى وتقول (وداعاً يا صاحبة السمو)».

بدا رئيس الوزراء مرتبكاً.

قال السفير، قبل أن ينتقل إلى عمدة بيونس آيريس: «سموها سوف تكون معنا خلال دقائق». أسدى له التعليمات نفسها، قبل أن يُضيف: «سوف يكون لقاءك معها آخر حضور رسمي لها».

لم يكن بإمكان السفير تجاهل مارتينيز، الذي وضع نفسه على بعد خطوتين خلف العمدة. واستطاع أن يرى بأن الشاب الواقف بجانبه كان ابن هاري كليفتون. توجه مارتينيز مباشرةً نحو السفير، وترك سيباستيان خلفه.

سأل: «هل سوف أحظى بلقاء جلالتها؟».

«كنتُ أمل بتقديمك إلى سموها. فإذا تكرمت بالبقاء واقفاً حيث أنت يا سيد مارتينيز، سوف أجعلها تقترب منك حاملاً تُنهي حديثها مع العمدة. لكن أخشى أن هذا لا ينطبق على ضيفك. فالأميرة غير معتادة على التحدث إلى شخصين في آن معاً، ولذا ربما يتكرم السيد الشاب بالبقاء إلى الخلف قليلاً».

أجاب مارتينيز دون استشارة سيباستيان: «بالطبع سيفعل».

«من الأفضل أن أذهب الآن، وإلا لن يُكتب النجاح لهذا الحفل».

شق السفير طريقه عبر الحشود المزدهمة فوق الممرج العشبي، مُتجنباً أن تطأ قدماه السجاد الأحمر وهو في طريقه إلى مكتبه.

كانت ضيفة الشرف جالسةً عند زاوية الغرفة تُدخن سيجارة وتتحدث مع زوجة السفير. حيث يتدلى حامل سيجارة عاجي طويل وأنيق من يدها المرتدية لقفاز أبيض.

أحنى السفير رأسه وقال: «نحن جاهزون يا سيدتي، عندما تكونين كذلك».

قالت الأميرة وهي وتأخذ آخر نفس من سيجارتها قبل أن تُطفئها في منفضة السجائر: «إذاً دعنا ننهي هذا الأمر، هلا فعلنا؟».

رافقها السفير إلى الشرفة حيث توقفا لبرهة من الوقت. رفع قائد أوركسترا الحرس الملكي عصاه، فبدأت الفرقة عزف النشيد الوطني للضيافة. خيم الصمت على الجميع، كما قلد معظم الرجال السفير ووقفوا باستعداد.

وعندما عُزف آخر مقطع من النشيد، مشت صاحبة السمو ببطء على السجاد الأحمر ومنه إلى المرح العشبي، حيثُ قدمها السفير أولاً إلى الرئيس بيدرو أرامبورو.

قالت الأميرة: «كم أنا سعيدة برؤيتك مرة أخرى سيدي الرئيس. شكراً لك على هذا الصباح الأكثر من رائع. لقد استمتعتُ كثيراً برؤية المجلس في حالة انعقاد، وتناول الغداء معك ومع حكومتك».

قال الجملة الوحيدة التي تمرن عليها: «لقد تشرفنا بحضورك كضيافة لنا يا سيدتي».

«وينبغي عليّ أن أتفق معك سيدي الرئيس، عندما قلت إن لحم البقر الذي عندكم يضاها ما ننتجه في مرتفعات سكوتلاندا».

ضحكا بالرغم من أن الرئيس لم يدرك السبب. نظر السفير من فوق كتف الرئيس ليتفقد وجود رئيس الوزراء والعمدة والسيد مارتينيز في أماكنهم الصحيحة. لاحظ أن مارتينيز لم يكن بوسعه رفع ناظريه عن

الأميرة. فأوماً لبيكي، التي تقدمت إلى الأمام على الفور، وأخذت مكانها خلف سيباستيان ثم همست في أذنه: «سيد كليفتون؟».

التفت للخلف مذهولاً من معرفة أحد باسمه وقال: «نعم؟».

«أنا سكرتيرة السفير الخصوصية. وقد طلب أن تتكرم بالمجيء

معي».

«هل لي بإعلام الدون بيدرو بذلك؟».

أجابت بيكي بحسم: «كلا، سوف يستغرق الأمر بضع دقائق».

بدا سيباستيان في حالة من الريبة، لكنه تبعها وهي تشق طريقها

بين الحشود لتدخل السفارة عبر الباب الجانبي الذي تُرك مفتوحاً لها.

ابتسم السفير، وهو مسرور لانتهاء الجزء الأول من الخطة بسلاسة بالغة.

قالت الأميرة قبل أن يقودها السفير نحو مكان رئيس الوزراء:

«سوف أنقل بكل تأكيد أطيب أمنياتك لجلالته». ورغم أنه حاول التركيز

على كل كلمة تقولها الأميرة في حال تطلب الأمر بعض المتابعة، إلا أنه

سمح لنفسه استراق النظر على نافذة مكتبه بأمل إيجاد بيكي وهي تعود

إلى التراس كإشارة على أن اللقاء بين الوالد والابن قد حدث.

عندما شعر أن الأميرة قد أنهت حديثها مع رئيس الوزراء، قام

بتوجيهها نحو العمدة.

قالت الأميرة: «كم أنا سعيدة بلقائك. ففي الأسبوع الماضي فقط،

كان عمدة لندن يخبرني عن مدى سعادته بزيارة مدينتك».

أجاب العمدة: «شكراً لك يا سيدي، أنا أتطلع لرد المجاملة في وقت

ما من السنة القادمة».

ألقى السفير نظرة باتجاه مكتبه، لكن لم يكن هناك أي أثر لبيكي حتى الآن.

لم تستمر الأميرة طويلاً مع العمدة، وأوضحت بشكل رصين أنها تريد الماضي قُدمًا. فامتثل السفير لرغبتها على مضض.

«وهلا سمحت لي يا سيدتي أن أقدم لك أحد أهم مصرفيي المدينة، الدون بيدرو مارتينيز، الذي أثق أنك ستهتمين لمعرفة أنه يُمضى فترة من الوقت في منزله في لندن كل عام».

قال مارتينيز وهو يحني رأسه، قبل أن يتسنى للأميرة فرصة للتحدث: «إنه لشرف عظيم حقاً يا صاحبة الجلالة».

سألت الأميرة: «أين يقع منزلك في لندن؟».

«في إيتون سكوير يا صاحبة الجلالة».

«كم هذا جميل. عندي كثير من الأصدقاء يعيشون في هذا الجزء من المدينة».

«إذا كان الأمر كذلك يا صاحبة الجلالة، ربما تودين الانضمام إلي على مائدة العشاء في ليلة ما. وبإمكانك إحضار من تشائين معك».

لم يكن بوسع السفير انتظار رد الأميرة، إذ قالت: «يا لها من فكرة جديدة بالاهتمام»، قبل أن تمضي بسرعة قُدمًا.

انحنى مارتينيز مرة أخرى. وأسرع السفير خلف ضيفته الملكية. لقد شعر بالارتياح عندما توقفت لتبادل الحديث مع زوجته، لكن الجملة

الوحيدة التي سمعها هي: «يا له من رجل تافه ومخيف، كيف تسنى له الحضور بأي حال؟».

مرة أخرى، ألقى السفير نظرة باتجاه مكتبه، وتنفس الصعداء عندما رأى بيكي تخرج من التراس وتشير إليه بإيماءة حازمة. حاول التركيز على ما كانت تقوله الأميرة لزوجته.

«مارجوري، أنا أتوق لتدخين سيجارة. هل تظنين أن بإمكانني الفرار لبضع دقائق؟». مكتبة الرمحي أحمد

«نعم بالطبع يا سيدتي. هل نعود إلى السفارة؟». عندما ابتعدا، التفت السفير ليتفقد مارتينيز. لم يتحرك الرجل المسلوب عقله قيد أنملة. كانت عيناه ثابتتين على الأميرة، ولم يبدُ أنه انتبه لعودة سياستيان بهدوء إلى مكانه على بعد خطوات قليلة خلفه.

ما إن اختفت الأميرة عن الأنظار، التفت مارتينيز وأشار لسياستيان كي ينضم إليه.

افتتح كلامه قائلاً: «كنتُ الشخص الرابع الذي التقى بالأميرة، فقد قُدم الرئيس ورئيس الوزراء والعمدة فقط قبلي».

قال سياستيان وكأنه شهد المقابلة كلها: «يا له من شرف عظيم يا سيدي، لا بد وأنك فخور جداً».

أجاب مارتينيز: «بكل تواضع، كان هذا أحد أعظم أيام حياتي». ثم أضاف: «هل تعلم، أظن أن جلالته وافقت على تناول العشاء معي عندما أعود إلى لندن في المرة القادمة».

قال سيباستيان: «أشعر بالذنب».

«الذنب؟».

«نعم يا سيدي. فينبغي أن يكون برونو هو من يقف هنا ليشارك بانتصارك وليس أنا».

«بإمكانك أن تخبر برونو بكل ما حصل ما إن تعود إلى لندن».
شاهد سيباستيان السفير وسكرتيته يعودان إلى داخل السفارة فتساءل إذا ما كان والده لا يزال هناك.

قال السفير وهو يدخل مسرعاً إلى مكتبه: «لدي من الوقت ما يسمح للأميرة بتدخين سيجارة فقط. لكن لم يسعني الانتظار لأعرف كيف جرى اللقاء مع ابنك». قال هاري وهو يرتدي سترة شركة الخطوط الجوية البريطانية مرة أخرى: «لقد صُعق بدايةً، بالطبع، لكن عندما أخبرته أنه لم يُطرد وأنهم بانتظاره في جامعة كامبريدج في أيلول، شعر بالارتياح قليلاً. لقد اقترحتُ أن يعود معي إلى إنكلترا بالطائرة، لكنه قال إنه وعد بأخذ طرد إلى ساوثهامبتون على متن السفينة كوين ماري، وبما أن مارتينيز كان لطيفاً جداً معه، فهذا أقل ما يستطيع فعله».

كرر السفير قائلاً: «ساوثهامبتون. هل قال لك ماذا يحتوي الطرد؟».

«كلا، وأنا لم أضغط عليه، كي لا يعرف السبب الحقيقي الذي قطع من أجله كل هذا الطريق».

«قرار حكيم».

«لقد فكرتُ كذلك بالعودة معه على متن كوين ماري، لكنني أدركتُ أنه في حال فعلت، فسوف يعرف مارتينيز بسرعة سبب وجودي هنا».

قال السفير: «أتفق معك. إذاً كيف انتهى الأمر بكم؟».

«لقد وعدتُه أن أكون هناك للقاءه عندما ترسو كوين ماري في ساوثهامبتون».

«كيف تعتقد أن مارتينيز سيتصرف في حال أخبره سياستيان أنك موجود في بيونس آيريس؟».

«اقترحْتُ عليه أنه من الحكمة عدم ذكر ذلك، لذا وافق على عدم قول أي شيء».

«إذاً الآن، كل ما عليّ فعله هو معرفة ما الذي يوجد في الطرد، بينما تذهب أنتَ إلى لندن قبل أن يتعرف إليك أحد».

قال هاري: «لا يسعني إلا أن أشكرك لقاء كل ما فعلت يا سيدي. فأنا أدرك بأني حجر عثرة في طريقك في هذه اللحظة».

«لا تعيد التفكير بالأمر يا هاري. فأنا لم أستمتع بوقتي منذ سنوات كثيرة. لكن ربما من الحكمة لك أن تتسلل بعيداً قبل -».

فُتِح الباب ودخلت الأميرة. انحنى السفير، بينما حدقت سموها إلى الرجل الذي يرتدي بذلة كابتن في شركة الخطوط الجوية البريطانية.

قال السفير دون أن يُفوت الفرصة: «اسمحي لي أن أقدم إليك الكابتن بيتر ماي يا سيدتي».

أحنى هاري رأسه.

أبعدت الأميرة حامل السيجارة من فمها وقالت: «كابتن ماي، كم سُدتُ بلبقائك». ثم نظرت إليه عن كثب وأضافت: «هل التقينا من قبل؟».

أجاب هاري: «كلا يا سيدتي. أشعر أنني كنتُ سأتذكر لو أننا التقينا». «طريف جداً أيها الكابتن ماي». ابتسمت له بحرارة قبل أن تُطفئ سيجارتها وتضيف: «حسناً أيها السفير، اقرع الجرس. لدي شعور أنه حان وقت الجولة الثانية».

بينما كان السيد ماثيوز يرافق الأميرة خارجاً باتجاه المرح العشبي، أخذت بيكي هاري في الاتجاه المعاكس. تبعها عبر السلام الخلفية من خلال المطبخ إلى خارج مدخل التجار بجانب المبنى.

«أمل أن تحظى برحلة ممتعة إلى بلادك أيها الكابتن ماي».

شق هاري طريقه ببطء نحو الفندق، بأفكار عديدة تتصادم في ذهنه. كم أراد أن يتصل بـ إيماء كي يُعلمها بأنه رأى سيباستيان، وأنه بأمان وسوف يعود إلى إنكلترا خلال بضعة أيام.

بعد وصوله إلى الفندق، حزم أمتعته القليلة ثم أخذ حقيبته إلى الأسفل عند مكتب مسؤول الحجز وسأل عن وجود أي رحلة إلى لندن في تلك الليلة.

أجاب: أخشى أن الوقت تأخر كثيراً لوضعك على رحلة الخطوط الجوية البريطانية لفترة بعد الظهر هذه. لكن بإمكانني أن أحجز لك في رحلة شركة بان آم إلى نيويورك التي تغادر عند منتصف الليل، ومن هناك بإمكانك...».

«هاري!».

التفت هاري للخلف.

«هاري كليفتون! عرفتُ أنه أنت. هل تذكر؟ لقد التقينا عندما

ألقيت خطاباً في بريستول روتاري كلوب في السنة الماضية؟».

أجاب هاري: «أنت مخطئ يا سيد بولتون»، ثم أضاف بينما كانت

أنابيل تمشي بجانبها وهي تحمل حقيبة: «اسمي بيتر ماي». مشى

باتجاهها لينضم إليها وكأنهما رتبا للقاء، فقال لها وهو يحمل حقيبتها

ويمشي خارج الفندق معها: «دعيني أساعدك».

قالت أنابيل وهي تبدو مدهوشة قليلاً: «شكراً لك».

«هذا من دواعي سروري». سلم هاري حقيبتيهما إلى السائق وتبعها

إلى الحافلة.

«لم أعرف أنك ذاهب في رحلة العودة معنا يا بيتر».

أراد هاري أن يخبرها أنه أيضاً لم يكن يعرف ذلك، فقال: «لقد

اضطر أخي للعودة، فهناك مشكلة ما في السد. لكننا بفضلك حظينا

بحفلة عظيمة الليلة الماضية».

«أين انتهى بك المقام؟».

«لقد أخذته إلى فندق ماجيستيك. كنتِ على حق، فالطعام كان

رائعاً».

«أخبرني المزيد. لطالما أردتُ تناول وجبة هناك».

خلال الرحلة إلى المطار، اضطر هاري إلى اختراع هدية عيد الميلاد الأربعين (ساعة من ماركة إنجرسول)، ووجبة طعام - من ثلاثة أصناف - السلمون المدخن، وشرائح اللحم وفطيرة الليمون. لم يكن مدهوشاً من مخيلته المتعلقة بالطبخ، وكان ممتناً لأن أنابيل لم تسأل عن أنواع النبيذ. أخبرها أنه لم يذهب إلى فراشه حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

قال هاري: «تمنيْتُ لو أنني أخذت بنصحتكِ بشأن الحمام أيضاً، وأخذتُ واحداً قبل أن أخلد للنوم».

قالت له بينما توقفت الحافلة خارج المطار: «لقد أخذتُ حماماً عند الساعة الرابعة والنصف. لكان من المرحب بك الانضمام إلي».

بقي هاري قريباً من الطاقم في طريقهم عبر الجمارك وإلى داخل الطائرة. عاد إلى المقعد الذي في الزاوية، وتساءل فيما إذا اتخذ القرار الصحيح أو إذا كان عليه أن يلتزم مكانه. لكن من ناحية أخرى، تذكر كلمات السيد آلان، التي ردها كثيراً. في حال تم كشف هويتك، اخرج، واخرج بسرعة. لقد شعر بثقة أنه قام بالشيء الصحيح - فسوف يتجول الثرثار في أنحاء المدينة ويخبر الجميع: «لقد رأيتُ لتوي هاري كليفتون بزي طيار في شركة الخطوط الجوية البريطانية».

ما إن استقر الركاب في مقاعدهم، سارت الطائرة على المدرج. أغمض هاري عينيه. كانت الحقيبة فارغة، والملفات قد أُتلفت. ثبت حزامه وتطلع إلى نوم عميق متواصل.

«هنا الكابتن يحدثكم. لقد أغلقتُ إشارة ربط الأحزمة، لذا بإمكانكم الآن التجول في أرجاء الطائرة».

أغمض هاري عينيه مرة أخرى. كان على وشك النوم عندما سمع أحدهم يغوص في المقعد المجاور له.

قال بينما كان هاري يفتح إحدى عينيه: «لقد حلتُ الأمر، كنتَ في بيونس آيريس لإجراء بحث بشأن كتابك التالي. هل أنا على حق، أو أنا على حق؟».

سياستيان كليفتون 1957

كان الدون بيدرو من بين آخر المغادرين لحفلة الحديقة، وليس قبل أن يقتنع أخيراً بأن الأميرة لن تعود.

انضم سيباستيان إليه في المقعد الخلفي للرولز رايس. قال الدون بيدرو مكرراً كلامه: «لقد كان هذا يوماً من أعظم أيام حياتي». بقي سيباستيان صامتاً، لأنه لم يسعه التفكير بأي شيء جديد ليقوله عن هذا الموضوع. من الواضح أن الدون بيدرو كان ثملاً، إن لم يكن من الخمر، فمن فكرة الاختلاط بالعائلة الملكية. كان سيباستيان مدهوشاً بأن مثل ذلك الرجل الناجح قد يُخدع بهذه السهولة. فجأةً، غير مارتينيز الموضوع.

قال وهو يضحك على دعابته: «أريدك أن تعرف، يا بني، أنه في حال احتياجك لعمل في يوم من الأيام، فسوف يكون هناك دائماً عمل لك في بيونس آيريس. الخيار لك. يمكن لك أن تكون راعي بقر أو مصرفياً. فكر بالأمر، فليس هناك من اختلاف كبير».

قال سيباستيان: «هذا لطف منك يا سيدي». رغم أنه أراد أن يخبره بأنه في النهاية سوف ينضم إلى برونو في جامعة كامبريدج، إلا أنه فضل عدم قول شيء، لأنه سوف يُضطر إلى شرح كيفية اكتشافه لذلك. لكنه بدأ بالتساؤل مسبقاً عن سبب سفر أبيه نصف العالم ليخبره فقط... قطع الدون بيدرو سلسلة أفكاره بإخراج رزمة من فئة الخمسة جنيهات من جيبه، وسلم تسعين جنيهاً منها إلى سيباستيان.

«أؤمن دائماً بالدفع مقدماً».

«لكني لم أقم بالعمل بعد يا سيدي».

«أعرف أنك ستقوم بالجانب الموكل إليك من الصفقة». لقد جعلت الكلمات سيباستيان يشعر بالذنب أكثر بشأن سره الصغير، ولو أن السيارة لم تقف خارج مكتب مارتينيز، لكان تجاهل نصيحة والده.

أمر الدون بيدرو سائقه قائلاً: «خذ السيد كليفتون إلى فندقه». ثم التفت إلى سيباستيان وقال: «سوف تُقلك السيارة بعد ظهر يوم الأربعاء وتأخذك إلى رصيف الميناء. تأكد من استمتاعك باليومين الأخيرين لك في بيونس آيريس لأن هذه المدينة لديها الكثير لتقدمه لشاب مثلك».

لم يكن هاري يوماً من الأيام رجلاً يشعر أنه من الضروري اللجوء إلى اللغة البذيئة، حتى في كتبه. فأمه التي تترتد الكنيسة كثيراً، لم تكن لتوافق على ذلك ببساطة. لكن بعد ساعة من إصغائه لمناجاة لانهاية عن حياة تيد بولتون، تبدأ من مسؤوليات ابنته كقائد مجموعة مكونة من ست فتيات في كشافة جيرل جايدز، والتي حصلت فيها على وسام في أشغال التطريز والطبخ، إلى دور زوجته كسكرتيرة في نقابة الأمهات في بريستول، وإلى الضيوف المتحدثين الذين حجز لهم في روتاري كلوب هذا الخريف، ناهيك عن آرائه حول مارلين مونرو، ونيكي خروتشوف، وهيو جيتسكيل وتوني هانكوك، فانتفض أخيراً.

فتح عينيه وجلس منتصباً ثم قال: «سيد بولتون، لم لا تنصرف من هنا؟».

ولدهشة هاري وارتياحه، نهض بولتون وعاد إلى مقعده دون أن ينبس ببنت شفة. فغرق هاري في النوم خلال ثوانٍ.

قرر سيباستيان الأخذ بنصيحة الدون بيدرو والاستفادة من آخر يومين له في المدينة قبل أن يحين الوقت للعودة على متن السفينة كوين ماري ويعود إلى الوطن.

بعد تناول الفطور في صباح اليوم التالي، قام بتصريف ورقة الخمسة جنيهات بثلاثمائة بيزوس حيث أمل بإيجاد هدية لأمه وأخته. اختار بروش مُزين بحجر إنكا روز لأمه، بلون زهري باهت أخبره البائع أن ليس بإمكانه إيجاد مثيل له في أي مكان آخر بالعالم. كان السعر صادماً قليلاً، لكن سيباستيان تذكر من ناحية أخرى مقدار ما جعل أمه تعانيه خلال الأسبوعين الماضيين.

بينما كان يمشي في الرصيف في طريق عودته إلى الفندق، لفت نظره لوحة موجودة على نافذة معرض فني جعلته يفكر بـ جيسيكَا. فدخل إلى المعرض لينظر إليها عن قرب. أكد له البائع أن للرسام الشاب مستقبل، وهي بذلك ليست لوحة جميلة صامتة فحسب، بل ستكون استثماراً ذكياً. ونعم، إنه يقبل النقود الإنكليزية. لقد أمل سيباستيان فقط بأن جيسيكَا سوف تشعر بالطريقة نفسها بلوحة صحن البرتقال للرسام فيرناندو بوتيروس كما يشعر هو.

الشيء الوحيد الذي اشتراه لنفسه هو حزام جلدي رائع ببكرة على شكل راعي ماشية. لم يكن رخيص الثمن، لكنه لم يستطع مقاومته.

توقف لتناول الغداء في مقهى على الشارع، وأكل الكثير من لحم البقر الأرجنتيني المشوي بينما كان يقرأ نسخة قديمة من صحيفة التايمز.

بعد الغداء، وبمساعدة كتبه السياحي، وجد السينما الوحيدة التي تعرض أفلاماً باللغة الإنكليزية في بيونس آيريس. جلس وحيداً في الصف

الخلفي يشاهد فيلم مكان في الشمس، ووقع في حب إليزابيث تايلور،
وتساءل كيف يمكنك أن تلتقي بفتاة مثلها.

وفي طريق عودته إلى الفندق دخل إلى متجر كتب مستعملة يعرض
رفاً من الكتب الإنكليزية. ابتسم عندما شاهد أول كتاب لأبيه بثمن
ثلاثة بيزوس، ثم غادر بعد أن اشترى نسخة قديمة لرواية ضباط وسادة.

في المساء، تناول سيباستيان العشاء في مطعم الفندق وبمساعدة
كتيبه السياحي، انتقى عدة أماكن كان يأمل بزيارتها إذا تسنى له
الوقت: كاتدرائية ميتربوليتانا، والمتحف الوطني للفنون الجميلة، ولا
كاسا دي روسادا، وحديقة بوتانسيو كارلوس ثياس في حي باليرمو
القديم. لقد كان الدون بيدرو على حق؛ يوجد في المدينة أشياء كثيرة
لتقدمها.

وَقَعَ الفاتورة، وقرر العودة إلى غرفته لمتابعة قراءة رواية لإيفلين وا.
كان ليفعل ذلك لو أنه لم ينتبه لها وهي تجلس على كرسي بجانب البار.
ابتسمت له بغنج فأبعدته عن المسار الذي رسمه لنفسه. والابتسامة
الثانية فعلت فعل المغناطيس، فبعد لحظات كان يقف بجانبها. بدت
بعمر روبي تقريباً، لكن أكثر إغراءً بكثير.

سألته: «هل تود أن تقدم لي كأساً؟».

أوما سيباستيان برأسه موافقاً وهو يجلس على كرسي بجانبها.
فالتفت نحو الساقى وطلبت كأسين من الشمبانيا.

«اسمي غابريلا».

قال وهو يمد يده: «سيباستيان». فصافحته. لم يكن لديه فكرة بأن
لمسة امرأة تستطيع التأثير به إلى هذا الحد.

«من أي بلاد أتيت؟».

أجاب: «إنكلترا».

قالت بينما كان الساقى يصب لهما كأسين من الشمبانيا: «سوف
آتي لأزور إنكلترا يوماً ما. برج لندن وقصر باكينغهام. نخبك، أليس هذا
ما يقوله الإنكليز؟».

رفع سيباستيان كأسه وقال: «نخبك». لقد وجد أنه من الصعب
عدم التحديق إلى ساقها النحيلتين والرشيقتين. أراد لمسهما.

سألته وهي تضع يداً على فخذه: «هل تقيم في الفندق؟».

كان سيباستيان سعيداً لأن الأضواء في البار كانت خافتة جداً إذ لم
يكن بإمكانها رؤية لون خديه فأجاب: «نعم».

قالت دون أن ترفع يدها: «هل أنت لوحده؟».

أجاب: «نعم».

«هل تريدني أن آتي معك إلى غرفتك يا سيباستيان؟». لم يسعه

تصديق حظه. لقد وجد روبي في بيونس آيريس، ومدير المدرسة على بعد
7,000 ميل. لم يكن بحاجة للرد، لأنها نزلت عن الكرسي مسبقاً وأخذته
من يده وهي تقوده خارج البار.

توجها نحو مجموعة من المصاعد في الجانب الآخر من الردهة.

«ما هو رقم غرفتك يا سيباستيان؟».

أجاب وهما يدخلان إلى المصعد: «واحد واحد سبعة صفر». عندما وصلا إلى غرفته في الطابق الحادي عشر، أسقط سياستيان مفتاحه وهو يحاول فتح الباب. بدأت بتقبيله حتى قبل أن يدخل الغرفة، ومضت في تقبيله وهي تخلع عنه سترته وتفك حزامه بمهارة، وتوقفت فقط عندما سقط سرواله على الأرض.

عندما فتح عينيه، وجد أن بلوزتها وتنورتها انضمتا إلى سرواله على الأرض. أراد أن يتوقف هناك فقط كي يتأمل جسدها بإعجاب، لكنها مرة أخرى أخذته من يده، وهذه المرة قادتة نحو السرير. نزع قميصه وربطة عنقه وهو متلهف للمس كل جزء منها في الحال. سقطت على ظهرها فوق الفراش وسحبته فوقها. بعد لحظات أطلق تنهيدة عالية.

بقي ساكناً للحظات قبل أن تنسل من تحته وتجمع ثيابها وتختفي في الحمام. فسحب غطاء السرير فوق جسده العاري وانتظر عودتها بفارغ الصبر. كان يتطلع لإمضاء بقية الليلة معها وتساءل في نفسه كم مرة يستطيع ممارسة الحب قبل حلول الصباح. لكن عندما فُتح باب الحمام، خرجت غابريلا بكامل ثيابها وبدا كأنها على وشك المغادرة.

سألته: «هل كانت هذه هي المرة الأولى لك؟».

«بالطبع لا».

قالت: «اعتقدتُ ذلك، لكن لايزال عليك أن تدفع ثلاثمائة بيزوس». اعتدل سياستيان في جلسته وهو غير متأكد مما قصدته.

«أنت لا تعتقد أن مظهرك الجميل وسحرك الإنكليزي هو ما أقنعني بالمجيء معك إلى غرفتك؟».

أجاب سيباستيان: «لا، بالطبع لا». نهض من السرير والتقط سترته عن الأرض ثم أخرج محفظته. حرق بأوراق الخمسة جنيهات المتبقية. من الواضح أنها صادفت هذه المشكلة من قبل فقالت: «عشرون جنيهاً». فأخرج أربعة أوراق من فئة الخمسة جنيهات وأعطائها إياها. أخذت النقود واختفت بسرعة أكبر من السرعة التي وصل بها إلى نشوته.

أخيراً، عندما حطت الطائرة على أرض مطار لندن، استغل هاري بذلته وانضم إلى الطاقم الذي مر من دون إعاقة عبر الجمارك. لقد رفض عرض أنابيل لمرافقتها في الحافلة إلى لندن، وبدلاً من ذلك انضم إلى الطابور الطويل بانتظار سيارة أجرة.

بعد أربعين دقيقة، توقفت السيارة خارج منزل جايلز في سميث سكوير. ولشوقه لحمام طويل ووجبة طعام إنكليزية وليلة نوم هانئة، بدأ هاري بقرع مطرقة الباب النحاسية على أمل أن يكون جايلز في المنزل.

بعد لحظات، فُتح الباب، وعندما رآه جايلز انفجر من الضحك ثم وقف باستعداد وحياء تحية عسكرية.

«حمداً لله على السلامة أيها الكابتن».

عندما استيقظ سيباستيان صباح اليوم التالي، كان أول ما فعله هو تفقد محفظته. لم يتبقَ لديه سوى عشرة جنيهات وتأمل بدء حياته في

كامبريدج وبحوزته ثمانية منها. وعندما نظر إلى ثيابه المتناثرة على الأرض، لم يعد حتى لحزامه الجلدي الجديد أي جاذبية. في هذا الصباح سوف يكون قادراً فقط على زيارة الأماكن التي لا تحتاج إلى رسم دخول.

لقد كان الخال جايلز على حق عندما أخبره أن هناك لحظات حاسمة في حياة المرء عندما تتعلم الكثير حول نفسك، وأنت تودع تلك المعرفة في حساب التجارب، كي تستطيع السحب منها في وقت لاحق. ما إن حزم سيباستيان أمتعته القليلة وجمع هداياه، تحولت أفكاره إلى إنكلترا وإلى بدء حياته كطالب جامعي. لم يكن بوسعه الانتظار. عندما خرج من المصعد إلى الطابق الأرضي، فوجئ بوجود سائق الدون بيدرو يقف في الردهة وقبعته تحت ذراعه، وضع قبعته على رأسه في اللحظة التي رأى فيها سيباستيان وقال: «الزعيم يريد رؤيتك».

ركب سيباستيان في المقعد الخلفي لسيارة الرولز رويس وهو سعيد بفرصة شكره للدون بيدرو على كل ما فعله، رغم أنه لن يعترف بأن لديه عشرة جنيهاً فقط. ولدى وصولهما إلى منزل مارتينيز أخذ مباشرةً إلى مكتب الدون بيدرو.

«سيباستيان، أنا آسف لجلبك إلى هنا بهذه الطريقة، لكن طرأت مشكلة صغيرة».

اعتصر قلب سيباستيان لخوفه من عدم السماح له بالهرب فقال: «مشكلة؟».

«لقد تلقيتُ اتصالاً من صديقي السيد ماثيوز في السفارة البريطانية هذا الصباح. وأشار إلى أنك دخلت البلاد من دون جواز سفر. فأخبرته

أنك سافرت على متن سفينتي وأنت كنت ضيفي خلال إقامتك في بيونس آيريس لكن، كما أوضح، هذا لن يساعدك في العودة إلى بريطانيا».

لم يستطع سيباستيان إخفاء قلقه فقال: «هل يعني هذا أنني سوف أفوت السفينة عليّ؟».

أجاب مارتينيز: «بالتأكيد لا، سوف يأخذك سائقي إلى السفارة في الطريق إلى الميناء، وقد وعد السفير أنه سوف يكون هناك جواز سفر بانتظارك».

قال سيباستيان: «شكراً لك».

قال مارتينيز وعلى وجهه ابتسامة: «الأمر المساعد طبعاً هو أن السفير صديق شخصي لي». عندئذٍ سلمه مغلفاً ثخيناً وقال: «احرص على تسليم هذا للجمارك عندما تصل إلى ساوثهامبتون».

سأل سيباستيان: «هل هذا هو الطرد الذي يجب أن أعود به إلى إنكلترا؟».

أجاب مارتينيز وهو يضحك: «لا، لا، هذه هي وثائق التصدير للتحقق مما هو موجود في الصندوق. كل ما عليك فعله هو إبرازها للجمارك وعندها سوف تتكفل شركة سوثبي بالباقي».

لم يكن سيباستيان قد سمع أبداً بشركة سوثبي من قبل ولذا سجل الاسم في عقله.

«كما أن برونو اتصل الليلة الماضية ليقول إنه يتطلع لرؤيتك ما إن تعود إلى لندن، وهو يأمل أنك سوف تبقى معه في إيتون سكوير. ففي النهاية، لا بد أن ذلك خيار أفضل من النزول في محطة بادينغتون».

فكر سيباستيان بـ تيبى، وكان يود لو يخبر الدون بيدرو أن نُزل
الملاذ الآمن يضاھى فندق ماجيستىك فى بىونس آيرىس. كان كل ما قاله:
«شكراً لك يا سىدى».

«رحلة سعيدة، واحرص فقط على أن تستلم شركة سوٲبى شحتى.
ما إن تصل إلى لندن، دع كارل يعرف أنك سلمت الطرد وذكره أنى سأعود
يوم الاثنىن».

خرج من وراء مكتبه وأمسك بكتفى سىباستىان ثم قبله على
وجنتيه وقال: «سأرعاك كابن رابع لى».

كان ابن الدون بيدرو الأكبر يقف بجانب النافذة فى مكتبه فى
الطابق الأسفل عندما غادر سىباستىان المبنى وهو يحمل ملفاً ثخيناً
بقيمة ثمانية ملايين جنيه استرلىنى. بقى يراقب بينما كان سىباستىان
يركب فى المقعد الخلفى للرولز رايىس، ولم يتحرك إلى أن رأى السائق يسىر
بروية بعيداً عن الرصيف لىنضم إلى حركة المرور الصباحية.

ركض دىىغو إلى الطابق العلوى والتحق بوالده.

سأل الدون بيدرو ما إن أُغلق الباب: «هل التمثال موجود بأمان
على متن السفينة؟».

لقد شاهدته وهو يُنزل إلى المخازن هذا الصباح. لكنى لأزال غير
مقتنع».

«بماذا؟».

«هناك ثمانية ملايين جنيه من نقودك مُخبأة في ذلك التمثال، وليس هناك أحد من جماعتنا على متن السفينة يراقبه عن كثب. لقد تركت صبياً خرج لتوه من المدرسة مسؤولاً عن العملية بأكملها».

قال الدون بيدرو: «ولهذا بالضبط لن يهتم أحد بالتمثال أو به. وثائق الشحن باسم سيباستيان كليفتون وكل ما عليه فعله هو إبرازها للجمارك وتوقيع طلب التخليص الجمركي، ومن ثم ستتكفل شركة سوثبي بالباقي، دون إشارة لتورطنا بأي شكل من الأشكال».

«دعنا نأمل أنك على حق».

قال الدون بيدرو: «عندما نصل إلى مطار لندن يوم الاثنين، أراهن على أن عشرات ضباط الجمارك على الأقل سوف يتزاحمون فوق أمتعتنا. وكل ما سوف يكتشفونه هو ماركة عطر ما بعد الحلاقة الذي أفضله، وبهذا الوقت سوف يكون التمثال بأمان عند شركة سوثبي بانتظار افتتاح المزايمة».

عندما دخل سيباستيان إلى السفارة ليأخذ جواز سفره، فوجئ بوجود بيكي واقفة بجانب مكتب الاستقبال فقال: «صباح الخير».

«يتطلع السفير للقائك»، ومن دون أي كلمة أخرى، التفتت ومشت في الممر باتجاه مكتب السيد ماثيوز.

تبعها سيباستيان للمرة الثانية متسائلاً إذا كان والده موجود في الجانب الآخر من الباب وأنه سوف يعود إلى إنكلترا معه. لقد أمل بذلك. طرقت بيكي بلطف ثم فتحت الباب ووقفت جانباً.

كان السفير يحدق خارج النافذة عندما دخل سياستيان الغرفة.
وفي اللحظة التي سمع فيها الباب يُفتح، التفت ثم مشى وصافح
سياستيان بحرارة.

قال: «أنا سعيد بلقائك أخيراً». ثم أضاف وهو يلتقط جواز سفر عن
مكتبه: «لقد أردتُ إعطائك هذا بشكل شخصي».

قال سياستيان: «شكراً لك يا سيدي».

«هل بإمكانني أيضاً التحقق من أنك لن تأخذ أكثر من ألف جنيه
استرليني معك إلى داخل بريطانيا؟ فأنا لا أريدك أن تخرق القانون».

أقر سياستيان قائلاً: «ليس معي سوى عشرة جنيهات».

«إذا كان هذا كل ما لديك لتُصرح عنه، فسوف تمر من الجمارك
بسهولة».

«ما عدا أنني أسلم تمثالاً بالنيابة عن الدون بيدرو مارتينيز سوف
تستلمه شركة سوثبي. أنا لا أعرف شيئاً عنه، سوى أنه طبقاً لبيان
حمولة السفينة فهو يُدعى المفكر، ويزن طنين».

قال السفير وهو يرافقه نحو الباب: «لا ينبغي لي أن أُؤخرك.
بالمناسبة يا سياستيان، ما هو اسمك الأوسط؟».

أجاب وهو يطاء الممر: «آرثر يا سيدي. وهو على اسم جدي».

«رحلة سعيدة يا بني». تلك كانت آخر كلمات السيد ماثيوز قبل أن
يغلق الباب. عاد إلى مكتبه وكتب ثلاثة أسماء على كراسته.

قال أمين سر مجلس الوزراء وهو يُسلم جميع من كان جالساً حول الطاولة نُسخةً منه: «لقد تلقيتُ هذا البيان الرسمي صباح البارحة من فيليب ماثيوز، سفيرنا في الأرجنتين. أرجو منكم قراءته باهتمام».

بعد أن تلقى السيد آلان بياناً من بيونس آيريس مُكون من ست عشرة صفحة على جهاز تسجيل البرقيات خاصته، أمضى بقية الصباح وهو يتفحص كل فقرة منه بعناية. لقد أدرك أن ما كان يبحث عنه سوف يُصنف من ضمن الأمور التافهة التي تتعلق بما كانت تفعله الأميرة مارغريت في زيارتها الرسمية إلى المدينة.

كان مُحتمراً من سبب دعوة السفير لمارتينيز إلى الحفل الملكي في الحديقة، وأكثر اندهاشاً لاكتشافه أنه قُدم لسموها. لقد افترض أنه لا بد من وجود سبب مقنع لدى ماثيو أدى به للاستهانة بالبروتوكول بمثل هذا الشكل.

قبل منتصف النهار بقليل، وجد السيد آلان الفقرة التي كان يبحث عنها. فطلب من سكرتيه إلغاء موعد الغداء الخاص به.

كتب السفير، كانت سموها كفاية لتُطلعني على آخر نتائج مباراة الكريكيت الأولى في ملعب لوردز، يا لهذا الجهد الرائع الذي قدمه الكابتن بيتر ماي، لكن للأسف فقد خرج من الملعب من دون دافعٍ في الدقيقة الأخيرة.

نظر السيد آلان إلى الأعلى وابتسم لهاري كليفتون، الذي كان مُنهمكاً أيضاً بقراءة البيان.

لقد سُدتُ لمعرفتي بأن آرثر بارينغتون سوف يعود إلى ساوثهامبتون من أجل المباراة الثانية يوم الأحد في 23 حزيران، لأنه بمعدل نتائج أكثر من ثمانية فقط، يمكن أن يُحدث فرقاً كبيراً بالنسبة لإنكلترا.

وضع السيد آلان خطأً تحت كلمات، آرثر ويوم الأحد وساوثهامبتون، والرقم ثمانية، قبل أن يواصل القراءة.

لكني كنتُ محتاراً عندما أخبرني سموها أن تيت سوف إضافة مُرحب بها ويحمل الرقم 5، لكنها أكدت لي أن شخصية مرموقة لا يقل مستواها عن مدير لعبة الكريكيت، جون روثينستين أخبرتها بذلك، مما جعلني أفكر.

5 وضع أمين سر مجلس الوزراء خطأً تحت كلمة منافسة والرقم 5 ونسخة وروثينستين، قبل أن يواصل القراءة.

سوف أعود إلى لندن في أوجوست، عند الوقت المحدد لأشاهد المباراة الأخيرة في ملعب ميلبانك، لذا دعنا نأمل أنه بحلول ذلك الوقت نكون قد فزنا بالأشواط التسعة. وبالمناسبة، ذلك الملعب بالتحديد سوف يحتاج لآلة تمسيد عشب زنة طنين.

هذه المرة وضع السيد آلان خطأً تحت كلمة أوجوست وميلبانك، وتسعة وطين. لقد تمنى لو أنه اهتم أكثر بلعبة الكريكيت عندما كان في شروزبيري. لكن بما أن السيد جايلز، الذي يجلس في طرف الطاولة، فاز

بمسابقة الكريكت في أوكسفورد، كان واثقاً من أن تعقيدات الوضع على وشك أن تُوضح له.

سُعد السيد آلان لرؤية الجميع وقد أنهوا قراءتهم للبيان، رغم أن السيدة كلينتون كانت تضع ملاحظات.

«أظن أنني فهمتُ معظم ما يحاول رجلنا في بيونيس آيريس إخبارنا به، لكن هناك تفصيلاً أو اثنين غائبان عني. على سبيل المثال، سوف أحتاج بعض المساعدة بما يخص آرثر بارينغتون، لأنه حتى أنا أعرف أن ضارب الكرة العظيم في لعبة الكريكت يُدعى كين».

قال هاري: «الاسم الأوسط لسيباستيان هو آرثر. لذا أظن أنه يمكننا الافتراض أنه سيصل إلى ساوثهامبتون يوم الأحد الموافق للثالث والعشرين من حزيران، لأن مباريات المنافسة لا تُلعب أبداً أيام الأحد، كما أنه ليس هناك ملاعب للكريكت في ساوثهامبتون».

أوما أمين سر مجلس الوزراء برأسه.

اقترح جايلز من الطرف البعيد للطاولة قائلاً: «ولا بد أن تكون الثمانية هي عدد الملايين التي يعتقد السفير بوجودها، لأن معدل تسجيل كين بارينغتون في المباراة فوق الخمسين».

قال السيد آلان وهو يكتب ملاحظة: «جيد جداً، لكنني غير قادر على توضيح سبب خطأ تهجئة ماثيوز لكلمة إضافة بكلمة نسخة، وشهر آب ب أوجوست».

قال جايلز: «وتيت، لأن موريس تيت كان ضارب كرة لفريق إنكلترا ويحمل الرقم تسعة، وبالتأكيد ليس الرقم خمسة».

قال السيد آلان وهو يتسلى بلعبته الصغيرة على الكلمات: «لقد جعلني هذا أحتار أيضاً، لكن هل بإمكان أي أحد توضيح الكلمتين المكتوبتين بشكل خاطئ؟».

قالت إيما: «أظن أني أستطيع. ابنتي جيسيكا فنانة، وأذكر أنها أخبرتني بأن العديد من النحاتين يصبون تسع نسخ من عملهم، حيث يتم ختمها وترقيمها. وتشير تهجئة أوجوست إلى هوية الفنان».

قال السيد آلان: «لم يُزد هذا في معرفتي»، ومن التعابير حول الطاولة، بدا واضحاً أنه لم يكن لوحده.

قالت إيما: «يجب أن يكون رينوار أو رودان، وبما أنه من غير الممكن إخفاء ثمانية ملايين جنيه في لوحة زيتية، أظن أنك سوف تجدها مُخبأة في تمثال بزنة طنين للنحات أوجوست رودان».

«وهل يُلمح إلى أن السيد جون روئينستين، مدير معرض تيت في ميلبانك، سوف يكون قادراً على إخباري بالتمثال المقصود؟».

أجابت إيما وهي تشعر بالنصر: «لقد أخبرنا مسبقاً. إنها واحدة من الكلمات التي أخفقت في وضع خط تحتها أيها السيد آلان. لم تكن إيما قادرة على مقاومة الاستهزاء فأضافت: «لكانت أمي الراحلة وجدتتها قبل وقت طويل مما فعلت، حتى وهي على فراش موتها».

ابتسم كل من هاري وجايلز.

«وما هي الكلمة التي أخفقت في وضع خط تحتها يا سيدة كليفتون؟».

ما إن أجابت إِيها على السؤال حتى رفع أمين سر مجلس الوزراء سماعة الهاتف بجانبه وقال: «اتصل بـ جون روثينستين في معرض تيت، وخذ موعداً لي كي أراه هذا المساء بعد إغلاق المعرض».

أغلق السيد آلان الهاتف وابتسم لإِيها قائلاً: «لطالما كنتُ مؤيداً لتوظيف عدد أكبر من النساء في الخدمة المدنية».

قالت إِيها: «آمل أيها السيد آلان أنك سوف تضع خطأً تحت كلمة أكثر وكلمة نساء».

وقف سيباستيان على السطح العلوي لسفينة كوين ماري واتكأ على الدرايزين بينما كانت بيونس آيريس تنحسر شيئاً فشيئاً إلى أن بدت ليس أكثر من مجموعة نقاط في مخطط مهندس معماري.

لقد حدث الكثير في وقت قصير منذ أن فصل من بيتشكروفت، رغم أنه لم يزل محتاراً من سبب قطع والده كل هذه المسافة ليعلمه فقط أنه لم يفقد مقعده في كامبريدج. ألم يكن من السهل أكثر الاتصال بالسفير الذي من الواضح أنه يعرف الدون بيدرو؟ ولم سلمه السفير جواز سفره بشكل شخصي، عندما كان بإمكان بيكي أن تعطيه إياه عند مكتب الاستقبال؟ والأكثر غرابة، لماذا أراد السفير أن يعرف اسمه الأوسط؟ لم يجد جواباً على أي من هذه الأسئلة في الوقت الذي اختفت فيه بيونس آيريس عن النظر.

ربما بإمكان أبيه الإجابة عنها. حوّل أفكاره إلى المستقبل. فمسؤوليته الأولى التي تلقى أجره عنها بسخاء مسبقاً، كانت ضمان مرور تمثال الدون بيدرو بسلاسة عبر الجمارك، وهو لم يكن يعتزم مغادرة رصيف الميناء إلا حين تستلمه شركة سوثبي.

لكن حتى ذلك الحين، قرر أن يرتاح ويستمتع بالرحلة. قرر مواصلة قراءة آخر الصفحات القليلة لرواية ضباط وسادة، وأمل بإمكانية إيجاد الجزء الأول في مكتبة السفينة.

بما أنه الآن في طريقه إلى الوطن، شعر بضرورة التفكير قليلاً بما يستطيع تحقيقه في سنته الأولى في جامعة كامبريدج كي يُثير إعجاب أمه. هذا أقل ما يستطيع فعله بعد كل المشاكل التي سببها.

قال السيد جون روئينستاين مدير معرض تيت: «المُفكر، وهو يُعتبر من قبل معظم النقاد واحداً من نخبة أعمال النحات الفرنسي رودان. هو مُصمم في الأصل ليكون جزءاً من بوابات الجحيم، وفي البداية كان معنوناً باسم الشاعر، لأن الفنان رغب بتكريم بطله، دانتي.

قال السيد آلان وهو يدور حول التمثال: «صحح كلامي إذا كنتُ مخطئاً أيها السيد جون، لكن هل هذا هو النسخة الخامسة من النسخ التسعة التي صُبت في الأصل؟».

«هذا صحيح أيها السيد آلان، فأعمال رودان التي نالت القسط الأكبر من البحث هي تلك التي صُبت خلال حياته من قبل أليكسي روديه في ورشته لصب المعادن في باريس. ومنذ موت رودان، لسوء الحظ من وجهة نظري، سمحت الحكومة الفرنسية بإعادة إنتاج نسخ محدودة عبر ورشة صب أخرى، لكنها لا تُعتبر بدرجة الأصالة نفسها للقوالب التي صُبت خلال حياته، حسب رأي جامعي التحف الفنية الرصينين».

«هل مكان كل التماثيل التسعة الأصلية معروف الآن؟».

قال المدير: «نعم، بالإضافة إلى هذا، هناك ثلاثة في باريس - في متحف اللوفر، ومتحف رودان، والتمثال الذي في مودون. وهناك تمثال أيضاً في متحف ميتروبوليتان في نيويورك، وآخر في متحف الأرميتاج في لينينجراد، وثلاثة بين أيادي جامعي التحف».

«هل من يملك تلك القوالب الثلاثة معروف؟».

«واحد في مجموعة بارون دي روثشايلد، وآخر يملكه بول ميلون. ومكان وجود الثالث يكتنفه الغموض منذ زمن طويل. وكل ما نعرفه بشكل مؤكد أنه تمثال أصلي وبيع إلى جامع تحف خاص عن طريق معرض مارلبورو منذ عشرات السنين. لكن هذا الغموض يمكن أن يُكشف أخيراً في الأسبوع القادم».

«لستُ واثقاً بأنني أفهمك أيها السيد جون».

«هناك تمثال للمفكر يعود تاريخه للعام 1902، سوف يُعرض للبيع في شركة سوثبي مساء الاثنين».

سأل السيد آلان براءة: «ومن يملكه؟».

أجاب روثينستين: «ليس لدي أي فكرة. ففي كاتالوغ شركة سوثبي، موجود ببساطة أنه يعود ملكية أحد السادة».

ابتسم أمين سر مجلس الوزراء للفكرة، لكنه أرضى نفسه بقوله: «وماذا يعني هذا؟».

«أن البائع يرغب بالبقاء مجهولاً. وغالباً يتبين أنه أحد الأرستوقراطيين الذين لا يريدون الاعتراف بأنهم يهرون بأوقات عصيبة وهم مضطرون للتخلي عن جزء من إرث العائلة».

«كم تتوقع الثمن الذي يمكن أن يجلبه؟».

«من الصعب التقدير لأن تحفة لـ رودان بهذه الأهمية لم تظهر في السوق منذ سنوات عديدة. لكنني سأتفاجأ إذا ما بيع بأقل من مائة ألف جنيه استرليني».

قال السيد آلان مبدياً إعجابه بالتمثال البرونزي الذي أمامه: «هل يمكن لشخص غير متخصص أن يعرف الفرق بين هذا وذلك الذي سوف يُعرض للبيع في شركة سوثبي؟».

أجاب المدير: «ليس هناك من فرق سوى رقم التمثال. وإلا فهما متشابهان من كل النواحي».

قام أمين سر مجلس الوزراء بالدوران حول تمثال المُفكر عدة مرات قبل أن ينقر على الكومة الضخمة التي يجلس الرجل عليها. لم يكن لديه شك الآن أين أخفى مارتينيز الثمانية ملايين جنيه. خطأ خطوة للخلف ونظر عن كُتب إلى القاعدة الخشبية للقالب البرونزي وقال: «هل تُبتت جميع التماثيل التسعة على قاعدة من النوع نفسه؟».

«أظن أنها ليست القاعدة نفسها لكن مشابهة لها. فكل معرض أو جامع تحف لديه رأيه الخاص حول كيفية عرضه. نحن اخترنا قاعدة بسيطة من خشب السنديان شعرنا أنها ستكون منسجمة مع محيطها».

«وكيف تتصل القاعدة بالتمثال؟».

«بالنسبة لتمثال برونزي بهذا الحجم، عادةً يكون هناك أربع حواف صغيرة من الفولاذ مصبوبة في الجزء الداخلي من أسفل التمثال. وكل منها فيها ثقب يدخل من خلاله قضيب معدني صغير مع صامولة».

وعندها كل ما عليك فعله هو حفر أربعة ثقوب في القاعدة ومن ثم ربطها بأسفل التمثال عن طريق براغي مسننة. أي نجار جيد يمكنه القيام بهذا العمل».

«إذاً في حال أردت إزالة القاعدة، فكل ما عليك فعله هو فك الصواميل وعندها سيفصل التمثال عن القاعدة؟».

أجاب السيد جون: «نعم أظن ذلك. لكن لمَ قد يرغب أي شخص بفعل ذلك؟».

أجاب أمين سر مجلس الوزراء وهو يبتسم: «بالفعل لماذا». لقد عرف الآن ليس المكان الذي خبأ فيه مارتينيز النقود فحسب، بل كيف يعتزم تهريبها إلى داخل بريطانيا. والأكثر أهمية، كيف خطط كي يجتمع مرة أخرى مع الثمانية ملايين جنيه المزورة من فئة الخمسة جنيهات دون أن يعرف أي أحد بما خطط له.

قال وهو ينقر لآخر مرة على التمثال البرونزي الخاوي: «رجل ذكي».

قال المدير: «عبقري».

قال السيد آلان: «حسناً لن أصل لهذا الحد». لكن لأكون منصفاً، كانا يتحدثان عن شخصين مختلفين.

توقف سائق الشاحنة البيضاء المغلقة ماركة بيدفورد خارج محطة ميٹرو جرین بارک فی البیکادیلی. ترک محرک سيارته يعمل وأومض مرتين بالأضواء الأمامية.

برز ثلاثة رجال من دون تأخير من تحت الأرض وهم يحملون عدتهم ومشوا بسرعة إلى مؤخرة الشاحنة التي عرفوا أنها ستكون مفتوحة. وضعوا هناك مدفأة صغيرة و صفيحة وقود وصندوق عدة وسلم وعلبة أعواد ثقاب من ماركة سوان فيستا في الخلف قبل أن ينضموا لقائدهم.

لو أن أحداً ألقى نظرة عليهم، ولن يفعل أحد ذلك عند الساعة السادسة من صباح يوم الأحد، لربما افترض أنهم مجرد حرفيين، وبالفعل، هذا ما كانوا عليه قبل التحاقهم بالقوات الجوية الخاصة (SAS). كان العريف کران نجاراً، والرقيب روبرتس عامل ورشة صب معادن، والنقيب هارتلي مهندس إنشاءات.

قال الكولونيل سكوت هوبكينز ما إن ركب ثلاثتهم في الشاحنة: «صباح الخير أيها السادة».

أجابوا معاً، ما إن وضع ناقل الحركة على السرعة الأولى لتنتقل شاحنة بيدفورد في طريقها إلى ساوثهامبتون: «صباح الخير أيها الكولونيل».

كان سيباستيان على السطح قبل ساعتين من إنزال السفينة كوين ماري لسلم الركاب، ومن بين أوائل من نزل منها، فشق طريقه للوصول إلى مكتب الجمارك. أبرز بيان الشحن إلى ضابط شاب قام بفحصها على عجل قبل أن ينظر إليه عن كثب.

قال: «رجاءً انتظر هناك» ثم اختفى في مؤخرة المكتب. بعد مضي لحظات، ظهر رجل أكبر في السن، بثلاث شرائط فضية على كم بذلته. طلب رؤية جواز سفر سيباستيان، وما إن تفحص الصورة، وقع على طلب تخليص البضاعة في الحال.

«سيرافك زميلي يا سيد كليفتون إلى مكان إنزال الصندوق».

خرج سيباستيان والموظف الشاب من مكتب الجمارك ليجدا رافعة تُنزل حبالها فوق سطح السفينة كوين ماري. بعد مضي عشرين دقيقة، كان أول ما ظهر هو صندوق خشبي ضخّم لم يره سيباستيان من قبل أبداً. أنزل الصندوق ببطء على رصيف الميناء، وهبط بسلام على رصيف التحميل رقم ستة.

أزال مجموعة من العمال السلاسل والحبال من حول الصندوق، ثم نُقل بواسطة رافعة شوكية إلى المستودع رقم 40. استغرقت العملية بأكملها ثلاثاً وأربعين دقيقة. طلب الموظف الشاب من سيباستيان أن يعود إلى المكتب، بما أن هناك معاملات ورقية يجب إنهاؤها.

أطلقت سيارة الشرطة صفارة إنذارها وتجاوزت شاحنة شركة سوثبي في الطريق من لندن إلى ساوثهامبتون ثم أشارت للسائق أن يتوقف في أقرب مكان لوقوف السيارات.

ما إن توقفت السيارة، خرج ضابطان من سيارة الشرطة. اقترب الأول من مقدمة الشاحنة بينما شق الآخر طريقه إلى مؤخرتها. أخرج الضابط الثاني سكينه عسكرية سويسرية من جيبه وفتحها ثم غرسها بقوة في الإطار الأيسر الخلفي. ما إن سمع صوت خروج الهواء، عاد إلى سيارة الشرطة.

أنزل السائق زجاج نافذته ونظر إلى الضابط بسخرية قائلاً: «لا أظن أنني تعديتُ حدود السرعة أيها الضابط».

«كلا لم تتعدَّ حدود السرعة يا سيدي. لكن أظن أنه ينبغي لك أن تعرف بوجود ثقب في إطار شاحنتك الأيسر الخلفي».

خرج السائق من السيارة ومشى نحو مؤخرة الشاحنة وهدق إلى الإطار المثقوب بذهول.

«أتعلم أيها الضابط، لم أشعر بأي شيء أبداً».

قال الضابط في الوقت الذي تجاوزتهم فيه شاحنة بيدفورد بيضاء: «يحصل الأمر نفسه عندما يكون الثقب صغيراً». ألقى التحية عليهم وقال: «سعيد بمساعدتكم يا سيدي». ثم انضم إلى زميله في سيارة الدورية وانطلق.

لو أن سائق شركة سوثبي طلب رؤية بطاقة تفويض الشرطي، لكان اكتشف أنه مرتبط بشرطة ميتروبوليتان في روتشستر رو، وهو بذلك كان

خارج نطاق صلاحياته القانونية بأميال. لكن من ناحية أخرى، كما اكتشف السيد آلان، لم يكن هناك الكثير من الضباط الذين خدموا تحت إمرته في القوات الجوية الخاصة (SAS) يعملون حالياً في شرطة هامبشاير، ويمكن أن يتواجدوا صباح يوم الأحد في غضون مهلة قصيرة.

كان الدون بيدرو وديغو في طريقهما إلى مطار مينيسترو بيستاريني الدولي. مرت حقائبهما الست الضخمة عبر الجمارك من دون تفتيش، ثم صعدا على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية البريطانية المتجهة إلى لندن.

قال الدون بيدرو للمضيف الذي رافقهما إلى مقاعدهما في الدرجة الأولى: «أنا دائماً أفضل السفر في طائرة بريطانية».

انطلقت طائرة البوينغ عند الخامسة وثلاث وأربعين دقيقة بعد الظهر متأخرةً بضع دقائق عن الموحد المحدد.

انطلق سائق الشاحنة بيدفورد البيضاء في طريق رصيف الميناء وتوجه مباشرة نحو المستودع رقم 40 في الجانب البعيد من الرصيف. لم يتفاجأ أحد في الشاحنة أبداً بأن الكولونيل سكوت هوبكينز يعرف بالضبط المكان الذهاب إليه. فقد قام بتنفيذ عملية استطلاع مدتها ثمان وأربعين ساعة من قبل. كان الكولونيل رجلاً يهتم بالتفاصيل ولا يترك أي شيء للصدفة.

عندما توقفت الشاحنة، أعطى المفتاح للنقيب هارتلي. فخرج نائب القائد من السيارة وفتح باب المستودع المزدوج، ثم قاد الكولونيل

الشاحنة إلى داخل المبنى الواسع. وأمامهم، في وسط الأرضية، انتصب الصندوق الخشبي الضخم.

عندما أغلق المهندس الباب، ذهب الثلاثة الآخرون إلى مؤخرة الشاحنة وأخرجوا معداتهم.

وضع النجار السلم على الصندوق وتسلق إلى الأعلى وبدأ بإزالة المسامير التي تُبقي الغطاء في مكانه. وبينما كان يقوم بعمله، مشى الكولونيل إلى الطرف البعيد من المستودع وصعد إلى كبينة رافعة صغيرة تُركت هناك طوال الليل، ثم قادها نحو الصندوق.

أخرج المهندس لفة الحبل الضخم من مؤخرة الشاحنة، وصنع أنشودة في أحد طرفيه قبل أن يضعه على كتفه. وقف في الخلف وانتظر لتأدية مهمات الجلاد. استغرق النجار ثماني دقائق من أجل إزالة المسامير من غطاء الصندوق الثخين، وعندما أنهى المهمة نزل على السلم ووضع الغطاء على الأرض. أخذ المهندس مكانه على السلم، ولفة الحبل معلقة على كتفه الأيسر. وعندما وصل للدرجة الأخيرة في السلم، انحنى وأدخل نفسه في الصندوق ثم مرر الحبل الضخم وثبته بإحكام تحت ذراعي المُفكر. كان يُفضل استخدام سلسلة، لكن الكولونيل أصر على عدم إلحاق الضرر بالمنحوتة مهما كانت الظروف.

ما إن تأكد المهندس من ثبات الحبل، قام بعمل عقدة شراعية مزدوجة ورفع الأنشودة إلى الأعلى كإشارة على أنه جاهز. أنزل الكولونيل سلسلة الرافعة الفولاذية إلى أن وصل الخطاف الذي في نهايتها على بعد إنشات أعلى الصندوق المفتوح. أمسك المهندس بالخطاف، ووضع الأنشودة فوقه وأعطى إشارة الجاهزية بإبهامه.

بدأ الكولونيل برفع التمثال رويداً رويداً خارج الصندوق. ظهر أولاً الرأس المائل ويده تتكئ على ظاهر يده ثم تبعه الجذع ومن ثم الساقين ذواتي العضلات، وأخيراً كومة البرونز الضخمة التي يجلس المفكر عليها متأملاً. آخر ما ظهر هو القاعدة الخشبية المثبت عليها التمثال البرونزي. ما إن خرج من أعلى الصندوق، أنزله الكولونيل ببطء إلى أن صار معلقاً على بعد قدمين فوق الأرض.

استلقى عامل صب المعادن على ظهره وانسل تحت التمثال وتفحص البراغي الأربعة. عندئذٍ أخذ زردية من حقيبة عدته. قال: «أبقى هذا الشيء اللعين ساكناً».

أمسك المهندس بركبتي المفكر وأمسك النجار بالجزء الخلفي منه محاولاً إبقاء التمثال ثابتاً. لقد اضطر عامل صب المعادن لشد كل عضلة في جسده كي يُخرج أول برغي يحمل القاعدة الخشبية لمسافة نصف إنش، ومن ثم نصف إنش آخر، إلى أن تمكن من فكّه أخيراً. كرر العملية ثلاث مرات أخرى، عندئذٍ، وفجأةً من دون سابق إنذار، سقطت القاعدة الخشبية فوقه. لكن ليس هذا ما لفت انتباه زملائه الثلاثة، لأنه بعد مرور جزء من الثانية، انسكبت ملايين الجنيهات من ورقات الخمسة جنيهات من التمثال ودفنته.

سأل النجار وهو ينظر بذهول إلى جبل النقود: «هل هذا يعني أنني أستطيع استلام تقاعدي أخيراً؟». أظهر الكولونيل ابتسامة ساخرة على وجهه عندما برز عامل صب المعادن متدمراً من تحت جبل النقود. قال وهو ينزل من الرافعة: «للأسف لا يا كران. أوامري واضحة للغاية. يجب إتلاف جميع الأوراق النقدية عن آخرها».

نزع المهندس غطاء صفيحة الوقود ورش بضع نقاط على مضمض فوق الفحم الموجود في المدفأة. أشعل عود ثقاب وتراجع للخلف بينما تراقصت النار في الهواء. أخذ الكولونيل زمام المبادرة ورمي أول 50,000 جنيه في المدفأة. وبعد لحظات، انضم إليه الثلاثة الآخرون على مضمض، يقذفون آلاف فوق آلاف داخل النيران التي لا تشبع.

ما إن أُحرقت آخر ورقة نقدية في الجمر، بقي الرجال الأربعة صامتين لبعض الوقت وهم يحدقون إلى كومة الرماد في محاولة منهم لعدم التفكير بما فعلوه للتو.

قطع النجار الصمت قائلاً: «هذا يعطى معنىً جديداً كلياً لعبارة (مال للحرق)».

ضحكوا جميعاً ما عدا الكولونيل الذي قال بحدة: «دعونا ننهي الأمر».

استلقى عامل صب المعادن على الأرض مرة أخرى وانسل تحت التمثال. وكرافع أثقال، رفع القاعدة الخشبية وثبتها في الهواء بينما وجه النجار والمهندس القضبان الفولاذية الصغيرة إلى مكانها في الثقوب الأربعة أسفل التمثال.

«ثبثوها بإحكام!» صرخ عامل صب المعادن بينما تمسك المهندس والنجار بجوانب القاعدة وهو أعاد البراغي الأربعة إلى مكانها، أولاً بأصابعه ومن ثم بالزردية، إلى أن عادت إلى مكانها بإحكام. ما إن شعر بأنها لا يمكن أن تكون أكثر إحكاماً، خرج من تحت التمثال وأعطى للكولونيل إشارة جاهزية أخرى بإبهامه.

حرك الكولونيل ذراع الرافعة ورفع المُفكر ببطء للأعلى إلى أن أصبح فوق صندوق الشحن المفتوح ببضعة إنشات. صعد المهندس على السلم بينما بدأ الكولونيل بإنزال التمثال بلطف، بينما وجهه النقيب هارتلي بأمان إلى داخل الصندوق. ما إن أُزيل الحبل من تحت ذراعي المُفكر، أخذ النجار مكان المهندس أعلى السلم وثبت المسامير في مكانها فوق الغطاء الثقيل.

«حسناً أيها السادة، دعونا نقم بالتنظيف بينما يُنهي العريف عمله، وعندها لن نُضيع الوقت لاحقاً».

شرع ثلاثتهم بإطفاء النار ومسح الأرض وإعادة كل شيء استعملوه إلى مؤخرة الشاحنة. كان السلم والمطرقة والمسامير الثلاثة الإضافية آخر الأشياء التي وُضعت في مؤخرة الشاحنة. أعاد الكولونيل الرافعة إلى مكانها الذي وجدها فيه بالضبط، بينما ركب النجار وعامل صب المعادن داخل الشاحنة. فتح المهندس باب المستودع ووقف جانباً ليُمكن الكولونيل من الخروج. أبقى المحرك قيد العمل بينما أقفل نائب القائد الباب ثم انضم إليه في المقدمة.

قاد الكولونيل الشاحنة ببطء بجانب رصيف الميناء إلى أن وصل إلى مكان الجمارك. نزل من الشاحنة، ودخل إلى المكتب، ثم سلم مفتاح المستودع إلى الضابط ذي الشرائط الفضية الثلاث على ذراعه.

قال الكولونيل: «شكراً لك يا جاريت. أعلم أن السيد آلان سيكون في غاية الامتنان، وبلا شك سوف يشكرك شخصياً عندما نجتمع جميعاً في حفل عشاءنا السنوي في تشرين الأول». أدى ضابط الجمارك التحية بينما

مشى الكولونيل سكوت هوبكينز إلى خارج مكتبه، وجلس خلف مقود شاحنة البيدفورد المغلقة، وشغل المحرك ثم انطلق عائداً إلى لندن.

وصلت شاحنة شركة سوثبي بإطارها الجديد إلى رصيف الميناء بعد أربعين دقيقة تقريباً من الموعد المقرر.

عندما أوقف السائق الشاحنة خارج المستودع رقم 40، فوجئ بوجود عشرات موظفي الجمارك يحيطون بالشحنة التي جاء لأخذها. التفت إلى زميله وقال: «هناك خطب ما يا بيرت».

عندما نزلا من الشاحنة، قامت رافعة شوكية برفع الصندوق الضخم وإنزاله في مؤخرة الشاحنة بمساعدة عدد من موظفي الجمارك الكثيرين جداً برأي بيرت. تسليم يستغرق عادةً ساعتين، انتهى خلال عشرين دقيقة ومن ضمنها المعاملات الورقية.

قال بيرت وهما ينطلقان في السيارة: «ماذا يمكن أن يكون داخل هذا الصندوق؟».

أجاب السائق: «فتشني، لكن لا تشتك، لأننا سوف نعود الآن في الوقت المحدد لنسمع برنامج ليلة ضيف الذي يقدمه هنري هول على الإذاعة الوطنية البريطانية».

كان سيباستيان مذهولاً أيضاً من السرعة والكفاءة التي نُفذت بها كل العملية. كان بإمكانه الافتراض فقط بأنه إما أن التمثال لا بد وأنه

بالغ القيمة أو أن الدون بيدرو لديه الكثير من النفوذ في ساوثهامبتون كما هو في بيونس آيريس.

بعد أن شكر سيباستيان الضابط ذا الشرائط الفضية الثلاث، شق طريقه عائداً إلى الصالة حيث انضم إلى الركاب القليلين الباقين بالانتظار عند مكتب مراقبة الجوازات. لقد جعله أول ختم على جواز سفره يتسم، لكن تلك الابتسامة تحولت إلى دموع عندما مشى نحو صالة الوصول ليستقبله والداه. أخبرهما كما هو بالغ الأسف، وخلال لحظات بدا الأمر وكأنه لم يكن مسافراً أبداً. لا وجود لتبادل اتهامات ولا محاضرات، ما جعله يشعر بأنه مذنب أكثر.

في طريق العودة إلى بريستول، كان لديه الكثير ليخبرهما إياه: تيبى وجانيس وبرونو والسيد مارتينيز والأميرة مارغريت والسفير وضابط الجمارك، رغم أنه قرر عدم ذكر غابريلا - أبقاها لـ برونو.

عندما عبروا بالسيارة بوابات مانور هاوس، أول ما رآه سيباستيان هو جيسكا تركض باتجاههم.

قال وهو ينزل من السيارة ويضمها بين ذراعيه: «لم أعتقد أنني سأفتقدك أبداً».

عادت شاحنة شركة سوثبي إلى شارع بوند بعد الساعة السابعة بلحظات. لم يتفاجأ السائق برؤية نصف دزينة من الحمالين يتمشون على الرصيف. ورغم أن جميعهم يعملون بوقت إضافي، إلا أنهم تواقون للعودة إلى منازلهم.

لقد أشرف السيد ديكينز، رئيس قسم الفن الانطباعي، على نقل الصندوق من الرصيف إلى مخزن بيت المزاد. انتظر بفارغ الصبر نزع ألواح الصندوق الخشبية كي يستطيع التأكد من أن الرقم في الكاتالوج يماثل الرقم على المنحوتة. انحنى للأسفل كي يرى الرقم (6) محفورة على البرونز أسفل توقيع أوجوست رودان. ابتسم ووضع إشارة صح على بيان الشحن.

قال: «شكراً جزيلاً أيها الأصدقاء، بإمكانكم العودة جميعاً إلى منازلكم. سوف أنهي المعاملات الورقية في الصباح».

بما أن السيد ديكينز كان آخر من غادر المبنى في تلك الليلة، فقد أقفل الأبواب قبل أن يمشي باتجاه محطة جرين بارك. لم يلاحظ وجود رجل واقف على مدخل محل لبيع التحف في الطرف المقابل للشارع.

ما إن غاب السيد ديكينز عن النظر، برز الرجل من تحت جناح الظلام ومشى نحو أقرب كشك هاتف في شارع كيرزون. حضر أربعة بينسات، فهو لا يترك أي شيء للصدفة أبداً. طلب أحد الأرقام الذي يحفظه عن ظهر قلب، وعندما سمع صوتاً على الطرف الآخر من الخط، ضغط على الزر A، وقال: «هناك مفكر فارغ يُضي الليل في شارع بوند يا سيدي».

أجاب السيد آلان: «شكراً لك أيها الكولونيل، وهناك أمر آخر أريدك أن تتولاه. سأكون على اتصال معك». قُطع الاتصال.

714 بعد أن حطت رحلة الخطوط الجوية البريطانية ذات الرقم القادمة من بيونس آيريس على أرض مطار لندن في الصباح التالي، لم

يتفاجأ الدون بيدرو على الإطلاق بأن كل حقائبه وحقائب دييغو قد
فُتحت، وفُحصت ثم أُعيد فحصها مرة أخرى من قبل عدة ضباط جمارك
بالغى الحماسة. وعندما وضعوا علامة إكس بالطبشور على جانب آخر
حقيبة، شعر مارتينيز برعشة صغيرة من الخيبة تسري بين ضباط
الجمارك، بينما كان هو وابنه يخرجان من المطار.

ما إن جلسا في المقعد الخلفي لسيارة الرولز رويس وهما في
طريقهما إلى إيتون سكوير، التفت الدون بيدرو إلى دييغو وقال: «كل ما
عليك تذكره عن البريطانيين هو أنهم يفتقرون للخيال».

رغم أن القطعة الأولى لم تُعرض للبيع حتى الساعة السابعة من ذلك المساء إلا أن بيت المزاد كان مزدحماً قبل وقت طويل من الموعد المحدد، كما هو دائماً في ليلة افتتاح بيع تحف الفن الانطباعي.

كانت المقاعد الثلاثمائة مليئة برجال يرتدون ستراتهم الرسمية في حين أن النساء ارتدين فساتين طويلة. ربما كانوا يحضرون ليلة افتتاحية في الأوبرا، وبالفعل، لقد وُعد بأن يكون هذا الحدث دراماتيكياً مثل أي شيء يُعرض في مسرح كوفينت جاردن للأوبرا.

ينقسم الضيوف المدعوون إلى فئات مختلفة عديدة. المزايدون الجديون، الذين أتوا متأخرين لأن لديهم مقاعد محجوزة، وربما هم ليسوا مهتمين بالقطع الأولى، التي هي مثل الشخصيات الثانوية في مسرحية شيكسبير، موجودة فقط لتسخين الجمهور. والسماسة ومُلاك المعارض، الذين يفضلون الوقوف في الخلف مع زملائهم ويتقاسمون بين بعضهم الفئات الذي يسقط من مائدة الرجل الثري، عندما لا تصل القطعة إلى الثمن المُخمن لها ويتوجب سحبها. وهناك أيضاً أولئك الذين يعتبرون المزاد مناسبة اجتماعية، فهم لا يهتمون بالمزايدة لكنهم يتمتعون بمشهد الأثرياء وهم يتصارعون مع بعضهم.

وآخر الفئات، الأنواع الأشد فتكاً، اللاتي يحزن على فئة فرعية خاصة بهن، هن الزوجات، اللواتي أتين ليراقبن كم يدفع أزواجهن لقاء أشياء لا يلقين لها بالاً، ويفضeln إنفاق نقودهم في المؤسسات الأخرى التي تقع في

الشارع نفسه. وهناك أيضاً الصديقات، اللواتي يبقين صامتات، لأنهن يأملن بأن يصبحن زوجات. وأخيراً، الجميلات وحسب، اللواتي لا غاية لهن في الحياة سوى إزالة الزوجات والصديقات من ميدان المعركة.

لكن، مثل كل شيء في الحياة، هناك استثناءات عن القاعدة. أحدها السيد آلان ريديماين، الذي سيكون هناك لتمثيل بلاده. وسوف يزايد على القطعة رقم 29، لكنه لم يقرر بعد السعر الذي سوف يصل إليه.

كان السيد آلان معتاداً على بيوت مزادات منطقة ويست إند وعلى تقاليدها الغربية. فعلى مدى السنين جمع مجموعة صغيرة عددها ثماني عشرة لوحة إنكليزية مرسومة بالألوان المائية يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر، كما زاید أحياناً، بالنيابة عن الحكومة، لشراء لوحة أو منحوتة يشعر رؤسائه أنه لا ينبغي السماح لها بمغادرة البلاد. لكن كانت هذه المرة الأولى في حياته المهنية التي سوف يُزايد فيها على عمل كبير بأمل أن يُزايد فوقه رجل من خارج البلاد.

لقد تنبأت صحيفة التايمز في ذلك الصباح بأن تمثال المفكر لـ رودان، قد يباع لقاء 100,000 جنيه إسترليني، وهو رقم قياسي بالنسبة إلى أي قطعة من أعمال الفنان الفرنسي. لكن ما لم تتمكن التايمز من معرفته، هو أن السيد آلان يعتزم رفع المزايدة إلى ما فوق الـ 100,000 لأنه حينها سيكون متأكداً من أن المزايد الوحيد الباقي هو الدون بيدرو مارتينيز، الذي يعرف أن قيمة التمثال الحقيقية تتجاوز الثمانية ملايين جنيه.

سأل جايلز أمين سير مجلس الوزراء السؤال الذي كان يحاول تجنب الإجابة عنه: «إذا انتهى الأمر بك بالمزايدة فوق السعر الذي يقدمه مارتينيز، ما الذي ستفعله بالتمثال؟».

أجاب: «سوف يُعطى مكاناً في معرض اسكوتلاندا الوطني، كجزء من سياسة الحكومة في استحواذ القطع الفنية. ستكون قادراً على الكتابة عن الموضوع في مذكراتك، لكن بعد موتي».

«وإذا أثبت أنك كنتَ على حق؟».

«إذاً سوف يأخذ الموضوع فصلاً كاملاً في مذكراتي من دون شك».

عندما دخل السيد آلان بيت المزاد، جلس على مقعد في الزاوية اليسارية لقاعة البيع. لقد اتصل بالسيد ويلسون في وقت سابق ليُعلمه بأنه سيزايد على القطعة رقم 29، ويجلس في مقعده المعتاد.

بحلول الوقت الذي صعد فيه السيد ويلسون الدرجات الخمس المُفضية إلى المنصة، استقر معظم الأطراف الرئيسيين في أماكن جلوسهم. ووقف صف من موظفي شركة سوثبي على جانبي مسؤول البيع في المزاد، معظمهم سوف يقومون بالمزايدة نيابة عن عملاء لم يتمكنوا من الحضور شخصياً، أو أنهم لا يثقون بقدرتهم على عدم الانجراف بالحدث فينتهي الأمر بهم بالمزايدة بأكثر مما يريدون. وفي الجانب الأيسر للقاعة، هناك طاولة طويلة على منصة مرفوعة يجلس خلفها طاقم من بيت المزاد الأكثر خبرة وفوقها، صف من الهواتف البيضاء التي يمكن التحدث بها فقط عندما تُعرض للبيع القطعة التي يهتم عملاؤهم بشرائها.

تمكن السيد آلان من مقعده في مؤخرة القاعة، من رؤية أن كل المقاعد قد سُغلت تقريباً. لكن لا يزال هناك ثلاثة مقاعد فارغة في الصف الثالث، لا بد وأنها محجوزة لعميل مهم. تساءل عن سيجلس على كلا جانبي الدون بيدرو مارتينيز. قلب صفحات كاتالوج إلى أن وصل إلى

تمثال المفكر للنحات رودان، القطعة رقم 29. سيكون هناك وقت أكثر من كافٍ حتى يدخل مارتينيز إلى القاعة.

عند الساعة السابعة مساءً، نظر السيد ويلسون إلى عملائه، مثل البابا، وابتسم بلطف. نقر على الميكروفون ثم قال: «مساء الخير أيها السيدات والسادة ومرحباً بكم في مزاد بيع الأعمال الانطباعية لشركة سوثبي. القطعة رقم 1»، أعلن عنها وهو ينظر إلى يساره ليتأكد من أن الحمال وضع اللوحة الصحيحة على المسند، «هي لوحة للرسام الفرنسي إدغار ديجاس، تُظهر راقصتي باليه تتمرنان في مسرح تروكاديرو. سأفتح المزاد عند خمسة آلاف جنيه. ستة آلاف. سبعة آلاف. ثمانية آلاف...».

راقب السيد آلان باهتمام إذ إن معظم القطع الأولى تجاوزت السعر المُقدر لها، ما يُثبت، كما أشارت التايمز في ذلك الصباح، أن هناك جيلاً جديداً من جامعي التحف الذين جمعوا ثرواتهم خلال الحرب يرغبون بإظهار أنها أتت عن طريق الاستثمار بالفنون.

دخل الدون بيدرو مارتينيز القاعة خلال عرض القطعة الثانية عشرة بصحبة شابين. تعرف السيد آلان على ابن مارتينيز الأصغر برونو، وافترض بأن الآخر لا بد أن يكون سيباستيان كليفتون. لقد أقنعه حضور سيباستيان بأن مارتينيز لا يزال واثقاً من وجود النقود داخل التمثال.

بدأ السماسرة ومُلاك المعارض بالنقاش فيما بينهم إذا كان من المحتمل لمارتينيز أن يكون أكثر اهتماماً بالقطعة رقم 28، زاوية الحديقة في مستشفى القديس بول للرسام فان جوخ، أو القطعة رقم 29، المفكر، للنحات رودان.

لطالما اعتبر السيد آلان نفسه بأنه رجل يتسم بالهدوء ورباطة الجأش تحت الضغط، لكن في تلك اللحظة شعر بأن معدل ضربات قلبه تزداد رويداً رويداً في الوقت الذي توضع فيه كل قطعة جديدة على المسند. عندما افتُتح المزاد عند 80,000 جنيه للوحة زاوية الحديقة في مستشفى القديس بول، وانتهى عند 140,000 جنيه، وهو رقم قياسي للوحة من لوحات فان جوخ، أخرج منديله وربت به على جبينه.

قلب صفحة كاتالوجه كي ينظر إلى التحفة التي تعجبه، لكنه، للمفارقة، لا يزال يأمل بأن يكون المزاد الأقل سعراً.

قال السيد ويلسون: «القطعة رقم تسعة وعشرون، المفكر للنحات أوجوست رودان». أضاف مسؤول البيع قائلاً: «إذا نظرتم إلى كاتالوجاتكم سوف ترون أنه صُب خلال حياته من قبل أليكسي روديه. وهو معروض في مدخل قاعة البيع». التفتت عدة رؤوس لإبداء إعجابها بالتمثال البرونزي الضخم، «هناك اهتمام كبير بهذه القطعة، لذا سوف أبدأ المزاد عند أربعين ألف جنيه. شكراً لك يا سيدي»، قال مسؤول البيع وهو يشير إلى أحد السادة الجالسين أمامه مباشرةً في جهة الممر الأوسط. فالتفتت عدة رؤوس أخرى، وهذه المرة بأمل التعرف إلى هوية المزاد.

استجاب السيد آلان بإيماءة خفيفة تكاد تكون غير محسوسة، فقال مسؤول البيع: «خمسون ألفاً»، ثم عاد انتباهه إلى الرجل الجالس في جهة الممر الذي رفع يده مرة أخرى، «لدي ستون ألفاً». وبأقل من نظرة باتجاه السيد آلان، تلقى السيد ويلسون الإيماءة الخفيفة نفسها، فالتفت إلى الرجل الذي في جهة الممر الأوسط واقترح 80,000 جنيه، لكنه تلقى نظرة عبوس تسودها خيبة أمل ثم تبعثها هزة رأس حاسمة.

قال وهو ينظر مرة أخرى إلى السيد آلان الذي شعر بشك ينسل إلى داخل عقله: «لدي سبعون ألف جنيه». لكن عندها نظر السيد ويلسون إلى يساره وقال: «ثمانين ألفاً. لدي مزايدة على الهاتف بثمانين ألفاً». وعلى الفور حرف انتباهه إلى السيد آلان مرة أخرى وقال: «ثمانون ألفاً؟».

أوماً السيد آلان برأسه.

نظر ويلسون إلى الهاتف مرة أخرى، حيث رُفعت يدٌ بعد مُضي عدة لحظات. فسأل وهو ينظر مرة ثانية إلى السيد آلان ويتسم له: «مائة ألف. مائة وعشرة آلاف؟».

هل بإمكانه المخاطرة؟ للمرة الأولى في حياته، قام أمين سر مجلس الوزراء، فأوماً برأسه.

قال ويلسون وهو ينظر بشكل مباشر إلى موظف شركة سوثبي الذي يضع سماعة الهاتف على أذنه بانتظار تعليماته: «لدي مائة وعشرة آلاف جنيه».

نظر مارتينز إلى الخلف ليرى إذا كان بإمكانه التعرف على هوية من يُزايد ضده.

استمرت المحادثات الهاتفية الهامسة لبعض الوقت. أصبح السيد آلان أكثر عصبية مع كل ثانية تمر. فحاول عدم التفكير بإمكانية أن يكون مارتينز قد احتال عليه وتمكن بطريقة ما من تهريب ثمانية ملايين جنيهه إلى داخل البلاد في حين أن القوات الجوية الخاصة SAS أحرقت أوراقاً نقدية مزيفة عن أخرى مزيفة. ما بدا أنه ساعة من الوقت بالنسبة إليه

تبين أنه أقل من عشرين ثانية. عندها، ومن دون سابق إنذار، رفع الرجل الذي على الهاتف يده.

قال ويلسون وهو يحاول أن لا يبدو مزهواً بالنصر: «لدي مزايده بمائة وعشرين ألفاً على الهاتف». فحول انتباهه مرة أخرى إلى السيد آلان الذي لم يحرك ساكناً. فكرر قوله: «لدي مزايده بمائة وعشرين ألفاً على الهاتف، سوف أدع القطعة تُباع عند مائة وعشرين ألف، هذه فرصتك الأخيرة»، قال وهو ينظر مباشرةً إلى السيد آلان، الذي عاد إلى هدوئه ولم يُبدِ أي تعابير على وجهه.

قال ويلسون وهو يضرب مطرقة بقوة وينقل ابتسامة للمزايد الذي على الهاتف: «بيعت بمائة وعشرين ألف جنيه».

تنفس السيد آلان الصعداء وكان سعيداً بصفة خاصة لرؤية الضحكة الواثقة على وجه مارتينيز والتي أقنعتَه بأن الأرجنتيني صدق أنه أعاد شراء تمثاله الخاص، الذي يحتوي على ثمانية ملايين جنيه لقاء 120,000 جنيه فقط.

بعد بيع قطعتين أخريين، نهض مارتينيز من مكانه في الصف الثالث وعبر بين الناس دون أدنى اهتمام بمتابعتهم للمزاد. ما إن وصل إلى الممر، سار وعلى وجهه ابتسامة رضا، واختفى خارج القاعة.

انتظر السيد آلان بيع نصف دزينة من القطع قبل أن يذهب، وعندما وصل إلى شارع بوند، كان المساء ممتعاً فقرر المشي إلى ناديه في بول مول وتناول نصف دزينة من المحار مع كأس من الشمبانيا. لكان وهب راتب شهر منه كي يرى وجه مارتينيز عندما يكتشف بأن انتصاره كان وهماً.

الفصل الثالث والأربعون

في الصباح التالي، قام المزايد المجهول بإجراء ثلاثة اتصالات هاتفية قبل مغادرة المنزل رقم 44 في إيتون سكوير قبل الساعة العاشرة بدقائق قليلة. لوح بيده إلى سيارة أجرة وطلب من السائق أخذه إلى 19 شارع سانت جيمس. وعندما توقف خارج بنك ميدلاند، طلب من السائق الانتظار.

لم يتفاجأ بوجود مدير البنك لمقابلته، إذ دعاه إلى مكتبه، وما إن جلس الزبون سأله: «لن تريد تجيير الكمبيالة المصرفية؟».

«إلى شركة سوثبي».

كتب المدير الكمبيالة ووقعها ثم وضعها في مغلف وسلمها إلى السيد مارتينيز الشاب. وضع دייغو المغلف في أحد جيوبه وغادر من دون أي كلمة.

كانت «سوثبي» هي الكلمة الوحيدة التي تلفظ بها وهو يُغلق باب السيارة ويغوص في المقعد الخلفي.

عندما توقفت السيارة خارج مدخل بيت المزاد في شارع بوند، أمر دייغو السائق بالانتظار مرة أخرى. خرج من سيارة الأجرة وشق طريقه عبر الباب الرئيسي وتوجه مباشرة نحو مكتب سداد ثمن المبيعات.

سأل الشاب الذي يقف وراء الطاولة: «كيف لي أن أخدمك يا

سيدي؟».

أجاب دييغو: «لقد اشتريتُ القطعة رقم تسعة وعشرين في مزاد الليلة الماضية، وأود سداد فاتورتي». تصفح الشاب الكاتالوج.

«آه، نعم، تمثال المُفكر للنحات رودان، الثمن مائة وعشرون ألف جنيه يا سيدي».

قال دييغو: «طبعاً». أخرج المغلف من جيبه وأمسك بالكمبيالة المصرفية - وهي أداة تضمن عدم تتبع أثر الشاري أبداً - ثم وضعها على الطاولة.

«هل نقوم بإيصال القطعة يا سيدي، أو أنك تُفضل أخذها؟».

«سوف أخذها خلال ساعة من الوقت».

قال الشاب: «لستُ واثقاً من إمكانية ذلك، فكما ترى يا سيدي، نحن نتعب كثيراً من الوقوف على أقدامنا في اليوم الذي يتلو البيع». أخرج دييغو محفظته ووضع ورقة من فئة الخمسة جنيهات على الطاولة، ربما أكثر مما يكسبه الشاب خلال أسبوع.

قال: «دع هذه الأقدام تركز باتجاهي. وفي حال كانت الشحنة بانتظاري عندما أعود خلال ساعة، سيكون لك اثنان من هذه الورقة».

دس الشاب الورقة النقدية في جيبه الخلفي للتأكيد على إتمام الصفقة.

عاد دييغو إلى سيارة الأجرة التي في الانتظار وهذه المرة أعطى السائق عنواناً في منطقة فيكتوريا. وعندما توقف خارج المبنى، نزل دييغو من سيارة الأجرة وسلم السائق واحدة أخرى من أوراق الخمسة جنيهات الخاصة بأبيه. انتظر الباقي من النقود، فوضع جنيهين حقيقيين

في محفظته وأعطى السائق نصف جنيهه. دخل إلى المبنى وتوجه مباشرةً إلى البائع الوحيد المتوفر.

سألت المرأة الشابة التي ترتدي زياً بنياً وأصفر: «هل لي بمساعدتك؟».

قال: «اسمي مارتينيز، ولقد اتصلت في وقت سابق من هذا الصباح وحجزت شاحنة ثقيلة».

ما إن ملأ دايغو الاستمارة الإلزامية أعطاها ورقة خمسة جنيهات أخرى، ووضع ثلاث جنيهات حقيقية في محفظته.

سلمته المفتاح وقالت: «شكراً لك يا سيدي، سوف تجد الشاحنة في الفناء الخلفي. إنها مركونة على الرصيف رقم واحد وسبعين».

مشى دايغو إلى داخل الفناء، وبعد تحديد مكان الشاحنة، فتح الباب الخلفي وتفحصها من الداخل. كانت مثالية للعمل. جلس خلف المقود، وشغل المحرك، ثم انطلق في طريقه إلى شركة سوثبي. بعد مضي عشرين دقيقة، ركن الشاحنة خارج المدخل الخلفي في شارع جورج.

عندما نزل من الشاحنة، فُتح باب بيت المزاد الخلفي ليظهر صندوق شحن ضخم عليه عدد من الملصقات مكتوب عليها مبيع باللون الأحمر، يُجر بعربة نحو الخارج باتجاه الرصيف، وبصحبه ستة رجال بمعاطف خضراء طويلة، يبدو من بنيتهم القوية وكأنهم ربما كانوا ملاكمين محترفين قبل أن يأتوا ليعملوا في شركة سوثبي.

فتح دايغو الباب الخلفي للشاحنة، فرفعت الصندوق اثنتا عشرة يد وكأنه يحتوي على منفضة غبار مصنوعة من الريش ثم دفعوه إلى

الداخل. أغلق ديبغو الباب ثم أعطى الشاب المسؤول عن سداد المبيعات ورقتين نقديتين من فئة الخمسة جنيهات.

عندما جلس خلف المقود، تفحص ساعته:

الساعة تشير إلى 11: 41، وليس هناك من سبب يدعو له لعدم الوصول إلى شيلينجفورد خلال ساعتين، رغم معرفته أن أبيه سوف يكون بالانتظار في الممر وهو يزرعه جيئةً وذهاباً قبل وقت طويل من ذلك.

عندما وجد سيباستيان شعار جامعة كامبريدج الأزرق الفاتح ضمن البريد الصباحي، أمسك بالمغلف وفتحه على الفور. كان أول شيء يفعله بأي رسالة هو تفقد التوقيع في أسفل الصفحة. الدكتور برايان بادجيت، اسم ليس مألوفاً لديه.

عزيزي السيد كليفتون،

لاتزال هذه الصيغة تستغرق منه بعض الوقت كي يعتاد عليها.

كل التهاني لحصولك على منحة دراسية في كلية اللغات الحديثة. وكما أثق بأنك تعلم، فإن فصل الخريف الدراسي يبدأ في 16 أيلول، لكنني أمل بإمكانية لقائنا قبل ذلك الوقت كي نناقش أمراً أو اثنين ومن ضمنها قائمة مطالعاتك قبل بداية الفصل. كما أود أيضاً تعريفك إلى منهاج سنتك الدراسية الأولى.

ربما أمكنك كتابة رسالة لي، أو الأفضل من ذلك، أن تتصل بي.

مع خالص التقدير، الدكتور برايان بادجيت.

موجه أول.

بعد أن قرأها للمرة الثانية، قرر الاتصال بـ برونو ومعرفة ما إذا تلقى رسالة مشابهة، وفي هذه الحالة يمكنهما السفر معاً إلى كامبريدج.

لم يتفاجأ دייغو على الإطلاق برؤية والده يخرج راكضاً من الباب الرئيسي في اللحظة التي عبر فيها بوابات المدخل بالشاحنة. لكن ما فاجأه هو رؤية أخيه لويس وكل أعضاء طاقم شيلينجفورد هول يمشون على بعد خطوات منه. كان كارل في المؤخرة يحمل حقيبة جلدية. سأله والده حتى قبل أن ينزل من الشاحنة: «هل حصلت على التمثال؟».

أجاب دייغو الذي صافح أخيه قبل أن يتوجه إلى مؤخرة الشاحنة: «نعم». فتح الباب ليكشف عن صندوق ضخم عليه دزينة من اللصاقات التي كُتِبَ عليها مبيع. ابتسم الدون بيدرو وربت على الصندوق وكأنه واحد من كلابه الأليفة، ثم تنحى جانباً كي يُمكن الآخرين من القيام بالعمل الصعب.

أشرف دייغو على الفريق الذي بدأ بدفع وسحب الصندوق الكبير إلى خارج الشاحنة إنشأً بعد آخر إلى أن بات على وشك السقوط. وعلى الفور، أمسك كارل ولويس باثنتين من الزوايا بينما أمسك دייغو والطباخ بالطرف الآخر أما السائق الخاص والبستاني فقد تمسكا بثبات في الوسط.

ترنح الستة في خطاهم نحو مؤخرة المنزل ورموا بالصندوق وسط المرج العشبي. لم يبدُ البستاني سعيداً بهذا.

سأل دايغو ما إن التقطوا أنفاسهم: «هل تريده منتصباً؟».

أجاب الدون بيدرو: «كلا، دعه على الجنب، فعندها سيكون من الأسهل إزالة القاعدة».

أخرج كارل مطرقة من حقيبته وشرع بإزالة المسامير الغائرة التي تُثبت الألواح الخشبية في مكانها. وفي الوقت نفسه، بدأ السائق الخاص والطباخ والبستاني بنزع الألواح الخشبية من الجوانب بأيديهم.

ما إن نُزع آخر لوح خشبي، تراجع الجميع للخلف وحدثوا إلى المُفكر المستلقي على ظهره بشكل فظ. لم تفارق عينا الدون بيدرو القاعدة الخشبية على الإطلاق. فانحنى للأسفل ونظر عن كثب لكنه لم يلاحظ أي شيء يوحي بأنه تم العبث بها. نظر إلى الأعلى باتجاه كارل وأوماً برأسه.

انحنى حارسه الشخصي الموثوق وتفحص البراغي اللولبية، ثم أخرج زردية من حقيبة عدته وبدأ بفك واحد منها. في البداية تحرك بصعوبة، ثم بسهولة أكثر فيما بعد إلى أن انفصل أخيراً عن قضيبه الفولاذي وسقط على العشب. كرر العملية مع البراغي الثلاثة الباقية إلى أن أزيلت جميعها. عندئذٍ توقف للحظة قبل أن يتمسك بجانب القاعدة الخشبية، وبكل قواه سحبها بعيداً عن التمثال ورمها على العشب. وبابتسامة رضا، تنحى جانباً ليُمكن سيده من أن يحظى بكونه أول من ينظر إلى الداخل.

ركع مارتينيز على ركبتيه وحدث داخل الفجوة، بينما انتظر دايغو وبقية الفريق الأمر التالي. مر وقت طويل من الصمت قبل أن يُطلق الدون بيدرو فجأة صرخة حادة لا بد وأنها أيقظت أولئك الذين يرقدون

بسلام في مقبرة الأبرشية المجاورة. حرق الرجال الستة إليه وهم يُظهرون درجات متفاوتة من الخوف، غير واثقين من سبب هذا الهيجان، إلى أن صرخ بهلء فيه: «أين نقودي؟».

لم يسبق لدييغو أن رأى والده بهذه الدرجة من الغضب، فركع على الفور بجانبه وأدخل يديه في التمثال ثم حركها بعنف بحثاً عن الملايين المفقودة، لكن كل ما تمكن من إيجاده هو ورقة واحدة من فئة الخمسة جنيهات كانت عالقة على البرونز.

قال دييغو: «أين النقود بحق الجحيم؟».

قال لويس: «لا بد وأن أحداً سرقها».

صرخ الدون بيدرو: «ذلك أمر بديهي لعين!» لم يفكر أحد بالإدلاء بأي رأي بينما استمر بالتحديق إلى القاعدة الفارغة وهو لا يزال غير راغب بتقبل أن كل ما اضطر إلى إظهاره بعد سنة من التحضير لهذه اللحظة كان مجرد ورقة نقدية واحدة مزيفة من فئة الخمسة جنيهات. مرت عدة دقائق قبل أن ينهض مترنحاً على قدميه، وعندما تكلم أخيراً بدا هادئاً بشكل لافت.

قال وهو يشير إلى التمثال: «لست أدري من هو المسؤول عن هذا الأمر، لكن إذا كان هذا آخر شيء أفعله، فسوف أتعقبهم وأترك بطاقة تعريفية».

من دون أي كلمة أخرى، أدار الدون بيدرو ظهره للتمثال ومشى باتجاه المنزل. وحدهم دييغو ولويس وكارل تجرأوا على اللحاق به. دخل من الباب الرئيسي إلى الصالة ومنه إلى غرفة الاستقبال ثم وقف أمام لوحة بالطول الكامل تُصور عشيقة الرسام الفرنسي تيسوت. رفع السيدة

كاثلين نيوتن عن الجدار وأسندها على عتبة النافذة، ثم بدأ بتدوير قرص عدة مرات، في البداية إلى اليسار ومن ثم إلى اليمين إلى أن سمع صوت طقطقة، ثم فتح باب الخزانة الثقيل. حرق مارتينيز لبرهة من الوقت إلى أكوام أوراق الخمسة جنيهاً المكدسة بأناقة والتي هربها أعضاء من عائلته وطاقمه الموثوق إلى داخل إنكلترا خلال السنوات العشر الماضية، قبل أن يُخرج ثلاث رزم منها ويُسلم واحدة إلى ديبغو وأخرى لـ لويس وثالثة إلى كارل. نظر بثبات إلى ثلاثتهم وقال: «لا أحد يرتاح حتى نكتشف من كان مسؤولاً عن سرقة نقودي. يجب على كل واحد منكم أن يقوم بمهمته، وسوف تُكافؤون طبقاً للنتائج فقط».

التفت نحو كارل وقال: «أريدك أن تعرف من أخبر جايلز بارينغتون أن ابن أخته كان في طريقه إلى ساوثهامبتون وليس مطار لندن».

أوماً كارل برأسه، بينما استدار مارتينيز ليقف وجهاً لوجه أمام لويس ثم قال: «سوف تذهب إلى بريستول هذا المساء وتجد من هم أعداء بارينغتون، فأعضاء البرلمان دائماً لديهم أعداء، ولا تنسَ أن كثيراً منهم سوف يكونون إلى جانبه. وفي الوقت الذي تكون فيه هناك، حاول أن تجمع أي معلومات عن شركة الشحن التي تخص العائلة. هل يواجهون أي صعوبات مالية؟ هل لديهم أي مشاكل مع النقابات؟ هل هناك اختلافات في السياسة بين أعضاء مجلس الإدارة؟ هل يُعبر المساهمون عن أي شكوك؟ ابحث في العمق يا لويس وتذكر، فرما لا تُصادف أي ماء إلى أن تحفر عدة أقدام تحت السطح».

قال وهو يحول انتباهه إلى ابنه الأكبر: «ديبغو، عد إلى شركة سوثبي واعرف من هو المزاييد المنافس على القطعة رقم 29، إذ لا بد

أنهم عرفوا أن نقودي لم تعد موجودة في التمثال، وإلا لما كان بإمكانهم المخاطرة بزيادة الرهان إلى هذا الحد».

صمت الدون بيدرو قليلاً قبل أن يبدأ بوخز صدر دييغو بإبهامه قائلاً: «لكن مهمتك الأكثر أهمية ستكون بناء فريق سوف يمكنني من تدمير كائناً من كان مسؤولاً عن هذه السرقة. ابدأ بتكليف أذكي المحامين الموجودين لأنهم سوف يعرفون من هم رجال الشرطة الفاسدين بالإضافة إلى المجرمين الذين لا يُقبض عليهم أبداً، ولن يسألوا الكثير من الأسئلة طالما كان الأجر ملائماً. ما إن يتم الإجابة عن كل هذه الأسئلة ويوضع كل شيء في مكانه، سوف أكون جاهزاً لأفعل بهم ما فعلوه بنا».

قال هاري: «مائة وعشرون ألف جنيه، ومزايد عبر الهاتف، لكن لا يبدو أن صحيفة التايمز تعرف هوية الشاري».

قالت إيمّا: «هناك شخص واحد بإمكانه دفع هذا القدر من المال ثمناً للقطعة، وسوف يدرك السيد مارتينيز الآن أنه لم يحصل على ما ساوم من أجله». نظر هاري من فوق الصحيفة ليرى زوجته ترتجف: «وإذا كان هناك من شيء واحد نعرفه عن ذلك الرجل، فهو أنه سوف يرغب بمعرفة من هو المسؤول عن سرقة نقوده».

«لكن ليس لديه أي سبب ليعتقد أن سيب متورط في الأمر، فقد بقيتُ في بيونس آيرس لعدة ساعات فقط وليس هناك أي شخص سوى السفير يعرف اسمي».

«ما عدا السيد... ماذا كان اسمه؟».

«بولتون. لكنه عاد على الطائرة نفسها مثلي».

قالت إيمّا بصوت متقطع: «لو كنتُ مارتينيز، فأول شخص أفترض أنه متورط هو سيب».

«لكن لماذا، وخاصةً أنه ليس متورطاً؟».

«لأنه آخر شخص رأى التمثال قبل تسليمه إلى شركة سوثبي».

«هذا ليس دليلاً».

«صدقني، سوف يكون دليلاً كافياً بالنسبة إلى مارتينيز. أظن أنه لا خيار لنا سوى تحذير سيب بأن...».

فُتح الباب ودخلت جيسيكا مسرعةً إلى الغرفة قائلةً: «ماما، لن تحذري أبداً إلى أين سيذهب سيب غداً».

«لويس، أوجز لي ما اكتشفته عندما كنت في بريستول».

«لقد أمضيتُ معظم وقتي أنبش الأحجار لأرى إذا ما كان سيخرج أي شيء».

«وهل خرج شيء؟».

«نعم، لقد اكتشفتُ أنه بالرغم من أن بارينغتون مُحترم جداً ومحبوب في دائرته الانتخابية إلا أنه اكتسب عدة أعداء خلال مسيرته، ومن بينهم زوجته السابقة و...».

«ما هي مشكلتها؟».

«يبدو أن بارينغتون خذلها بشدة نزولاً عند رغبة والدته، وهي أيضاً تُعارض أن تأخذ مكانها ابنة عامل مناجم من ويلز».

«إذاً ربما ينبغي عليك محاولة الاتصال بها؟».

«لقد حاولتُ مسبقاً، لكن الأمر ليس بهذه السهولة، فأبناء الطبقات الإنكليزية الراقية يتوقعون دائماً شخصاً يقوم بالتعريف. لكن بينما كنتُ في بريستول صادفتُ رجلاً يدعي أنه يعرفها جيداً».

«ما اسمه؟».

«الرائد أليكس فيشر».

«وما هي علاقته بـ بارينغتون؟».

«لقد كان مرشح المحافظين في الانتخابات الأخيرة عندما هزمه بارينغتون بفارق أربعة أصوات. هو يدعي أن بارينغتون خدعه وأخذ منه مقعده البرلماني ولدي شعور أنه سيفعل أي شيء لينتقم».

قال الدون بيدرو: «إذاً ينبغي علينا مساعدته في مسعاه».

«كما اكتشفتُ أيضاً أنه منذ خسارته في الانتخابات فإن فيشر يُراكم عليه الديون في كل أنحاء بريستول، وهو يبحث يائساً عن حبل نجاة».

قال الدون بيدرو: «إذاً سيتوجب عليّ أن أرمي واحداً له، أليس كذلك؟ ما الذي يمكنك أن تخبرني إياه عن صديقة بارينغتون؟».

«الدكتورة غوينيث هوجيز، تُعلم الرياضيات في كلية سان بول في لندن. كما أن الفرع المحلي لحزب العمال كان ينتظر إعلاناً عن مستقبلهما معاً منذ إتمام طلاقه، لكن، اقتباساً من أحد أعضاء اللجنة الذين قابلوها، لا يمكن وصفها بـ «امرأة سهلة المنال».

قال الدون بيدرو: «انسَ أمرها، وركز على زوجته السابقة، وفي حال بإمكان الرائد تدبير لقاء، حاول أن تعرف إذا كانت مهتمة بالنقود أو الانتقام، فتقريباً كل زوجة سابقة تريد واحداً من الأمرين، وفي معظم الحالات، كليهما». ابتسم لـ لويس قبل أن يُضيف: «أحسنتَ صنعاً يا بني». وبالالتفات إلى دייغو سأله: «ماذا لديك لي؟».

قال لويس: «لم أنته بعد، وأنا أيضاً صادفتُ شخصاً يعرف عن عائلة بارينغتون أكثر مما يعرفون عن أنفسهم».

«ومن هو هذا الشخص؟».

«محقق خاص يُدعى ديريك ميتشيل، عمل لعائلي بارينغتون وكليفتون في الماضي، لكن لديّ إحساس أنه إذا كان الأجر ملائماً، بإمكانني إقناعه كي...».

قال الدون بيدرو بشكل حاسم: «لا تقترب منه أبداً، فإذا كان مستعداً لخيانة مُستخدميه السابقين، ما الذي يجعلك تعتقد أنه لن يفعل الشيء نفسه معنا عندما يناسبه الأمر؟ لكن هذا لا يعني أنه لا يجب عليك مراقبته عن قرب». أوماً لويس برأسه، رغم أنه بدا مُحبطاً. «دييغو؟».

«هناك طيار من شركة الخطوط الجوية البريطانية يُدعى بيتر ماي أقام في فندق ميلونجا لليلتين في الوقت نفسه الذي كان فيه سيباستيان كليفتون في بيونس آيريس بالضبط».

«إذاً ماذا؟».

«شاهد الرجل نفسه وهو يخرج من الباب الخلفي للسفارة البريطانية في يوم حفلة الحديقة».

«يمكن أن يكون هذا مجرد صدفة».

«والبواب في فندق ميلونجا، سمع بالصدفة شخصاً يبدو أنه يعرف الرجل خاطبه باسم هاري كليفتون، وهذا يُصادف أنه اسم والد سيباستيان».

«هذه أقل من صدفة».

«وعندما كُشفت شخصيته، استقل الرجل الطائرة التالية عائداً إلى لندن».

«لم تعد صدفة أبداً».

«والأكثر من ذلك، أن السيد كليفتون غادر دون أن يدفع فاتورة الفندق، التي دُفعت عن طريق السفارة البريطانية لاحقاً، وهذا يثبت أن الوالد والابن لم يكونا في بيونس آيرس في الوقت نفسه فقط، بل لا بد وأنهما كانا يعملان معاً».

سأل لويس: «إذاً لماذا لم يقيما في الفندق نفسه؟».

أجاب الدون بيدرو: «لأنهما لم يريدا أن يُشاهدا معاً، وأراهن على ذلك». صمت قليلاً قبل أن يضيف: «أحسنت صنعاً يا ديبغو. وهل هاري كليفتون هذا هو المزايد المنافس على تمثالي أيضاً؟».

«لا أظن ذلك. فعندما سألتُ رئيس شركة سوثبي عن هويته، ادعى أن لا فكرة لديه. ورغم أنني ألمحتُ، إلا أنه من الواضح أن السيد ويلسون ليس برجل يمكن إغواؤه بالرشوة، وأشك أنه في حال تهديده بأي طريقة كانت، فالاتصال التالي له سوف يكون مع سكوتلاند يارد». عبس الدون بيدرو، وتابع ديبغو كلامه: «لكن ربما اكتشفتُ نقطة ضعف ويلسون الوحيدة. فعندما ألمحتُ بأنك تفكر بإعادة المُفكر للبيع مرة أخرى، زل لسانه وقال إنه ربما تكون الحكومة البريطانية مهتمة بشرائه».

انفجر الدون بيدرو غاضباً، وتفوه بكلمات وتعابير قد تصدم مأمور سجن. مضى بعض الوقت قبل أن يهدأ مرة أخرى وعندما هدأ أخيراً قال وهو يهمس تقريباً: «إذاً نحن نعرف الآن من سرق نقودي. وهم الآن سوف يتلفون الأوراق النقدية أو يسلمونها إلى بنك إنكلترا. وفي كلتا الحالتين»، شتم، «لن نجد بنساً من تلك النقود مرة ثانية».

أشار دايغو قائلاً: «لكن حتى الحكومة البريطانية لا يمكنها تنفيذ مثل تلك العملية دون تعاون عائلتي كليفتون وبارينغتون، وبذلك لم يتغير هدفنا».

سأل وغير الموضوع بسرعة: «أتفق معك. كيف حال فريقك؟».

«لقد جمعتُ مجموعة صغيرة ممن لا يحبون فكرة دفع الضرائب». ضحك الثلاثة الآخرون للمرة الأولى في ذلك الصباح. «سوف أبقئهم مع بعض في الوقت الحالي ليكونوا مستعدين للتحرك متى ما أصدرت الأمر». «هل لديهم أي فكرة عن هوية من يعملون لأجله؟».

«كلا. يعتقدون أنني أجنبي يملك الكثير من المال، وبصراحة هم لا يسألون الكثير من الأسئلة طالما يُدفع لهم في الموعد المحدد ونقداً».

قال دون بيدرو: «هذا جيد بما يكفي»، ثم التفت إلى كارل وسأله: «هل تمكنت من معرفة هوية الذي أخبر بارينغتون أن ابن أخته كان في طريقه إلى ساوثهامبتون وليس لندن؟».

أجاب كارل: «لا أستطيع إثبات ذلك، لكنني آسف لإبلاغك بأن أول اسم في القائمة هو برونو».

«لطالما كان ذلك الصبي صادق جداً، وأنا ألوم أمه على ذلك. يجب أن نكون متأكدين من عدم مناقشة ما أفكر به أبداً عندما يكون في الجوار».

قال دايغو: «لكن لا أحد منا متأكد تماماً مما تفكر به حقاً»، فابتسم الدون بيدرو وقال: «لا تنسَ أبداً أنه إذا أردتَ إركاع إمبراطورية ما، فعليك البدء بقتل أول الواقفين في الطابور لتولي العرش».

رن جرس الباب الرئيسي عند الساعة العاشرة إلا دقيقة وقام كارل بفتح الباب.

قال: «صباح الخير يا سيدي».

«كيف لي أن أساعدك؟».

«لدي موعد مع السيد مارتينيز عند الساعة العاشرة».

انحنى كارل بشكل طفيف ووقف جانباً كي يسمح للزائر بالدخول. قاده عبر الصالة ثم طرق على باب المكتب وقال: «لقد وصل ضيفك يا سيدي».

نهض مارتينيز من وراء طاولة مكتبه ومد يده قائلاً: «صباح الخير، كنتُ أتطلع للقاءك».

بينما أغلق كارل باب المكتب وشق طريقه إلى المطبخ، مر بـ برونو الذي كان يتحدث على الهاتف.

«... لقد أعطاني أبي بطاقتين لنصف نهائي بطولة الرجال في ويمبلدون غداً، واقترح علي أن أدعوك».

قال سيب: «هذا كرم بالغ منه، لكن لديّ موعد لرؤية مرشدي في كامبريدج يوم الجمعة ولذا لا أظن أن بإمكانني الذهاب».

قال برونو: «لا تكن بهذا الضعف، ليس هناك من شيء يمنعك من القدوم إلى لندن غداً صباحاً، فلن تبدأ هذه المباراة قبل الساعة الثانية ولذا طالما بإمكانك الوصول إلى هناك قرابة الساعة الحادية عشرة فسوف يكون لديك أكثر من وقت كافٍ».

«لكن لا يزال من المتوقع عليّ أن أكون في كامبريدج بحلول منتصف يوم غد».

«إذن بإمكانك البقاء هنا الليلة ويستطيع كارل أن يأخذك إلى شارع ليفربول صباح يوم الجمعة».

«من يلعب؟».

«فريجر ضد كوبر، وسوف يكون يوماً حاراً جداً. وإذا تصرف بشكل جيد حقيقةً، سوف أوصلك بسيارتي الأنيقة الجديدة إلى ويمبلدون».

قال سيباستيان بذهول: «حصلت على سيارة؟».

«سيارة مكشوفة برتقالية اللون كوبيه ماركه موريس جاراج فئة أ. لقد أهداني إياها أبي بمناسبة بلوغي الثامنة عشرة من العمر».

قال سيباستيان: «أيها المحظوظ اللعين، لقد أهداني أبي الأعمال الكاملة للكاتب الفرنسي بروس ت بمناسبة بلوغي الثامنة عشرة».

ضحك برونو وقال: «وإذا أحسنت التصرف فرها يمكنني إخبارك عن آخر صديقاتي».

قال سيباستيان بسخرية: «آخر صديقاتك؟ يجب أن يكون لديك على الأقل صديقة أولى قبل أن تتمكن من الحصول على (أخيرة)».

«هل أتحسس نوعاً من الحسد في كلامك؟».

«سأدعك تعرف بعد أن ألتقي بها».

«لن تحظى بتلك الفرصة لأني لن أتمكن من رؤيتها مرة ثانية حتى يوم الجمعة، وفي ذلك الوقت سوف تكون في القطار المتجه إلى كامبريدج. أراك بحدود الساعة الحادية عشرة غداً».

أغلق برونو سماعة الهاتف وكان في طريقه إلى غرفته عندما فُتح باب المكتب وظهر أبوه وذراعه حول كتف رجل يبدو عسكرياً. لم يكن لبرونو أن يفكر بالتنصت على محادثات والده لو أنه لم يسمع اسم بارينغتون.

كان والده يقول وهو يرافق ضيفه إلى الباب الرئيسي: «سوف نُعيدك إلى مجلس الإدارة خلال وقت قصير».

«سوف أستمتع بتلك اللحظة».

«لكني أود أن تعرف أيها الرائد، بأني لست مهتماً بمحاولة الاستحواذ المؤقت على شركة بارينغتون من أجل إحراج العائلة وحسب. فخطتي طويلة الأمد هي الاستيلاء على الشركة وتنصيبك رئيساً لمجلس الإدارة. ما رأيك بذلك؟».

«إذا تسبب ذلك بالإطاحة بـ جايلز بارينغتون في الوقت نفسه، فلا شيء آخر قد يسعدني أكثر من هذا».

قال مارتينيز: «ليس بارينغتون وحسب، فأنا أهدف إلى تدمير كل أفراد تلك العائلة واحداً بعد آخر».

«قال الرائد: «هذا أفضل».

«إِذَا أَوَّلَ شَيْءٍ يَنْبَغِي عَلَيْكَ فَعَلَهُ هُوَ الْبَدءُ بِشَرَاءِ أَسْهُمِ شَرِكَةِ بَارِينْغْتُونِ كُلَّمَا عُرِضَتْ فِي السُّوقِ. وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي تَحْصُلُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةِ سَبْعَةٍ وَنِصْفٍ بِالمِئَةِ، سَوْفَ أُعِيدُكَ إِلَى مَجْلِسِ الإِدَارَةِ كَمُمَثِّلٍ عَنِّي».

«شَكَراً لَكَ يَا سَيِّدِي».

«لَا تَخَاطِبْنِي بِسَيِّدِي، فَأَنَا بِيَدْرُو بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَصْدِقَائِي».

«وَأَنَا أَلِيكْس».

«تَذَكَّرْ فَقَطْ يَا أَلِيكْسَ، مِنْ الآنَ وَصَاعِداً أَنْتَ وَأَنَا شَرِكَاءُ وَلَدِينَا هَدَفٌ وَاحِدٌ فَقَطْ».

قَالَ الرَّائِدُ بَيْنَمَا تَصَافِحُ الرَّجُلَانِ: «لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْوَضْعُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا بِيَدْرُو». وَعِنْدَمَا ابْتَعَدَ، كَانَ بِإِمْكَانِ الدُّونِ بِيَدْرُو أَنْ يَقْسِمَ بِأَنَّهُ سَمِعَهُ يُصْفِرُ».

عِنْدَمَا عَادَ الدُّونُ بِيَدْرُو إِلَى الْمَنْزِلِ، وَجَدَ كَارْلَ بِانْتِظَارِهِ فِي الصَّالَةِ.
«يَجِبُ أَنْ نَتَكَلَّمَ مَعاً يَا سَيِّدِي».

«دَعْنَا نَذْهَبَ إِلَى مَكْتَبِي».

لَمْ يَتَكَلَّمْ أَيُّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ إِلَى أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ. عِنْدَهَا كَرَّرَ كَارْلُ الْمِحَادَثَةَ الَّتِي اسْتَرَقَ السَّمْعَ إِلَيْهَا بَيْنَ بَرُونُو وَصَدِيقِهِ.

«لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْ مَقَاوِمَةِ بَطَاقَاتِ الْوَيْمِبِلْدُونِ تِلْكَ».
رَفَعَ سَمَاعَةَ هَاتِفِ مَكْتَبِهِ وَصَرَخَ: «صَلْنِي بِدِيغُو». ثُمَّ قَالَ بِانْتِظَارِ سَمَاعِ

صوت ابنه على الخط: «والآن دعنا نرَ إذا كان بإمكاننا إغواء الصبي بشيء أكثر إغراءً حتى».

«ما الذي بإمكانني فعله لك يا أبي؟».

«لقد استجاب الشاب كليفتون للطعم وسوف يأتي إلى لندن غداً ليذهب إلى ويمبلدون. وإذا تمكن برونو من إقناعه بقبول عرضي الآخر فهل تستطيع تدبير كل شيء بحلول يوم الجمعة؟».

لقد اضطر سيباستيان لاستعارة ساعة مُنبه والدته ليضمن استيقاظه في الوقت المحدد ليلحق بقطار الساعة 7: 23 إلى بادينغتون. كانت إيمّا بانتظاره في الصالة وعرضت عليه إيصاله إلى محطة تيمبل ميدز.

«هل تتوقع رؤية السيد مارتينيز عندما تكون في لندن؟».

أجاب سيباستيان: «هذا شبه مؤكد بما أنه هو من اقترح انضمامي إلى برونو في ويمبلدون. لمَ تسألين؟».

«ليس هناك من سبب معين».

أرد سيباستيان أن يسأل لماذا تبدو أمي مهتمة بالسيد مارتينيز لكن شك أنه في حال سأله، فسوف يحصل على الجواب نفسه. ليس هناك من سبب معين.

سألت أمه، ومن الواضح أنها تريد تغيير الموضوع: «هل سيتسنى لك الوقت لترى عمّتك جريس عندما تكون في كامبريدج؟».

«لقد دعّنتي لتناول الشاي في نيوهام يوم السبت في فترة بعد

الظهر».

قالت إيما عندما توقفا خارج المحطة: «لا تنسَ إبلاغها تحياتي القلبية».

جلس سيباستيان في زاوية عربة القطار محاولاً التفكير بسبب اهتمام والديه الكبير بالرجل الذي لم يلتقيا به أبداً. فقرر سؤال برونو إذا كان لديه علم بأي مشكلة. ففي النهاية، لم يبدُ برونو مقتنعاً بذهابه إلى بيونس آيريس.

لم يصل سيباستيان لحل اللغز بحلول الوقت الذي توقف فيه القطار في بادينغتون، فسلم تذكرته إلى المفتش على الحاجز وخرج من المحطة ثم عبر الطريق ولم يتوقف حتى وصل إلى المنزل رقم 37، ونقر على الباب.

قالت السيدة تيببت عندما رأت الواقف على عتبة الباب: «أوه يا إلهي». رمت بذراعيها حوله وأضافت: «لم أعتقد أنني سوف أراك مرة أخرى يا سيباستيان».

«هل يُقدم هذه النزُل فطوراً لطالب جامعي في السنة الأولى؟».

«إذا كان هذا يعني أنك ذاهب إلى كامبريدج بعد كل ما حصل، إذاً سوف أرى ماذا أستطيع فعله». تبعها سيباستيان إلى الداخل. ثم أضافت: «وأغلق الباب من خلفك فقد يعتقد أي شخص أنك وُلدتُ في حظيرة».

تراجع سيباستيان للخلف، وأغلق الباب الرئيسي قبل أن يتوجه إلى المطبخ للانضمام إلى تيببي. وعندما رآته جانيس قالت: «انظروا ماذا جلبت لنا القطة» ثم عانقته مرة أخرى وتبع ذلك أفضل فطور يتناوله منذ أن جلس آخر مرة في ذلك المطبخ.

سألت السيدة تيببت: «إِذَا مَاذَا فعلت منذ أن رأيناك آخر مرة؟».

«لقد ذهبْتُ إلى الأرجنتين والتقيتُ بالأميرة مارغريت».

سألت جانيس: «أين تقع الأرجنتين؟».

أجابت السيدة تيببت: «إنها بعيدة جداً».

قال: «وسوف أذهب إلى كامبريدج في أيلول، والفضل يعود لك يا

تيببي».

«أمل أنك لم تمنع اتصالي بخالك، وما جعل الأمور أسوأ، أنه اضطر

للمجيء إليّ هنا في بادينغتون».

قال سيباستيان: «أشكر الله أنك فعلتِ، وإلا لكنتُ بقيتُ في

الأرجنتين».

سألت جانيس: «وما الذي أتى بك إلى لندن هذه المرة؟».

أجاب سيب: «لقد اشتقتُ إليكما إلى درجة أنني اضطررتُ للعودة».

«وأين يمكن أن تحصل على فطور شهية في مكان آخر؟».

أقر سيباستيان قائلاً: «حسناً، هناك سبب آخر. لقد دعاني برونو إلى

ويمبلدون بعد ظهر هذا اليوم لحضور المباراة النصف نهائية بين فريجر

وكوبر».

قالت جانيس: «أنا أحب أشلي كوبر».

قالت السيدة تيببت باستهزاء: «أنتِ تقعين في حب أي شخص يصل

إلى المباريات نصف النهائية».

«هذا ليس عادلاً! فأنا لم أقع في حب نيل فريجر أبداً».

ضحك سيباستيان، ولم يتوقف عن الضحك طوال الساعة التالية وهذا سبب عدم وصوله إلى إيتون سكوير إلا عند الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً. عندما فتح برونو الباب، قال سيب: «لقد احتُجزتُ من قبل صديقتين لي».

قال مارتينيز: «قل لي ماذا حدث معك مرة أخرى ولا تغفل عن أي تفصيل».

قال دايغو: «هناك فريق من ثلاثة سائقين محترفين نفذ عدة جولات تجريبية خلال الأسبوع الماضي، وسوف يقومون باختبار نهائي في وقت لاحق من بعد ظهر هذا اليوم».

«ما أسوأ الاحتمالات التي يمكن أن تحدث؟».

«إذا لم يقبل كليفتون بعرضك، فيجب إلغاء العملية بأكملها».

«إذا كنتُ أعرف هذا الفتى جيداً، فلن يكون بمقدوره مقاومته».

تأكد فقط من عدم مصادفتي إياه قبل رحيله إلى كامبريدج في الصباح لأنني لا أستطيع ضمان عدم خنقه».

«لقد فعلتُ ما بوسعي لأتأكد من عدم التقاء طرفكما. فسوف

تتناول العشاء مع الرائد فيشر هذا المساء في مطعم سافوي، وغداً لديك موعد في المدينة في الصباح الباكر حيث سيحيطك محامي الشركة علماً بحقوقك القانونية حالما تستحوذ على نسبة سبعة ونصف بالمئة من شركة بارينغتون».

«وفي فترة بعد الظهر؟».

«سوف نذهب كلانا إلى ويمبلدون. ليس لمشاهدة نهائي السيدات، لكن لإعطائك عشرة آلاف حجة غياب.»
«وأين سيكون برونو؟»

«سوف يأخذ صديقتة إلى السينما حيث يبدأ الفيلم عند الساعة الثانية والرابع وينتهي عند الخامسة تقريباً، ولذا لن يسمع الأخبار السيئة عن صديقه إلى أن يعود في المساء.»

عندما استلقى سيباستيان في سريره تلك الليلة، لم يستطع النوم. ومثل فيلم سينمائي صامت، أعاد عرض كل شيء حدث خلال اليوم لقطه بعد أخرى: الفطور مع تيبى وجانيس، والرحلة إلى ويمبلدون في سيارة موريس جاراج قبل مشاهدة مباراة نصف النهائي التي انتهت في المجموعة الرابعة لصالح كوبر بواقع 8-6. واختتم اليوم بزيارة إلى مدام جوجو في شارع بروير حيث أحيط بدزينة من شبيهات غابريلا. شيء آخر لن يُطلع والدته عليه.

بعدئذٍ، وفوق كل ذلك، سأله برونو وهما في طريقهما إلى المنزل إذا كان يرغب بقيادة سيارة الموريس جاراج إلى كامبريدج في اليوم التالي بدلاً من الذهاب بالقطار.

«لكن أألن يعترض والدك؟»

«كانت هذه فكرته.»

عندما نزل سيباستيان لتناول الفطور في الصباح التالي، خاب ظنه عندما علم أن الدون بيدرو غادر مسبقاً لحضور اجتماع في المدينة بما أنه أراد شكره على جميع أفضاله. سوف يكتب له حاملاً يصل إلى بريستول.

قال سيباستيان وهو يملأ وعاءً برقائق الذرة ويجلس بجانب برونو: «يا لهذا الوقت الرائع الذي أمضيناه البارحة».

قال برونو: «سُحِقاً ليوم أمس، فأنا أكثر قلقاً بكثير بشأن اليوم».

«ما هي المشكلة؟».

«هل أخبر سالي بما أشعر به تجاهها أو هل أفترض أنها تعرف مسبقاً؟»

«هل الأمر سيئ إلى هذا الدرجة؟».

«لا يعني الأمر شيئاً بالنسبة إليك، فأنت أكثر خبرة مني بهذه الأمور».

قال سيباستيان: «صحيح».

«توقف عن الاستهزاء وإلا لن أدعك تستعير سيارة الموريس جاراج».

حاول سيباستيان أن يبدو جاداً، فانحنى برونو فوق الطاولة وسأل: «ماذا أرتدي برأيك؟».

اقترح سيباستيان بينما كان جرس الهاتف يرن في الصالة: «يجب أن ترتدي ملابس غير رسمية، لكن أنيقة. كرافات بدلاً من ربطة عنق»، ثم أضاف عندما دخل كارل إلى الغرفة: «ولا تنسَ أن سالي سوف تكون قلقة أيضاً بشأن ما يجب أن ترتديه».

«هناك على الخط الأنسة ثورنتون تنتظر مكالمتك يا سيد برونو».

انفجر سيباستيان ضاحكاً بينما تسلل برونو بخضوع إلى خارج الغرفة. كان يضع بعض المرابي على قطعة خبز محمص ثانية عندما عاد صديقه بعد عدة دقائق وهو يقول: «اللعة، اللعة، اللعة».

«ماذا حدث؟»

«لا تستطيع سالي الذهاب، تقول إنها مصابة بالزكام وتعاني من ارتفاع درجة حرارتها».

قال سيباستيان: «في منتصف الصيف؟ يبدو لي أنها تبحث عن عذر كي تلغي الموعد كله».

«أنت مخطئ، تقول إنها ستتحسن في الغد وهي لا تطيق صبراً كي تراني».

«إذاً لم لا تذهب إلى كامبريدج معي، لأني لست مهتماً بما ترتدي؟».

ضحك برونو وقال: «أنت بديل سيئ لـ سالي، لكن في الحقيقة، ليس عندي شيء أفضل لأفعله».

لقد جعلت عبارة، «اللعنة، اللعنة، اللعنة» كارل يخرج من المطبخ ويحاول معرفة ماذا كانت المشكلة. وصل في الوقت المناسب ليجد أن كلا الفتيين يختفيان خارج الباب الرئيسي. فركض عبر الصالة ومنها إلى الرصيف لكن لم يكن بوسعه سوى مراقبة الموريس جارج البرتقالية وهي تنطلق بعيداً عن الرصيف وسياستيان خلف المقود.

صرخ كارل بهلء فيه: «سيد برونو!»، لكن لم يلتفت أي من الرأسين لأن سياستيان كان قد فتح الراديو ليتمكن من سماع آخر الأخبار القادمة من ويمبلدون. ركض كارل إلى منتصف الطريق ولوح بذراعيه كالمسعود لكن السيارة لم تُبطء من سرعتها. فانطلق راكضاً خلفها وهي تقترب من إشارة مرور خضراء في نهاية الطريق.

صرخ قائلاً: «تحوّلي إلى حمراء!» فتحوّلت، لكن ليس قبل أن ينعطف سياستيان إلى اليسار ويبدأ بزيادة السرعة متجهاً إلى هايد بارك كورنر. لقد اضطر كارل للاستسلام. هل هناك احتمال بأن برونو طلب إيصاله إلى مكان ما قبل أن يأخذ طريقه باتجاه كامبريدج؟ ففي النهاية، ألم يكن من المفروض أن يأخذه صديقه إلى السينما بعد ظهر ذلك اليوم؟ لم تكن هذه مخاطرة بإمكان كارل الإقدام عليها.

التفت للخلف وركض باتجاه المنزل مُحاولاً تذكر المكان الذي من المفروض أن يتواجد السيد مارتينيز به ذلك اليوم. هو يعلم أنه سوف يُمضي فترة بعد الظهر بمشاهدة نهائي بطولة السيدات في ويمبلدون، لكن

مهلاً، تذكر كارل أن لديه موعداً قبل ذلك في المدينة، ولذا من المحتمل أنه في المكتب. رجل لا يؤمن بالله تضرع لو أنه لم يغادر إلى ويمبلدون بعد.

اندفع مسرعاً عبر الباب المفتوح وأمسك بسماعة الهاتف الموجود في الصالة ثم اتصل برقم المكتب. وبعد عدة لحظات سمع صوت سكرتير الدون بيدرو على الخط.

قال: «أريد أن أتكلم مع الزعيم لأمر طارئٍ للغاية».

«لكن السيد مارتينيز ودييغو غادرا إلى ويمبلدون قبل دقائق».

«سيب، أريد أن أناقش معك شيئاً كان يقلقني لفترة من الوقت».

«لم أظن أنه من المستبعد قدوم سالي غداً؟».

أجاب برونو: «كلا، الأمر أكثر خطورة بكثير من ذلك». ورغم أن

سيباستيان شعر ببعض التغيير في نبرة صوت صديقه، إلا أنه لم يكن بوسعه الالتفات كي يُعِن النظر إليه أكثر بينما كان يحاول قطع زاوية هايد بارك للمرة الأولى.

«إنه ليس شيئاً أستطيع لمسه بيدي، لكن منذ أن أتيت إلى لندن،

لدي شعور بأن أبي كان يتجنبك».

ذكره سيباستيان وهما يتوجهان إلى بارك لاين فقال: «لكن لا معنى

لأي من هذا، ففي النهاية، هو من اقترح أن أنضم إليك للذهاب إلى

ويمبلدون».

«أعلم هذا، وهي أيضاً فكرة أبي أن تستعير سيارتي اليوم. أتساءل فقط إذا حصل أي شيء عندما كنتَ في بيونس آيريس ربما سبب في إزعاجه».

قال سيباستيان: «لم يحصل شيء على حد علمي».

«ولأزال غير قادر على فهم سبب قطع أبيك لنصف العالم كي يراك، عندما كان كل ما ينبغي عليه فعله هو رفع سماعة هاتف».

«لقد أردتُ طرح السؤال نفسه عليه لكنه كان مشغولاً بالتحضير لجولة ترويجية في أميركا لآخر كتاب له. وعندما ناقشتُ الموضوع مع أمي، ادعت أنها لا تعلم شيئاً، بغباء. وإن كان بإمكانني إخبارك شيئاً واحداً عن أمي فهو أنها ليست غبية».

«وشيء آخر لا أفهمه هو سبب بقائك في بيونس آيريس بينما كان يمكنك العودة مع أبيك إلى إنكلترا في الطائرة».

«لأنني وعدتُ أباك أنني سأسلم صندوقاً ضخماً إلى ساوثهامبتون ولم أشأ تخيب ظنه بعد كل المشاكل التي واجهها».

«لا بد وأن ذلك هو التمثال الذي رأيته في المرج العشبي في شيلينجفورد. لكن هذا يجعل الأمر أكثر غموضاً. لماذا يطلب منك أبي إحضار تمثال من الأرجنتين إلى هنا، ويعرضه للبيع في المزاد ومن ثم يشتريه بنفسه؟».

«ليس عندي أي فكرة. فقد وقعتُ على أوراق التخليص كما طلب مني وما إن تسلمت شركة سوثبي الصندوق، سافرتُ إلى بريستول مع

والدي. وأما بالنسبة للأمر الآخر؟ فأنا فعلتُ فقط ما طلبه مني والدك بالضبط».

«لأنه أتى رجل لزيارة أبي في المنزل البارحة وقد سمعته بالصدفة يذكر اسم بارينغتون».

توقف سيباستيان عند إشارة المرور التالية وقال: «هل لديك أي فكرة عن هوية ذلك الرجل؟».

«كلا، لم أره من قبل في حياتي، لكنني سمعتُ أبي يناديه (الرائد)».

قال صوت عبر المكبرات: «هذا إعلان للعموم». خيم الصمت على الجمهور رغم أن الأنسة جيبسون كانت على وشك ضرب كرة الإرسال في المجموعة الأولى، «هل يتفضل السيد مارتينيز بالذهاب إلى مكتب السكرتاريا على الفور؟».

لم يستجب الدون بيدرو في الحال، إذ نهض ببطء من مكانه وقال: «لا بد وأن أمراً سيئاً حصل». ومن دون كلمة أخرى بدأ يشق طريقه متجاوزاً المشاهدين الجالسين باتجاه أقرب مخرج ودييغو خلفه بخطوة. ما إن وصل الدون بيدرو إلى الأبواب الجانبية سأل عن مكان مكتب السكرتاريا.

قال الشاب وهو يشير إلى جهة اليمين: «إنه ذلك المبنى الضخم ذو السقف الأخضر يا سيدي، لا يمكنك أن تتوه عنه».

نزل الدون بيدرو على الدرجات بسرعة وخرج من الملعب الرئيسي لكن دييغو تجاوزه قبل أن يصل إلى المخرج بوقت طويل. سرّع دييغو

من خطواته وتوجه نحو المبنى الضخم، كان ينظر من وقت لآخر للخلف ليتأكد من أن أبيه ليس بعيداً عنه.

عندما وجد أحد الموظفين يقف بجانب مجموعة من الأبواب المزدوجة، أبطأ خطواته وصرخ: «أين مكتب السكرتاريا؟».

«الباب الثالث إلى اليمين يا سيدي».

لم يخفف ديبغو في خطواته إلى أن رأى كلمتي سكرتير النادي مطبوعة على أحد الأبواب.

عندما فتحه أصبح وجهاً لوجه مع رجل يرتدي سترة أنيقة بلون أرجواني وأخضر.

«اسمي مارتينيز وأنت ناديتني للتو عبر مكبرات الصوت».

«نعم يا سيدي، لقد اتصل شخص يُدعى السيد كارل راميريز وطلب الاتصال به في المنزل على الفور. كما أصر على أن الأمر هام للغاية».

أمسك ديبغو بالهاتف الموجود على طاولة السكرتير وكان على وشك الاتصال برقم المنزل عندما دخل والده مسرعاً من الباب ووجنتاه متوردتان.

قال بلهجة أمرة وهو يلهث: «ما هي الحالة الطارئة؟».

«لستُ أعلم بعد. لدي تعليمات فقط بالاتصال بـ كارل في المنزل».

خطف الدون بيدرو سماعة الهاتف عندما سمع كلمات: «هل هذا أنت أيها السيد مارتينيز؟».

أجاب: «نعم هذا أنا» ثم أصغى باهتمام لما قاله كارل.

قال ديبغو محاولاً البقاء هادئاً رغم أن والده أصبح بلون أبيض شاحب ويحاول التمسك بطرف مكتب السكرتير: «ما الذي حدث؟». «برونو في السيارة».

قال برونو: «سوف أناقش الأمر مع أبي عندما أعود هذا المساء، فبعد كل ما حصل، ماذا يمكن أن تكون فعلت لإزعاجه، يا ليتك نفذت أوامره؟».

أجاب سيباستيان: «ليس لدي أي فكرة». ثم ضغط بقدمه على دواسة الوقود وأخذ يستمتع بإحساس الهواء وهو يهب من خلال شعره. قال برونو: «ربما أنا أتعاطى مع الأمر بانفعال زائد، لكني أفضل كشف هذا اللغز».

قال سيباستيان: «إذا كان الرائد هو شخص يُدعى فيشر، عندئذٍ أستطيع أن أقول لك إنه حتى أنت لن تستطيع حل اللغز». «لستُ أفهم، من فيشر هذا بحق الجحيم؟».

«لقد كان مرشح حزب المحافظين الذي وقف ضد خالي في الانتخابات الأخيرة. ألا تذكر؟ لقد أخبرتك كل شيء عنها».

«هل كان الشخص الذي حاول خداع خالك لإزاحته عن الانتخابات عبر تزوير نتيجة التصويت؟».

«ذاك هو، كما أنه حاول زعزعة شركة بارينغتون للشحن عن طريق شراء وبيع أسهم الشركة في الأوقات الصعبة. وربما زاد الطين بلة أنه عندما تخلص منه الرئيس أخيراً، أخذت أمي مكانه في مجلس الإدارة».

«لكن ماذا يمكن أن يربط أبي بوغد كهذا؟».

«من المحتمل أنه ليس فيشر حتى، وفي هذه الحالة نكون كلانا منفعلين أكثر من اللازم».

«دعنا نأمل بأنك على حق. لكنني لأزال أعتقد أنه يجب أن نُبقي عيوننا وآذاننا مفتوحة في حال عرف واحد منا أي شيء ربما يوضح اللغز».

«فكرة جيدة. لأن الشيء الوحيد الأكيد هو أنني لا أريد أن أكون في الطرف المُعادي لأبيك».

«وحتى لو أن واحداً منا اكتشف أنه لسبب ما هناك مشاعر سيئة بين عائلتنا، فهذا لا يعني أنه يجب أن ننخرط بالأمر».

«أتفق معك تماماً»، قال سيباستيان ذلك بينما وصل عداد السرعة إلى الستين، وهي تجربة جديدة أخرى، ثم أضاف وهو ينتقل إلى المسار الخارجي كي يتجاوز ثلاث شاحنات فحم تسير وراء بعضها: «كم عدد مجموعات الكتب التي طلب منك مرشدك قراءتها بحلول بداية الفصل الدراسي؟».

«لقد أوصى بدزينة تقريباً، لكن تولد عندي انطباع أنه لا يُنتظر مني قراءتها كلها بحلول اليوم الأول من الفصل الدراسي».

«لا أعتقد أنني قرأتُ دزينة كتب في حياتي»، قال سيباستيان ذلك بينما تجاوز أولى الشاحنات، لكنه اضطر إلى الضغط على الفرامل بقوة عندما انزاح سائق الشاحنة الوسطى فجأةً نحو المسار الخارجي وبدأ

بتجاوز الشاحنة التي في المقدمة. وعندما بدأ الأمر وكان السائق سوف يتجاوز الشاحنة الأولى ويعود إلى المسار الداخلي، رأى سيباستيان في مرآته الخلفية أن الشاحنة الثالثة انزاحت أيضاً إلى المسار الخارجي. بدأت الشاحنة التي أمام سيباستيان بالسير ببطء ما مكنها من الاقتراب من مقدمة الشاحنة التي لاتزال في المسار الداخلي. تفحص سيباستيان مرآته الخلفية وبدأ يشعر بالتوتر عندما رأى أن الشاحنة التي خلفه بدأت تقترب منه.

التفت برونو للخلف ولوح بذراعيه بغضب للرجل الذي يقود الشاحنة خلفهما وهو يصرخ بهلء فيه: «ارجع للوراء!».

ما كان من السائق الذي لم تبدُ على وجهه أي تعابير، إلا الاتكاء على مقوده فقط بينما استمرت شاحنته بالاقتراب رويداً رويداً رغم أن الشاحنة التي في الأمام لم تتجاوز بعد، الشاحنة الأولى التي بقيت في المسار الداخلي.

صرخ سيباستيان وهو يضغط راحتي يديه بشدة على بوق السيارة، رغم أنه يعرف أن السائق الذي أمامه لن يكون بمقدوره سماع كلمة مما يقوله: «لأجل الله تحرك إلى الأمام!». وعندما نظر في المرآة الخلفية مرة أخرى، ارتعب عندما رأى الشاحنة التي خلفه وقد أصبحت الآن على بعد إنشات فقط من صدام سيارته الخلفي. ولا تزال الشاحنة التي أمامه لا تُسرع بما يكفي كي تعود إلى المسار الداخلي، مما يسمح ل سيباستيان بزيادة سرعته والمُضي قُدماً. كان برونو يلوح الآن بعصبية على سائق الشاحنة التي على يسارهما لكن السائق حافظ على سرعة ثابتة. لكان

بإمكانه بسهولة أن يرفع قدمه عن دواسة الوقود ويسمح لهما بالانزلاق إلى المسار الداخلي الآمن، لكنه لم ينظر ولو لمرة واحدة باتجاههما.

أحكم سيباستيان قبضته على المقود عندما لمست الشاشة التي وراه صدام السيارة الخلفي ودفعتها قليلاً للأمام، مما أدى إلى طيران لوحة أرقامها عالياً في الهواء. حاول سيباستيان التقدم مسافة قدمين أكثر، لكنه لم يستطع أن يزيد سرعته دون الاصطدام بالشاشة التي أمامه والانحشار بين الشاحنتين مثل الأكورديون.

بعد مضي عدة ثواني دُفعا إلى الأمام مرة أخرى إذ أن الشاشة التي خلفهما صدمتهما من الخلف بقوة أكثر مما جعلهما على بعد قدم واحدة من الشاشة الأمامية. وعندما صدمتهما الشاشة الخلفية للمرة الثالثة، عندها فقط خطرت على بال سيباستيان كلمات برونو، هل أنت متأكد من أنك تتخذ القرار الصائب؟ نظر إلى برونو الذي كان يتشبث الآن بلوحة القيادة بكلتا يديه.

صرخ قائلاً: «إنهما يحاولان قتلنا، لأجل الله يا سيب، افعل شيئاً!».

نظر سيباستيان بيأس إلى المسارات المتجهة جنوباً ليرى سلسلة متصلة من السيارات تتحرك في الاتجاه المعاكس.

عندما بدأت الشاشة الأولى بإبطاء سرعتها عرف أنه إذا كان لديهما أي أمل بالبقاء على قيد الحياة، فعليه أن يأخذ قراراً، وأن يأخذه بسرعة.

لقد كان مسؤول مكتب القبول هو من أسندت إليه المهمة التي لا يُحسد عليها من أجل الاتصال بوالد الصبي وإعلامه بأن ابنه قد قُتل بحادث سيارة مأساوي.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد